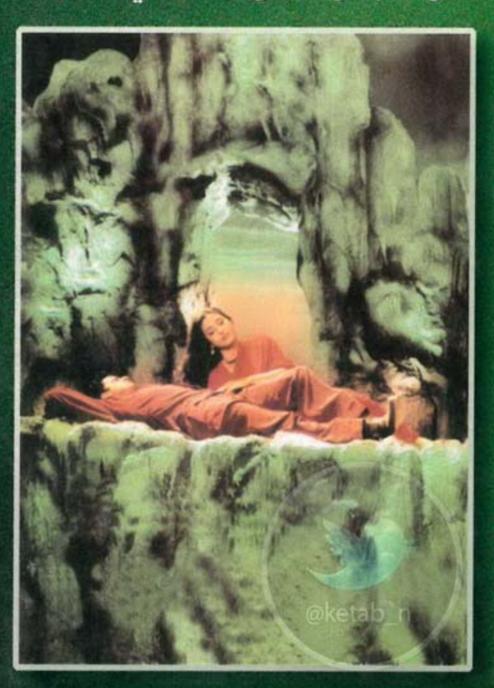
أنيسة عبّود

النَّعنعُ البرِّي

حائزة على الجائزة الأولى للرواية العربية
من المجلس الأعلى للثقافة في القاهرة



رواية

أنيسة عبّود



النَّعنعُ البرِّي

حائزة على الجائزة الأولى للرواية العربية
من المجلس الأعلى للثقافة في القاهرة

رواية


النَّعنعُ البرِّي

النعنع البري

" رواية "

أنيسة عبود

موافقة وزارة الإعلام : ٧٧٦٠٧- تاريخ ٢٠٠٤/٦/٢٣

طبعة عام ٢٠٠٤

الناشر : دار السوسن للنشر www.daralsawsan.com

دمشق - المزة - ص . ب : ٩٠٦٣

تليفاكس : ٦٦١٩٣٣٤ — ٦٦٢٣٠٢٧

توزيع

دار الحصاد - سورية - دمشق

ص . ب ٤٤٩٠ - تليفاكس ٢١٢٦٣٢٦

سنحتفل معاً..؟

ـ ١ ـ

هي ليست أكثر من نافذة.

«وحياتك» نافذة صغيرة تكفي. افتحها وقِفْ أمامها سترى العالم كله يخرج إليك، سيندلق أمامك.ويمتد من البحر إلى البحر ومن القاع إلى القاع. سترى هناك بعيداً في آخر محرق الرؤيا نقطة سوداء. تتحول.. تصير حمراء. تصير وهاجةً. تحترق. وعندما تحاول تلمسها سيفيض على وجهك الرماد. أتكون النقطة أنت؟ أم أنا؟

لا تشغل بالك في هذه الأمور. نقرة صغيرة على نافذة الدماغ ويمرّ الزمان. كخيط يمرّ؟ كرمل ينسرب من الأصابع. مضطرة أنا أن أقول لك بعض العبارات المكرورة، لأشد على بعض المعاني، ولأحفرها أكثر نحو العمق. أجل، يمر الزمان كخيط، ولكن أحياناً أشكك بكل هذه المقولات. قد يمر بشكل كروي. أو بشكل متعرج. وبدلاً من أن نسير إلى الأمام نعود إلى الوراء. أو نلتفّ التفافات كثيرة ندعي معها أننا نسير إلى الأمام. نحن نغير نقاط الارتكاز فهل نتغير؟. انظر. نحن نلتف، ننكسر، نتعرج. نبدأ ولا نصل مع ذلك نلتقي.

ـ ٢ ـ

في الحقل كنا. أخوتي وأنا وعدد من العمال «قلت لهم: هذا أبـــي. عالم ينفتح كشرنقة. عالم ميت ينفتح. ترى الحياة متجسدة بحركة واحدة. هذا أبي الذي يمرّ هنا. ركضت خلفه. ناديته. أبي. يا أبي. أريد تفاحـــة من السوق. اجلب لي تفاحة. التفت إليّ الرجل باندهـــاش ثـم أوقـف «حمارته» وانتظرني إلى أن أصل. أخي الكبير وصل أولاً. حملني بين يديه ككيس خيش صغير وقال: «عيب» هذا ليس أباك. «هذا أبي. هــذا أبي» لم يصغ إليّ أحد. منذ رحيل ذلك الحصان وعلى ظـــهره فــارس مقتول وأنا أقول هذا أبي ولم يصدقني أحد. الفارس دخل بطن الجبـــل. أو امتزج مع المطر وأنا أصابتني انشطارات عديدة.

في طريق العودة، كان الوقت ظهراً. عاد أبي وجلب لي تفاحـــة. ضمني إلى صدره و قال: أجل إنها رائحة ابنتي. صفعني أخـــي أمـــام الرجل فانهمرت دموعه وغاب بلحظة. بكيت وقلت: حاضر يا أخي. لن أناديه أبي بعد الآن.

قالوا: هذا ليس أبي. المرء يكون له أبٌ واحد. أليس كذلك؟!. أنتـم مدركون لهذه الحقيقة. ولكن أنا أخالفكم الرأي. آباء كثيرون لي.. وأنـــا نساء كثيرات. أمي أيضاً لا توافقني على ذلك مع أنها تؤكد أمام نســـاء القرية بأنها رأتني في منامها أجيء إليها عبر البحر كطيف غمامة.. ثـم يكبر الطيف ويحطّ في امرأة فاتنة. أقترب. تسألني: أين أنت ذاهبة أيتها الفتاة؟ أنا ذاهبة إلى بيت «أحمد الراوي أتعرفينه؟. ابتسمت أمي وهـزت رأســها بالإيجاب ولكن عندما رآني «برهان أدهم» سخر منّي وقـــال: وماذا ستفعلين في بيت أحمد الراوي؟ لا يوجد فيه إلا الفئران، وكلــبٌ

جوعان، ورجل له كومة أولاد. تعالي معي أنا أملك كل هذه الحقـــول. سألبسك الحرير، وسأضع فرساً تحت إمرتك. لم أرغب في الكلام إلـــى هذا الرجل المتعجرف ولكنني اضطررت للرد عليه لكثرة إلحاحه. أنــا قادمة من جزرٍ بعيدة إلى بيت أحمد الراوي. والدي قال لي: اذهبي إليه. أما إذا قابلت رجلاً أبيض الوجه ملتهب الوجنتين. متوسط القامة ويدعى «برهان أدهم» فاحذريه. قهقه الرجل بينما أمسكت بيد أمي وطلبت إليها أن تأخذني إلى بيت أحمد الراوي أمي قالت: أخذتها بيدي زهرة جميلـة إلى منزله. استقبلها استقبالاً رائعاً وعندما وضعت الطعام رفضــت أن تأكل إلا بعد أن دارت غرف المنزل ونقبت جهاته وزواياه. لم يكن فيـه إلاّ «الوجاق»وسراج الكاز. وعدة وسائد من القش. وطنـــاجر ألمنيـوم وعدة جلود لحيوانات ذبحناها في أعياد بعيدة. قالت بصوت خجلٍ: أريـد أن أبقى عندكم. دهشتُ. كيف وعلائم العزّ تظهر على محياك. قـــالت: أتوسل إليكم. أريد أن أبقى هنا في هذه القرية.

عند ذلك أدركت أمي بأنها ستلد أنثى جميلة. حددت ملامحها لأبي ولصديقاتها من الجارات. وهي تؤكد دائماً بأنها أنا، أو أنا هي. ولـــدت أمي بنتاً كانت أنا. المرأة القادمة من صوب البحر.

«الأمر عادي جداً»

«لا أعرف لماذا تصير الأمور كُلها عادية عندك»

«على كل حال، الأمور نسبية.»

«...»

الزمن لا يمشي بشكل خطي.

سأصل إلى الموعد قبل أذان الظهر. صدقني. أشـــعر باختنـــاق. العالم يتوجع في مفاصلي. ربما تستطيع أنت أن تخلصني مـــن ذلـــك. فالسنة في آخرها. ومدينة طفولتي لم أزرها منذ زمن. أحياناً لا تحتـــاج

المرأة من العالم كله إلا رجلاً تسند رأسها إلى صدره، وأحياناً هذا الرجل يضيع إلى الأبد كما ضاع حصان الفارس المقتول في بطن الزمن. لا قبر، لا شاهدة، لا جهات إلاّ السماء والأرض. نحن أطياف تتبدل وتأخذ أشكالها الجديدة مع الأزمنة الجديدة.

المدينة ترمي جدرانها في وجهي . تسدّ عليّ منافذ البحر كلها. كنت أضع العطر الناعم وأربط شعري إلى الوراء. زخّات مطر تنزل على رأسي. الكراج الذي يتوسط المدينة يكتظ بالتلاميذ والمسافرين والعربات وسندويشات الفلافل. أكياس سوداء تتطاير أمام أقدام الريح. أكياس سوداء تحلق كطيور كبيرة تجثم على صدر المدينة. أكياس بلاستيكية سوداء تملأ فسحات المدن والقرى والعلب. إنه زمن البلاستيك الأسود. أتدري؟ عندما أراه مكوماً في مطبخي أحزن. أخاف. لا أدري ما الذي يصيبني. فقط أريد أن أهرب، أو أن آخذ عود ثقاب وأبدأ بالحريق. حريق أسود. بلاستيك أسود. متى يبدأ الزمن الخيطي المشدود.؟؟

الكراج؟! تحضر فيه طفولتي دفعة واحدة. هذا الكراج الذي يوزع الشوارع الراكضة إلى الجبال والنازلة إلى البحر. البحر قريب جداً. يكفي أن تتجه إلى الغرب وتلفحك الرياح الغربية لتشم رائحة الأسماك واليود والأزمنة الهاربة في زرقة أبدية. لأعترف بأني خبأت لك قطعة شوكولاته كبيرة. فضلتها على كل الهدايا. لا بطاقة. لا ورد. هه. أنهدي الشوكولاته في عيد رأس السنة؟!. غداً يكون رأس السنة ونحن سنحتفل به اليوم. لنا طقوسنا. أنا وأنت. لنا طريقتنا المقنعة. لا يحق لنا أن نظهر معاً في الليل. المدينة ضيقة. والرؤية ضيقة. سنشرب قهوة الصباح معاً. قهوة آخر يوم في السنة، قهوة النهاية، كنهاية شارعٍ.شارع ينتهي فجأة وأنت تسير مع حبيب في مدينةٍ غريبة. أين تلتفت؟. أي اتجاه تأخذ كي لا يراك أحد؟. أو كنهاية حديقة لم يعد فيها

أشجار ترخي ظلالها عليك. تحتار أين تذهب وكيف تواري نفسك من نفسك. ليكن. سنثرثر كثيراً. فنجان قهوة واحد يكفي لثرثرة طويلة تبدأ ولا تنتهي. ثرثرة تمتد من سفر برلك إلى الوراء. الوراء حيث يبدأ حصان الفارس المقتول في الاختفاء والغياب والحضور. إلى الأمام، الأمام. حيث مقتلي آلاف المرات. وقبوري الكثيرة، وقصوري الكثيرة ودمائي الكثيرة الممتدة إلى الغرب. كبحر أمتد. ثم القرية، ثم شجرة واحدة تكفي لنلتقي. لاحظ تشابه الحروف. وتشابه الأسفار. البر ـ البراري ـ وحوش البرية.

هاأنا أشاهد وحشاً برياً الآن يا علي هاأنا أقترب منه. إنه ـ والله العظيم ـ هو. يتجول في الشارع يأكل الحشائش ويرش العطر ويمشي على البحر. إنه هو صدقني يا على وهو الذي منعني من الوصول في الموعد المحدد. لا. ليس المطر، المطر لا يمنعني: صحيح أن مطر الساحل غزير جداً فيكون الأفق مغسولاً، غاضباً. والأنهار تطوف وتفيض على السهول المجاورة. ويبدأ الوكف الذي يهبط في العيون، على الوظائف والذاكرة والقهوة. ولكن المطر حتى الآن لم يقدر أن يصنع الطوفان الذي حرق كل شيء. شيء مضحك. تذكرت أشياء حميمة جداً الآن..؟!

لماذا لا تردّ..؟! ألا تريد أن تسمعني؟

أتريد أن نفترق مثلاً؟!

«آهٍ منك. اسمعني إذاً.» خالتي أحبت رجلاً لا لكي تتزوجه، بل كي يستمعَ إليها. وأبو منصور بائع الفلافل، سألوه لماذا تزوجت امرأة أخرى؟ قال: كي تسمعني. زوجتي لا تسمع.

«الكلام حاجة»

«والمطر حاجة لخلق الطوفان»

«صحيح»

و هو لم يصنع بعد طوفاناً. «لكنه جرف قنّ دجاجات خديجة» زوجة محمد برهوم. المطر؟!!

وقد يجرف «مكدس» الحطب الذي تكومه أمي عند مدخل القرية. قد يجرف حذائي الصغير وأروح أركض وراءه عبر ساقية الماء. الساقية لاتقف وأنا لا أقنع أبداً بحفائي. ترتقص أصابعي. أشعر أنها مقصوصة بمقص البرد. أبكي. وأتكور على صخرة. أرقب الحذاء الذي يبتعد ويبتعد مع القش الطافي على سطح الماء. لا أعرف كيف غفوت. الصخرة ترتفع عالياً أمام دوامة الماء. لم أستيقظ إلا على لكزات عصا «نعامة» كانت تتفقد الخراف التي خافت عليها من طوفان الماء. هذا الطوفان يا جدتي لا يجرف إلا الخراف والأحذية والقش والأشجار المنحنية. كان لمنظر الماء الهائج والمتمرد مودة خاصة في نفسي. سألت العجوز بخوف ماذا تفعلين هنا قرب الماء؟ همهمتُ: ذهب حذائي يا جدتي، الماء سرقني. أخذ حذائي. كيف سأذهب إلى المدرسة؟ كان الحذاء أغلى شيء نملكه نحن أطفال قرية «الصفصاف» الساحلية. ربتت العجوز عِلى كتفي وقالت: لا تحزني يا ابنتي «تعيشي وتأكلي غيرها» لم يرضني جوابها. ولم أكن أعرف ما يخفيه هذا الجواب من دوران الزمن وفجاجته. لم أرد. هذه العجوز لها سطوة على القرية. سليطة اللسان هي. لا يجرؤ أحد على أن يتفوه بكلمات غير محترمة أمامها. يقال إن جدّة برهان أدهم سخرت منها مرة، قالت لها: اذهبي واستري شيبتك. حزنت العجوز نعامة. وفتحت ذراعيها إلى السماء وراحت تدعو. في الصباح وجدت جدة برهان أدهم ثيابها محروقة في الصندوق. لم يحترق الصندوق. وحدها الثياب احترقت. وكلما اشترت هذه المرأة ثوباً تستيقظ في الصباح لتجد ذيله محروقاً. أدركت المرأة خطأها. راحت تتوسل إلى الجدة نعامة.

«سامحيني يا نعامة»

«المسامح هو الله»

«أريد سماع صوتي يا نعامة. ثيابي تحترق. إني أتعرى».

«القادم أفظع»

«سامحيني أرجوك.»

«أما قلت لك؟! الله وحده الذي يسامح العباد» أنا لا أقدر شيئاً، دعوة خرجت من فمي ولا أستطيع إرجاعها. سيظل الله يحرق ثيابك إلى أبد الآبدين. ولن يسترك إلا التراب.

«أنت زعلان مني أعرف ذلك. ولكن منذ ساعة وأنا أشرح لك أموراً كثيرةً كي تعذرني، ألا تظن بأن هناك أشياء نخلقها ثم تتمرد علينا فلا نستطيع ترويضها. أنت زعلان ويحق لك أن تعبر عن زعلك. ولكن هي أمور خارجة عن إرادتي جعلتني أتأخر على الموعد، أو لا آتي إليه. فتمر السنة. يمر العمر. يمر الفارس ولا يستوقفه أحد. ولكن اسمع، أرجوك لا تضع يديك على أذنيك. أنا كنت أنزل. باتجاه بيتك بهدوء أتلمس بنظراتي الجدران التي رأيتها ذات طفولة. وذات شباب يافع. كنت أتحسس الهواء ووجوه التلاميذ، رحت أركض كي أسبق الوقت. لا أريد أن أتأخر عن المدرسة. المطر يبلل شعري. ثيابي. الشارع يتعثر بأكياس النايلون السوداء، الأكياس جرذان كبيرة تتجول في كل مكان. ينبثق من وكرٍ بعيد، وكرٍ موغل في القسوة والزمن وحشٌ يطاردني.

«لماذا لا تصدق ذلك؟»

«قد نرى إنساناً يسير في الشارع ولكن يخبئ في داخله وحشاً من الغابة» اسمع: جارنا محمد برهوم حدّث والدي عن ذئب يأكل دجاجات زوجته خديجة.

«لا يعينك ذلك؟! آ»

ولكن أريد أن أثبت لك بأن الذئاب تتجول بيننا ولا نراها. عندما ننزف حزناً أو خيبة نراها، عندما تحضر إلى الغابة ولا نرغب فيها، نراها. زوجة محمد برهوم تربي الدجاج البلدي. تبيع البيض والديوك للجيران وتخبئ ما تجمعه من مال عند أمي خوفاً من زوجها ــ والله يا أم هاشم ــ يعني أمي، محمد برهوم إذا عرف بالمال ضربني وخلصني ثمن البيض والدجاج واشترى عرقاً. إنه رجل يسكر من تعبي ومن سهري. وبعد ذلك تقسم على أمي الأيمان المغلظة على ألا تقول لأحد بأنّ مال زوجة محمد برهوم معها. تفك المرأة منديلها وتخرج منه عدة ليرات فضية تلتفت حولها وهي تمد يدها إلى أمي.

«كم صار لي عندك؟»

«ستون ليرة»

ستون ليرة يا علي في تلك الأيام تشتري عشرين غراماً من الذهب. تنهض زوجة محمد برهوم وتسرع في العودة إلى بيتها كي لا يشعر زوجها بغيابها. هي تبحث دائماً عن عذرٍ مناسب ولكنها لا تجد العذر إلا إذا كذبت وهي لا تحبّ الكذب ستقول لي لماذا كل هذا الكلام؟

أحياناً لا يعرف المرء لماذا يسرد أشياء من الذاكرة. وربما عندما يفقد البرهان على صدق إحساسه أو عندما يرفض الآن.

آ.. تذكرت الآن. الذئب راح يأكل دجاجات زوجة محمد برهوم. كل مساء تعدّ خدوج الدجاجات «خمسون دجاجة» هن أقل من ذلك. لم تكتشف النقص المريع. لا تريد أن تصدق، مع أن عدد البيض كان ينخفض، لذلك طلبت إلى زوجها أن يعدّ الدجاجات وأن يحرسها بعد صلاة العشاء. محمد برهوم شاهد الذئب. أطلق عليه النار من «جفته»، أصاب الذئب في رجله. عوى الذئب وراح يعرج باتجاه بيادر الديس التي تتكوم على مدخل القرية. ألم تقتله؟ لم اقتله يا خدوج.ولكن لن

يجرؤ على العودة. نظرت إليه متحسرة وقالت: أنت صياد فاشل. أنا يا خديجة؟!الله يسامحك. انزوت خديجة وأخذت تبكي دجاجاتها، لا معنى لحياتها دون قن الدجاج، حركية الحياة تدل عليها بيضة الدجاجة، ما توفره يدلّ على هروب الزمن منها.

كانت القرية منهمكة بإشعال قناديل الكاز، وكانت العتمة تفرش أحزمتها على فسحة الدار المرصوف بالحجارة النافرة والمسيج بأشجار التوت والمصاطب. محمد برهوم يمشي أمام المنزل، يرى شبحاً يمشي عدة خطوات باتجاهه ثم يختفي. حدق محمد برهوم جيداً. لم يجد أحداً بعد لحظات رأى الشبح نفسه أمامه. قفز محمد برهوم إلى «الجفت» حمله وراح يطلق عدة طلقات في الهواء. غاب الشبح.. أرخى محمد برهوم جسده المتوتر على الأرض.. أتكون ظلال الأشجار هي التي تتماوج بسبب رياح كانون القوية. لا.لا. هو رآه بهيئة رجلٍ طويل. غزير الشعر. حتى إنه سمع خطواته. دخل محمد برهوم منزله ونادى خدوج: أحضري العشاء يا امرأة. لم يستطع أن يأكل صرخ في وجهها. كل يوم الأكل نفسه؟! «شوربة» أو برغل بعدس. ثم «شوربة». لم ترد خدوج. شعر أن ثقلاً يركن على صدره.

«وحياتك يا أبا هاشم حاولت أن أنام فلم أقدر. قلت لخديجة: اغلي لي قليلاً من اليانسون و«الشق شقيّق» شربته كالحنظل. حاولت النوم ثانية. كنت أرى في مدخل المنزل يداً تمتد إليّ وتغيب، فتحت الباب عدة مرات لم أجد أحداً ولم أخبر خديجة بشيء. عندما سألتني: لماذا أبدو قلقاً؟ الولد في العسكرية. والبنت نائمة والدجاجات أكلهن الذئب «يا خلف الله» لكن الأمور ماشي الحال. نامي يا خدوج، نامي. أنا لست قلقاً. سأنام. غمرت نفسي في اللحاف وعند الفجر، فتحت عيني لأجد خديجة والأولاد الصغار فوق رأسي يبكون، ويقرؤون القرآن. ما الذي جرى؟ اندلعت خديجة بالبكاء. راحت تشهق كأنها مخنوقة ثم غمغمت بصوت مبحوح: طيلة الليل وأنت تصرخ وتقول: «إني أختنق، أختنق»

خلصوني. أبعدوه عني. هذا أبو عادل. أبو عادل يأكلني»

«من أبو عادل يا محمد برهوم؟» لا يوجد في القرية رجلٌ بهذا الاسم»

«لماذا لم توقظوني؟»

«أيقظناك. رششنا الماء على وجهك ولكن عبثاً. فركنا أصابعك. كنت تهذي، وترتعش. أهي بردية أم ماذا؟

«آه يا خديجة، كأنك لم تعيشي معي. ألا تعرفين الكابوس القديم الذي يطاردني؟ هذا كابوس. غداً أذهب عند الشيخ «ربيع» ليعمل لي حجاباً. أنا بخير. اذهبوا وارتاحوا.

أجل. كان أبا عادل يخيفني يا أبا هاشم. أبو عادل الذي مات منذ حرب فلسطين جاء إليّ في المنام وقال لي: «بسم الله الرحمن الرحيم» لماذا أطلقت النار على الذئب؟ هذا الذئب كان ابني. وكان رجلاً فارسلِ زوجتك رفضته عندما كانت فتية، ومرة صفعته بالحذاء لأنه حاول معها محاولة رجل مع امرأة. بعد ذلك راح يغزو في معارك نسوية، مرة يصيب ومرة يخفق. لم يترك امرأة إلا واشتهاها، عاشرها دون أن تدري، عرّاها في خياله، عرّى كل نساء القرية لذلك أصابته لعنة الشيخ «ضاهر» مزار القرية القديم غضب عليه الرب ومسخه ذئباً. لكن ما يزال يبحث مقهوراً تطارده اللعنة، إنها لعنة القرية. ابني الذئب. الملعون، الذي يتعاقب على هذه الأرض الفانية لا سبيل لحلّ لعنته، إنه يأكل دجاجات زوجتك انتقاماً.

لقد خنقني في قبري عندما أَطلقت عليه الرصاص. إنه يتعذب في الدنيا والآخرة وأنا سأخنقك الآن. سأخنقك، إني أختنق منذ عشرين سنة كلما رأيت ولدي يمر في السهول ويركض جاعلاً من الليل والبريّة مأواه. سأخنقك أو تكفّ عنه.

«حاضر يا أبو عادل»

«وأطلب إليك أن تأخذ له دجاجة إلى حقل الطيّون. أتعرفه؟ حيث أملك هناك قطعة أرض. هي بور الآن ابني ينام فيها. يشم رائحة الإنسان القديم الذي كان.. ضع له الدجاجة هناك ولا تحمل معك البارود.

«حاضر»

كان أبي ينصت. وكان محمد برهوم يبكي. لقد عذبني كثيراً يا أبا هاشم. تصور هذه البلوى، هذا الذئب الذي يعيش بيننا ولا أستطيع قتله. زوجتي لا تكفّ عن تربية الدجاج وأنا لا أكف عن حذري. هي تقول لي إنك تخاف الذئب. تخاف إطلاق النار وصوت البارود. وأنا أهزّ رأسي وأنصت. ذئاب كثيرة يا أبا هاشم تعيش بيننا وعلينا أن نستخدم حكمتنا كي نتعايش معها دون أن تؤذينا. ألا ترى ذلك؟

لم يرد والدي.

ولم يعلق بكلمة حمراء ولا صفراء.

..علي..علي. ألا تسمعني؟ كأنك لا تسمعني. لماذا لا تقول شيئاً، أما زلت غاضباً.؟ آلو.. آلو.. الأيام كثيرة. سنلتقي. وسنتشاجر. ونستعيد لحظات كثيرة. قل إن شاء الله. لماذا لا تقل؟ إذا كنت لا تصدقني فاسأل أي شخص في قريتنا. القصة حقيقية. لم يكن محمد برهوم مجنوناً ولا مريضاً. الرجل معروف في القرية وأبو عادل معروف في القرية المجاورة. وهو فعلاً مات في حرب فلسطين. وترك أولاداً و بناتاً، أحدهم كان حرامياً وكان لا يرعوي عن فعل أي شيء. القرية تقول: إن الله مسخه كلباً. وآخرون يقولون مسخ ذئباً. وأنا أقول إن هناك ذئاباً تتقمص هيئة البشر وتمشي في الشارع مثل بائع البقدونس.

«ابن الكلب»

«لا ابن الوحش»

هي قصة مؤلمة.

أتعرف؟

أحياناً على الواحد منّا إيجاد الأعذار للآخر كي تستمر مسيرة اللقاء. هناك أشياء تخرج عن إرادة المرء.

هذه الذاكرة اللعينة. الذاكرة التي لا تتعب من بث الإشارات إلى الحاضر وإلى المستقبل. إنه القادم الموجع المنبثق في الماوراء. هذه الذئاب التي تركض عبر الأسلاك وعبر الطرقات تتبعني. ألو.. لنفترق الآن. أظنه من الأفضل. عندما تشعر بالحاجة كي تنصت إليّ و إلى نفسك اتصل بي، أقدّر ما سببته لك من أذى، لن أعتذر، أجد الاعتذار ضعفاً في بعض الأحيان. ونفاقاً في أحيانٍ كثيرة. آه.. رأسي يؤلمني، الكلب بائع البقدونس رأيته بالصدفة، عشرون سنة مرت تقريباً، عشرون ذاكرة مفتوقة. عشرون قميص نشقه ونخرج منه وقميص الرحم يطاردنا أو نحن نطارده. لا أعرف. علي.. سأتخيل أنك انتظرتني ورششت العطر على يديك، ووضعت باقة ورد بري. وأشياء كثيرة و..أشياء صغيرة جداً يمكنني تصورها وأنت تنتظرني وأنا لم أجئ يالي من امرأة لا مبالية. أليس كذلك. لا أنا لست كذلك. عندما نلتقي في المقهى البحري سأخبرك أشياء كثيرة عني، أشياء لا نعرفها. عليك أن تعرف أشياء عني تتجاوز عطري. ولون «الروج»الذي أفضله، ونوع الكتب التي أقرؤها. هناك أشياء كنثرات الغبار تتراكم وتكون شخصيتنا. مشتاقة لسماع قصائدك. ياه.. ثرثارة أنا، أأغلق الهاتف؟.

ـ لا

ـ إذاً أنت تسمعني.

ربما كان بائع البقدونس هو السبب. أنت تصدق أن الإنسان ينقلب إلى ذئب ولكن لماذا لا تصدق العكس. مرة حدثتني أيضاً عن ذئاب صغيرة تعيش في زوايا الأماكن المظلمة. من النفس. من المدينة قل شيئاً. لماذا تصمت؟

ـ الصمت أحياناً موقف.

ـ ولكنه موقف ضعيف.

ـ هذا ما يمكنني فعله. ما الفائدة من الصراخ إذا كان لا يغير شيئاً؟.

ـ على الأقل يزيح الصخرة التي على القلب.

ـ بل يزيدها ثقلاً عندما لا يعصف الصراخ بالهشيم اليابس.

أنت تشغلين الروح بهشيمك. تأخرك. غيابك. مبرراتك.. أتريدين أن تلعبي بي؟!

ـ أنا؟

ـ أنت تعرفين أني أحبك بل...

ـ قل..قلها..

ـ الآن لا أقدر. ارتباك مواعيدك يربكني. يزرع الرمل في روحي. ألا يكفي ما يجول في صدورنا من خراب وما يركض حولنا من سراب؟!. أتأتين أنت وتصبين عليه خراباً آخر؟!. اتصلي على الأقل. قولي: ألو.. علي.يا هذا المصلوب..أنا لن آتي اليوم: أم تريدين أن أظل في انتظارك إلى الأبد. كم أنت شريرة!.

«أنا؟!» تقول لي أنا شريرة؟!.

«أرجوك لا «تزعلي». ولكن لأعترف. بأني حزين وبائس. لقد سهرت الليل بطوله. أحلم بساعة لقائنا.كنت أفكر ما أصنع بالمنزل حتى يليق بقدوم ملكة.

«ملكة؟»

«(ملكة أنا عبر أزمنة ولكنهم دائماً يحاولون سرقة تاجي. أتفهمني)»

«أتسمعينني؟»

«أجل. فقط كنت أحدث نفسي بأشياء غامضة»

فكرت بنقل المنزل من هنا. من هذا الحي البسيط. أطير به إلى حي القلعة حيث القصور الشاهقة. وحيث المكان يليق بك. ولكن تراجعت لأن أجور النقل غالية. ولأن التضاد سيكون كبيراً جداً. «اضحكي معي» وربما سيشعر المنزل بالحزن لأني فصلته عن جذوره وجيرانه. للمكان ذاكرة يا عليا. كالإنسان تماماً. ألا توافقين؟ اشربي قهوة لأشعر بأنك معي. حزنك طاغ. أيكون عتابي هو السبب أم أنه حالة احتجاج ورفض. ربما أنا سبب كل هذا الحزن.

«لا»

«شخص آخر إذاً»

«لا .. ربما أزمنة أخرى. أو امرأة أخرى غيري. دخلت ثيابي عنوة وتقمصتني. أطيافي الأخرى وظلالي القديمة. وربما ذاكرة المكان الذي تتحدث عنه. أو المكان الذي كان في أعماقنا وهرب. هربت الأمكنة الحميمة منا فهرب صوتنا الدافئ. وهرب وجهنا المشجر بالحبق إنها ضربة الآن. الضربة الموجهة إلى الجوهر. العالم غارق في إذابة الفوارق بين المهزوم والمنتصر. بين المرأة والرجل. بين القديم والجديد. أشياء كثيرة. خوف. شجاعة. حرية ــ انحراف. بين من يملك

نفسه أو يملك غيره. إنها اشتراكية جديدة. إذابة الفوارق هذه تحزنني. أفقد تاجي كملكة. السيف القاتل. والسيف المغلوب.. كلاهما معلق على الجدار. عبور يا صديقي. عبور نحو اللاشيء والفارس المقتول مربوط على ظهر حصانه يبتعد عن الخلق ويدخل في بطن الجبل. نساؤه يبكين. وحدها المرأة لا تريد هذه اللاحدود. عندما نلتقي غداً ستجد وجهي مشجراً بالإسمنت والقصور. وجهي غريب. لا أحد يعرفني في المدينة مع أنها مدينتي. صديق أبي القديم مر ولا يعرفني. أولاده لا يعرفونني. الطرقات القديمة التي كنت أعرفها. لماذا لم تعد الأمكنة الجديدة حميمية؟ ها أنا أذهب كل يوم إلى عملي في شارع إسمنتي لا تميزه شجرة لوز ولا شجرة توت، لا يوجد أسماء لنا على شجرة دلب مخدوشة الساق. ولا حبقة على نافذة. أأكون أنا يا علي أم امرأة أخرى هذه التي تقودني وتركض بي. أحياناً استوقفها أهرب منها إلى أماكن بعيدة أبحث عنها، أغني. أو أبكي.

«طيب»

سأهرب منك الآن. لست مستعدة لحزن جديد. نلتقي غداً أو بعد غدٍ. أو نكتب خيباتنا على دفاترنا نسميها مذكرات. لن نطلع عليها. لا وقت لدينا. وعندما سيطلع عليها أولادنا سيتنكرون ذلك علينا. يا للحماقة. آباؤنا يحلمون؟!! ثم يمزقون كل شيء ليبدؤوا حلماً آخر.

متعبة أنا.

إلى اللقاء.

«حبيبتي»

ـ أ ـ

ورود على الطاولة.

شراب في الكؤوس. زجاجة عطر مغلفة بأوراق ملونة. أبيات شعر من آخر قصيدة كتبها. يا لهذا الشاعر البائس، ينتظر حبيبته. وحبيبته مشغولة بقصّ أظافرها. أو ربما بأمر أهم. لا أدري. هذا البائس هو أنا. رتبت الشموع. قلت وأنا أملأ المنزل همساً: سنحتفل بنهاية العام معاً لنبدأ زمناً جديداً معاً. قد تكون البداية أروع. كلما تساقطت ورقة توت على الباب أشعر بهمس يدخل. بدهشةٍ تقرع عليّ سكوني. أنتِ، أنت القادمة أبداً، وعندما تحركت قطة الجيران في الشرفة قلت: أنت. هكذا كل حركة. أستجدي كل حركة لتكون حركتك. وحين مالت الشمس نحو غروب يكرر ذاته أبداً لم أفقد الأمل. لا بد أن تأتي. ألا تحبين الدقة، والكلمة الدقيقة؟ وأحضرت لك أغنية لأم كلثوم. وأشرطة كاسيت لعبد الوهاب. وبصراحة أحضرت بعض الأشرطة الراقصة. الأشرطة التي نسميها «سوقية» كي نهز أرجلنا قليلاً. نهز أجسادنا. ربما تتحرك الملائكة. أو العفاريت التي في داخلنا. لكن الشمس بدأت تهبط إلى البحر. وشجرة الكينا المجاورة للنافذة راحت تصفق بأوراقها القاسية شامتة بي. حاولت أن أكتب لم أستطع. ماتت شياطين الشعر مرة واحدة. حزنت لأن شرر الوقت لم يوقظ شرر الكلمة. أريد أن أحرقك بقصيدتي، أيتها الأميرة، تبلّد ذهني. وغامت ذاكرتي ثم راحت تتلذذ بمسخي آلاف المرات. كان المنزل يضيق عليّ، وثيابي تضيق. أشعلت الشموع. وملأت كأس البيرة. لكن عبثاً.. رغوة البيرة المتجمعة تذكرني بكلماتك القديمة..المرء يطفو لحظة فيظن أنه الأعلى. الأكبر. وسرعان ما يتلاشى كالزبد.. هكذا تستمر الحياة. هكذا أستمر في تخيلك

والجدران تشرئب في وجهي وتمدّ أصابعها لتخنقني. خرجت إلى الشرفة كانت رياح كانون تلسعني، رياح شمالية قادمة من جبل الأقرع. ترمي ثلوجها وتغادرني إليك. كنت أراها تركض باتجاهك وحدك. قلت: هناك في هذه النقطة الزرقاء الغامضة، هناك شجرة سنديان أو شجيرة زيزفون مليئة بالشوك. تستظل بها امرأة من رائحة الجنة، من رائحة النار. امرأة تلغي كل شيء عندما تحضر.

تمنيت أن أنمسخ طائراً على طريقتك. أقتحم ضباب البرد وأطير. أطير إليك. أقصّف شوكك وأعود بك.

«ستدمى أصابعك»

«فقط أصابعي؟!»

أنت هكذا.. تهربين إلى كلمات باردة وإلى لغة ثقيلة على الصدر. مفردات اللغة عندما لا نتعارك معها تموت. لم تقدري لحظة ما أكنّه لك. أرجوك لا تعيدي الأسطوانة نفسها، ـ لا أومن بالحب ـ أو لا أثق بالزمن.

«أريد شاي بالقرفة»

«وأنا كذلك»

«انظر..البحر..».

«..حبيبتي»

أنا أحبك. وأنت ترتاحين لي. أتقولين لا؟. لا أعرف لماذا تخيلتك مع سامي. هذا الشاب الأنيق جداً. منذ أن رأيته تصورتك بين ذراعيه. هذه الحالة تشعرني بالهزيمة في معركة غير متكافئة. وتخيلتك تضحكين وتقصين عليه قصص الماورائيات. كعادتك. وتخيلته يضحك فيجرحني بالسكاكين وهو يقدم لك البندق المملح وأنت تروين له بصوتٍ هادئ مقنع قصة أم سلمان التي نطحها الثور. أم سلمان العجوز، وكيف أخذ

زوجها الثور إلى الحقل وراح يحرث عليه طيلة النهار إلى أن غـــابت الشمس. تعب الثور ولم يتعب الزوج المقهور وعندما أعاده إلى الزريبة ربطه وراح يضربه بعصا غليظة. يجلده. يجلده. أصوات مشبعة بـالألم إلى أن انهار الثور على الأرض وأخذ يشخر والعرق يتفصّد منه ولـولا أم سلمان لما تركه. قالت له: اتركه يا أبا سلمان. إنه حيوان لا يفـــهم. ولكن تبين أن الحيوانات تفهم فما إن نام أبو سلمان حتى حلـــم بـالثور يعتذر ويقول له: ألِإلى هذا الحد تضربني دون أن تعرفني؟ أنـــا بـهجت الزيتون.. في عصرٍ ما.. زمنٍ ما.. كنت زوجاً لامرأتك.. ولقد أهانتني كثيراً. وذلتني. فذبحتها. انظر آثار السكين في رقبتها. والآن أريـــد أن أذبحها ثانية. وثالثة. بقرني. أرفسها. لمـــاذا خلّصتـــها. أهنتنـــي أنـت وضربتني. كنت سأزهق روحها، وليمسخني الله أكثر. في اليوم التـــالي رأى أبو سلمان دموعاً على زوايا عيني الثور، حزن ورفض شـــاي أم سلمان. أترين كيف أحفظ قصصك التي لا أعرف إلى أي شيء ترميـن. هل هي البديل لكليلة ودمنة..؟! هذه اللحظة. اســـتعدتك مـــع ســامي. تتحدثين إليه. وسامي يضحك. وأنت تقشرين البندق. وتطعمينه. وهـــو يمسك يديك. ثم يتلمس شعرك. أو يطوقك، مقبلاً نحرك وهو يقول: كـل عام وأنت بخير. كانت خيالات الشموع تتراقص. وخيالاتك تـــتراكض أمام عيني. أي امرأة أنت؟!! الوجوه تتراكم في قعر الكؤوس المصفوفـة أمامي. لم أتمالك إلا أن أكسر هذه الكؤوس. كنـــت أكســـر خيــالاتك. سامي. اللحظة القاتلة. لحظة الذوبان. الفوارق. كنت أمتلكـــك وكنـت تفرين فأخرج إلى فسحة الدار. عندما تسألني جارتنا الدخول أرتبك. يـا أستاذ تفضل. شكراً انتظر ضيوفاً. لم يكن الضيوف سوى أنت. ولم تكن السنة الجديدة إلاّك. ولم يكن لأي امرأة القدرة على انتزاعي من عبـاءة الكآبة ودفعي إلى سهول الإلهام والفرح. أنت وحدك القادرة. مع ذلك..

كان الليل ثقيلاً.

والموعد المهزوم ينتصر عليّ. وغيابك ينتصر علــــى ضيـاعي

الطويل الطويل. رحت أفتح الباب وأغلقه كل لحظة وأقول: ماذا لو كانت الآن وراء الباب ماذا لو نقرت بأصابعها على النافذة. ماذا لو مرّرت وردة بهدوء على زجاج النافذة؟ ولكن ربما ضيعت المنزل، ربما ضيعت طريقة الوصول إلى بيتي.. لا. عليها أن تتصل وأنا علي أن أهرع بكل لهفة السنين التي ضاعت من عمري. منذ المرأة الأولى إلى المرأة الأولى البعد.. الآن. هي تختبئ وراء النافذة. هي أطياف. وأنا أنتظر أي طيف. الحار. البارد. الجارح. الحنون. أي طيف. امرأة من نور. امرأة من شوك. ولكن عبثاً. أشعر أنك تتقصدين ذلك لتستمتعي بأشلائي. حطامي الكثير. ولتعززي ثقتك بأنوثتك وحضورك. أتظنينني وحشاً؟. ربما أخاف تأويلاتك الجديدة للأشياء. ما معنى ألا تأتي بعد أن تؤكدي المجيء؟ لم يكن لدي القدرة على التخيل المقهور أكثر. الباب يقرع. أشلاء وريح تدخل من حواف النافذة. الستارة تهتز. صوت الرعد العاصف يقطع السكون. عتمة. مطر والساعة العاشرة ليلاً. نهاية وبدء يمتزجان بعد وقت قليل لتخرج أسئلة جديدة من رحم المفاجآت. كنت مستعداً أدرب ذراعي لاحتضانك. وكنت أتوق لشم عطرك. مازلت أنتظر. أضحك على نفسي بالانتظار بينما يلقي كانون بكل قتامته على المدينة.

«هاهي صفعة جديدة يا علي. من الحياة أم من المرأة التي أحببت حتى الجنون.علي.. ما بك؟!

هذه المرأة ليست لك. وأنت لست ابن هذه الحقبة من الزمن.

كان عليك أن تعود إلى قريتك. ألم تقل أمك ذلك؟!

كان عليك أن تصير شاعراً تركض في زقاقات الكلام، شاهراً غضبك وحنينك وأشلاءك على الملأ.

ما هذه الهواجس.؟!

«ابتعد عني.. لا أريد أن أخاطب أحداً. أريد أن أركض في البرية

مثل كلب مسعور لأبتعد عني. أكاد أصدق عليا. هل أنا أحرّك مصيري أم مصيري المجهول يحركني. لماذا التقيتها؟ أجل لماذا التقيتك يا امرأة من ورد ونار؟ رحت أمشي عبر الشوارع الهابطة والنازلة. اتجهت صوب البحر. هو وحده القادر على احتواء أشلائي وخيبتي. منذ الأزل هذا الأزرق الصاخب، الهادئ يكتم أسرار البشرية ولا يبوح. ولا يحزن. حيادي كالأبد. كان الموج صاخباً. وكان صوت الريح المصطك بالصخور يبعث الشعور بالخوف والوحشة. اصطدمت نظراتي بشبحين بعيدين. ابتعدا في العتة. صارا كنقطتين. اندمجتا.. كرتان متعانقتان. شعرت بحنين جارف إليك. وشعرت بالحقد أيضاً عليك. فتحت يديّ كأني أريد احتضانك. اعتصارك. لم أجد في يدي عطرك. ولا شعرك الذي أودّ أن أعبث به. أذروه في كل اتجاه كأني أذرو النساء جميعاً. قلت إنها هي. عليا. امرأة أخرى. امرأة غير التي أحبها. لم تأتِ. تسمرت مكاني على الشطّ أرقب النقطتين المتعانقتين. تكبران. تقتربان. تنفرجان عن رجل وامرأة. يا لجنون اللقاء. برد. مطر. هاهو المطر العاصف يبدأ. المطر ينقر زجاج وجهي كأنها أناملك. الباردة. أريد أن أبكي ولكن لماذا؟. هل عليّ أن أبكي لأحتجّ على المصير. عليك. عليّ..؟ الرياح تشتد. تعوي وتلفّ الحارات.. الموج يرتفع، الرذاذ المالح يتناثر على جسدي. الشاطئ خالٍ والنوافذ مضاءة.

وراء كل نافذة حكاية. تحت كل مصباح موعد. اثنان يفترشان طاولة رأس السنة.. يفترشان أحلامهما. كؤوسهما. دفء وموسيقى وأنا وحدي أتسكع على بساط البرد. أجّرر خيباتي مهزوماً. إنها الهزيمة العاشرة. قولي أكثر. أكثر من ذلك. المرة الأولى يوم ولدتني أمي وألقتني إلى حطب الحياة أحترق في بيت صغير يكتظ بالفقر واللعب القماشية المحشوة بالقطن ووسائد القش التي أنام عليها. والهزيمة الثانية يوم مات أبي. أجل مات أبي منذ زمن بعيد. موغل في القدم.

«أنت بلا أب يا علي»

أهزّ رأسي بلا مبالاة. ألعب وأتسلق شجرة التين وأصطاد العصافير «بالنقيفة». عندما ذهبت إلى المدرسة لأول مرة شعرت بالخوف والوحشية.. قال المعلم: ادخل يا بني إلى الصفّ.

صرت أبكي. لا أريد الدخول إلى عالم مجهول. شعرت بالخوف والوحدة. هذه الوجوه الصغيرة مخيفة. وهذا الأستاذ يحمل عصا. بالتأكيد هي لجلدي وحدي. كنت أخاف المقاعد المرصوفة والوجوه الصارمة. وما إن بدأت أتأقلم مع المكان. أمتد إليه. حتى صرخ طفل وقال: أستاذ هذا ضربني. نظرت حولي مندهشاً أبُحث عن الذي ضربه. الذي هو أنا. مستحيل..لم أضربه. لكن لساني كان مهزوماً. لم أجرؤ أن أقول لا ولا أن أقول نعم.. طأطأت رأسي. وراحت دمعة تختفي بين الأهداب. تكورت على المقعد.

«لماذا ضربته»

لماذا ضربته؟! سأل الأستاذ غاضباً.. لماذا ضربته يا ولد. لم أرد حملت حقيبتي وخرجت. لا أريد المدرسة. أريد الذهاب إلى أمي. لكن الأستاذ منعني..الدخول بإرادتك. الخروج بإرادتهم. وقد يكون كل شيء بإرادتهم. تقدم إليّ الأستاذ وقال صارخاً بوجهي: «اقعد اقعد ولاك»

جلست على المقعد أرتعش فاقترب الأستاذ مني وبيده عصاه يهزها. «لم أسألك عن أمك» ـ أولاد نور ـ لا. أنا ابن فاطمة».

«ما اسم والدك» اسم والدي إبراهيم يا أستاذ. اقترب الأستاذ مني لدرجة أني شعرت بأنه يريد ابتلاعي. قرص أذني وقال «والنِّعم»

بسخرية قالها!! بقسوة قالها. بكل هذه الأشياء التي تتمّل الجسد قالها. الشاطئ بعيد في وحدته. برودته. صخوره النافرة. المتحركة تحت الموج الواقف كشياطين. الشاطئ وذاكرتي ينفتح الآن بعضهماعلى بعض لتخرج امرأة من الزبد. تحضر وتغيب. المدينة مختبئة وأنا أتلمس أذني التي قرصها الأستاذ وقرصها البرد. النقطتان تصيران

عاشقين. رجل وامرأة، رجل يعانق امرأة.. أمام العاصفة. متحديا البرد. شاهراً شوقه في وجه العتمة. رجل وامرأة لا تتسع لهما المدينة المكورة على أجدادها وعباءاتها وخيولها المتعبة. رجل وامرأة لا تتسع لهما غرفة ونافذة وشرفة. ياه كم هو العالم ضيق وخانق. هما يعبران عن لحظة إنسانية.. وأنت يا عليا عبرت عن لحظة انسحاقٍ للمستقبل. أنت هو. هو أستاذي الآن... الذي قرص أذني أول لحظة عن ذنب لم أقترفه.

«أنا ضربتك ولاه؟»

«أجل أنت ضربتني. ما الذي وخزني في نقرتي إذاً؟»

هكذا عند «الصرفة» وقفت على الباب أنتظر خروج الصبي المدلل. تبعته وعند المنعطف رحت أكيل له الضربات. راح يبكي وأنا رحت أركض. أسابق الطريق.. ظننت أنه سيقول للأستاذ لذلك لم أذهب إلى المدرسة في اليوم التالي أوهمت أمي بأني مريض، فحملت إليّ الحليب إلى الفراش المشلوح على سرير خشبي يأكل فيه العث وينخر في رأسي وعندما لم أنهض من السرير حملت إليّ الزبدة وأجبرتني على تناول الطعام، في اليوم الثالث أرسل الاستاذ في طلبي: لن أذهب إلى المدرسة يا أمي.

«ستذهب»

«لن أذهب وحياة الرسول»

هربت من أمي. ولكن بعد ساعات أرسل إليّ الأستاذ «درك المدرسة» قيدوني وأخذوني.. جرّوني مثل جروٍ. نظرت أمي بحزن دفين. لكنها لم تظهر دمعتها، أمي لا تبكي أمام أحد. تخبئ دموعها، تظن أن الدمع سلاح الضعفاء. الدمع سلاح المقهورين الذين لايقدرون أن يخلخلوا الواقع مع أنهم يحسوّن به ويتألمون. سألني الأستاذ «أبوك ميت؟!»

«أجل»

هكذا رددت أمام الأستاذ. حدق الأستاذ في وجهي طويلاً ثم قال: اذهب إلى مقعدك. لم أكن أدرك معنى الموت. ولم أكن أعرف أنه الشيء الحقيقي الوحيد الذي يمكن أن يكون. ولم أفهم هذا الصراخ من أمي. ولماذا تشق ثوبها. كنت ألعب قليلاً ثم أعود إلى حضنها أحدق في الرجل المستلقي أمامي. قالوا لي قبّله..هذا والدك. أ أقبل السكون؟! إنه لا يتحرك. قبّله. إنه والدك. رفعوا الغطاء عن وجهي وقرّبوني منه. أردت أن أهرب. قبّله. قبلته. وهربت شعرت أني أبوس حجراً بارداً. آه. البرد. البرد يأكل مفاصلي منذ تلك اللحظة وحتى هذه اللحظة المستطيلة على شاطئ مهجور. حاولت أن ألعب بعد تلك القبلة فلم أقدر. أريد أن أبكي أيضاً ولا أقدر. سألت أمي: لماذا تبكين يا أمي؟. ربما لأني رأيته منذ أيام يضربها. ويشتم والدها، أو ربما لأني رأيته مرة يفترشها كحصيرة دون أن أدري ما لذي يدعوها للصمت. تمنيت أن أضربه. ومرة رأيته يشد شعر أمي بقوة ويضرب رأسها بالجدار وبعد أن أنهكه الغضب وضع رقبة أمي تحت قدمه وهو يصرخ كالمسعور.

«سأذبحك»

صرخت وأخذت أبكي. ثم حملت عصا صغيرة ورحت أضرب أبي. ياللنذالة. أنا أضرب أبي؟!

رذاذ الموج يصفع وجهي. رذاذ الزمن. صرخة أمي المقهورة تأتي عبر هذا المدى السحيق وتوقظني. لماذا أنا هنا؟! عندما نكبر نقطع حبل السرّة إلى الأبد مع أسباب وجودنا في الحياة.

رائحة اليود البحري تملأ المكان. رائحة التيارات الجديدة التي تصبغ مستقبلنا وتعفنه وتترك ثغوراً في جلدة الحياة.

العاشقان يتجاوزان مكاني. أشعر بالاكتئاب. أيكون رأسك الآن على صدر سامي؟ ربما هذا ليس سامي. قد يكون شخصاً آخر..ربما

يحاول أن يشدك من شعرك مثل أبي؟. كان يمكن أن نشرب القهوة معاً. أو أن أكون في وداعك الآن. كان يمكن أن أرشك بالورد والقصائد. آه متعب. أود الجلوس. الاستلقاء. التكور أمام خيوط المطر والبرد. والدي ممدد أمامي على الحصير. أكاد أختنق من أنفاس النسوة الغارقات في السواد. أين زجاجة العطر؟ رشوا العطر. يرشون العطر. فأغطس وأشعر بزكام يثقل على أنفي.

كان الليل قد هبط على بيتنا وحده دون خلق الله. أمي تمسح وجهها بطرف ثوبها الأسود المتدلي حتى الكاحل وتقول لي: اسكت يا ولد. لا تعطس. فأسكت هكذا الله خلقني مطيعاً. لاأحب الثرثرة. واحد آخر هو الذي يسرد الآن تفاصيله القاتلة. لا أحد يهتم الآن بالتفاصيل، اختصر يا أخي، اختصر.

«أتحبني؟»

كم أشعر بلذة السؤال وأنت تطرحينه عليّ. مرة. مرات. الحب هو الذي جعلني في دوامة هذا العصف. كانون..والسنة في آخرها. والعمر يلفظ أنفاسه وأنا لدي الكثير من القصائد لأقولها لك. وأنت امرأة أخرى. غير التي ذبحها زوجها. غير أمي. غير خالتي المسكينة التي باعوها، خالتي هدبا. امرأة أخرى أنت. أكرهك الآن. كم أكرهك. الكره عاطفة محترمة. أليس كذلك؟.. هذه الماورائيات التي تحدثينني بها أخذت تقضّ ذاكرتي. كنت أعتبرها مجرد ذاكرة متعبة. أتراها حقيقية؟ خالتي هدبا لا تؤمن بذلك. وأمي التي تقول الزجل وتملأ بمواويلها آذان القرية لا تؤمن بذلك. إنها تضع اللوم. كل اللوم على جدي الذي باع خالتي بحفنة من الذهب.

قلنا لخالتي الجميلة «جوبي الأرض. كوني الذهب فقط»

أمي اعترضت. بكيت أنا. قالت أمي اسكت. فسكتّ. هكذا خلقني الله مطيعاً لا أحب المعاندة. ولا أكثر من الأسئلة. ولا يهمني إلا أن أملأ

بطني بالطعام والحلوى وأركض بين الحقول أصطاد بين الحقول أصطاد الفراشات والعصافير المسجونة في قفص معلق إلى شجرة التين الشامخة أمام منزلنا.

جدتي قالت لأمي.

ابنك أبله يا فاطمة.

اغرورقت عينا أمي بالدموع وفكّت منديلها الأبيض ولم تقل شيئاً. ولكنها عندما رأتني ذات مرة أحفر اسمي على شجرة التين زغردت. وجاءت تربت على كتفي وشعري الأشعث وتمسح يدي المغبرتين. وعلى رقبتي المثقبة من عضّ البراغيث. «اقتنص الأيام» همست في أذني. لم أفهم شيئاً.. مرّ العم صالح. ربت على كتفي ومضى.

سألتني معلمة الموسيقا الجديدة ما اسمك؟!

«اسمي علّوش»

ما اسم أمك؟.

ـ فاطمة. جدتي تناديها فطّومة.

ـ والدك؟!

لم أتذكر اسم والدي. كنت قد نسيته. بل أنا الذي أراد أن ينساه. القبلة الباردة على الحجر البارد. لم أكن أرغب أن أستذكر رائحة ذلك العطر ولا رائحة تلك اللحظات خاصة وأنهم في القرية ينادونني دائماً يا ولد. وكنت أرد. أخفضت رأسي بحزن. كلهم عندهم آباء دافئون إلا أنا. لأول مرة شعرت أني بحاجة لأب أركب على ظهره. يصفعني أهرب منه لأنه يتحرك لا لأنه ساكن، جامد. ربتت الآنسة على كتفي، فنظرت إليها وقلت: والدي مات يا آنسة. اكفهر وجه المعلمة. رأيت اندهاشة حزن في عينيها. وعندما عدت إلى المنزل سألت أمي عن سبب بكاء الآنسة وهي لا تعرفني. فقالت أمي: لأنك بلا أب. والأب يعني الستر.

«ما معنى الستر يا أمي»

«ألا يكون رأس أمك مكشوفاً وظهر أخوتك عارياً.»

أقسم أني لم أفهم. وما فكرت أكثر من أن آخذ من أمي ربع لـيرة لأشتري قطعة حلوى. أخذت النقود إلى بيت عمي ورحت أتفرج على الشباب المجتمعين على السطح وأمامهم برميل مملوء بالقمح المسلوق، المجفف، يرشونه بالماء، ثم يأخذون في ضربة بأدوات خشبية خاصة تدعى «الميجنة» لتنفصل القشرة عن الحبوب. الصبايا ينقلن الماء والأمهات يطبخن برغل بعدس، أو شوربة العدس. أو القمح المتبل باللبن. ويخبزن أقراص السمسم على التنور. وأنا أكاد أروح في الأرجل المسرعة. هذا يقول: ابتعد يا ولد. وذاك يقول: انقلع يا علوش. وثالث يقول: حرام إنه بلا أب. ابنة عمي التي كان يغازلها أحد الشباب وراء الجدار أعطتني قطعة حلوى وقالت: اذهب من هنا يا شاطر.

هكذا إذن..

حرام لأني بلا أب. ظهري عار. ورأس أمي مكشوف. والشعر عورة. أمي قالت ذلك، وأنا أحترم كلام أمي. قالت: رأسي مكشوف مذ مات والدكم. مع أنها تضع منديلاً حريرياً على رأسها كلفها كل ورق التوت في القرية. نظرت إليها باستغراب ثم ركضت باتجاه محطة البوسطة. رأيت ركاباً يصعدون وركاباً يعودون. فكرت أن أركب البوسطة وأذهب إلى حيث يقولون المدينة. ولكن للأسف اشتريت بربع الليرة حلوى وكعب الغزال. تلمست جيوبي فشعرت بالقهر والوحدة. رحت أدندن أغنية كانت أمي تغنيها وهي تخضّ اللبن في الصباحات الباكرة. لا أحد يدري لماذا تخيلت أبي عائداً مع المسافرين. وقفت طويلاً أتأمل السائق وهو يغير عجلة البوسطة الأمامية. كانت أصابعي تنغرس في التراب. كأني أغرس نفسي. أو أزرع أسئلة كثيرة تتقافز إلى رأسي. لماذا يموت الآباء. أو يسافر الآباء؟! أهو الموت يعني

السفر؟! جدتي تقول أبوك سافر. لم أشعر أن الوقت يمر، وأن الغروب بدأ يتكوم في الطرقات حتى نهرني السائق قائلاً: «ما إلك أهل يا ولد؟». ارتجفت وشعرت بالخوف. كان الندى الخريفي يتساقط بارداً. أمي قالت: لا تقترب من الغرباء. لا تثق بأحد. قد يخطفونك يا علوش «أولاد الحرام كثر. والسكة تأخذ وتجيب» لا نعرف من يعبرها ولا من يأتي عليها.

«السكة هي الغامض المجهول يا عليا»..السكة هذا الانتظار المخيف القاتل على شاطئ مليئ بمذابح السنين.شعرت أن أمي تناديني. خلعت صندلاً مقطوعاً، حملته وركضت. ناداني السائق. ركضت. الغبار يتبعني. لا أجرؤ على الالتفات إلى الوراء. أركض وأردد في سرّي. هل لي أهل؟! العم صالح قال لي: القرية كلها أهلك. أجل. لي أهل. أنا الولد المبعوج كالدولاب، لي أهل. دخلت بيتنا كأني أدخل الزربية. تملكني شعور بأني منبوذ وتافه. سألتني أمي ما بك؟ فقلت لها: ظهري مكسور يا أماه. «يا ويل أمك» مسحت على رأسي وشهقت. ثم نظرت حولها. وصوتها يكاد لا يخرج أبعد من شفتيها. أنت رجل يا علوش. شدتني إلى حضنها. أنت رجل المنزل يا ولدي. قالت أمي و هي تلملم بعض الحروف التي يصعب عليها لملمتها. تحاملت على شتاتها وقالت: لو أنك عدت باكراً كنا ذهبنا عند العصر إلى «المحفارة» لقد اقترب الخريف يا بني وعلينا أن نجدد طين الجدران وأرض المنزل. وندحل السطح حتى لا يفاجئنا الوكف. لم أرد. نظرت إلى أخوتي الصغار ولم أقل شيئاً. صبي وبنتان صغيرتان. وجدتي. أدرت ظهري ورحت أحاول حفظ قصيدة لأبي نواس كتبها لي العم صالح ولكن الوكف يا عليا فاجأنا.

دحرجت الصخرة الأسطوانية كثيراً على أيامنا كي لا يكون سطح علاقتنا مشروخاً. للأسف. لم أستطع سدّ الثغور التي راح الماء ينزّ منها ويخرّب السدود كلها. السدود التي حاولت بناءها. بكل بساطة كان

بإمكانك أن تقولي أنا لا أقدر أن آتي إليك صباح ذلك اليوم. كنت وفرت عليَّ البحث عنك في نهاية اليوم من أيـــام الســنة. خفــت أن تكونـــي مريضة. اتصلت بك لم يرد عليَّ أحد. بدأت ديدان الشك تأكل جســـدي. هل أذهب إليك؟. لا.. لن أكون متطفلاً. لا أريد أن أفرض وجودي على عدم. لا أدري لماذا تصورت المرأة التي تسير على الشطّ مع رجل فـــي قلب العتمة أنها أنت. وتخيلت أنك تلتصقين به وأن الـــبرد راح يـــأكل شفتيك. تصورته سامي. تلميذك النجيب الذي يدرس الدبلوم عندك. هـــو تلميذك لكن يماثلك بالعمر. ثم ماذا لو كان أصغر منك بعدة سنوات. هذه ليست مشكلة. لم تعد نظرة الرجل إلى المرأة كما كانت سابقاً. لم أدخـــل مرة مكتبك إلا رأيته. فوراً يشيح بوجهه عني: كـــأني ألســعه لمـــاذا؟! وعندما قلت له هذا هو الشاعر الكبير الذي يملأ اسمه الصحف. نظـــر إليَّ وقال: ظننته أكبر من ذلك في العمر. كان يتمنى أن أكون عجــوزاً. مع ذلك كنت سأحبك.

الشاب على الشاطئ. يخلع معطفه ويدثرك به. كنـــت ترتجفيـــن وتزدادين التصاقاً به. كان البرق حين يخرق وشاح العتمة يهبط علـــى الشطّ فيضيء المكان بوهج كأنه شعاع شمسٍ ينزل من وســـط الســماء على بقعة محدودة ليجعلني أرى ما رأيت.

«رأيتك».

أجل. أجل. لا تقولي. لا. أخ. أتعثر بمقعد اسمنتي. ثيـــابي تـــنزّ غيوماً. رأيتك. وحدك التي كنت على الشطّ تعبثين بكل ما تبقى لدي من أمل. كنت ترتدين معطفك الأبيض الواسع ذي الياقة المصنوعـــة مـــن الفرو. رأيتك بشعرك المنسدل حتى منتصف ظهرك. بقـــامتك الفارهـــة كشجرة نخيل. رأيتك. أجل. كنت أنتِ. لم تكن امرأة أخرى. كنت أنـــت. أنتِ.

وشممت عطرك مع هبوب العاصفة.

العطر الذي خيم على صدري يوم احتضنتك.

ورأيت وجهك الحنطي الذي يقتحم مملكة المطر ويسير باتجاه الجنوب حيث ترقد «حربة الفارس المقتول» في مياه الشطّ.. مياه تغادرها. وأخرى تحاول أن تغمرها وهي تظل شامخة بين بانياس وطرطوس. والبحر يظل صامداً كالزمن. كانت الحربة مضاءة. هكذا رأيتها تقترب مني تترك مكانها لأول مرة وتجئ إلى شاطئ المدينة الصغيرة «جابالا».

وكنت أنت تغيبين بين اللحظة واللحظة مع انزلاق البرق إلى الماء. غير أني كنت ألمح نقطة تتلاقى مع نقطة.

أي خواء راح يعبرني! وأنا الوحيد أتابع ظلالك وأطيافك. عطرك. غيابك. طاولتي ما تزال مسكونة باسمك. بوجهك. بورودك. ألم تقولي: إنك تحبين النعناع البري؟!

رحت أبحث عن النعنع البري. تذكرت أني قطفته مرة من ضفاف نهر السنّ.حيث يتلاقى الماء المالح مع الماء الحلو ثم الشرق. هناك انعطافات له في بساتين وحقول عليّ أن أجتازها لأصل قريباً من المصبّ. هناك سأجد النعنع البري الذي تحبينه.منذ مدة طويلة لم أرَ النعنع البري. مشيت على الضفة وحيداً. رأيت نباتاً شامخاً له زهور بنفسجية. ناعمة. حاولت أن ألمسه بيدي لأعرف رائحته. لم أستطع كان الماء غزيراً.هذا هو النعنع البري. قلت بصوت عالٍ: لا أعرف لماذا رفعت صوتي. ربما لهذا السبب انبثق رجلٌ عجوز يتوكأ على عصاه، اقترب مني وقال لي أهلاً. أهلاً يا علي. كيف حالك يا علّوش؟ أهلاً بك يا بني، يا بن فطوم.

«ماذا تفعل هنا؟»

«أتعرفني يا عم؟»

«ابتسم الرجل وهزّ رأسه. وأنا الذي أعرفك، أعرف والدك وجدك.»

«ولكن والدي مات يا عم»

«أعرف يا بني، إني أعرف جدك لأبيك «أحمد»كان رجلاً طويل القامة مشرق الوجه. لا يمشي دون عصاه. وكان آل «أدهم»يهابونه ويحسبون له ألف حساب. كان يركب فرساً ويدور على القرى يجمع التبرعات لمناضلي الثورة التي قادها الشيخ صالح العلي. كنا معاً يا بني. وكنا نخرج من السهول لندخل جوف الجرد. ثم نتجه شمالاً إلى إبراهيم هنانو في إدلب، ننام في الطرقات، وفي القرى المنتشرة بين الجبال. كان والدك يافعاً وكان يرافقنا أحياناً. وكان جدك مناضلاً. اصطدم كثيراً مع جدك لأمك. إيه.. أكلت الطرقات من أرجلنا. مررنا بقرى كثيرة وعرفنا بشراً كثراً، منهم النذل ومنهم المحترم. ومنهم الوطني ومنهم الخائن، جدك لأمك، كان. لا داعي لذكر الماضي أحياناً. إنه يحضر في لحظات حرجة ويجرح. وأحياناً يكون دافعاً للأمل..جدك أحمد كان فارساً. مرة وقد كنا نمشي ليلاً بعد أن ربطنا الخيول في أطراف قرية «العرقوب»صرخ جدك.آخ. ما الذي وخزني في قدمي؟

«قف لنرى»

رفض وتابع المسير خوفاً من أن ينكشف أمرنا..ربما كان بعض الخونة يرصدون حركتنا. كانت العتمة كثيفة. وقوافل الفرنسيين تدخل البلاد.

«دعنا نسرع»

هكذا كان يحثنا أنا ووالدك على السير. كان أكبرنا سناً أكثرنا نشاطاً. وعندما وصلنا إلى بيت نأمن له، دخل مسرعاً باتجاه سراج الكاز. كانت أنياب الأفعى تحفر ثقوباً في باطن قدمه، كنا نمشي أحياناً حفاة، وبينما كان يتأملها. دخلت سنونوة، حلقت عدة مرات في المنزل

الترابي. ثم وقفت على كتف جدك. كان في فمها قطعة تـــراب مبللـــة. تركت التراب وطارت. دعكنا التراب المبلول بقدم جدك حيث اللدغـــة السامة. طار الألم. فجأة..تناولنا عشاء من الخبز والتين الأخضر. ثـــم حملنا عدة عناقيد عنـــب واتجــهنا إلـــى قريـــة الصومعـــة المتاخمـــة «لصافيتا»حيث كان الشيخ يجتمع بثوراه. ايه يا بني..نظري ضعيـــف. اعذرني لا أعرف إن كنت تشبه أباك، في ذلك اليوم وجدنا قرية الشـــيخ والقرى المجاورة تحترق. لقد أشعل الفرنسيون النار بالأحراش والبيوت فماتت قطعان الماشية. والأطفال والعجائز. منزل الشيخ صالح وحده لم يصب بأذى كانت روحه لله.»

«ماذا يقول هذا الرجل. هو يهذي بالتأكيد. والدي لم يكـــن ســـوى الرجل الذي يضرب أمي ويذكرها بجدي. والدها.

ينتبه العجوز إلى صمتي. يسألني بماذا أفكر؟.«لا شيء يا عم»

«كيف حال أمك؟»

لم أرد. كنت أفكر بالنعنع البري الذي سأحضره لـــك وســـأفرش طاولتك به.

«كيف حال أمك؟»

لم أعد قادراً على سماع المزيد من الهذيان والحقيقة.نظرت إلـــى ساعتي. الوقت يمرّ ولم أقطف لك النعنع البري «هذا هو النعنع الـــبري الذي تبحث عنه» كيف عرف أني أبحث عن نعنع أخبئه لك.؟ ابتســـم وقال «أمك تحب النعنع البري أيضاً.

«أمي؟!» اختلطت عليّ الصور والرغبات. أمـــي تحـــب النعنـــع البري.

حبيبتي تحب النعنع البري.

أنا ضائع. شعرت بالخوف. «ليلى»كانت تحـــب النعنـــع الـــبري.

وكانت تحب البحر. اندمجت بالبحر ذات يومٍ.

«هذه الشماريخ البنفسجية الناعمة المرتفعة على ســـاق خضـــراء مغبّرة» قطفت حزمة وغادرت المكان. نسيت أن أودع الرجل العجـوز. ونسيت أن أسأله عن اسمه. وعندما وصلت إلى باب المدينة الشـــرقي، وقبل أن أنعطف إلى اليسار رأيت الرجل العجوز يمدّ لي يـــده ويقـول «مع السلامة يا بني حاول أن تبقى علّوش وليس غيره» نظرت إليه ولم أجب. هذا الرجل يتدخل في شؤوني الخاصة. ولكن عمره الكبير يغفـر له عندي. علينا احترام الكبار أليس كذلك يا عليا؟ في المـــنزل رحـت أرتب لك الورد والنعنعِ البري. فركت وريقات منه فانتشـــرت رائحتـه كرذاذ عطر خاص جداً. فتحت المذياع. كانت الأخبار مزعجة. قتــــل، تدمير، حرائق. تفجير سيارات وإدارات. كل هذا يدعو إلى الغثيان. منذ حرب حزيران حتى الآن لم نسمع إلا هذه الأخبار. الكـــرة الأرضيـة تحترق، تتدحرج نحو الهاوية، من سيصعد بها كيف؟: أقفــل المذيــاع. لاأريد أن أسمع إلا حفيف خطواتك القادمة مع الريح كل حركة أظنــها أنت. أنت ولا امرأة أخرى. أحضرت من درج مكتبي القصـــائد التـي كتبتها مؤخراً والتي تحتوي بعض القصائد المهداة إليك. إنــــها تـؤرخ للقاءاتنا وأحلامنا. أحضرت كرسيين، وأنا هنا أجلس باتجاه الجنـــوب. وأنت هنا تجلسين باتجاه الشمال. سترفعين رأســـك كملكـــة. وســأرش شعرك بالنعنع البري. سأقدم لك من الشراب المفضل. وسأطلب إليك أن تنصتي وتسمعي، لأبدأ قراءة عالمي كله.عـــالمك..أنـــاملك. شـــعرك. صوتك العذب. الزيزفزن الذي تجففينه بيـــن محـــاضراتك الجامعيـــة. وسأقص عليك طفولة تبعثرت بين الحصى والنعنـــــع الـــبري والنـــهر المغروس في أوراق الحور والصفصاف. وأحلام شاعر يريد أن يحضن العالم. ثم أقول لك: اختاري أي العذابات تريدين. العالم اثنان يـــا عليـــا رجل وامرأة، أليس كذلك؟! وقد أذكّرك بمواعيد البرد. واللقاء الأول وما تلاه.ثم ..إلى أن أبدأ من التراب الذي نهضنا منه وأنتهي بالتراب الـــذي

يخصبه المطر، أبدأ بالرحيل الأول، من بطن الجبل. إلى بطن البحر، من أشعار أمي إلى النعنع البري الذي أجهزه. بعد ذلك سيشع وجهك. وستفيض عيناك بأسئلة كثيرة جارحة. كيف عليّ أن أسكت هذه الأسئلة؟!

«أتعرفين أنت كيف؟»

أنا أقول لك: سأقرّب الكرسي. سأقترب، وأنت ستقتربين مني. ستضيق المسافة بيننا. وسيشع العالم كله ويدخل من نافذة غرفتي ذات الستائر المسدلة. لن أدعك تقولين شيئاً. لا أريد لذرات صوتك أن تبعثر في الفضاء وتصعد إلى أكوان أخرى غير كوني. ألا يؤكد العلماء أن الأصوات تصعد السموات وتدور في الأفلاك الرحبة. يفنى الجسد ويبقى الصوت. سآخذ يدك بين يدي، وبهدوء، أجل بكل هدوء وروعة وقدسية. سأضم رأسك إلى صدري وسيرتاح وجهك على نبض قلبي.ستذرفين أول دمعة. دمعة رضى. أو ضعف أو نشوة. لا أعرف. لا أعرف، سأزرع وجهك بالقبل النهمة. ثم ستبتعدين. فجأة أراك تنهضين. ولكن كيف أفترق عن ذاتي؟ سأطوق خصرك ونبدأ برقص حالم كآلهة. تدور بنا الغرفة، والمدى. ويدور النعنع البري. ويدخل نهر السنّ الدافئ. ويقف جدي على حصانه الأبيض منتظراً ثورة أخرى. ثورة من نوع آخر. ثورة تؤكد وجوب الحبّ. وألوهية الإنسان. ستغمضين عينيك متعبة ثم ستنامين بين ذراعي طويلاً. وأنا سأكون مشغولاً بأزرار ثوبك. قلت لك دائماً أكره الأزرار. سيظهر كتفك العاري والفضاء العاري. والشفق من بين الغيوم الباردة.

وعندما أود أن أغرق في عالم فوضوي أخاف. أبتعد. وأنت تبكين. لا أجرؤ على مخاطبة الجسد وحده ولا أقدر على تجاوز خواء الروح. أوه..أزرارك اللعينة.. لتسقط أزرارك كما تسقط أوراق التوت في الخريف، لماذا وحدها أزرارك لا أجرؤ على قطفها كلها؟!. كل شيء الآن يقطف. يسقط. ورق التوت. الأسماء. حصان جدي. الذي

كان يجوب به القرى ليجمع التبرعات للثورة. لا تفاجئني الكارثة. أنا أفاجئها. ولكن أنت فاجأتني هنا أعترف لك.

لنصغ إلى اعترافاتنا، قد تكون الأولى. وقد تكون الأخيرة.

«كنتِ المدينة التي أرتبها على هواي»

«كنت القرى التي أريد أن أجعلها تنغلق على طفولتي»..أردت أن أجعلك ذاكرتي. «يبدو أن الزمن لم يعد يحتاج إلى ذاكرة إنه يتحول ويتغير مثلك»

لو أن جدتك نعامة الآن هنا بماذا كانت ستدعو؟ منذ لقائي بك عند صديقي «سامح»منذ قراءتي لاسمك على بطاقة وأنا أبحث عنك. وعندما لقيتك هربت. كأنك بيتنا الذي رممناه فتوقف عن الوكف. لكن مطر هذه السنة أعاده إلى حالته الأولى. وهذه العاصفة البحرية التي أغرق فيها الآن تشبهك وأنت غاضبة مني. تبعثرين ما كتبته لك بلحظة. وتنبشين السنوات البعيدة من ذاكرتك كأني أنا المسؤول عنها. هل لقاؤنا تمّ فقط لنرمي الماضي، ماضينا كل بوجه الآخر؟! هذه هي غاية اللقاء.؟! ربما تكون غاية عظمى، ربما يجهز الجوائز للذي يستطيع أن يستمع إلى أكبر قصة للذاكرة. من يقدر أن يتحمل أن تُفرش تعاريج أزمنة كثيرة أمامه؟» هاأنا أنبش سنواتي كلها أمامك فتعيدي إليّ الجراح القديمة. «ليلى..هدبا..جدي.قرية مغمورة بالطين والأمل.»

حين تكونين هادئة تبدين رائعة. أشعر أن لاشيء قد انهار بعد في عالمنا. مايزال الإنسان سيد هذا الكون..أليس كذلك؟! أم تدرّسين طلابك في الجامعة غير ذلك يا حضرة «المعيدة» الجميلة.

قلتِ:

أكره أن أخضع لرغبات.

أنا أخضع لعقل.

الإنسان ماذا في نظرك يا أستاذه؟!

أتقولين شيئاً وتفعلين عكسه مثل باقي المتحكمين بالعباد؟

أنت التي قلت سنحتفل سوية. أنت رغبتِ في ذلك. وقلت: اجلب لي النعنع البري. فالفصل شتاء. وكانون لم يترك الكثير من الخضرة. قزّم البرد كل شيء. وأنا لم أعد أحمل في ذاكرتي نعنع أمي ولا عصا أبي حتى أهديت إلى نهر السن، النهر الذي سيفيض بمائة يوم العطش الأكبر، سيبقى هذا النهر النابع من بطن الجبال الساحلية شاهداً على عطشنا وبؤسنا. عند نهر السن الموزع في السهول الممتدة من جابالا إلا «لا وديسيا» ما يزال النعنع البري شامخاً شموخك في روحي.

قال العجوز: احترس. سأحترس؟! لماذا عليّ أن أحترس؟ أنا لا أعمل في متجر أحد ولا في مصنع أحد من الذين اغتنوا فجأة بقدرة قادر. ولا أسوق سيارة للص محترم. أنا موظف في الدولة. موظف منذ عشرين سنة. آكل من عرق جبيني. أدفع الضرائب كلها ولا أهجو في قصائدي إلا الزمن الذي سار متعرجاً. فمن أي شيء أحترس؟ يبدو لم يكن عليّ الحذر إلا منك. تؤكدين أنوثتك باللعب بمشاعر الآخرين. كنت تعرفين بأني سأنزل البحر بعد أن تضيق بي الجدران والنوافذ والكؤوس. لذلك أخذت سامي من يده كجرو. نزلتِ البحر. هكذا أظنك. قلت له: كما قلتِ لي ذات مرة: خذني إلى البحر. وقبلته على عجل كما فعلت معي. وهمست له «أحبك» أنت لا تعرفين الحبّ. أنت متسلطة. مشيت أتبعك إلى مدينة سحرية لم أرها من قبل. اندهشت، ولشدة دهشتي كدت أبكي وأنا أهمّ بالدخول.

لكنك صرخت بي بصوتٍ غريب. أ أنت؟! لا. هذه امرأة أخرى صرخت بي وقالت: قف عندك.

حذار من الدخول.

«لماذا»

سقطت متقهقراً، منكسراً. جثوت قربي ورحت تبكين بين يدي كطفلة فقدت حذاءها الجديد: أو كامرأة أدركت خطأها. وأرادت الاعتذار.

الآن كيف أقبل اعتذارك. ألست المرأة المثقفة التي تبحث عن تأكيد ذاتها بالمعرفة والحب والعمل؟! المرأة التي تعرف كيف تجرح وكيف تعتذر وكيف تقول لا. عندما تعرف أن تقول لا. أو تعرف أن تقول نعم تكون المرأة قد تحررت. أليس هذا كلامك؟! هذه هي المرأة المختلفة عن أم هاشم. وعن جدتك نعامة. وعن خديجة زوجة محمد برهوم.

ـ ٣ ـ

.. ومشيت على الشطّ. كان الشط مليئاً بأحصنة ميتة يمتطيها فرسان مقتولين لم يتسع لهم الوقت كي يصلوا إلى بطن الجبل ويغيبوا فيه. كنت أيضاً على الشط. لم تتعثري بامرأة مقتولة. ولا بفارس مصلوب. كان البرق يضيئك. يضيء امرأة تشبهك. يغمرها البرق والظلام والموج الهائج. وأنا كنت أركض من صخرة إلى صخرة أتبعك لأتأكد بأنك لست أنتِ التي تسير على الشاطئ بكل جرأة غير عابئة بالمصابيح القريبة المنبعثة من النوافذ. غير مكترثة بالبرد. بالوحوش الكثيرة التي حدثتني عنها. المدينة تحتفل. وأنت تحتفلين مع سامي على طريقتك الخاصة. وأنا كنت مع رذاذ الملح واليود والعواصف أحتفل على طريقتي الخاصة.

كنت أبحث عن زمنٍ أستند عليه.

أبحث عن حصان لم يقتل بعد كي أحمله جثتي وأقول لك لا

تبعثيني اتركيني في البرّية. أتجه شرقاً..شـــرقاً موغـــلاً فـــي الفتنـــة والحكمة. اتركيني يحملني النسر بعد أن أترك حربتي علـــى الشـــاطئ تنغرس مؤكدة النهاية.

وكنت. يا عم صالح..أبحث عن حضوري بين هذه الجثث التـــي تملأ الأرض.

المسيني في وريقات الزيزفون تصرخ روحي بين طيات الزبد

البحر يصرخ حزيناً. غاضباً. محتجاً. يائساً. لاأدري هذه الســـهول الرمادية الهائجة كيف أخاطبها. سقطت على صخـــرة بحريـــة مليئـــة بالتجاويف والماء المالح. سمعت أنيناً متقطعاً. لم أكترث فـــي البدايـــة. كنت منشغلاً بمتابعة ظل امرأة. ظلّك، المبتعد كنت أظن أن ضحكـــاتك وصوتك العذب وهمساتك التي تتبعثر على الشطّ.؟

كان الشطّ خالياً إلا منك ومن أشلائي. تدوسينها مع وغـــدٍ أظنـــه سامي. الأنين يقترب ويبتعد.

صوت امرأة.

صوت عاصفة.

صوت زمن سحيق.

«وا..»

تكورت على الشط. ازداد الأنين. الموج العاصف يعلو. والســـماء سهل داكن السواد. طلقات نارية تخترق هذا الصخب. ضجة تبعث مـــن نافذة أحد المحتفلين بالسنة الجديدة. شـــعرت أن إطـــلاق النـــار علـــى النهايات هو العمل الأخلاقي الوحيد المسموح به. يبدو أن الساعة الثانية عشرة تقترب. ساعة الصفر. البدء. الأنين يزداد اتساعاً. هذا ليس أنيـــن عليا، عليا تضحك بعيداً. حبوت على يدي. أريد أن أكتشف هذا الحـــزن الداخلي. صوت مجروح ينبعث من أعماق سحيقة. الموج. الموج. يعلو.

يهبط. أضواء المدينة نافرة. ملونة. أنتِ تبتعدين. تبتعدين بمعطفك الأبيض. بشعرك الكستنائي. تبتعدين كالهزيمة. تبتعدين كالفرح. بخطواتك المسرعة. طيور نوارس ترفرف في السماء كأنها تحمل الغيم وتهرب به.

«كن حذراً يا بني»

هكذا صوت العجوز يأتيني وهو يمدّ يده مودعاً. أشم رائحة النعنع البري. أشعر بالنهايات المدببة لخناجر تقترب من وجهي. «يا علي كفانا جراحاً» ابتعدي يا أماه عني الآن، أرجوك ابتعدي. أشم رائحة طبخها. أرى منديلها الأبيض، جدتي تقول:

«ابنك ابله فطوم»

البرد الشديد.. أرتعش وثيابي مبللة.

«البرد يفرش الصور القديمة من يديّ.

البرد يخزني بالنهايات الحزينة.

البرد أنت.

أنا.

وبدايات تحترق.»

هه. هذا الشعر لا يليق بالساعة الثانية عشرة. يجب أن أقول شعراً أكثر عذوبة. أكثر تفاؤلاً. ماذا ينقصني.؟ أجل..أجل ماذا ينقصك يا علوش؟ النساء كثيرات. وينتظرن إشارة منك. وأنا الشاعر المشهور. آكل من مال الدولة فقط. وجدي كان بطلاً..دخل الثورة. وأنا دخلت حرب حزيران. وما بعده. عرفت الهزيمة النصر..حفظت أشعار الحرية. والآن أنا حر، حرّ جداً. لكني أريد امرأة واحدة. أريد عليا. وحدها التي أشعر أنها تكملني. ما أكملت أمي وأبي. أبي الذي اشترك

هو الآخر بالثورة. أحبّ أمي في إحدى جولاته عندما جـــاءت فتيــات صغيرات يحملن أطباق الطعام والماء للثوار المختبئين في بطـــن وادي «جهنم» صحيح أني سمعت أن بعض الأبطال الذين ماتوا عـــادوا إلـــى الحياة ثانية. ورفضوا الأوسمة التي منحت لهم. قـــالوا لا نريـــد هـــذه الأوسمة. نريد الحياة. لقد اكتشفنا اللعبة. نريد الحياة وامتلاك البســـاتين والحقول. لقد مللنا الظلمة وشعاراتكم وأغانيكم وأنتم تدوســـون رفاتنـــا. مللنا أن نكون قمة تصعدون عليها. وسلماً تتسلقون عليه لقد شبعنا موتاً. نريد أن نعود. وسمعت أن الكثيرين من الذين استشهدوا فـــي فلســـطين ندموا بعد أن تمّ «السلام العادل الشامل»

ما بك يا علوش. أنت تهذي؟!

«أنا..؟!»

ما الذي تقوله؟!

لا أقول شيئاً. هذه رواية أكتبها حالياً. مجرد خيال.

«تركت الشعر؟!»

«الآن زمن النثر..زمن القصة والرواية. سأهجر القصيـــدة كمـــا أهجر امرأة»

إذن تابع روايتك..

«هل ستنشرها.؟!»

«إذا رأيت دار نشر تقبل بالربح الحلال ولا تمتص دمي»

«إذن انتظر»

«ها أنا أنتظر. قد أضعها في مؤسسة رسمية. اتحاد..وزارة.»

«قلت لك انتظر إذاً يا علوش..سنوات وسنوات طويلة»

«هل صدقت؟!»

«لماذا..»؟

أنا لا أعرف ماذا أكتب.. أنا أهذي»

«يا عم صالح هذه النهايات مؤلمة»

جارتي قالت: جارتي أم رافع. المرأة التي لا تشيخ أبداً. تظل فاتنة. وتظل تغوي الرجال. «ابني قرع الباب ودخل دون أن أفتح له. كان الباب موصداً وكانت النوافذ مغلقة. لا أعرف كيف حضر. لقد أغمي عليّ من الدهشة.

صرخت: أنت ميت يا ولدي.

«اشتقت إليك يا أماه»

هكذا قال لها وأخذ يبكي.

«ولكنك ميت. أنت يا ولدي مت في حرب حزيران. كيف عدت. لقد أعطونا شهادة وفاتك. هل كنت أسيراً؟

«لا.. ولكني أردت العودة. مللت الظلمة. مللت الخطر. لم يعد لوجودي ميتاً أي معنى». الأرض تنبش أعماقها. تخرج الحمم من البراكين ولا أخرج.

«ولكن هذا لا يجوز. أنت ميت يا بني. ميت يا رافع يا حبيبي لن يعطوك اسماً وستظل ميتاً.

«لميت آخر بدلاً مني، لقد اشتقت إليك. إلى الحياة. أرجوك يا أماه لا تخبري أحداً.اتركيني أعش بينكم. نتبادل الأدوار»

«يا ويلي ما هذا الكلام»؟

سمعت صراخ جارتنا وهي تولول وتركض في باحة الدار. «ما

بك يا أم رافع؟»

«رافع عاد من القبر ويريد أن يبقى معنا. لقـــد دفنـــاه. وبكينـــاه. وسيجنا قبره. كيف عاد.؟ لا يجوز. أنت ميت يا بني ويجـــب أن تبقـــى ميتاً» هكذا هي قسمة الحياة. وهذا هو نصيبه من الحياة. وأنا نصيبـــــي من الدنيا أن أكون وريث كل هذه المهازل والعمامات الملفوفة على كذبة كبرى. من يجرؤ على حلّها؟

رافع رفض العودة. جلس وسط المنزل بثيابه المبرقعة. المغـــــبرة وبقع الدماء تغطي ظهره.تكور فوق ركبتيه وراح يقول بصوت هـــامس كأنه من السماء: «لماذا عليّ أن أنزل العالم السفلي بينما أنتم ــ أخوتـــي ــ تنعمون بالحرية والحياة الرغيدة.

ــ أية حرية يا رافع. هذه السلع التي تتكدس في السوق حريـــــة؟! كنت سأقول له أشياء أخرى أيضاً، ولكن تراجعت. ما الذي حشرني.

زحف رافع باتجاه أمه وهو ينزف دماً طازجاً. قبّل يدها وتوســـــل إليها أن تساعده على البقاء إلى جانبها، لماذا تغيرت عاطفتها نحوه؟!

«ولكن القانون لا يسمح بذلك. إذا علموا بالأمر فســـيأخذون منّـــا المنزل الذي نسكنه. وسيأخذون شهادة أختك الجامعية ووسام البطولـــــة. لولا وسامك ما دخلت أختك الجامعة وصارت طبيبة»

«أي بطولة يا أمي؟ أي بطوله.لقد ضاقت عليّ الأرض. لم تعـــــد تقبلني. ولم أعد أقبلها بعد أن رأيت بأم عيني رفيقاً لي ينزلونه في قـــبر قاتله، يضعون الورود ويرفعون العلم ثم يطلقون فـــي الـــهواء إحـــدى وعشرين طلقة. لم يغادر المشيعون القبر حتى بدأ العراك والشـــجار. ــ هذا القبر لي، لا هذا القبر لي، إنها حرب القبور في أواخر القرن. ظـــلا يتطاعنان حتى أقبل حارس المقبرة. كان حارساً للقاتل والمقتول، للشهيد وللعدو.

«أيهما الشهيد يا عم صالح؟»

ـ دهشت.. لماذا يضعون حارساً وحيداً لظالم ومظلوم؟ ظننت أن الحارس يقتل أحدهما. على الأقل سينحاز للذي يمثل مصالحه، ازدادت دهشتي عندما علمت أن الحارس عربي وأنه يتناوب مع إسرائيلي. صمت الحارس لم يخبر أحداً. عند ذلك خرج زميلي إليه وقال للحارس ما بك؟! قل لهم أن يخرجوا هذا مكاني. إني مثخن بالجراح. أريد أن أنام وأرتاح. أين الراحة الأبدية التي وعدتمونا بها؟.

هز حارس المقبرة رأسه ـ يا أمي ـ وقال: لا. لا أعرف ماذا أقول لك سأخبر رؤسائي بالأمر. انتظر. ولكن قادته لم يحركوا ساكناً. قالوا ما تزال المقبرة قادرة على الاستيعاب. لا تجعلهم يقلقون راحة الملك إنه يمضي باتجاه وادي عربة للاستجمام مع صديقه الذي يغرس نجمة سداسية مصنوعة من اليورانيوم في جبهته. ولكن هذا لا يمكن،اثنان في قبر واحد، «هذه هي الأخوّة والإنسانية» ماذا تقول أيها الحارس؟ لا أعرف ماذا أقول ـ فخار يكسّر بعضه ـ ثم قال: هو ما له علاقة سيطرح المشكلة في مؤتمر دولي. ربما ندخل القبور في نظام التسوية. قد ـ يدخلونها ـ ويجلبون لها تراب الغابات المستورد ويزرعونها. بورود السلام. ثم يفرشون فيها ساحات واسعة ومنصة لإلقاء الخطب السلمية الرائعة. وللتحدث عن الحرية والسلام والأمن المشترك، الملك سيمسح ذقنه البيضاء. والعمامة على رأس القزم المحترم ستنطّ فرحاً وستمشي وحدها إلى أن تهدأ عند صاحب النجمة السداسية التي تنزّ دماً. أتخيل المدحلة الآن..بكل ثقلها وطنينها. أنا أخاف المدحلة. أخافها كثيراً. رافع الذي لم يكن جباناً أبداً يخاف المدحلة. صدقيني يا أماه. أتخيل أنها تمشي على جسدي وتحولني إلى ذرات من التراب. عند ذلك سيزرعون في دمي زنبقاً أبيض كي يصير لونه أحمر. ألا يقول هكذا «ماندل»؟ و هذه الزنابق الحمراء سيقدمونها للملك في عيد ميلاده والملك بدوره سيقدمها لزوجته الفاضلة.؟ وهي ماذا ستفعل بها؟! سترسل الورود سراً إلى الذي قتلني لأنه استراح مني

وأتاح لها أن تضاجع القاتل دون خوف.. ستنجب منه ذرية محايدة. هكذا تزعم كلما رأتها الحاشية. هكذا هي ضد الحرب، سيسيل دمي إلى يوم القيامة. قد يزرعون فيه قمحاً يا أماه سيحصدونه ويصنعون به برقوق العيد.. سيقدمونه للأطفال الذين يضعون ورداً على قبري. بعد ذلك سيكرهونني. وسيتشاجرون على دمي. وأنا لا أستطيع أن أتخيل أطفالنا الذين طهّروا الحجارة وقدسوها، يأكلون دمي ويحيدون عن الحجر. لا. لا.لا أريد يا أمي. هذا يخلق فتنة كبرى. ستسيل الدماء الجارفة. ستأخذ في طريقها البطيخ والعنب. وسيهرب التجار والجنرالات. وسيبقى بعضنا. أي الذين مثلنا.. يغوصون في دمائهم «ولكن أنت ميت. اسمعوا يا ناس. اسمع يا أستاذ علي. يريد أن يهجّرنا ثانية. ألا تكفينا الأولى؟!أكاد أجن. ماذا أفعل؟!

«أرجوك يا أماه. احميني.. أريد أن أخرج من قبري الضيق. أخشى أن أستيقظ ذات يوم فأرى قاتلي في قبري يمد يده ليصافحني. البارحة تخيلته قادماً. لن أصالحه أبداً. والملك يريد أن يجبرني على ذلك.. قد لا أستطيع الرفض في هذا المكان الضيق والملك يقف في وجهة. وقزم العمامة في وجهة أخرى. لن يكفوا عن تهديدي أو قتلي أو مصالحتي. على ماذا نتصالح؟! على جثتي؟! ليقتلوني. إذا كان الصلح سيتم بطريقة القتل نفسها. على الأقل لن أشعر بالهزيمة والخذلان.

مزقت الأم ثيابها.. وأظهرت جسدها الفاتن الذي لا يشيخ. بكت. وراح رافع ينشج أمام جسد أمه البضّ. راحت الأم تصرخ: يا ناس.. يا هو.. تعالوا وانظروا مصيبتي.. يا ويلي..

يركض الجيران تاركين أبوابهم مفتوحة لتطلّ الأسرة والمصابيح والنساء المختبئات، يسمع صوتها كل الناس، ولكن عندما يعرفون الحكاية يديرون ظهورهم وهم يتمتعون: ماذا سيصير بأخته التي أخذت شهادة جامعية بسببه؟ ماذا سيصير بأخيه الذي سافر خارج القطر بوسام انتصاره. ماذا سيحلّ بأخيه «رعد» التاجر الذي افتتح عدة شركات خارج القطر؟ كان قد بدأ بتعويضات دم أخيه.

«يعني تاجر بدمه؟!»

«لم نقل ذلك، لا سمح الله، نحن نلفظ هكذا كلام؟!!»

صرخت الأم بأعلى صوتها أمام الجميع «الأمور يجب أن تظل كما هي. الزمن عليه أن يمشي إلى الأمام لا أن يرجع إلى الوراء. لا يمكن أن يخرج شيء من لا شيء. الأيام تمشي بطريق محدد ومرسوم. فلماذا نحاول تغيير هذا الطريق. قدري أن يموت رافع. بحّ صوت أم رافع، انهارت على الأرض تكاد تختنق، هاتوا ماء. ماء. الماء بارد. والشتاء قارس «يا عم صالح..أنا لم أستطيع أن أقول شيئاً.

ظللت واقفاً واجماً كصخرة. القدر المرسوم لا يجرؤ أحد على تغييره، كدت أقع على الأرض. وحدها أم رافع لا تعرف كيف تسحب نظراتك إليها. يبدو أن الأمور يجب أن تظل على حالها..العودة إلى الوراء جارحة، الذين ماتوا يجب أن يظلوا أمواتاً. والذين صنعناهم رموزاً يجب أن يظلوا رموزاً وإلا أصاب الذاكرة العربية شرخ لا يمكن معرفة عمقه، يجب أن يظل المتنبي شاعر العربية، ويجب أن تظل زرقاء اليمامة المرأة التي ترى من المحيط إلى الخليج، ويجب أن. ثم يجب. أنا أيضاً لا أجرؤ على الكلام. لا أريد تغيير شيء لقد استسلمت للآن. غداً لا أعرف ماذا يجري قد أرتدي جلد خروف وأسير في الشوارع. أم رافع نهضت فجأة مثل المجنونة عندما رأت ابنها التاجر قادماً. دخل دون أن يحيي أحداً..تبعته إلى الداخل. أغلق الباب. سمعنا أصواتاً وطلقات نارية. بعد ذلك خرجت أم رافع تركض في الزاروب وتشق منديل رأسها، تدلت خصلات شعرها إلى أسفل ظهرها، كانت تبعثر كلامها في كل الجهات. تضرب على صدرها. تدور وتعود إلى نقطة البداية. اندفع الناس إلى الغرفة. وقف التاجر في الباب.

«لا تدخلوا»

«ابتعد يا كلب..ماذا فعلت؟!

أطلق الرصاص في الهواء مع ذلك تدفق الجيران إلى الداخل. كان رافع يجلس متكئاً إلى الجدار وقد سال دمه وتدلى رأسه. امتلأت الغرفة بغربانٍ مقتولة. وحمائم تقف على حواف النافذة و هي بلا ريشٍ أبـــداً. نادت الأم بصوت مذبوح..«رافع»..رافع يا بني..لمـــاذا أردتَ تغيـــير القدر.

افترَّ ثغر رافع عن ابتسامة وقال هامساً: «لقد قتلني أخي» ثم ذوى كحبقة. لم ينقله أحد. ولم تستيقظ الأم من غيبوبتـــها إلا بعـــد ســـاعات. ولكن عندما سألت عن رافع لم تجده. راحت تندب وتركض في غــرف منزلها، لم تجده وعندما هبط المساء اختفت أم رافع. يقال نزلـــت إلـــى البحر ولم تعد. مرات قرعت عليها الباب وسألت عنها. يرد ابنها مـــن خلف باب موصدٍ: هي لم تعد. ماذا تريد.

«ماذا أريد»

لا أعرف ماذا أريد. أصمت. أتذكـــر كلمـــات الرجـــل العجـــوز «احترس يا بني» منذ أن جئت المدينة وأنا أحترس أخيراً وقعـــت فـــي سجن امرأة تدعى عليا.

«ماذا تريد يا أستاذ؟!

أريد أن أطمئن على أمك الطيبة. أريد أن أطمئن عليك يا رعد»

«اذهب من هنا وإلا قتلتك»

أنا أذهب. ولكن التاجر المحترم لم يخرج بعد تلك الحادثـــة مـــن المنزل. أحد الجيران قال: شاهدته يزحف على ركبتيه وشـــعر رأســـه يتدلى إلى الأرض. وأذناه طويلتان. لم أصدق ذلك. ولا أعرف ما الـــذي يدعوني إلى نفي هذه الخوارق، مع ذلك أدق عليه الباب وأسأل «كيـــف حالك يا رعد؟» يرد بصوت مخنوق.

«هل رأيت أمي»

«لا..لم أرها..»

«يبدو أنها ماتت.»

«لا..لا.الأمهات لا يمتن يا رعد.»

في الآونة الأخيرة لم أسمع صوته. أدق. أناديه. لا أحد يجيب لكني أسمع جلبة. وتحطم أشياء ضخمة. أسمع انهيارات كأني في جبل بركاني. لم أعد أستطيع الاستقرار على حال، النوم لم يعد يأتيني إلا قسراً. لقد هربت من القرية ومخاوفها لأقع في مخاوف جديدة. رعد يسكنني. وأمه تخرج إليّ ليلاً وتسألني عن ابنها رافع. هذه العائلة كلها تسكنني. والذي يدهشني حقاً ذلك الحديث الذي دار بيني وبين أحد الجيران حول أم رافع وأبنائها. قال: إنه لم يسمع بهذا الاسم من قبل. ولم يسمع أبداً بالحادثة. وأن المنزل الذي أتحدث عنه كان منزل باشا كبير مات وحيداً ولم يتزوج ومنذ سنوات طويلة والمنزل مهجور.

قلت هذا الكلام لسامح صديقي، رجوته أن يبرر لي تصرُف الجيران. ولكن لم يكن متحمساً للموضوع أبداً. قال هذا الحديث مؤثر. إنه يحزنني دعنا منه الآن. لم أجد حلاً إلا أن أترك المنزل وأنتقل إلى آخر. بحثت عن بيت يليق بشاعر..أصنع منه متحفاً كغيري من الشعراء. أضم فيه أقلامي. وأوراقي ونظاراتي. وصور عشيقاتي. وأركن في زواياه الإرث العظيم الذي ورثته عن أجدادي منذ القادسية حتى الآن فلم أجد إلا البيوت التي تؤجر بعقد سياحي لمدة ستة أشهر. أي عليّ أن أتحول في مدينة بحرية صغيرة، هي مدينتي إلى سائح لأحظى ببيت..وعليّ أن أقطع صلتي بالمكان. أي ألا أكوّن ذاكرة فيه لأنها سرعان ما تنقطع بانتقالي إلى عقد آخر أو مكان آخر.

أخيراً وجدت منزلاً. قلت هذا يليق بشاعر مثلي. مكون من عدة غرف وصالون واسع. هنا أضع مكتباً..وهنا سأنام..وهناك ستكون لي غرفتي حيث سيهبط فيها الوحي، أما الضيوف الثرثارون فسأترك الصالون لهم. وسأحاول بيع الأرض التي أملكها في القرية على الرغم

من أن أمي حذرتني كثيراً.

قالت: أن يكون لك أرض، يعني أن يكون لك أم وأخوة، وزوجة وأولاد. يعني لك وطن.

لأعترف بأني وقفت عاجزاً أمام بيع الأرض. لأنه صعب عليّ أن أبيع أمي وأخوتي وكل الذين تحدثت عنهم أمي. لكن كيف أشتري بيتاً؟! أنا الموظف ذو الراتب المحدود جداً. هذا الراتب لا يحقق العيش للإنسان بكرامة.. تراجعت عن فكرة شراء منزل. هذا الحلم طويته وعدت خائباً. أتسكع في الطرقات. أجلس في المقاهي البحرية. أتجول على الشط بمفردي. وعندما يحل المساء أدخل نفق الكوابيس. أشعل شمعة وأبدأ بالتهام الكتب. كنت أرتعش لأقل حركة. أحياناً كنت أظن أن أبي عاد من المقبرة. مثله مثل رافع، أو أن رافع نفسه جاء يخبط عليّ باب منزل متواضع ويقول: أتقبل أن أسكن معك؟!

أ أخرج؟!

لم أكن أتحرك من مكاني. لم أعد أحمل تلك الروح السابقة. الفارس مقتولاً يمر أمامي على حصان وأنا أرى القاتل، ولكن لا أريد أن أغير القدر .جباناً كنت وعاجزاً. فكرت بالذهاب من المدينة كلها، سأترك المدينة لأهلها، المدينة ليست لي. يجب أن أعود إلى الصفصاف الخجول حيث الخضرة والماء والفقر وفوانيس الكاز. حيث الورد والمروج العذراء والبرغش الكثير الذي يسرق هدوء الأمسيات وصفاء نسمات الصيف. المدير رفض أن ينقلني إلى مدينة أخرى. رفض بشدة.

«ولكن يا أستاذ أريد أن أعمل في صحف العاصمة»

«ماذا يعني أن تعمل في صحف العاصمة؟! وهذه الصحيفة. صحيفة البلدة ألا تستحق قلمك؟»

«هناك المجال أرحب.و..»

«كل الصحف للدولة يا أستاذ وكل أقلامنا..هنا ـ هناك ـ تكتب بحبر واحد. والذي يبني هنا. يبني هناك»

كان إعداد العمود الصحفي كل يوم بمثابة منشار يحزني لولا هذا العمود ربما تجولت طيلة حياتي في الشوارع. أعود إلى المنزل لأنجز العمود الصحفي. أي لأنجز خبز يومي. أنا لا أحب المنزل، لا أحب أن أنزوي فيه مع وقع أقدام رعد ورافع وأمهما، لاحظ المدير أني صرت أكثر ذهولاً ونحولاً. أعطاني استراحة أي إجازة مفتوحة. قال لي بود: أنت متعب يا علي وعليك أن ترتاح. أجل كنت متعباً وكانت الهزيمة ترشح من دمي. وكان وجه رافع الذي أنكره الجميع يتجدد كل يوم في وجوه الآخرين. أما وجه أم رافع الذي غاب ولم يغب هذا الوجه الجميل المشرق فكان يرافقني إلى الجريدة. إلى أمي. إلى نساء كثيرات. أشعر بحنين إلى أمي عندما تغادرني النساء. أمي هي الأخرى لا تشيخ. وأنا ولدها الذي لا يكبر.

قلت لصديقي سامح ـ الطبيب النفسي ـ بعض النساء لا يهزمن. أنا أعرف واحدة عمرها ألف عام. ابتسم وقال: أنت شاعر يا صديقي، أشعل النار وأحرق هذا الوجه سينبثق وجه فينيق جديد. وهكذا تتجدد خيالاتك مع تجدد المرأة.

«كيف أحرقه وهو يتولد كل لحظة»

«أهو وجه ليلى..؟!

«ما الذي حمل ليلى إلى هنا الآن. إلى هذا المقهى المكتظ بالنساء الحالمات برجل ثري يطير بهن إلى جزر بعيدة. يأكل أصابعهن ويعدن كما عادت خالتي هدبا.

«اشغل نفسك يا علي.. حالك الآن لا يعجبني. هذه الوجوه التي تسكنك ما هي إلا ظلال لشخصيات تحبها. أو تكرهها.. شخصيات سبق أن عرفتها. عليك أن تعرف وجوهاً أخرى بحيث تطردها متى تشاء لا

أن ترسخ في ذاكرتك وتسجنك، تعال أعرّفك على أستاذة جامعية. تــهتم بماندل صديقك»

دعني يا سامح، وقتي لا يتسع لمعرفة أناس آخرين.

«كما تشاء»

بعد أن تناولنا الغداء شعرت برغبة في أن أسأل سامح عن اسمها.

«لماذا اسمها لا يعنيك»

«ربما أعجبني الاسم، أحياناً للأسماء أسرار وقدرات خاصة تفتــح عوالم وتغلق أخرى.»

«اسمها علياء.»

«علياء.. علياء. اسم جميل.. كأني أسمع بها.»

«احذر هذه العلياء..ليست كما تظن..»

«يا سيدي لم يعد في القلب متسع»

«أنا أمزح ولكنها امرأة نادرة. أعرفها منذ كنا ندرس في أوروبا»

أجل أنت امرأة نادرة يا عليا..ألف طيف وطيف. أطياف. كثــيرة وامرأة واحدة تختصر كل النساء اللاتي عرفتهن.

ـ ب ـ

هاهو موعد المحاضرة يقترب. لافتات صغيرة تنغرس بجــدران المدارس، تذوب الأتربة تحت مطر كانون ويبقى اسم الأســتاذة عليــا كشجرة صنوبر وحيدة في ساحة مهجورة.

«مجنونة هذه المرأة. هذه الأيام لا أحد يعرف باب المركز الثقافي»

الآن عصر الرغيف والتجارة. الشعراء الكبار لا أحد يحضر محاضراتهم. فمن سيحضر محاضرة تتحدث عن ماندل وعلاقته بداروين. لمن ستلقي هذه المرأة محاضرتها. لتبق في منزلها ككل النساء، تطبخ وتغسل وتمسح البلاط بعد دوامها. أو لتنشغل بزينتها إن كانت عازبة، لعلها تستعرض عضلاتها المعرفية أمام الرجال، بالتأكيد لابد من رجل يقف وراءها، ــ المرأة لاتصل مكانة إلا والرجل يدفعها، وعندما يلغى الرجال من الأرض وتبقى المرأة ربة الكون سيكون الرجل وراءها. هذه هي نظريات المجتمع الأبوي. المرأة لا شيء، وأنت يا عليا لاشيء في المدينة ترتدي الثياب الأوربية وتأكل بالطريقة الحديثة وتفكر بطريقة أجدادنا الجاهليين. الداخل غير الخارج. الخارج مزخرف. والداخل مشروخ جداً. كدت أصرخ في الساحة العامة للمدينة وأنا أسمع بعض المتفيقهين الذين يمرون بالبطاقات التي تعلن موعد المحاضرة. كنت مع المرأة أبداً. ولكن ليس كل امرأة. بعضهن ــ كما الرجل ــ لا يستحق أن يعطي الحرية. شعرت أني في موقف التحدي أمام الجميع وموقف الدفاع عن امرأة اسمها عليا. لم يخطر في بالي أنّ صديقة الدكتور سامح ستصبح كل عالمي. رحت أفكر بها. وددت أن ألتقي سامح لأسأله عنها أكثر ولكن لم أرغب في التراجع عن موقفي أمامه. بمعنى أن أمرها لا يعنيني، وماذا لو كان سامح يحبها.؟

لأعترف بأنها شغلتني. كيف سيكون لون شعرها؟ كيف ستكون ابتسامتها. قامتها. صوتها. في اليوم الثاني اتصلت بسامح. أردت أن أسأله: صديقتك بيضاء أم سمراء؟. لكني ترددت. شعرت أن هذا السؤال لا يليق بشاعر مثلي ولا بامرأة مثل عليا. ثم ماذا يعني المظهر. أمي قالت: الظاهر قشور. وهي قشور تافهة لا تدل على الجوهر. والمرأة لا تعنيني فقط بمظهرها. ولكن لنفترض أنها جميلة قد تكون ذات مضمون

داخلي غير مريح. حاولت إبعاد هذه الهواجس عن أفكاري فلم أقدر.

فكرت بزيارة أمي العجوز. أخذت سيارة ومضيت. كان المطر يزخ بغزارة وكانت الأرض موصولة بالسماء.لقد سورها النهر من كل الجهات فتدلى الصفصاف، ومالت أشجار الحور، نزلت من السيارة. رأيت امرأة عجوزاً تجتاز فسحة الدار وهي تجر بقرة، لا أعرف إن كانت أمي أو زوجة عمي، وقفت أتأمل السماء الهاطلة. والأشجار التي ترتعش والنهر الغاضب. تمنيت أن أقرفص طويلاً أمام الماء المحمل بالقشّ والأشجار المنخلعة من جذورها، لمحت طيف امرأة كانت تسكن ذاكرتي، نادتني بصوت رفيق، ماذا تفعل هنا يا علي..؟! لم أرَ أمامي إلا غيمة تتحرك. المقبرة على بعد عدة أمتار مني. النهر هو الفاصل الوحيد بيننا. قبور صغيرة وكبيرة متجاورة ومنكمشة تحت المطر. شعرت بحنين جارف لأبي. بكيت. لم أشعر إلا والسائق يقول لقد بللت يا أستاذ.

هي ليست المرة الأولى. هذه المرة استعادة لطفل كان يجرفه الطوفان كل عام.صعدت السيارة. عد بنا إلى المدينة. عد إلى جابالا المسورة بالبحر وأشجار البرتقال، والمكتظة بالزواريب الضيقة والمطاعم الصغيرة والأطفال الراكضين باتجاه القرى. تسوقهم الأمطار والغيوم، وهم يسوقون محافظهم.

في العودة مررت بالدكتور سامح..شكوت له بعض الكآبة التي أعاني منها. حدثته عن القرية وكيف لم أستطع الدخول. شعرت أنها تطردني لأول مرة. تذكرنا معاً أمسيات الريف. أمسيات القمح والقطن المعبأ والمتدحرج بأكياسه في حاكورة المنزل. أيام يا علي. هز رأسه بأسى لم أقدر أن أصبر أكثر. وجدت نفسي مندفعاً لأقول: كيف حال صديقتك إن موعد أمسيتها يقترب. لقد أخبرت زملائي وأصدقائي كي يحضروا. ابتسم سامح: لا تزعج نفسك هي تعرف الكثيرين في المدينة. لقد عاشت مرحلة من مراحلها في هذه المدينة.

«صحيح؟»

«أجل. ولقد حدثتها عنك. إنها تتابعك عبر الصحف والمجلات الأدبية وهي من المعجبات بشعرك»

شعرت أني أقترب أكثر من عليا. أقترب من عالمها. لكن ظل هاجس أن يكون سامح أكثر من صديق لها. لم أسأله. غير أني فهمت أنها صديقة غالية لا أكثر.

ـ ٤ ـ

إنها الليلة الأخيرة.

إنها النقطة الفصل. بين ماضٍ وحاضرٍ. قد لا ينفصلان. قد يستمر أحدهما في الآخر. إلى الوراء أو إلى الأمام. لكن علي هذه المرة لم يعد قادراً على الفصل. كان شيئاً ما يتجاذبه..المدينة ذات الكوابيس المفزعة. وأمه العجوز التي تسرد كلما لقيته قصة والدها. قد لا يكون والدها. يقولون تبناها، فهي بلا جذور معروفة. إنها تبحث عن امتداد لها في علي.وعلي لا يريد أن يتزوج الآن. تكفيه امرأة تعبره بعد حين وقصيدة تفارقه ولا تعود. تعلم أنه يعيش موزعاً. لكن عليا هي النقطة. والقادم هو الحرف. غداً محاضرتها. إنه لا يقدر على النوم. يتقلب في فراشة كالمذعور. يسمع صوت صحون تتكسر في بيت الجيران المجاور. ينتظر من النافذة فيرى طائراً غريباً يشبه طائر الرّخ يقف على شرفة المنزل المهجور. وهو لا يعتقد بأنه مهجور. الجيران هم الذين يقولون. ليقولوا ما يشاؤون. هو غير مجبر على تصديق مقولاتهم. إنه شديد التمسك بما يراه.. الطائر يفتح جناحيه ويغلقها، كأنّه يريد أن يحمل المدينة كلها، شعر عليّ بالانقباض كان الوقت ليلاً.

وكانت المدينة قد هدأت واستراحت تحت خيوط المطر وراحت تسبح في أضواء المصابيح المنعكسة على الإسفلت المغسول فتظهر الطريق كأفعى سوداء تلمع.. «أفعى؟! يرتجف علي» فيهز رأسه..

«متى كنت هكذا؟» كنت تمسك الأفعى من رقبتها.وتخنقها وتأخذها إلى شجرة.

تعلقها وتسلخ جلدها الذي تملحه وتأخذه إلى «محلاّ» ليصنع لك منه صندلاً محترماً. ولكن يبدو أن كل شيء قد تبدل. يقفز علي في الهواء كأنه يجتاز ساقية. يرفع صوته و هو يخاطب نفسه كأنه يخاطب جاره. لا. لا يا علي. حتى الآن الأمور ماشي الحال. يفاجئه صوت صحون تتكسر..صوت طناجر تقع على البلاط. أنين بعيد يأتي عبر الليل. اقترب من النافذة. لم يجد أحداً من الجيران. يقترب من نافذته وينظر إلى الخارج. الستائر ما تزال مغلقة. فتح باب المنزل وخرج باتجاه جاره. نقر على الباب بأصابع مرتعشة. فتح الجار بابه قليلاً وقال بصوت أجش «ماذا وراءك؟ هل انتهى السكر من عندك؟». هكذا ظن الجار لأنه اعتاد أن يقرع عليه الباب ويسأله بعض السكر أو القهوة ليكمل سهرته مع قصيدة جديدة أو مقالة ساخنة.

لا .لا السكر موجود. شكراً لك. اقترب علي أكثر نحو الجار وهمس:

«أما سمعت جلبة في بيت أم رافع؟»

«لا لم أسمع شيئاً. قد يكون صوت الرعد.»

«أبداً. صوت الرعد أعرفه.

«يا سيدي فخار يكسر بعضه» وأدار ظهره باتجاه الباب جذبه علي من قميصه وقال: لم أرَ رعداً يخرج منذ زمن طويل. لعله هو الذي يصدر أصواتاً غريبة في المنزل.

«قلت لك. فخار يكسر بعضه.. يا أخي اتركني أنام. عندي شغل وعيال تحتاج إلى خبز.. أسألك يا رب نفسي»

عاد عليّ منكسراً.. حاول النوم فلم يستطع. فكر أن يكتب قصة حول هذه الليلة البائسة. الطائر الكبير ما يزال معلقاً على الشرفة. بينما الهاتف يرنّ. يرن. لكن علي لن يرد. إنه يحاول الآن أن يهرب من نفسه أو من رجل آخر اسمه يشابه اسمه وجاره لا يرد عليه ولا يشاركه هذه الأطياف التي يراها. كم هو حزين وبائس. هل وصلت الحياة الجديدة إلى هذه البوابة المسدودة؟ في القرية عندما يصرخ أحد يجيب جاره فوراً. يشاركه أحزانه وأفراحه. الحياة هنا لا تطاق. يريد أحداً يتكلم معه. يريد صديقاً يدفن قلقه في صدره ويفرّغ كل هذه الأحزان أمامه في كأس أو في فنجان قهوة. هل يتصل بسامح..؟! سامح يعمل في العيادة والجامعة.. سيكون متعباً بالتأكيد هو متعب الآن. هل يتصل بزميل ما. يتردد. الهاتف يرن. في آخر صوت للهاتف يمسك «من. سلوى؟!»

«ما بك.»

«لدي ريبورتاجاً ولا أستطيع أن أكمله. لقد كلفني به المدير.

«حول ماذا؟»

«حول نشأة الإنسان والعوامل المؤثرة من الناحية العلمية والناحية الميثولوجية. لو افترضنا آدم أول الخلق..فماذا يمتّ له إسماعيل. ومن الأول إسماعيل أم الضحاك؟! هل لديك مرجع ما.؟».

«ربما. أعتقد أن تاريخ ابن الأثير سيكون مفيداً».

«هل أستطيع أن آتي إليك؟»

«بالتأكيد»

«أنا قادمة»

ارتبك عليّ..شعر أنه أخطأ. لماذا يسمح لسلوى بالدخول إلى منزله في هذا الليل الممطر..دعت نفسها مرات كثيرة ولكنه رفض زيارتها. هي امرأة لعوب. تخطط باستمرار لاقتناص رجل يرفضها كي تنتقم لأنوثتها المجروحة. يعرف هو كل ذلك..لهذا لن يسمح لها باقتناصه. سيقدم لها القهوة وابن الأثير أو الطبري. سيتركها وحدها تستخرج موضوعها. ولكن أنا بحاجة لأن أتحدث إلى أحد. بحاجة أن أبكي. أو أن أرقص. أرقص إلى أن أقع على الأرض. بحاجة إلى زوربا آخر كي أمسك باللحظات الهاربة وكي أحدد اتجاهات روحي الممزقة. بحاجة لامرأة أثرثر معها ولكن ليست سلوى. هي امرأة مثيرة. لا أحتمل وجودها معي منفردة في المنزل والمطر ينهمر.. والبرد يحتاج إلى اثنين كي يطير. لكني سأحبط خطتها إذا كانت نواياها سيئة.

كان علي يمشي في المنزل ذهاباً وإياباً. رفع بعض الكتب عن السرير ورتب الطاولة. جهّز سخانة القهوة.. حاول أن يتصفح كتاباً إلى أن تأتي فلم يقدر. كان مضطرباً ـ كأني أرى سلوى لأول مرة» مع ذلك قرر ألاّ يخون ليلى مع امرأة عابرة. ليلى المرأة الوحيدة التي دخلت حياته ولم تخرج. إنها كل النساء اللواتي مررن به على الرغم من فراقها منذ زمن طويل. يتنهد بحسرة. ـ أنا لا أستطيع أن أشرب قهوة آخر الليل دون أن أذكرها ـ سمع وقع خطوات تمر في الشارع الخلفي أشعل ضوء المدخل الضيق الذي يؤدي إلى فسحة دار مبلطة بالأحجار الرمادية وعلى هذه الفسحة أن تتوزع بين أبواب خشبية، كل باب يسوق إلى عالم مختلفٍ، إلى مخاوف وأحزان وأفراح ووسائد وأحلام كبيرة.

كانت شقة علي مضطربة. مرتبكة. حاول ترتيبها. طالعته بطاقة المحاضرة للأستاذة عليا. سحب البطاقة عن الطاولة. تفحصها جيداً ثم أعادها إلى وسط الطاولة ولأنها صديقة صديقه. سجل تحت اسمها «ص.ص» تأمل الحرفين بهدوء كأنه يتأمل جدول ماء ينساب بلا

صوت.ماذا يخبئ له الغد؟ ماذا تخبئ له الساعات القادمة؟ افتقد هدوءه عندما سمع من جديد صوت كؤوس تتكسر، دخل رعد فجأة ساحة هدوئه. حطم كل زجاج تأملاته وأحلامه. راح يزرع صحن الدار ذهاباً وإياباً بينما المطر يهطل متقطعاً. شعر بالبرد. دخل ثانية منزله. اقترب من المدفأة. صوتها يئن. أيكون هذا الأنين هو صوت المدفأة يا علي؟ لا.لا. لا يمكن أن أخطئ إلى هذا الحد. سمع وقع حذاء يقترب إنه حذاء نسائي. حذاء عالي الكعب.

نقرات خفيفة على الباب، يتقدم متثاقلاً نحوه. يفتح الباب ويقف مواجهاً لسلوى.

«هاي»

هكذا تحيي الجميع. وعلي من هذا الجميع. نظرت إليه بهدوء وقالت هل أفهم أنك تعتذر عن استقبالي؟

«آه. أنا متعب يا آنسة»

«كم أنت غليظ. لماذا لم تقل ذلك على التلفون؟ الآن بعد أن جئت تحت البرد والمطر. أين الشهامة العربية ألا ترى أنني أرتجف من البرد؟ ابتعد أيها الرجل المقدود من الصخر.

«أنا..؟!»

«في الجريدة يقولون عنك هكذا وأنا أدافع عنك. الست مخلصاً للزمالة..؟»

«جداً!»

تفضلي.

قبل أن تستقر سلوى على الكنبة الملاصقة للمدفأة قال علي أسمعتِ إنه يئن»

«من؟ ماذا تقول؟»

«ألم تسمعي أنيناً؟».

«لا أسمع شيئاً».

«يبدو أنه صوت الهواء. أنت تعرفين البحر ورياحه. يرش ملحه على البيوت ويهز النوافذ والأبواب لدرجة أن المرء يتوقع قدوم يأجوج ومأجوج.

ابتسمت سلوى وهي تمشط شعرها المبلول بأصابعها فتستنفر العطر الذي يختبئ بين خصلات شعرها وتحت طيات ثيابها.

ـ بيتك مريح.

ـ كأنك ترينه لأول مرة.

ـ نعم. أول مرة أدخله.

ألا يوجد عندك شاي؟

سأصنع لك الشاي ثم أعطيك المراجع التي تحتاجينها.

تحرك علي باتجاه المطبخ. كان يشم رائحة عطر سلوى أينما استدار شعر أنه مأخوذ لأول مرة. نهضت تتبعهُ ـ أنا أصنع الشاي.

ـ لا أبداً. أنت ضيفتي. اقتربت منه. أعادها برفق. وعندما لا مست يده يدها شعر أن شيئاً ما اضطرب في صوته. عندما عاد من المطبخ وجدها تتفحص البطاقة «ص.ص»نظرت إليه بدهاء وسألت

«ألا تعرف هذه المرأة؟»

«لا. أبداً. سأحاول أن أحضر محاضرتها»

«لماذا؟»

«لأرى كيف تحاضر المرأة في مدينة الرجال.!»

«فقط؟ أم أنك تطمح لشيء آخر؟»

«ما هو مثلاً؟»

«الرجل عندما ينوي حضور محاضرة أو ندوة لأمرأة فأول شيء يخطر في باله جمالها.

«أهي جميلة..؟»

«أنصحك ألا تحضر»

«لماذا؟. أتعرفينها»

«طبعاً. هي امرأة مختلفة. خبيثة! ذكية! طيبة لا أعرف أن أصفها. شيء من الجمال شيء من الحزن. من الدهاء. لا أعرف. لا أعرف.

غداً تراها.

المطر يهطل في الخارج. الرياح تصطك بالجدران فيهتز الجسد. أنين بعيد ينساب مع الليل. هل عاد رافع من المقبرة؟. ربما يحمل السكين بيده محاولاً الانتقام من رعد. مأساة إذا كان الأمر كذلك. يا إلهي.

علي! ماذا تهمس؟ نظرت سلوى باندهاش «ما بك»

ـ لا شيء يا عزيزتي. أفكر بخاتمة قصة أكتبها الآن.

ـ هل انتقلت للقصة؟! لمن تترك الشعر.

ـ القصة سيدة الأدب الآن. إنها تتماشى مع عصر السرعة.

ـ ولكن هذا يشتتك.

ـ لا. أبداً. لماذا لم يؤثر ذلك على جبرا إبراهيم جبرا؟ لماذا لم يؤثر على شكسبير؟! الكتابة هي الكتابة. كما الإنسان هو الإنسان مهما

غير نوع ملابسه..

أهي قصتك مع ليلى؟!

ـ لماذا تشدينني إلى الوراء. اشربي الشاي لأجلب لك «ابن الأثير»

ـ شكراً.

تحرك علي بعصبية واضحة. لا يريد لأمرأة مثل سلوى أن تتحدث عن ليلى. مع ذلك بعد أن تصفحت قليلاً بعض الوريقات سألت بحيادية.

«أتحب ليلى حتى الآن؟!

«هذا موضوع قديم.»

يفتح علي النافذة قليلاً محاولاً تغيير الحوار. قال أريد أن أغير الهواء الفاسد.لمح باب أم رافع ينفتح وينغلق. كل شيء هاجع، ساكن تحت المطر. كان يفرض سطوته. ورأس السنة يقترب. نهايات تشعر المرء بالكآبة..كيف للمرء أن يتشبث باللحظة. لكل إنسان طريقته. علي يتشبث بالقصيدة فيوقف الزمن. سلوى تتشبث بالجسد.. جاره يتشبث بالكأس الملأى بالكحول. من بعيد تأتي نغمة أغنية قديمة. تنساب عبر الليل وتدخل أذن علي. تنتفض روحه المتعبة. يلتفت إلى سلوى ماذا لو أفرغ كل قلقه الآن في جسدها البض الذي يّنبض شهوة وإغراءً.

«لا.. لن أخونك يا ليلى.. عندما أحب سأفعل. أمّا أن أصطاد امرأة عابرة. لا. لا»

يغلق النافذة ويرخي الستارة، يخطر له لو أن أحد الجيران قرع عليه الباب وشاهد عنده امرأة ماذا يقول له. كيف يبرر له ذلك.. .

هكذا سلوى.. دائماً تخاطر بتصرفاتها اللامدروسة وعلي يدرس

كل حركة تصدر عنه فهو لا يملك أي رصيد سوى سمعته أمام الجيران. لو رأتها أمه الآن لضربت على صدرها وراحت تركض في الحاكورة مكشوفة الرأس. ستقول: يا ويلي امرأة نصف عارية في الشتاء. هاهي تخلع جاكيتها الخضراء وترمي حذاءها ثم تسند رأسها على ذراع الكنبة وترفع ساقيها إلى الكنبة وتطويهما، تسدل شعرها إلى الوراء. بينما صدرها يعلو ويهبط والكتاب في حضنها تحاول أن تقرأ ما يهمها. لكنها لا تستمر على هذه الحالة. تمد ساقيها فتنفرج تنورتها عن فخذين أملسين.حاول علي الانشغال بكتاب بين يديه وهو يرشف الشاي. لم يعد يسمع أنيناً ولا صراخاً. ولم يعد يسمع صوت رافع ولا أمه، انحصر كل تفكيره في تنورة سلوى. بحركة التنورة. استرق النظر إلى صدرها وفخذيها. وهي تدعي الانهماك في القراءة. راودته فكرة أن يقترب منها ويمسح على رأسها وشعرها ويقبلها إلى أن ترتوي. لكن ماذا لو صرخت. ماذا لو أنها تدبر له مكيدة. لا..لا. همدت حركته. بينما راحت سلوى تتحرك كل فترة وجيزة. مرة تدير وجهها يميناً ومرة إلى اليسار. تمسح شعرها، تشد تنورتها ثم تتركها بهدوء ترتفع إلى أن يظهر فخذها وفجأة تعود فتشد التنورة. نار المدفأة تتأرجح ورائحة عطر سلوى يزداد كثافة في جو الغرفة. علي مرتبك لا يعرف ماذا يريد. هل يقول لها هيّا ارحلي يكاد أن ينتصف الليل. لا. هو لا يريدها أن ترحل. يدخل المطبخ ويعود بقهوة ساخنة. «لماذا عذبت نفسك»؟

«أبداً أنت ضيفتي»

«شكراً» تقولها ببرود تام كأنها لا تفعل شيئاً. يتفقد مازوت المدفأة. لا الوقود كافٍ لساعات أخرى. ماذا لو انفتح الباب الآن وانكشف سر شقته. لكن الباب مغلق. اقترب منه، تلمسه وتفقد المفتاح فيه. ابتسمت سلوى. «ماذا تفعل» أتفقد الباب كي لا تفتحه الريح. يعود فيتلمس الباب من الأعلى إلى الأسفل. كأنه يتلمس ساقين أملسين لامرأة فاتنة. يتذكر ليلى. لم يرَ ساقيها حتى تزوجها. أقفل الباب بهدوء. غداً

سيرى امرأة أخرى إنه يعد نفسه بامرأة مميزة. سلوى لا تصلح إلا للسرير فقط.

صوت البحر يدوي بعيداً..أنت ضعيف يا علي؟! ـ يستنكر ضعفه. امتحان صعب يضع نفسه فيه. سيكابر. لن تسوقه غرائزه. ينكب على طاولته الآن يريد فعلاً أن تذهب هذه المرأة من منزله. يريدها أن تغادر قبل أن تشعل الحريق في ستائر المنزل. لم يستطيع الاستمرار في انكبابه راح يبحث عن شيء ما في المكتبة.

«عن أي شيء تبحث؟.

يقع الكتاب من يد علي على الأرض. ترفعه سلوى بعيونٍ شغوفة

«تعال نشرب القهوة»

لا. لن أقترب منها. إنها تحيك مؤامرة ضدي. ولكن من الخاسر؟ أنا لن أخسرَ شيئاً.

«بلى ستخسر الكثير يا علّوش» ينتبه لصوت يعرفه جيّداً. هذا هو صوت العمّ صالح. يتلفت حوله فلا يجد إلا سلوى وقد اشتد لمعان فخذيها. يشعر أنه يتعارك مع مجموعة من النساء والرجال. وكأن ثيابه ممزقة وشعره منفوش وعرقه ينزّ بغزارة. يريد أن يستند رأسه إلى صدر أمه ويشكو إليها..متعب أنا يا فطوم. اقترب من سلوى.. جلس مقابلاً لها. انحنت إلى الأمام بحيث لا مس جبينها صدره وهي تقدم له فنجان القهوة. تراجع إلى الوراء. إنها هي. هي. ليلى تحملق بي»

«اتركيني بحالي. ابتعدي عني. أرجوك. لقد مللت الوحدة والضياع»سلوى تمسح على ساقيها وتتقوس قليلاً على الكنبة. ستارة الصالون تتحرك. الساعة الجدارية العتيقة تدق مقتربة من الواحدة ليلاً ويجب أن ترحل سلوى»هاهي ترتشف من قهوتها. فمها ينطبق على مرارة القهوة «اقرأ لي قصيدة» تقول بصوت هامس «هل انتهيت من

البحث» «لا.. ولكني مللت»

ما بك يا علوش. يرشف القهوة. أنت ضعيف الليلة ألم ترَ امرأة في حياتك..طيلة عمرك لا تتساق وراء جسد المرأة إلا إذا أحببتها. الحب شيء آخر ولجسد الحبيب رائحة خاصة لا توجد عند جسد عابر. لماذا لا يكون هذا رجولة يا علوش..أن تعفّ عند المغنم لماذا يسمونه ضعفاً؟

«رجولة؟! هي التي أتت إليك. رفعت تنورتها وقالت لك انظر. وأنت تشيح بوجهك. تشدك وتقول لك انظر إلى متى تحترق»

«لا..لن أضعف..يسمع صوت العم صالح» ـ جاءتني امرأة فاتنة كانت تسكن جارتي، سافر زوجها بقصد التجارة وبقيت وحدها. قالت يا صالح أرجوك أن تساعدني في رفع كيس الطحين لأضعه في العنبر.قلت لها غداً. اتركيه حتى الغد،زوجتي قالت: لا يا صالح ألا تُساعد جارتنا؟!

ذهبت معها والليل يغطي القرية برداء شفيف. سارت قربي امرأة طويلة جميلة. لها جسد ملفوف. ولكن لم أحاول النظر إليها يا بني يا علّوش. أنا أكره أن أنظر إلى غير زوجتي. دخلت المنزل بعد أن دخلت. ضوء الكاز ينوس هادئاً. الصمت ورائحة المؤونة ورائحة لحم مشوي، كل هذه الروائح تختلط ببعضها. قلت لها:

«أين كيس الطحين؟!»

«ألا تقعد يا صالح قليلاً؟»

«لا..أين كيس الطحين لأرفعه إلى العنبر»

«ولكن عندي لحم مشوي أريد أن تتذوقه»

«شكراً يا أختي لا أريد.»

«طيب. ادخل هو في بيت المؤونة. دخلت يا علوش. وجدت طاولة صغيرة عليها كأس عرق. ولحوم مشوية. وضوء صغير يضيء بخجل بيتاً للمؤونة فيه زاوية مفروشة بحصير وعليها وسائد والطاولة على طرفها الغربي. وقفت جامداً. دارت بي الجهات. لم أعد أر أمامي. أأشتري البهدلة لاسمي. أنا صالح الذي لا يقبل أن يقوم بشيء ضد قناعته. وأنا قناعة مني لا أرغب في امرأة أخرى. تلفّتُ إلى المرأة فوجدتها تغلق الباب «بالمصرعان» لم تكن الأقفال الحديدية موجودة في القرية. «ماذا تفعلين؟!.

ألا ترى؟! أنت أعمى يا صالح؟! إني أقفل الباب. وبسرعة البرق خلعت ثوبها الخارجي ولم تكن ترتدي غيره فظهر جسد كحوريات الجنة اللواتي يتحدثون عنهن..أخفضت بصري. لا أريدها أن تفتنني. لحظة هي ولكنها تلازم رجلاً مثلي طوال حياته. أنا أفعل ذلك في بيت جارنا صديقي، زوجها..؟! تفوه على النساء الساقطات. هذا الحديث يا علّوش لم أحدث به أحداً قبلك. صدقني يا بني علي ما يزال صامتاً أمام أنفاس سلوى المستلقية بكل غواية على الكنبة. ولكن العم صالح يتابع سرد قصته على علوش الذي يجلس قبالته ويستمع إلى وصاياه وحكمته.. تنهد علي. كأنه يحث الذاكرة أن تتابع.. تابعِ يا عم صالح. العم صالح يتنهد بعمق ويتابع المرأة جميلة. جميلة جداً وزوجها غائب، اندفعت إليّ و طوقتني بذراعيها راحت تقبلني بنهم وتتوسل إليّ أن ألامس جسدها وأن أمرر أصابعي على ظهرها ونهديها و.. لم أفعل.. حاولت أن أبعدها بقسوة. ابتعدي أيتها الـ..عند ذلك وقفت متحدية.. قالت إذا لم أمتلئ بك فإني سأصرخ صوتاً وأقول: إنك تريد اغتصابي. سأصرخ فعلاً وسأجمع عليك الجيران وعند ذلك ستنهار أمام الجميع ولن تكون أبداً صالح الذي يتحدثون عنه. ألست رجلاً؟! لماذا لا تشعر بي. إني أتوسل إليك، أدركت فوراً قسوتي، وأدركت أنه عليّ أن أتصرف بحكمة، حضنتها بلطف وقبلتها على خدّها، قلت لها: أنا

أشتهيك منذ زمن طويل. إني أحبك ألم تلاحظي ذلك؟! ولكن اليـــوم لا يمكنني أن أبقى أكثر من ذلك. قد تأتي زوجتي ظناً منها أني تـــأخرت. أو قد يسأل عني أحد فتقول له هو عند الجارة عند ذلك يأتي قارعاً علينا الباب وتكون الفضيحة الكبرى لك أولاً.

أنا أحبك وعليّ أن أحميك من العيون والألسن. تعالي نتفق علـــى موعد آخر. قالت: غداً. غداً لا أستطيع أن أصبر أكثر من الغد. «غداً يا حبيبتي. آتيك ليلاً. أدق الباب ثلاث مرات. تعرفين أني قادم.. اتفقنا؟!.» تمسكت بي بشدة. عبثت بشعري وجسدي ثم همدت ثورتـــها بانتظـــار الغدّ. افتحي الباب. فتحت الباب خرجت مسرعاً كـــأن جيـــش العـــدو يطاردني. مشيت إلى مصطبة المنزل ولم أعد أقدر أن أتابع. ارتميـــت على الأرض ألهث. رأسي يدور وأخذت أتقيأ. جـــاءت زوجـــة عمـــك صالح اندهشت ما بك. أدخلتني إلى المنزل عملت الزوفا وسقتني كأســـاً ساخناً. ما بك يا صالح «لاتخافي. لاشيء. لاشيء. يبدو أنـــي أخـــذت شمس أثناء النهار» ثلاثة أيام بلياليها أعاني الإحباط. لمن أقول قصتي؟! ظلت سراً معي ولم أجرؤ أن أمر بعد ذلك بالقرب مـــن منزل تلـــك الجارة. كانت تأتي هي أحياناً فتنظر إليّ منكسسرة وأحيانـــاً متحديـــة. لكني كنت أهرب منها عندما أراها. لا أريد أن أخلع ثيابي. الذي يخلـــع سرواله مرة يخلعه في كل مرة وببساطة أكثر. لدرجة أن هـــذه الحالـــة تصير حيوانية بحتة. الرجولة لا أن تتخذ عشرات الخليلات. الرجولـــة أن تتحكم بأهوائك إنه الجهاد الأكبر يا بني»

«يبدو أن مازوت المدفأة قد انتهى»

«حاضر. سأملأ المازوت للمدفأة. ألم تنتهي بعد؟!

«أتريد أن تطردني؟»

«لا.لا أقصد ذلك ولكن إلى متى ستسهرين؟!

العم صالح يقول لي اطردها. ولكن كيف؟ المطر يهطل بغـــزارة

والمدينة نائمة تحت لحاف كانون. أغلقت الأنوار آذانها. لا حسّ ولا حركة إلاَّ حركة عطر سلوى. اتركني يا عم صالح وحيداً الآن. أنا أختلف عنك، يتردد. يأخذ شالاً صوفياً يفرشه على ساقيها..السيقان تهزم أعظم الرجال «لن تهزمني بساقيها. هاأنا أغطيهما»تتنهد سلوى..تختلق حديثاً مفاجئاً. مديرها غازلها البارحة وطلب أن تزوره في شقته الخاصة التي لا تعرفها زوجته. وزميلها الصحفي الجديد. و.. راحت تسرد انهماك العالم كله بها. ماذا تريد أن تقول. لتقله وترتاح. هي أنت التي. لا تريد أن تترك له مجال إثبات رجولته. العم صالح يريده نسخة عنه. العم صالح لا يريد أن تغتصبه امرأة.

«ماذا تفعل؟»

«أفرش على ساقيك شالاً كي لا تبردي»

«أجل. البرد شديد. ولكن ألا تعجبك ساقاي».

«جداً. ولكن»

يرتعش صوت علي. كأنه يلامس جسد ليلى لأول مرة. ليلى التي تداهمه فجأة سيحاول التخلص منها.. يقع الكأس من يده. يسمع أنين أم رافع. يرى دم رافع يسيح أمام عينيه. يريد أن يصرخ. يبكي. سلوى تغمض عينيها نار المدفأة تندلع. عطرها.. عطر هذه الأفعى يطغى على كل شيء. رأس السنة يقترب. سيكبر عاماً وعاماً وسينتهي العمر بين صراع وصراع، أصابعه ترتجف. يريد أن يسند يده..لا يعرف كيف راحت أصابعه تستلقي على فخذ حار أملس، امرأة ناضجة بين يديه. تتحرك كأفعى، تنزلق يده إلى الركبة. إلى القدم. يتراجع. يسحب يده. تتنهد سلوى كأن صوتها يأتي من عالم آخر.. تهمس «غطيني»يقترب منها أكثر..«أكره الجوارب» يشدّ جواربها.. يشق الجوارب ـ ابتعد الآن يا عم صالح»تمد ذراعيها. تطوق رأس علي. تقرّب وجهه من وجهها.. تعطيه شفتيها يأخذ حلاوة الشاي ومرارة القهوة. ينحني

فوقها.. صدرها يرتفع وينخفض. يلامس صدره بحلمتي الثديين. «غطيني» تهمس كل لحظة. يسحب تنورتها.. كأنها تقول له «عرّيني» يشدّ التنورة إلى الأسفل. النار تندلع. كأس الشاي يتكسر..العم صالح تسقط دمعته على خده وهو يقف تحت المطر. «غطيني». لا يتراجع في اللحظة الحرجة. يتراجع منكسراً. مهزوماً. تنظر سلوى إليه تلملم تنورتها وتقول «أنت لست رجلاً»

«الرجولة يا بني..»

«أرجوك يا عم صالح.. أنا متعب غير قادر على استيعاب أي شيء.. الفلاحون في الحقول والشمس تميل إلى الغروب. يأخذ العم صالح سبحته وينزل باتجاه البحر. الجيران يتشاجرون على ماء السقاية الذي يتوزع في أقنية تمتد من نبع السن حتى السهول الشمالية. فأس تهبط على رأس أحد الفلاحين..الدم يسيل.

يصرخ علي بأعلى صوته»

عندما استيقظ على صراخه كان متعباً وكان البرد يعضّ مفاصله. نظر حوله فوجد أنه ينام على الأرض والصباح يعمّ المدينة. تسربت خيوط شمس خجلة عبر النافذة لكن موجات الغيوم الشتوية ما زالت تركض من البحر باتجاه الجبال الصامدة في وجه رياح جبل الأقرع، على الطاولة كأسان للشاي. وفنجانان للقهوة. من شاركه المساء؟! حاول أن يتذكر.. أخيراً فطن إلى أن سلوى زارته مساء ولكن لا يتذكر متى رحلت. وقد تكون ما تزال في المنزل. إنه يعرف جرأتها. قد لا تكون سلوى. على المرء الناضج أن يشك في كل شيء خاصة هذه الأيام. لكن سلوى بالتأكيد هنا. دخل غرفة النوم فلم يجدها. انتظر قليلاً لعلها في الحمام. أخيراً اضطر أن يقتحم غرفة الحمام. لم يصدق ما يرى. امرأة تنام على البلاط. اقترب منها إنها ليست سلوى. امرأة لا يعرفها.. تمالك يا علي ـ نادى نفسه بصوت عالٍ.قارن شجاعته الخائبة بأيام

عودته ليلاً من المدينة إلى القرية. وكيف كان يرى الضباع ولا يخاف. لماذا تخاف الآن يا علوش؟! سبقته غصَّة فلم يكمل حواره. اقترب من المرأة أهي نائمة أم ميتة ـ هذه أم رافع. متى عادت؟! شدّ رأسه بكفيه. تراجع إلى الوراء. لقد قتلها رعد. ليس إلاَّ رعد يقتل أمه. ولكن لماذا هي في بيته..؟! أسئلة كثيرة لا يعرف كيف يجد لها الجواب. منذ طفولته والأسئلة تطارده. فرّ من القرية. طاردته الأسئلة إلى المدينة وهاهي الآن لا تكف عنه. متعب أنت يا علّوش. هل تفكر بالعودة إلى طرقات القرية الظليلة؟! جلس أمام قهوة باردة وراح يعيد السؤال بحزن.

ـ ٥ ـ

ـ منذ شهور لم أرَ أم رافع وهي لم تدخل بيتي أبداً.

ـ ولكنها كانت في منزلك.

ـ أنا لم أكن في المنزل عندما دخلت.

أين كنت؟.

كنت عند الأصدقاء.

كنت على البحر.

كنت تحت المطر أمشي. أركض. كنت أشعر بحاجة للبكاء..للصراخ..جاءت سلوى مساء أخذت كتاب ابن الأثير ورحلت.

«أنا؟» أنا لا أجيء في الليل من أجل مرجع ما. أم تظن بأني أدور على حلّ شعري؟

ــ لا. لا أقصد ذلك. ولكن جئت. شربت الشاي وأخذت مرجعاً.

ــ لماذا أجيء إليك. مرجع ابن الأثير لدي في مكتبتي. لماذا أجيء إذن أم تظن أن النساء مغرمات بك أيها الشاعر العملاق.؟ أعرف، أنتم الشعراء تظنون كل امرأة عاهرة.

ــ هل أنا قلت ذلك؟! لم أقل هذا أبداً

ــ قلت ما يماثله.. أنت تظن نفسك خارج نطاق الشبهات.. ماذا تعرف عني؟! لو كنت كما تنعتني لما رضيت بالذهاب إليك. كنت أذهب إلى أي رجل ميسور.. رجل يغدق عليّ الهدايا والذهب.. لا رجل يقدم لي كأس شاي؟ أو فنجان قهوة ويظن بأنه قدّم لي المرجان.

ــ آسف يا سلوى. لماذا أنت عصبية هذا اليوم؟ أنا واقع في ورطة وأنت تعرفين ماذا أقصد. أنت فعلاً جئت إليّ، وهاهو قلمك عندي لقد نسيته على الطاولة وأنت تضعين خطاً تحت اسم الأستاذة عليا. أريدك أن تتذكري كي تساعديني. تصوري أنا أقتل؟! ومن؟!

أم رافع الطيبة المسكينة.

ــ ولماذا لا تقتلها؟! أنا لا أبرّئ أحداً. قد تكون أنت القاتل. ووجود قلمي لا يعني وجودي في بيتك. قلمي أنت سرقته ولقد رآك مخرج الصفحة.

صمت لدقائق. أنا غير قادر على الرد. أي لغو أسمع؟ لا بد أن شيئاً ما يحدث ولكن لا أعرف ما هو.. حاولت أن أتذكر شيئاً مما كتبت.. الكتابة هي ذنبي الوحيد في الحياة الدنيا.. ربما أغضبت الأنبياء أو ربما أغضبت الولاة والسلاطين الجدد. كل هذا لم يحدث.

ــ يا سيدي أنا بريء. والله العظيم بريء.

ــ أتظن البراءة بهذه السهولة.؟

ــ ماذا أفعل كي تصدقوني.؟!

برأيكم ماذا أفعل.. وما الذي فعلته؟ هذه البراءة التي تكلف المرء حياته إلى الأبد حتى ولو ظهر أمام الناس وشرب ودخل المحلات الماجنة. كان عليَّ أن أوقع.

وقّع.. وقَّعتُ.. هي الحرية تؤخذ ولا تعطى.. أنا لم آخذ من هذه الحياة شيئاً..كل الأشياء التي أحببتها هجرتني أو ضاعت مني.

أتوني بورقة بيضاء أنيقة. عليها أختام كثيرة. وأعطوني قلماً مذهباً هنا..في الأسفل. وقع في أسفل السافلين. كل حروفي منذورة ومهداة لسلطان القلعة التي تتوسط المدينة منذ ألف عام أو أكثر. وعلي أن ألقي كلمة عصماء أتوسل فيها إلى الإله الأكبر. كبير الآلهة. أن تبقى القلعة بعيدة عن الزلازل والبراكين ولاسيما أن جابالا ضربها الزلزال عدة مرات ودمَّرها عن بكرة أبيها. هكذا سنبرئك يا علوش، ضحكوا بعد أن وقعت..ابتسم كبيرهم..اهتز كرشه..في الحقيقة لم تكن المرأة إلا خيالاً. وهماً من أوهام الشعراء. هو الذي جاء وقال رأيت امرأة مقتولة في منزلي. «واحد مجنون ماذا تقول له؟»

عدت مزمجراً بعد أن كنت خارج الباب أمشي باتجاه الشارع. صرخت: أولاد «الـ...» لماذا فعلتم بي هكذا.؟

«كي تخرج براءة»

لا. أنا لست بريئاً. أنا رأيت امرأة لم أتعرف إليها جيداً. رأيتها ميته. أنا لست بريئاً..

«اخرج. هيا وإلاَّ..»

ركلني أحدهم بحذائه الضخم. سقطت على الأرض. سمعت امرأة تضحك.

هي.. سلوى. سلوى تضحك عليّ.. أتكون هي التي ارتدت ثياب

امرأة أخرى وادّعت أني قتلتها؟!

آه يا سامح. لم أعد أعرف شيئاً.

عندما عدت إلى عملي ظهراً. جاءت سلوى وقدمت لي مظروفاً..قالت افتحه. فتحته فرأيت صورتي مع امرأة لها جسد سلوى ولكن لها وجه لا يشبه وجه سلوى.. المرأة عارية وأنا أدثرها بجسدي. لم أندهش.. تابعت سيري.. كانت السنة الجديدة قد رحَلت. وكان شهر آذار على الأبواب. شهور مضت على محاضرة الأستاذة عليا.. شهور لم نتحدث عنها أنا وسامح.. شعرت حقيقة أني أسير وفق خطة مرسومة لي.. لم أعد أنا الذي أحرك أحجار شطرنج حياتي. حتى كلماتي عليَّ أن أربطها كي لا تصير باتجاهات ممنوعة..

لقد نضب الشعر في أعماقي. لم أعد أكتب شيئاً. وعندما أُخلو إلى نفسي مغلقاً عليَّ الأبواب أحاول كتابة نصوص جديدة خارجة عن قانون المعاهدات. لكن سرعان ما أجد رجالاً ملثمين يقتحمون عليّ غرفتي يمزقون ما أكتب ويخرجون دون صوت. في الصباح أجد أوراقي في سلة المهملات. منذ ذلك الحين فقدت صوتي وعددت تلك الهزيمة هزيمتي الكبرى.إنها تفوق هزائم الحروب. كما أني فقدت البياض وخبر البحر. نضب الموج يا عليا.. أتسمعين..؟

هاأنا أقصّ عليك أشياء كثيرة لم أكن لأقصها على أحد. هزيمة الكاتب الكبرى أن يفقد الإلهام. يفقد الكلمة التي يحارب بها. يأكل بها. يصافح الناس بها. بصراحة لم يبرح وجه أم رافع وجهي بعد تلك الحادثة.

أنا أفعل هكذا بهذه المرأة.. الأم؟! المرأة التي لا تشيخ ولا تفنى.. تركت المنزل ولم أعد إليه إلا في أقصى حالات التعب. لم أعد أطيق رؤيتي أتشظى في منزلٍ مسكون بالجرائم والقتلى. تصفحت المدينة شارعاً شارعاً. والمقاهي وشاطئ البحر، تسكعت أياماً حتى صدقت

نفسي. أجل صدقت بأني فعلاً قتلت أم رافع ولا بدّ لابنها رعد الذي يجاورني في بيت مهجور.. لا بد لهذا الرجل من أن يخرج ذات ليلة صاخبة ويقتلني كما قتل أخاه. لكني أتساءل أين ذهبت جثتها؟! لماذا اختفت ؟! هل طارت؟! آه.. متعب جداً كيف أقتل أماً. إنها امرأة طيبة. جميلة. تذكرني دائماً بخالتي هدبا. حتى إني كنت أناديها.. يا خالتي هدبا. يستغرب الجيران من تكون هدبا هذه.؟

إنها عليا.!

ألم أخبرك قصة خالتي هدبا؟!

أنا أحكيها لنفسي أحياناً. في أيام وحدتي وحيرتي أقص حكاية هدبا على نفسي، أفكر في كتابتها بشكل سيناريو وإرسالها إلى محطات التلفزة والأقمار الصناعية التي تغزو عقول الأجيال حالياً. من الأفضل أن أترك الكتابة على الورق. الآن عصر التلفزة. عصر الشاشة.. لأكتب على الشاشة ولكن عليّ أن أقرأ بنود المعاهدة. لا حب. لا جنس. لا سياسة. لا. لا.. مجموعة من اللاءات هذه يجب أن أعلقها كتعويذة في بيتي. في الواقع قصة خالتي هدبا لا تتفق مع هذه اللاءات لأنها تنتمي إلى الحقيقة التي تفوق التسامح اللائي.

خالتي هدبا فتاة جميلة. زوّجها جدي من رجل يكبرها بثلاثين عاماً. وعندما اعترضت جدتي. قال جدي الرجل لا يعيبه إلا فقرُه. كانت خالتي في الخامسة عشرة من عمرها. وكان زوجها في الخامسة والأربعين. كان أميراً. هكذا قال لجدي.

ـ ٦ ـ

«أنا أمير يا شهاب. اطلب ما تشاء بهذه الفتاة الجميلة.

«أمير!! على العين والرأس. ولكن أنت غريب وهدبا لم تخرج بعد من قرية «سيانو»

«الآن أنا غريب.. ولكن عندما أصير بعلها سأكون ابنك وهدبا تصير زوجتي قرة عيني. سأضعها في قصر شاهق. سآخذها إلى بلاد كثيرة. وأنت ستغسل فقرك. وسأساعدك لشراء السهول المحيطة بالقرية كلها. ستصير سيداً وتتخلّص من العبودية والذل، وسأكلم الحاكم الكبير كي يمنحك الألقاب ويبني لك قصراً، ستكون ظله هنا في هذا السهل.

لم يفكر جدي طويلاً.

ولكن لماذا أتذكر هذه الحادثة الآن؟

لا أعرف يا عليا. لا أعرف. بطاقتك التي في جيب سترتي هي التي تحضّني على نبش ذاكرتي، ربما لأنساها نهائياً، سأحاول كي أغتسل من ماضٍ لم أصنعه.. وربما كي أغفر لنفسي قصوري في مستقبل مسيّرٍ أنا فيه. ألم أوقّع على معاهدة لا علاقة لي ببنودها..؟! أتساءل أحياناً وأنا أرى النساء المتبرجات.. لمن يتبرَّجن؟! للذي قضم حلمة ثدي خالتي؟! امرأة ترش العطر. وامرأة تلقي محاضرة. وأخرى يقضمون ثديها. وامرأة عجوز ترش قصائدها الغنائية والعتابا في تلافيف الزمن الذي خذلها.. لو أن «ماندل» بحث عملية التهجين بين النباتات والإنسان؟!ربما تخرج من المرأة شجرة؟! شيء مضحك أليس كذلك؟! طيب. بين الحيوان والإنسان. شيء جميل. أجل. أنت يا عليا تقتنعين بفكرتي. ماندل صديقك هذا لم يعبر إلا عن عصره. لم يصل

بتصوراته إلى عصرنا. ألم تقولي: يخرج من المرء ذئبٌ أحياناً؟ الـهجن الحديثة تعزز نظريتك. الذئب يسكننا العكس صحيح.

أتدرين؟! في البداية استغربت ما أخبرتنيه.. الآن وعلـــى ضــوء نظراتك وآرائك بدأت أحاكم الأشياء بطريقة مختلفة. الآن أدرك لمـــاذا قضم زوج خالتي حلمة ثديها

في اليوم الأول لزواجه.

جدّي بنى قصراً وصار بعد ذلك باشا. ولم يعد بحاجة لأن يـــدق باب القائمقام ويدخل..صار يدخل دون استئذان وتحول من رجل فقـــير يهاجم الباشاوات ويفنّد سرقاتهم ويدافع عن المظلومين إلى باشا.. جـدي صار باشا. وصار له أزلامه وأعوانه. وصار له مرابعــون.. وتــزوج امرأة غير جدتي بنى قصره على تخوم القرية بعيداً عن الفلاحين أخوته وأقربائه. بعد ذلك نقلت خالتي إلى خيمة خارج قصر زوجها. اجتمعـت حولها نساء مجللات بالسواد وعرّافات، وزنجيات وأخذن يجمعن لها من نباتات الصحراء ـ الخالية ـ الأعشاب النادرة ليحرقنها ويرشنن الرماد على الثدي الذي التهمه الذئب البشري.

«أين أنا؟!»

أنت هنا يا هدبا. على مشارف بلاد فارس. حيث ما تزال فـــرس الفارس المقتول تهيم على وجهها.

«أين أهلي..؟

«أهلك نحن؟!

تغمض هدبا عينيها وتبكي سيولاً تهرب فـــي رمـل الصحـراء «الخالية»كل يوم تعاود البكاء والصراخ. تتلمس ثديها فلا تجد إلا بقايـاه تضرب رأسها بالحجارة والأمير لاهِ مع نساء أخريات اشتراهن.. جوارٍ وعبيد.

«أريد أهلي»

«اخرسي يا امرأة. أنا اشتريتك كما اشتريت أحذيتي»

«يا خالة. أريد أهلي»

كانت تنتظر العرافة بفارغ الصبر لتبكي في حضنها.

«يا بنتي ستعودين إلى أهلك. ولكن اصبري.»

أي صبر. الصحراء ضيقة. الصحراء قذىً في القلب والعين ستظل.. الليل يهبط والنوم يرتفع ليصير سيد القصور والخيام. تسمع على البعد صراخاً يأتي من مأوىً للأيتام الإناث.. صراخ يشق الليل. تتكور هدبا على نفسها خائفة. يطرق الأمير بابها.«اخلعي ثيابك»

ترتعد خوفاً. صوت فتيات صغيرات يبكين.. يندبن. تمر العرافة مسرعة. تضرب رأسها وتصمت.

«اخلعي ثيابك»

تخلع هدبا ثيابها. يعربد الأمير. يصول في ميدان الجسد الفضي..يمزق. يهرق..يلوك. ثم يمضي. تلملم امرأة طفلة أشلاءها وترنو إلى القمر البعيد..تمزق روحها الصيحات التي تذوب في عتمة آخر الليل. تدخل العرافة مولولة..من يجرؤ على الكلام.؟!

ماذا يجري يا خالة؟! ما هذه الأصوات الليلية؟! «لا تسألي يا هدبا.. أنت غريبة. و الغرباء لا سند لهم» تصمت هدبا. ولكن عندما يأتي الليل تتحرك الثعابين في جسدها وروحها يتحرك الخوف كمنجنيق يقذفها إلى حيث الصوت. ماذا يجري؟! لماذا يأتي هذا العويل من جهة المأوى.. دار الفتيات؟!

«لا تسألي الأمير يا هدبا»

«الأمير يأتي بصديقه. يكرم صديقه فيقدم له هدبا.. وهدبا عليها

ألاّ تسأل. لقد اشتراها..له الليل ولها النهار تنطوي فيه على جراحها. لا يجوز لها أن تنجب، وإلاّ رماها في الصحراء. هي جارية وكفى.. في النهار لا ترى الأمير يكون منشغلاً بالعبادة والتقوى وزيارة الأيتام وتوزيع المعونات والمساعدات وافتتاح صالات البيع، ومطاردة بائعي الخمور وحلاقي النساء من الرجال.

«أيتها العرافة.. ماذا يجري؟! أهَبُكِ كل أساوري وأقراطي وأعدك ألاَّ أقول شيئاً..قولي ما هذه الأصوات التي تنوح وتصرخ.

«إذا لم تفي بوعدك ستموتين في هذه الأرض ولن أسمح لك باستنشاق هواء ديارك..

«أعدك»

هذا الصراخ. يأتي من جهة دار للفتيات الصغيرات يدخل عليهن ابن الأمير وصحبه. يجرّب فحولته في اليتامى. إنه يجرّب ويجرّب قبل أن يذهب إلى حوريات الغرب. عليه أن يكون فحلاً، متدرباً.. عليهن أن يتقن فنون حربه الهمجية. ما تزال الفتيات المقهورات يصرخن وما يزال الليل مدلهماً. بعيد أيها الصبح وبعيدة أنت يا هدبا كل مساء عليها أن تتعطر بالطيب الذي يجلبه الأمير لنسائه الصغيرات. وأن ترتدي الغلالات المذهبة التي تشفّ عن أثداء نافرة وورك مستدير أملس وسيقان كالرخام. يأتي الأمير إلى وليمته بمفرده أحياناً وأحياناً بشكل جماعي.. هذه الليلة جلب معه نفراً من أصدقائه.

«اخلعي ثيابك يا امرأة وارقصي..ارقصي لنا»

«لا. لا».

«قولي يا مولاي وأميري. حاضر»

«لن أقول..»

«أنا مولاك.. ملك يدي أنت. أريدك أن تسعديني وتسعدي

الأصدقاء. ماذا تخسرين»

تتوسل هدبا. ولكن لا فائدة. تبكي. تشتم والدها. لا بد أنه يصلي الآن فأذان الصباح قد حان. لقد زوجني رجلاً أميراً.

«اخلعي يا امرأة اخلعي حذاءك وثوبك وجسدك. أطعمي أثداءك وفخذيك للجوعى. صياح يأتي من الجهة الأخرى..يفتل الأمير شاربيه مغتبطاً. لا بد أن ابنه قد فتح قارة جديدة ليدخلها الخراب الأبدي والجوع ولن تعيد نظريات ماندل ولا غيره الخصب إلى هذه القارات المهانة. مهما حاولوا التهجين. عندما نهجن وردة بيضاء مع وردة حمراء. هذا يعطي وردة زهرية اللون. ولكن عندما نهجن إنساناً بحيوان = نسمع صراخ طفلة=ونرى ذئاباً تنتشر في كل مكان.

في المساء الأخير جاء الأمير في جولته لكن لم يظفر بالعدد المعروف من النساء..

«هدبا هربت يا مولاي»

هدبا ترتدي لباس الرعاة، وتتوه في الصحراء. تصادف الوحوش البرية والغزلان. «والله صادقتهم ولم أصادق الإنسان» تشردها الرمال والهضاب». سنوات تفترسها جهات ضائعة. يغتصبها رعاة. ويشفق عليها آخرون. حملت في الصحراء. أنجبت بين الرمال ودفنت ابنها بالرمل..لكنها أخيراً خرجت من الكثبان عجوزاً تسأل عن بلاد الشام تضع عينيها وترنو إلى الشمال المورق في ذاكرتها..شمال مجدور بالعذاب والحنين. تبكي وتسقط على سيقان الحراس..«ممنوع دخولك يا امرأة بلا هوية» لقد فقدت النطق والتواصل مع البشر منذ زمن بعيد إنها نعجة ترعى الأعشاب وتستحم بالرمال والأتربة. باعها والدها كما يبيع الشعراء قصائدهم. كما تبيع عاهرة صاحبها. هدبا خالتي التي حملت على كتفيها إرث الهجن والنظريات الوراثية الكاذبة. كيف وصلت إلى القرية لا أحد يعرف. استيقظت القرية صباحاً لتجد هدبا تنام

في ساحة قصر جدها. لن تدخل القصر. إلا لغاية واحدة تريد أن تقتل جدي والدها الباشا. والد أمي الذي علّق الأوسمة والألقاب على دم ذريته. وخالتي هدبا الخرساء لم تطق البشر..فرت في البراري. تسري كما الهواء والمطر. مرة تظهر ومرة تذوب.. زوجة جدي الجديدة أنجبت ابنة جميلة. باعها جدي هذه المرة لأمير أوربي.. أمير لا يرتدي الكوفية والعباءة. يأتي لابساً الشورت ومعلقاً على صدره أوسمة أسرته النبيلة. وحيثما تمشي خالتي تنبت ورود صغيرة خافتة اللون حزينة الرائحة، يفترش الأرض خوفاً من أيدي الناس.

جدي الباشا. صار مزاراً. قبره تحول إلى مزار. جدي الذي يملك القصور والحقول والمرابعين تحول إلى مزار لأنه مات يوم عيد الأضحى فصعدت روحه إلى السماء. قائمقام المدينة لم يقبل إلا أن يبنوا له قبة مذهبة.. ثم جمعوا ثيابه وسيوفه وقصائده التي اشتراها من شاعر مغمور ونسبها إلى نفسه.. وضعوا لجدي كل هذه الأشياء الخالدة في قفص نحاسي تتوارثه الأجيال.. جيلاً بعد جيل. ووضعوا حارساً على القبر. وبعدها بدأت النساء بالتوالي لزيارته.

«الشيخ شهاب يشفي من العقم»

إنه جدي وأنا حفيده الذي دثّر سلوى وأحبّ ليلى التي تحولت إلى طائر بحري فرّ مني، وأنا علّوش الذي انتظر طويلاً حتى التقى بامرأة نادرة تدعى عليا. أي أنتِ. أنتِ التي أعادت إليَّ حروفي فاستعدت البحر والمدينة. وجزءاً من صفصاف القرية. حتى منزلي الصغير المليء برائحة أم رافع، الذي لم أكن أحبه.. صرت أحبه لأني سأصمت في زوياه الرطبة وأكتب القصائد لعينيك. مررت بفترة تشبه حالة خالتي هدبا. همت في البرية. أستعذب أكل الأعشاب.. وكنت أرى شبح خالتي هدبا يمر.. أقسم لأمي بأني أراها. وأمي لا تصدق أبداً.

«خالتي لم تمت يا أمي»

«ماتت من زمان. لا تقل هذا الكلام ثانية»

«أنا رأيتها عند نهر ـ الشحادة ـ تأكل السلبين والدردار. تنظر إليّ وتبكي. لم تكلمني ولا مرة واحدة. لكن نظراتها كانت تدل عليّ وتعرفني.

في الحقيقة كان عليّ أن أقتل أم رافع.

لا أريد أن أستعيد خالتي مرة أخرى. لا أطيق رؤيتها تتعذب.. وكان لا بد أن يموت رافع.. أن يظل مكانه.. هكذا هي الأدوار. هكذا هو القدر. من يقدر على تغيير قدره؟

قدري أن نلتقي. وأن أمتلئ بصوتك يا عليا. حاولت إبعادك عن حياتي فلم أستطع. أنا لا أصلح إلا للشعر وعليَّ أن أهرب.. كل قراراتي باءت بالفشل. عليَّ أن أعترف. عندما دخلت منزلي بعد غياب دخلت معي. كان صوتك يتغلغل في مسامي. أيعقل أن تتسلل إلى عالمي امرأة فتنتشلني فجأة من ضياعي. وتعيدني إلى اسمي الحقيقي. اسمي الذي ضيَّعته عشرات المرات.

مرة يوم مات أبي. ومرة يوم افترقت عن ليلى. يوم طارت. ومرة يوم خذلني الزملاء وسلوى والجيران. حتى صديقي الوحيد «عدنان» لم أستطيع الاطمئنان إليه أخيراً.

عدنان الذي يلحّ كل يوم لأن أكتب قصائد جديدة لسلطان القلعة الأبدية. وذلك بطريقة مختلفة ومتميزة لأنال أكبر جائزة.

«أخي كن عصرياً. الحياة تحتاج إلى بعض المسايرة» «يا أخي. كن حيادياً على الأقل..» ماذا لو كتبت قصيدة في عيد ميلاد السلطان. سيدعوك إلى مصيفة على البحر الهندي. سيمنحك الجواري وقوارير الذهب. «هه.. أتظنني غانية أوربية. لا يا صديقي»

«طيب. يرضى عنك وتسوّق كتبك»

«ساير الناس يا علي. ساير أكثر..»

أجل.. المطلوب أن أساير. أن أكذب. فأحصل على لقب جديد غير لقب الولد ابن فطوم. دخلت عالم الأدب والصحافة فـأعطوني اسـمي. لكنهم يأخذونه متى يشاؤون. حتى سلوى زميلتي التي حدثتها كثيراً عـن ظروفي في مكتب الجريدة. وكنت قد حدثتها عن ليلى وعن أمي فطـوم. وخالتي هدبا وجدي الباشا. تتآمر عليّ الآن. أنا لا ألوم سـلوى. إنـها ضحية ظروف أعرفها. ضحية الإقطاع الحريمي الجديد الذي ينتج عـن الإقطاع الوظيفي..

قلت لصديقي الدكتور سامح «أنا متعب يا دكتور. لقـد فـارقتني الحروف. وأخاف من رجل يدعى عدنان. ابتسم سامح.. أخـاف مـن رجل؟! أجل. أخاف من هذا الوغد الذي يطاردني طيلة الدوام ليسـكب في أذني نصائحه ونظرياته الجديدة التي تتماشى مع النظـام العـالمي الجديد ـ انظر بسام إنه أكبر تاجر في البلد.. انظر أدهـم إنـه أكـبر مستورد للسيارات ـ «يا أخي عش الواقع» ما هو هذا الواقع يا سـامح الذي يحدثني عنه عدنان؟! أيظنني لا أعرف ما يدور حولي. إني أتمزق يا صديقي. عدنان يقول لي ذلك؟ ما هذا الواقع الذي يجرف سـلوى.. سلوى ابنة الشيخ ـ فضل ـ الذي يؤذن للجامع الكبير. سلوى الموظفـة المحترمة جداً في الجريدة، تصبغ شعرها بعد أن تنزع «الإيشـارب..» وفي آخر النهار تذهب إلى منزل خاص لرجلٍ خاص. أتراها تعـد لـه القهوة فقط؟!

ماذا تفعل امرأة في منزل رجل الساعة الواحدة ليلاً؟

سامح هز رأسه بحزن. قلت سأقتل سلوى يا سامح، هناك ظواهـر فاسدة على سطح الكرة الأرضية لا يكون علاجها بالتسامح. تحتاج إلـى بتر.. إلى القتل. شدَّ على يدي وقال لماذا تريد أن تدمـر نفسـك بـهذه الحساسية المفرطة. يا أخي لن تستطيع تصحيح العالم وحدك؟!

لماذا يكرر هذه العبارة دائماً ــ التدمير ــ ويقول سلوى ظلّ من الظلال التي تنبثق عن الأصل.

... ...

ـ ٧ ـ

عندما رأيتك لأول مرة كان بعد خروجي من السجن بفترة قصيرة. أغلقت عليّ أفكاري. لا أريد لأحد أن يقتحم عليّ خيالي الجارف.. كنت متشبعاً بوجهك العذب. برفقتك. لم أفتح الراديو. ولا التلفاز. لا أريد أن أسمع الأخبار. لا أود أن ينتشلني أي صوتٍ من دائرتي الخاصة جداً والرائعة جداً إلى عالم القتل والتدمير والحروب القبلية. دخل ظلك منزلي. حاورته في أمور كثيرة. تبين لي أن جذورنا تتلاقى في امتدادات متشعبة إلى تربة قصر قديم. قد يكون لك خالة أو عمة مثل خالتي. أو جد مثل جدي. لكن الحوار انقطع إذ كانت طرقات قوية على الباب. هرعت باتجاه الباب. لا أعرف لماذا توقعت أن تكوني أنت وربما تمنيت. إنها أنانيتي المفرطة.. عندما فتحت الباب ــ أتعرفين من وجدت؟ وجدت رافع.

رافع الذي انطمر بقنابل النابالم.. حرقته أيام حرب حزيران. دخل دون كلمة. لم يقل عفواً ولا مساء الخير. جلس على الكنبه. تركت الباب مفتوحاً. هل أهرب؟! لا أعرف لماذا نخاف الذين يعودون من العالم السفلي؟! ولكن رافع لم يذهب إلى العالم السفلي، رافع صعد إلى عالم النور. إنه شهيد والشهداء لهم الجنة والحوريات. لهم الخلود. دَفَع دمه في لحظة صدق. لحظة إيمان. وضع يديه على وجهه وراح يبكي. مسح وجهه بعد نوبة بكاء وقال: أنت ألم تقتل أمي؟! آخر شيء كنت أفكر

فيه. حتى أنت يا علّوش!؟

ماذا أقول.. هالني تصريحه. كيف أقنع رافع بأنهم هم الذين قتلوها. وفي كل مرة يريدون أن يخنقوا أحداً يحملون جثتها ويلقونها في بيته. ثم يحملون الشهود الذين يشهدون بأنهم رأوا بأم أعينهم طريقة قتلها.

«أقسم لك يا رافع. لم أقتلها. هم قتلوها.»

«كيف أصدقك؟!.»

«انطلق من نفسك يا رافع. لا أقدر على إثبات العكس. لكن أنا بريء . سلوى وحاشيتها ألبستني هذه التهمة».

«سلوى ابنة رجلٍ تقي. لا يترك الصلاة. فأرجوك يا علي لا تلبسني رأسي بالمقلوب؟!».

«لم ألبسه بالمقلوب حتى الآن.. أنت تقول هكذا يا رافع؟!»

نظر إليّ بحزن مشوب بالقلق والشك.. أعرف ما يدور في خلدك؟ أعرف يا رعد؟ يا إلهي. لم أستطع الصبر. صرخت.. رافع. أنا لست رعداً. أنا علّوش. انظر إليّ. أنا علّوش الذي أمه فاطمة. أنا لست رعداً..لست رعداً.

وقف رافع وثيابه تتزين ببقع دم حمراء كأنها ورود مصفوفة. وجهه مغبر. وعيناه دامعتان. نهض باتجاه النافذة. أسند ظهره إلى الجدار. تنهد. قال بصوت هامس.. ما الفرق.؟! ما الفرق بينكما. ثم فجأة غاب عن عيني. شعرت بدوار وأنا أنظر إليه. ثم امتلأت الغرفة بضباب كثيف. لم أعد أرى شيئاً. فركت عيني. أغمضتهما وفتحتهما. لم أرَ رافع. لم يخرج من الباب. لكنه غاب بعد أن سكب عليّ اسماً جديداً. اسماً يقتل. أنا لا أقتل الأمهات. الأم لا تقتل. لكن رعد قتل أمه.

أنا لا أجرؤ يا عليا أن أقتل وردة. أحياناً لا أرغب بتقديم الورد لك

يا عليا لأني أخاف موت الورد.. إني أحزن لتساقط أوراق الخريف. وأحزن على الغيوم المسافرة. وأبكي عندما أرى أسراب الطيور في بداية كل صيف تغطي سماء «جابالا» وهي في طريق هجرتها إلى بلاد أخرى. سامِح قال لي الحزن يهدد حياتك بالخطر. أترك الحزن.. لولا أنه صديقي. ولولا أني أعرف سامح وتفوقه. لنعته بالغباء. الحزن لا يُترك. أنا لا أشتريه. الحزن موقف. الحزن طريق في التعبير والتفكير.. الحزن يعني الاحتجاج. ولكن ماذا تقصد يا سامح بالخطر؟!!

أي خطر تتحدث عنه؟!.

أيهما أكثر خطورة. الكراهية أم الحب؟! الوحدة أم الحزن؟!

أنا وحيد يا سامح. وحيد والعالم حولي مكتظ.. وحيد لأن الزمن لا يقبلني. أنا خارج هذه اللعبة الحالية. لعبة النظام العالمي الجديد. خارج لعبة المقامرين الجدد.. آه.. ربما عليا تقدر أن تجعل مني رجلاً يتآلف قليلاً مع الجدران الإسمنتية.

صرت أعرف الشوق لأنني أكابده..

صرت أعرف الغياب. لأنه يكويني

وصرت أشعر بذاكرة دافئة للمقاعد التي نجلس عليها.

اتصلت بالدكتور سامح قلت له: صديقتك رائعة. ابتسم وقال «الحمد لله» فكرت أن أكتب لك رسالة صغيرة بعد غيابك الطويل. فكرت أن أسأل عنك في الجامعة ولكن قيل لي إنك تدرسين في جامعة حلب هذه الفترة. أأرسل رسالة إلى جامعة حلب؟! ما الذي كنت سأكتب؟! أتعرفين ماذا؟! سأكتب كلمة واحدة. أو عبارة واحدة «أنا مشتاق إليك» لكني تراجعت في اللحظة الأخيرة. عددت ذلك نوعاً من التهور. التهور يعني أن يعبر المرء عن مشاعره بحرية؟! لكن ما يفعله زميلي عدنان من انتهازية وسرقة ليس تهوراً. التهورُ أن أصرخ بملء

صوتي وأنا الشاعر المعروف بأني أحبك. وقد تقولين أنت هذا عني. وربما تحدثت إلى صديقاتك بهذا وقلت: إنه مراهق كبير الرجل يتحكم بمشاعره. أليس كذلك؟! العم صالح قال ذلك. وأنا رجل وأثبتّ أكثر من مرة بأني رجل. هل هناك أكثر رجولة من أن أخلص لامرأة أحببتها سنوات طويلة وهي غائبة جسدياً عني؟!

قلت لها.. لن أخونك أبداً إلاّ إذا أحببت. عند ذلك لاأعدَّ هذا خيانة. هل الحب خيانة؟!

بصراحة لم أحب بعد ذلك.. بعد ليلى لم أحبّ. لم أجد ليلى أخرى دائماً كنت أبحث عنها بين النساء. دائماً كانت تنظر إليّ من وراء شغافٍ ضبابي. وكانت دمعتها تهبط بهدوء كلما رأتني أقترب من امرأة يستهويني جسدها فقط.

«عليا أنت تستهوينني بجسدك وروحك وصوتك وتفكيرك»

هذه المشاعر ليست عابرة.. هذه مسألة موت أو حياة.. أنت تعيدين لي الحياة. أن أستلطف زهرة؟! وأن أشتاق لأمي ثانية. أليست إعادة للحياة أن تعيديني إلى ذاكرتي القديمة؟!. للأرض التي أوصتني بها أمي، وتجعليني أحب المدينة والمرفأ الصغير المكتظ بالزوارق، بهواء جبل الأقرع.. بجبل «ديروتان». وشجرة الدلب القديمة في «عين شقاق» وسيانو. «وفريشات».. كل هذه الأماكن بدأت تنمو من جديد في حديقة قلبي.

أحياناً يخطر في البال أنك أنت كل هذه الأسماء. أنت جابالا الحميمة. أنت لاوديسيا القريبة من مسقط القلب.. أنت الحروف التي بدأت أتصل بها كي تأتي. أنت الفوّار.. وتل سوكاس. لن أشرح لك معنى كل هذه الأسماء التي تعود إلى جذورنا الأولى الممتدة من بعل إلى سلوقس. إلى عُبادة بن الصامت الأنصاري. إلى «زيبل(*)» ابنة

(*) زيبل: اسم جابالا القديمة: جبلة.

أرواد إلى حربة مغروسة في الجنوب من زيبل.. وإلى الشمال والشوق من أرواد.

الصابرة على حروب البحر والملح والزمن.

أنت أدرى بقصدي يا عليا.. قصدت الجذور.

الجذور الواحدة لبداية الإنسان. جذور؟! إذا لماذا تتعارك هذه الفروع وعلى ماذا؟! لماذا لا نعود إلى البدايات الأولى؟! هأنذا أعود إليك أنت يا بدايتي.

يا للبدايات المؤلمة! هأنذا أشرب للمرة الأولى قهوة بلا سكر. مثلك.. سأقلدك.. أتسمحين؟! جدّي لا يقبل أن أقلّد امرأة. أنت لست امرأة كالتي يقصدها جدي. أنت. منديل أمي الضائع.. لا. العبارة ليست شعرية. سأشطبها.. قد تأخذ معنى لا أقصده.. ثم بدأت باختيار العبارات البسيطة التي يمكنني أن أكتبها في دفتر مذكراتي.. لقد ارتحت لك كثيراً. لكني شطبت العبارة أيضاً عندما خطر لي الدكتور سامح. ما الذي يجمعه بك.. أي صلة بينكما؟! لا أريد أن أقحمَ نفسي في مكان ليس لي. ربما كان يحبك. ربما العكس. ومن واجبي كصديق لسامح أن أحترم هذه العلاقة. لأعترف بأني شعرت بحزن حقيقي. هل كان عليَّ أن ألتقيك إذاً؟!.

لم أستطيع المكوث في المنزل. كرهت هذا المكان عندما فكرت للحظة أنك قد تكونين ملك رجل آخر. لا أقصد المعنى المادي أبداً. أقصد المعنى الروحي. تركت قهوتي وغادرت المنزل ليلاً. شعرت بنار الغيرة. أنّبت نفسي على هذا الشعور الذي لا يحق لي أن أحمله. نزلت باتجاه البحر.. مررت بالمقبرة. باب المقبرة مفتوح على مصراعيه وشجرة التين النائمة عند الزاوية تحرس الأرواح المتطايرة ليلاً.

اقتربت من المقبرة.. بدأت مفاصلي تختلج. شممت رائحة ريحان أخضر. كل يوم تقريباً أمرّ من هنا. دائماً أشعر بالإلفة بيني وبين

الأموات. إنهم أناس مهذبون لا يزعجون أحـــداً. صـــامتون، يحدقــون بالعالم المتغير بالقاتل والقتيل.. باللص البطل.. صامتون لا يثيرون أيــة أسئلة. لا يركبون سيارات فارهة. ولا يستمعون إلى الموسيقا الصاخبــة المزعجة.

ويوم شاهدوا الملك يمدّ يده بالورد والريحان للعدوّ القديـــم الـــذي قتلهم وقتل أبناءهم يقف بالقرب من قزم العمامة صاحب الشفاه الغليظـــة لم يثيروا شغباً بل ظلوا مثلنا تماماً.. مثلنا يتفرجون على الوادي المقدس وهم يرمون فيه أوراقهم الذليلة. وعندما انتهى التوقيع. وبـــدأ الـــوادي بالاهتزاز قهراً ظن الملك أن الوادي يرقص طرباً.. وعاد الأموات إلـــى قبورهم.. هاهو شعر رأسي يقف متأهباً. لماذا.. السقوط تم.. والمعـــاهدة تمت.. والاتحاد السوفيتي صار روسيا.. وزوجة ابن خالي لم تعد قادرة على العودة إلى أوكرانيا بلا جواز سفرٍ خاص مع أن ابن خالي الطـــلب تحول إلى تاجر كبير ومقاول محترم.. مقاول دولي.. المقاولون كـــثر.. يقايضون الأعلام الحمراء بكومــــة أحذيـــة إيطاليـــة وبعـــض فطـــائر الهمبرغر.

أسمع صوتاً قادماً من أحد القبور.. «لقد بلعنا الطعـــم والصنـــارة معاً»

أشعر أن الثلج يتساقط على رأسي. برد شديد يجتـــاحني مـــع أن الصيف ينتشر بغباره وهجيره ورطوبته. جرّرت خطواتي كأني أجـــرّر طرقات كثيرة. قد يعود الأموات.. ألم يعد رافع؟! عاد احتجاجـــاً علـــى المعاهدة؟!! لا أعرف. لكن أدرك أخيراً أن الملك اشترى بدمه بندقيـــة وأطلق عليه ثانية. إذن قد يخرج الأموات إليَّ الآن يمســـكون برقبتـــي. هاأنا أشعر بيد تطبق على رقبتي.. أتلمسها فلا أجد شيئاً.. أشـــعر أنـــي أختنق. «هات خمسمائة ليرة ــ والله لا أملك هذا المبلغ.. «هات الدخان الذي معك. لا أريده إلا تبغاً مستورداً».

«ولكن أنا موظف وراتبي لا يكفي ثمن قهوة وتبغ مستورد وإيجار منزل.

«هه.. أنت لم تدخل بعد اللعبة الجديدة؟! وشهرتك ماذا تفعل بها؟!

«أرجوك ابتعد.. اتركني. يا أخي اللصوص يختبئون هنـــا.. وراء مقابركم لماذا لا تمسكون بهم؟ أنا رجل بحـــالي.. وقعــت معــاهدة ألاَّ أغضب الملك أبداً. فاتركوني. هل أنا أملك صوتاً؟! لا. لا صوت لـــي. كنت أظن بأني أتكلم. ولكن هاأنا لا أقول شيئاً. لماذا كل هذا الخـــوف؟ في قريتي المقبرة تنام على تخوم القرية. وعند أطرافـــها يمـــر النـــهر العظيم.. حيث تتدلى أشجار الصفصاف بكل وقارها علـــى الأمـــوات. كانت أجمل الأماكن وأهدأها للقراءة هي المقبرة. كنت أسند ظهري على قبر عمي رمضان وأنا مقرفص أقرأ المعلقات، وأحل الوظائف وأحفـــظ القرآن.

رائعة.. كانت بداية الخريف.

الورق الأصفر يتساقط كبتلات زهرة كبيرة. ورق حور. تيـــن . زنزلخت. عندما سقطت ورقة توت على رأســـي قفــزت مــتراً عـــن الأرض. التفت. لعل أحد الموتى يسقط على رأسي. ولكن لم يكن هـــذا الشيء الغريب أكثر من ورقة توت تقاوم الموت. ــ يا لي من أبلـــه ــ هبت نسمات خريفية فسمعت تكسر الأوراق اليابسة وتطايرهـــا. مـــرت بالقرب مني عربة «طنبر» تحمل البطيخ.. شعرت بقليل من التماســـك. لكن هدوئي لم يستمر إلا دقائق إذ رأيت فجوة في جدار المقبرة.

لماذا هذه الفجوة ما دام باب المقبرة مفتوحاً. ومـــا دام الأمـــوات يخرجون متى يشاؤون. لا حديد. لا حراس. فلماذا إذاً هذه الفجوة؟ يعني هناك صراع بينهم.. هناك من يتسلط عليهم ويريـــد التحكـــم فـــي دور خروجهم. وهنا. من هذه الثغرة.. يهربون كطـــلاب المـــدارس. بـــدأت أرتجف. أردت أن أدندن بصوت عالٍ فلم أستطع. شعرت بوهـــن فـــي

ساقيّ. لم أعد قادراً على المسير. يدي ترتعش. صرخت بأعلى صوتي فسمعت صوتاً لا يشبه صوتي. جاءني صوت من وراء الجدار. «لا تصرخ. لا تصرخ. يا علوش. ألم تعرفني؟! أنا أم رافع.»

أجل. إنه صوتها الذي أعرفه. لقد قتلني يا رعد.

«أنا لست رعداً. صدقيني. أنا علي.»

أنت هو.. ستنزل عليك لعنتي. من يقتل أمه يقتل عرضه. ويقتل روحه، فتستبيحها الشياطين وتعبث بها. تمسخها وتحولها إلى حيوان لا يعرف إلا البراري. فلا ينعم بدفء ولا ينعم بمأوى.

«يا خالتي أنا علوش.. انظري إليَّ جيداً.»

«كلكم مثل بعضكم.. كلكم متشابهون.»

آه. يدها تضغط على عنقي لكني لم أستطع الإمساك بها. كانت كتلة نور تهبط على صدري. تخنقني.. تبهرني لا أدري.

- ٨ -

عليا.

أنا لم أحمل سكيناً في حياتي إلا في ذلك المساء. صدفة هي. لا أعرف لماذا وضعت السكين في جيبي.

آه. أم رافع تخنقني. إنها تدفعني إلى الجريمة. هي الأخرى صدقت ما يقولون. أنا أقتل؟!! حاولت أن أشرح لها الأمر. لم تعطني فرصة. صرخت.. يا أم رافع أنا أحترمك وأحبك. أنا يا خالتي هدبا

أحترم قهرك القديم ولا يمكنني أن أقتل نملة فكيف أقتلك؟ هـــم الذيـن يدورون بجثتك على الآخرين ليرغموهم على توقيع صك خاص بـــهم. إني بريء والله بريء. بريء يـــا خـــالتي. أصــابع عديــدة تتشــابك وتخنقني.. كل الأموات خرجوا إليّ. وقفوا فوق رأسي وفـــوق كتفـــيَّ. أسقط على الأرض. الثغرة في جدار المقبرة الشمالي تتسع. تتساقط عدة أحجار. أحاول بشراسة أن أسحب السكين من جيبـــي. لا. لا أريــد أن أقتل. بل هم الذين يجبرونني أن أقتل.

بكيت من هول الجريمة التي سأقوم بها.. سحبت السكين.. وأخذت أغرسها أينما كان. في الكتف. في الظهر. ســـمعت تأوهـــات وأنينـــاً. ابتعدوا إنه يحمل أدوات الدمار الشامل التي يتحكم بها الشـــيطان. الــدم يسيل وأصواتهم تبهرني. أم رافع تبكي. اسمعها.. أجل أسمعها تنـــادي ابنها.

بعد تلك الصرخة المكتومة من روحي ومن أنين أم رافع لم أسـمع أي شيء. عندما فتحت عيني كان الصباح الخريفي يدلق أنواره علـــى الفضاء وكنت أنا على رصيف المقبرة يتكوم الغبار على ثيابي.

مرت امرأة مع طفلتها. اقتربت الطفلة مني ووضعت عند رأســـي قطعة نقدية. نظرت إلى الطفلة فهطلت دمعتي.

عدنان يقول. أنت تبكي كالنساء. وهل تملك غير الدموع في زمـن الإبادة النووية؟ رائحة عفونة البحر تخرش أنفي. رائحة أجساد تتفســـخ. رائحة الغرب القادم مع الرياح الغربية. قـــال: بـــل تملـــك القصيـــدة.. تستطيع بها أن تكون ثرياً ومحترماً. اسمك له وزن يا أستاذ. أرسل إلـى الملك قصيدة وسترى أن ملك الذهب الأسود سيرسل لك سيارة ويعطيك منزلاً..و..

أسمع صوت أسمهان ينبعث من نافذة تطلّ على المقـــبرة. يمـــرّ رجلان ينظران إليَّ شذراً.. يهمسان «هذا شاعر المدينة المجنون»

الكلمة تلدغني كأفعى.

أنت تعرفين يا عليا أن بعض الكلمات كالعقارب. أو كالسكين تشق جلد الوجه. نهضت باتجاه سامح. سألت ممرضة عنه. لم يأت بعد يا أستاذ.

لقد تأخر سامح.. كنت بحاجته «هل أراه في المنزل؟».. ربما هرعت إلى المنزل.. المدينة مليئة بورق الزنزرخت والتوت. عربات الجبس والبطيخ تنام على الأرصفة. نساء ريفيات نزلن باكراً يتسوقن.. بدوية تحمل على رأسها طنجرة لبن. قرعت باب سامح ودخلت دون انتظار الإذن. كنت متعباً. متعباً جداً.. خجلت إذ رأيت امرأة جميلة تشرب القهوة مع صديقي سامح. لا بد أني جئت في وقت غير مناسب. لماذا دائماً يحدث عكس ما أرغب. لا أريد أن أتطفل على أحد.. ولا أن أفرض زماني وصوتي وأشيائي على الآخرين. الحقيقة: ظننت سامح وحيداً كعادته. لكن هدوء سامح وصوته الهامس أكدا لي بأنه عاشق. لا بد أنني قطعت قبلة. أو عناقاً. أو ربما كان يزرع شعر حبيبته بالياسمين الذي اعتاد أن يسرقه عن أسوار المنازل في كل ذهاب وإياب إلى عيادته.. الآن أدركت يا صديقي لماذا تقف أمام كل ياسمينة الآن أعرف وأعذر وأحترم وأقدر.. بالتأكيد سامح لا يتسلى.. هو لا يعرف أن يتسلى مع امرأة لا يحبها.

لا بد أن مشاعر جميلة تكتنفهما. وقفت جامداً كصخرة لم أعرف هل أتراجع أم أتابع وكأني لم أخمّن شيئاً. في الحقيقة خجلت من نفسي. ابتعدت إلى الوراء خطوات لكن سامح نهض ورحب بحرارة. تفضل يا أستاذ علي!!

تفضل يا أجمل الأصدقاء. أخذني بيديه. كدت أبكي كطفل ضيّع أمه في زحمة المدينة، فأخذ يبحث عنها في كل أم ترتدي مثل ثيابها. أو مثل منديلها. ليصنع منها أماً. وضعت المرأة، التي بهرتني، فنجان

قهوتها ونهضت هي الأخرى تسلّم بحرارة. أسفت بصـــوت هـادئ إذ قطعت عليهما القهوة.

في الحقيقة سامح دائماً لم يغير نظرتي إليه. إنـــه شـهم دائمــاً. وصداقتي به ترجع إلى أيام الطفولة وإلى زواريب القرية.

حين همت بالخروج بعد السلام. قال سامح مبتسماً.. أين؟! ألا تريد أن تتعرف بالأستاذة عليا.؟!

غير معقول إني عاجز عن وصف اللحظة. كدت اســـقط لـهول الدهشة. تخيلت آلاف المرات. شعرك. وجهك. صوتك. لكن كنت أخاف من المفاجأة. خفت أن تسقط خيالاتي في بئر النسيان. أو في تـهيؤات لا تتطابق مع الواقع. لم أستطيع أن أقول أكثر من كلمة «أهلاً» انتظـرت يدك أن تمتد إليّ فمددت يداً ترتجف. قال سامح هذه عليا.. ونظر إليَّ ثم قال: هذا هو الشاعر الكبير علي.. طبعاً أنتِ قرأت له لأنـــي أهديتـك دواوينه أليس كذلك. ربت سامح على كتفي وقال: عليا معجبة بشـعرك وهي منذ مدة تريد أن تتعرف بك.

وتلاقت عيوننا. أتذكرين..؟!

كان من المفترض أن يتم اللقاء قبل ذلك بكثير. سامح شرح لــي سبب وجودك. عليا جاءت في موضوع خاص. وهاهي مســافرة الآن. تفضل يا علوش.

سامح لا يناديني إلا علّوش في الحالات الحميمية والمريحة. يبـدو أنه كان سعيداً في تلك اللحظة. استأذنت أنتِ وغادرت علــى أمـل أن نلتقي ونتحدث عن الأدب وأمور أخرى. شعرت أن روحي تغادرني. أنا لا أعرفك في هذه اللحظة فقط. أنا أعرفك منذ شهور بعيدة. منذ اللحظة التي حدثني عنك سامح.. شعرت أنك امرأة مقدّر لها أن تدخل حيــاتي. لم أوضح شعوري لسامح. خفت أن أجرح مشاعره. لم أكن أقدر علــى البوح بكلمة. كما أني كنت متعباً تراودني العبارة التي سمعتها.

«هاأنا أسمعك يا صديقي. ماذا هنالك يبدو أنك متعب»

«سامح. لا أريد أن ألف وأدور. أريد أن أسألك سؤالاً محدداً»

«قل.. ستجدني دائماً عند حسن ظنك. يا لي من مغرور.»

في الحقيقة كان سامح سعيداً لكني أطفأت فرحه فجأة عندما سألته سؤالاً محدداً. ـــ هل أنا مجنون؟ ـــ أرجوك أجبني. شيء طبيعي أن يجن الإنسان في إحدى مراحل عمره.

دهش سامح. ماذا تقول يا علي..؟ سؤالك يكفي ليكون جواباً بالنفي.

سامح أرجوك. هذا المساء لم أنم في بيتي. وجدتني على باب المقبرة عند الصباح لم أسمع إلا الكلمات الجارحة. ما الذي يحدث يا سامح.. العالم السفلي هو الحقيقة المؤكدة؟!

علي.. ماذا تقول. أنت جاد في طرح الأسئلة.؟! لاحظت تخوّف سامح. لمتُ نفسي. لماذا أنزع صباحات الأصدقاء. ابتسمت. قلت: سامح كنت أمزح معك. أرجوك لا تزعل. بصراحة جئت مبكراً لأستلف منك ألف ليرة لديٍ سهرة اليوم. وقبل أن أمشي قلت له: بابتسامة «على فكرة.. صديقتك جميلة»

غادرت سامح إلى الجريدة. الجرائد مفروشة بأخبار موجعة. صورة طفل فلسطيني يحطم صهيوني ذراعيه ورجليه ويزجه في حفرة ترابية وهو حي. وهناك صورة أخرى لطفل مفقوء العينين. وفي الصفحة الداخلية صورة لامرأة من البوسنة امرأة أربعينية تقف إلى جانب ابنتها وتبكي وهي تشير إلى بطنها.. أنا حامل من عدوي الذي اغتصبني واغتصب ابنتي. صورة أخرى لآلاف الرونديين القتلى المرميين في منبع نهر النيل. لم أستطع أن أشرب القهوة التي حملها إليّ الآذن تركت الفنجان وغادرت المكتب إلى مكتب آخر

لا أستطيع أن أكتب العمود الصحفي المطلوب.

سيزعل المدير.

«ليدق رأسه بالـ..بالبحر.»

«هس»

تقترب سلوى. تهمس. لا تقل هذا عن المدير. قد يسمعك.

«أنت تقولين ذلك يا سلوى؟ شكراً لتحذيرك. نظرت إليها باشمئزاز وخرجت. عندما التفت في الطريق باحثاً عن تاكسي رأيت سلوى تتبعني.

«ماذا تريدين»

«أريد أن أعتذر منك»

«لا وقت لدي الآن. عندي موعد..»

كنت ممتلئاً بوجه امرأة تدعى عليا. لم أجد مكاناً في ذاكرتي حتى لمعاتبة سلوى. كنت مشغولاً بك يا عليا. مشيت أبحث عن مكان يتسع لهواجسي. لم أجد أرحب من الجامعة. أغادر باتجاه الجامعة التي تحتوي عليا. أنتظرها أمام الجامعة كمراهق يحب امرأة للمرة الأولى.لم أجد في ذلك أي خجلٍ. الحب حق إنساني. لكن زميلي عدنان تبعني هو الآخر مع سلوى. اعترضا طريقي في السوق..تراجعت عن قراري وركبت أول تاكسي إلى مدينتي.

عندما نزلت من التاكسي مشيت باتجاه السوق الضيق الذي يجتاز جابالا من الشمال إلى الجنوب ماراً بالسوق المسقوف. على بوابة سوق الذهب اعترض طريقي عدنان. قال يجب أن تتصالح مع سلوى يا علي. فوجئت إذ لم أعرف ماذا أقول. قفز إلى ذهني سور المقبرة المفتوح. سمعت صوت أم رافع يقول: أسمعتم. القاتل يصافح المقتول والمقتول

يعتذر للقاتل. تفصّد العرق من جبيني. شعرت أن ثيابي تضيــق علــيّ. وأن أوراقاً وأتربة تتساقط على رأسي وتهرش جسدي.بدأت ألهث كـلّني في قيظ تموز مع أن الخريف يرسل نسماته اللطيفة على المدينة فيعطـي للسوق المسقوف طراوة ورطوبة لذيذة. القبو مظلم. واجـــهات بـــائعي الذهب تلمع وكأن الجوع لا يعرف طريقه أبداً إلـــى المدينـــة. غــيرت طريقي ومشيت لم أرد.. لا أحب المواجهة في أشياء مفروغ الحكم فيها. هذا لا يعني انتصاراً ولا يعني بطولة. تبعني عدنان وأمسك بذراعي. يا رجل. كأن بينكما ثأراً. هززت رأسي «وهو كذلك»

كيف لها أن تقابلني؟!

لتذهب إلى مديرها المحترم.

هناك سيوفر لها الويسكي بدلاً من الشاي وســـتنام علـــى أريكـــة حريرية. وقد تجلب معها صديقاتها لتوزع عليهن جزءاً مـــن عطايـــاه الخيرة. وفي الصباح تكتب مقالة عن تحرير المرأة والفـــهم الخـــاطئ للحرية، أليس كذلك يا مس سلوى؟! لم ترد سلوى، بل أخـــذت تقطّـــب حاجبيها وبدأنا نثير الانتباه بوقفتنا المعترضة. مرّ أحد الجيران التفـــت إليّ. هل هناك شيء يا أستاذ؟!

لا لا..لا أبداً.

انفجرت سلوى باكية. شدني عدنان وقال هنـــا لا يمكـــن الكـــلام بالراحة دعنا نذهب إلى مكان ما.

لماذا؟! لتحوكا مؤامرة جديدة؟! وربما قتلت أحدكما؟! أليس كذلـــك يا سلوى.؟

تركتهما ومضيت. مشيت شارداً. تائهاً. لا أعرف أيـــن أذهـــب. قررت هذه اللحظة أن أغادر جابالا وأسكن في لاوديسيا. قريبـــاً مـــن سامح وقريباً من المرأة التي بدأت تثير زوابع جديدة في عالمي. علـــيّ

أن أتمسك بهذه الزوابع. سامح يقول. عندما تأتي الزوبعة. لا تعترضها. امش معها نحن في زمن ماتت زوابع القلب فيه. قد يقضي المرء عمره كله دون أن ينبض قلبه بحبّ حقيقي. لذلك تمسك بحبك الحقيقي. يا إلهي كم أنا خيالي وأحمق لماذا أفترض أن هذه اللحظات تهيّئ لي حباً حقيقياً؟! لم أعد قادراً على المسير. خانتني قواي. كأني مهزوم في معركة. مررت بسور المقبرة. شعرت بالخوف. بدأت أسعل. أتحسس رقبتي. براغيث أخذت تلسعني أهرش رقبتي. أغيّر طريقي. يصادفني أحد الشعراء يبتسم يهرع إليّ قاطعاً طريقي.

ـ يا أستاذ أريد أن آخذ رأيك بإحدى قصائدي.

ـ والله الآن أنا متعب.

ـ أرجوك. لحظة فقط. منذ مدة وأنا أبحث عنك. حتى إني زرتك في منزلك ولم أجدك.

ـ طيب تعال من هنا. عندما لاحت المقبرة ثانية قال.

ـ أما سمعت يا أستاذ؟! سيصنعون حديقة مكان هذه المقبرة.

ـ صحيح؟!

ـ صحيح.

تمنيت أن يتركني لكنه رفض إلاّ أن يذهب معي إلى المنزل ليقرأ لي آخر قصيدة كتبها. كانت الأوزان تشل خياله. والقافية تشده إلى الخطابية والمباشرة فيضطر لاختيار كلمات لا علاقة لها بالمعنى إلا لتوحيد القافية.

نظرت إليه وقلت: ألا تلاحظ معي أنه عصر الانهيارات الآن. انهيار الحدود والحواجز والنظريات وأشياء كثيرة؟

ـ أجل. أجل. أنا متابع ممتاز للسياسة ولأوضاع العالم.

ـ إذن متى تنهار حواجزك التي تضعها على القصيدة؟! متى تخرج من عباءة الجاهلية؟! الآن يا صديقي زمن الكتابة. بلا مدارس. الآن (انعكاس) الحالة السياسية. الحالة العالمية على الكتابة وإلا لا نكون عصريين كيف نعبرّ عن عصرنا؟!

ـ فهمت يا أستاذ. أعتذر لأني أثقلت عليك.

ـ لا أبداً. لكن اعذرني لأني لا أقدر أن أتابع معك الحوار في الحقيقة لديّ مواعيد. لقد تنفست الصعداء عندما صرت وحيداً. اتجهت إلى البحر. كان البحر رائقاً. زرقته غامقة. مرّ بائع ذرة مسلوقة. اشتريت قطعة واحدة ونزلت مقهىً يقدم «أركيلة». لم أتذوق عرنوس الذرة. رميته في البحر. عرانيس الذرة لا تلوث البحر. أنا أحافظ على البيئة. السمك سيأكل عرنوس الذرة لكن الأرض كيف ستبتلع أكياس النايلون وخاصة السوداء منها.. قريتي التي لا تعرف التسوق إلا قليلاً. ونساؤها يحزمن أغراضهن بتنانيرهن مع ذلك حقولها مليئة بأكياس النايلون. تتطاير مع كل هبة ريح. أمي قالت والله يا بني أكياس النايلون السوداء تخيفني. يومها.. ضحكت. لماذا يا أمي؟!

«تكون المرأة منا تمشي في الليل مجتازة حاكورة الجيران إلى منزلها فجأة ينطّ كيس أسود في نقرتها. يا لطيف تظن أن فأر قفز إلى ظهرك»

«صدقت يا أماه. ولكن خطورتها أكبر من ذلك»

أمي لا تعرف شيئاً آخر عن خطورتها. هي تخافها فقط. وأنا الآن مشتاق إلى أمي. يجب أن أسافر إليها.

في الصباح اتصلت بسامح ودعوته إلى القرية.

«لا أقدر يا علي.»

«يا أخي اترك العيادة هذا اليوم. الطقس جميل. خالتك فطوم ستطبخ لنا ديكاً بلدياً على برغل بالحمص.. ما رأيك. ألم تشتق إلى

جابالا وإلى قرية الصفصاف. سنزور جدي الشيخ شهاب وعند قصره سنشرب القهوة. تعال نمشي. نقضي يوماً في التسكع واسترجاع الطفولة. أريدك أن تكون معي. من سيانو نغرب باتجاه نهر السن.. آه نقطف النعنع البري ونشرب قهوة عند المصبّ.

«يا ريت يا علي. لكن عندي مواعيد كثيرة. وستأتي عليا من حلب عند الظهر. واتفقنا على تناول الغداء معاً. تعال أنت نتغدى سوية.

«ربما..؟! لا أعدك»

تمنيت فعلاً أن أرى عليا. لكن لا أدري لماذا ترددت. مع ذلك عندما اقتربت الساعة الثانية عشرة هرعت إلى سامح. كانت عليا في انتظاره في العيادة.

وحيدة رأيتها تجلس والدكتور سامح في الداخل عند مرضاه. ابتسمت وقلت أنا مدعو إلى الغداء. اضطربت. لا أعرف ماذا يعني ذلك..لكنها كانت لا تتنازل عن ثقتها الكبيرة بنفسها. اقتربت قليلاً مني وقالت: أنا حقاً معجبة بشعرك. وعندما بدأت تتحدث عن بعض القصائد لم أعد أسمع إلا رنين صوتها. شعرت أني أعرفها منذ زمن بعيد. وتيقنت أنها فعلاً ملأت كل جوارحي ولا أعرف كيف.

امرأة لبقة. متحدثة ذكية. امرأة خبرت الغرب. وأدركت أقنعة الشرق. طال حوارنا إلى ما يقرب الساعة. عندما خرج سامح كان منهكاً. استلقى على الكنبة الجلدية لدقائق وقال هيَّا: لننطلق.

«ماذا تريد أن تأكل؟

«عليا تختار. عفواً. الأستاذة عليا»

«لا أرجوك قل لي عليا فقط. أنا هنا مجرد معجبة بالشاعر الكبير»

كان الطعام خاص جداً، وكان البحر القريب يضفي أنساً ووحشة في الوقت نفسه. شعرت أني وحيد مع هذه الحورية. لماذا لم أرك منذ ألف عام؟

ابتسم سامح.. ها.. لقد التقينا إذن.. عليا يا سيدي تؤمن بالماورائيات وهي تظن أنها كانت قبل ألف عام امرأة أخرى.

«صحيح؟!»

«صحيح.»

لم أغادر عليا حتى حددنا موعداً للقاء جديد على غداء مشترك.

كانت المواعيد. مواعيد عذابات قادمة. لم أدرِ أبداً أن الطريق يسير بنا. لا نحن نسير. ولم أعرف أن للمصادفات قواها السحرية. يا عشتار كيف لي أن أغوي توأمك؟! وأنا؟! مجرد شاعر يركض وراء القصيدة والقصيدة ضاعت منه ولم تعد إليه. مجرد شاعر. وقع على صكوك معاهدة تنصّ على إلغاء الشاعر بداخلي.

الشتاء يقترب..خريف يحزم حقائبه ويحاول الرحيل بأقل قدر من الحزن. هكذا هو الخريف دائماً يوقفني في كآبته وخيالاته. لا أعرف ما الذي يجتاحني عند هبوب أول النسائم المسافرة. ولا أدري ما الذي يجعل روحي تشفَ عندما أرى أوراق التوت تتساقط. وتحمر أوراق الصفصاف قبل أن تهوي إلى قاع نهر قريتنا.

هكذا هو الخريف يا عليا. يذكرني بك. ويستحضر في مساءاته اللاسعة أزمنة كثيرة، بخور مزارات. جدي الباشا الذي يقال بأنه ليس جدي. وأنه لم ينجب أبداً بل نساؤه هن صاحبات الفضل في الأبوّة الغامضة..وهكذا في الخريف يجتاحني الحنين لأشياء بعيدة. أشياء كل خريف تبتعد أكثر وأنا أشتاقها أكثر. لذلك أكثر من الذهاب إلى القرية. وأكثر من التجوال في القرى المجاوِرة. أنشر صمتي على الفروع والأقنية التي توزع ماء السن ونغرب إلى نهر «الرميلة»

«يجب أن تتزوج يا علي يا بني.. «الحي أبقى من الميت» زوجتك ماتت. والعمر يمرّ.»

«ليلى ماتت؟!!»

«لا أعرف . ليلى لم تمت. ليلى سافرت ولم تعد»

أم رافع أيضاً سافرت ولم تعد.. خالتي ذهبت ولم تعد.. والخريف يرحل ولا يعود.عليّ أن أمتص أكبر كمية من ضوء الخريف. إني أحضر نفسي للبيات الشتوي حيث الشمس تنام طويلاً تحت الغيوم. وحيث المطر. المطر . المطر والرعد.

ـ ٩ ـ

ـ يجب أن نلتقي يا عليا.

ـ أين.

ـ تعالي هنا في جابالا.

ـ لا. لا أقدر.

لا أدري لماذا عندما أذكر اسم هذه المدينة يرتجف صوت عليا. أتخافني في مدينة خارج حدودها المعهودة.؟!

بعد المكالمة الهاتفية نزلت إلى البحر حيث تتوزع المقاهي والأصدقاء. لا أحب أن ألتقي أحداً أعرفه.. أريد أن أمشي وحيداً أصف أفكاري لعل قصيدة تنبع من مشهد الغروب حيث الأفق يرتسم بعيداً كأحلام لا نطالها. شعرت بحزنٍ يخيم على قلبي ويقبض على صوتي. يبدو أني اشتقت لأمي. هذا الشهر كله لم أزرها. وعندما يأتي الشتاء انطوي في مدينة رمادية. لا أعرف لماذا أتذكر العم صالح. منذ زمن بعيد لم أره «الحق عليّ» يبدو أني ولدٌ عاق. لا. الأمر غير ذلك. الحياة

العصرية امتصّت كل مقومات شخصية المرء. قتلت الجوانب المكمّلة لشخصية الإنسان. الزيارات. الأصدقاء. الأقرباء. الواجبات. حتى الواجبات لا نقوم بها. نكتفي بباقة ورد كما أنه الطرف الآخر لا يريد أكثر من ذلك.

عندما كان ينزل إلى جابالا كان يزورني أحياناً. ومرّة زارني وأنا في العاصمة.. مشيت يوماً بكامله.. كان يستعرض لي أحوال القرية وحالة أمي. وجدي والأقرباء. وكنت أستعرض له دمشق بكل عراقتها وغرابتها وذئابها وورودها.

منذ مدة طويلة لم يزرني العم صالح. هل هو لا ينزل إلى المدينة؟! لعله مريض. سأزوره في أقرب عطلة.

انتبهتُ أني أكلّم نفسي، انتابني نوبة ضحك. في المقهى البحري طلبت بابونج. ولكن ما إن رشفت رشفة واحدة حتى دخل اثنان من الشعراء التافهين الذين يصلبونك على الطاولة لساعات طويلة. يشتمون فلاناً. ويشككون بفلان. ويدعون أن كتاباتهم تفوق كل أدب.. لكن ليس لهم حظ..حظهم قليل..فكرت يجب أن أفرّ من هذين الجروين.. تركت البابونج وهربت. انتابتني حالة شوق لعليا. «وفي المنزل سأكلمها» ..لا.. لا علّوش.. لماذا فوراً عليك أن تبدي ما في روحك؟!

«ولكن لماذا لا.. أصبحت في مرحلة من العمر لا تسمح لي بالمراوغة» الريح الباردة تزرع في الجسد قشعريرة لذيذة.. رائحة المدينة بدأت تتغير استعداداً لفصل قادم. تشرين له نكهة خاصة في ذاكرتي لا أعرف كيف؟! مرة أحبه ومرة أغضب منه. وأحياناً يطيب له أن أتأمله من وراء الزجاج وهو يزرع ذعره في الشوارع وأكياس النايلون وفي ثياب النساء.. هناك رجل يحدق بي.. رجل يقترب مني. هذه الفترة أنفر من الناس.. لا أحب هذه التجمعات التي تهدر الوقت في التنّظير والنظريات..قد تستمر الجلسة إلى صباح آخر أو مساء آخر

كلها حول تمحيص الوضع السياسي والاقتصادي. فإذا ما اعترضت.. قالوا: ما هو دور الأديب إذاً؟! دور الأديب؟! يا للسخرية.

من يشرك الأديب في المخطط السياسي. أنت كأديب تطلع على المخطط السياسي والاقتصادي. وكأديب تفهم ما بين السطور.. وكمواطن محترم عليك أن تبصم. تبصم وكفى.. لا يطلبون منك غير ذلك. فلماذا تهرش روحك؟! كأني أعرف هذا الرجل الذي يقترب مني. إنه يقصدني. أجل.. إنه «حسن» صديقي الشاعر.منذ زمن طويل لم ألتق به. أين كنت يا حسن..؟!

ربما لم أكن أسأل عنه شخصياً.. ربما كنت أسأل عني أيضاً. عن طفولتي التي تركتها في الحواكير وجئت هنا أرتدي مجبراً السموكن في حفلات رسمية ومؤتمرات أدبية. حسن ظل كما هو يرتدي ما يحلو له..، أحياناً يستعيدُ ذكرى الأيام الخوالي فيلبس «القنباز» وقد يرتدي «الشروال» الأبيض مع قميص قطني.

كيف الحال..؟!

هنا لا يمكن شرح كل شيء. ألا تدعوني إلى منزلك؟!

طبعاً يا حسن.. المنزل منزلك..

شربنا الشاي وبدأنا هموم المستقبل.. ثم انتقلنا إلى هموم الشعر.

«سأقرأ عليك قصيدة يا علوش.. آخر قصيدة كتبتها.»

«هات. أسمعني»

«لا.. الأمر يحتاج إلى كأس»

«حاضر. أمرك يا حسن. ولكن متى كنت تشرب كأساً. لا تقل لي إنك عاشق.»

«العشق شيء.. والموت حباً شيء آخر. الشاعر لا يحيا بلا حب»

«قل الإنسان. الإنسان بلا حب جثة تتحرك بلا هدف ولا غاية»

«وأنت؟!!..

«أسمعني القصيدة.»

«ولكنها ستحزنك.»

«لماذا.. لأنها في رثاء.. غمغم حسن. في رثاء العم صالح»

«العم صالح مات؟! يا إلهي. هذا اليوم تذكرته كثيراً. لا يمكن.»

حسن يقرأ القصيدة.. وعلوش يفرك دمعته ساهماً

رجل يرشف كأسه.. يستعرض آلهة وخرائب. يستحضر بعل وتهامة. ويقرفص في حدائق الشعر أمام العم صالح الذي دفنوه قرب شجرة دلب. تظلله صفصافة قديمة كان قد زرعها منذ طفولته. «أنا وهذه الصفصافة توأمان» عندما انتهى حسن من قصيدته كنت قد اجتزت عشرات السنين، كل طفولتي ويفاعتي وشبابي. كل هذه السنوات. وأحياناً رائحة عطر. أو لفتة من امرأة. أو دمعة، تخيلت العم صالح رجلاً متوسط القامة. أبيض الوجه. شعره أبيض. لا أتذكره إلاّ بالشعر الأبيض. كان يمزح ويقول: «لقد ولدتني أمي عجوزاً». لم يكن عجوزاً كان حكيماً. يحفظ الشعر. آلاف الأبيات في جعبته. ويحفظ سيرة بني هلال. وألف ليلة وليلة. وحكايات كليلة ودمنة. من الصعب أن تقول له شيئاً وينساه. له ذاكرة مذهلة.

«والله يا بني يا علوش شاركت في حروب كثيرة»

«والله يا بني ظلمت كثيراً بسبب آرائي: كلهم يريدونك أن تسمع وترى وتخرس بعد ذلك»

«إذن مات العم صالح؟!!

رجلٌ يفتح منزله للضيوف أبداً

آخر مرة رأيته في المدينة يسير ببطء ويلهث تعباً. مشيت معه. لم يكن يمرّ أمام متجر أو مخزنٍ للحبوب، للثياب، للبقاليات إلا يسلم على الجميع. الجميعٍ يقف له احتراماً. كان صادقاً في التعامل، ومعروفاً جداً. نظر إليّ مشفقاً، ابتسم وقال: اسبقني يا بني إلى القهوة حتى لا تتعب من الوقوف معي، سبقته وطال انتظاري.

«يا عم صالح هل عليك أن تمر بكل فرد في المدينة؟!

«كلهم أصحابي وأحبابي يا بني.. ايه لا أراهم ثانية.

«حدثني يا عم.. ما أخبار القريةِ؟! وما هي أخبارك!

تنهد وقال: أتعرف؟! مياه النهر جفت من زمان. قطعوا مياه النهر فامتلأت «دواوير الماء» التي تسبح بها بالطحالب والحشائش والقصب البري. لم يعد هناك دوار ماء ولا شلاّل ولا جنيات. تغير الطقس يا بني خفت الأمطار. أما مكان البيادر.. أتذكر البيادر؟ حيث كنا ندرس القمح والشعير.. حيث كان زعيم القرية لا يحلو له أن يمرر خيوله إلا فوق تبغنا ومحاصيلنا. كان التبغ يتكسر كالزجاج. ويفرط كالرمل..

وحيث كنا نتعارك من أجل الأرض.

لم يبق بيادر. لقد حرثوها وحولوها إلى بساتين. سدّوا الطرقات. سدّوا النهر وعليك أن تصل إلى القرية أن تلفّ وتدور عشرات الدورات. سابقاً كنا نمشي كما يحلو لنا..كانت الأرض واسعة.

ضاقت الأرض يا بني الآن.

ضاقت بنا على وسعها.

على كل حال، القرية مهجورة الآن خرج الجميع منها وأنتم أولاً.. أمك لم تعد تطيق الظلم والاضطهاد. كثيرون غيركم، أنا لن أترك القرية لن أغادرها، وسأطلب أن يدفنوني فيها.

عندما تضيق الأرض لا بدّ من الحروب. ألا تفعل الدول الكبرى

هكذا؟! عندما يكسد سوقها تبحث عن الحرب. لماذا برأيك اخترعوا حرب الخليج؟!

آه.. هواء المدينة رطب جداً. ضاق صدري يا علوش.. قم بنا. اشتر لي بعض الحلويات من عند «أبو هاني» سأعود.. «خذ النقود» لم يكن يقبل أن أشتري له شيئاً دون أن يعطيني النقود أولاً. كان يقول «أنت موظف. والموظف في بلدنا فقير» ثم يسعل سعالاً حاداً ويتنهد بصعوبة إذ كان يعاني من الربو القصبي. أضحك، ولكن أنا شاعر كبير.

ـ الشعر لا يطعم خبزاً هذه الأيام إلاّ إذا كنت مثل الشاعر «مقصود»؟!

«مقصود ما غيره..؟!

«مقصود يذهب إلى عمّه الجنرال يستجديه الكتب والهدايا، ثم يستعطف ويمدح جنرالات آخرين باسم عمه الموقر. بنى قصراً وخصص القبو كله لمكتبة عامرة. عندما زرناه في آخر عودة له من بلاد «الواق. واق» حيث كان مدّاحاً.»

أدهشتنا المكتبة..مكتبة!!.

«ما هذا يا أستاذ مقصود؟! ما هذه المكتبة؟!»

«والله كما ترون»

«كم هي مكلفة.. أليس كذلك؟»

«جداً. جداً.. دفعت بها ثروة كبيرة»؟

«ولكن لماذا ومن أين تصرف على هذه المكتبة الكبيرة»

انتفخ مقصود. وأسند رأسه إلى الوراء على كرسيه الدوار وقال بصوتٍ عريض:

«الحقيقة هذه المكتبة هي من عائدات كتبي..»

ما تدرّه علي الكتابة.. أشتري به كتباً. كيف إذاً سأطور نفسي؟!

«شيء عظيم يا مقصود.. الله يعطيك العافية. هذا هو زمن الشعر.. ولكن نحن نعرف أن بعض الشعراء يجوعون»

«يرحم بيِّك.. أنت قلتها.. بعض الشعراء يجوعون. هؤلاء ليسوا شعراء يا صالح..» كتمنا صرخة غيظ وضحكة قاسية إلى أن خرجنا من منزل مقصود. مقصود كما نعرف لم يسمع به أحد لولا عمه.. وهو لا يملك إلا ديوان شعر واحد.

لم يكن العم صالح يسكت على الخطأ أبداً. لكن في الفترة الأخيرة خفت صوته.. قال الكلمة التي لا جدوى منها يجب ألا تقال.

«هل اشتريت لي الحلوى؟!»

ماذا يفعل العم صالح بالحلوى؟ لا تتساءلوا.. كَبُرَ..ولم يُبقِ الزمن له أضراساً، ولا يقدر أن يأكل «البون بون»

حمل الكيس وقال: الآن سيلاقيني الأطفال.. أطفال القرية فأسلم عليهم بالحلوى.. ماذا يجمعني بالطفل الذي تفصلني عنه أجيال؟ إنهم لا يتذكرون شبابي يا علوش.. ولا يعرفون كيف يتحاورون معي. وهم كالفراخ نلقمهم المعاملة الحسنة. غداً يقولون جدّنا صالح جلب لنا الحلوى. على الكبار أن يجدوا الطريقة المناسبة للحوار مع الأطفال. أليس كذلك يا علوش؟.

«أجل.»

أوه.. يا علي.. حدثتك كثيراً. حدثني أنت عن أحوالك»

«لم أرد»

هل أصرخ على لحظات مرت ولم أكن أعلم أنَّها الأخيرة..؟!

كيف حالك يا بني..؟

ثانية لم أرد..

كان يعرف الجواب. تأسف لأني لم أظل في القرية. وقال: سيزرع الأرض إذا هجرها أهلها..؟! الغرباء لن يشفقوا على أرضك.. ولن يحبوها كما تحبها أنت ولو جلبت الأيدي العاملة. ثم حدثني عن أشياء قديمة وقال: بأنه رأى خالتي هدبا في المنام.

نسيت أن أخبركم أن العم صالح هذا كان له الأثر الكبير في نفسي. خاصة وقد أحببت ابنته ليلى الجميلة وتزوجتها لفترة قصيرة. ثم.. كل منا رحل في حال سبيله. العم صالح قال قبل أن يودعني: يا بني عليك أن تتزوج.

«حسن يلقي قصائده.. وأنا أفترش السنوات. وأختار منها ما يعجبني. وأحياناً أضيع ولا أصدق أني مررت بكل هذه الأزمنة. أنا علوش الذي أفاق على فارس مقتول.. قال لصحبه سيقتلونني، وسأعرف من يقتلني، وقال لقومه، ستتفرقون، وستذبحون وتعانون الظلم والقهر، لكن لن أغير القدَر، دعوني على ظهر حصاني، سار الحصان، واختفى الحصان وعلّوش يشهد الواقعة. يرى بأم عينيه كل شيء ولا يجرؤ على قول شيء، مطلوب منه أن يترك كل شيء على حاله وأن يتطهر بالعذابات الأرضية.

«هل أعجبتك قصائدي يا علوش؟!

لأعترف أني لم أنتبه إلى قصائد حسن أبداً. عندما قرأ الأشطر الأولى من قصيدته الرثائية للعم صالح غبت عن مكان حسن لم أقعد معه لحظة بعد ذلك. تركته وذهبت إلى القرية ثم إلى مملكة سيانو. ثم طرت إلى جبل «كاسيوس وشاهدت ابنة بعل الندية» مشيت إلى مدن بعيدة. ورأيت مملكة أوغاريت شقيقة قريتنا سيانو التي تتصارع مع عدوها «الموت الجبار» تفتته وتطحنه ثم تنثره ليعودأخوها بعل حياً.

أنا ماذا أفعل..؟! كيف أعيد ليلى.. كيف أصارع اليمّ الهائج وأستخلصها من الهاوية. وأذروها على الطبيعة لتنبت أزهاراً كيف؟!.

بدأت أنتحب. فوجئ حسن بي. هو يسألني وأنا لا أريد أن أتكلم. لماذا يعيد الأسئلة.؟! كل واحد منا يحمل في روحه إرثاً طويلاً ممتداً إلى آلاف السنوات، أنا هنا الآن في جابالا. كيف وصلت إليها والزلازل دمرتها مرات وجاءها الاسكندر المقدوني قبل المسيح بمئات السنين، وجاءها عبادة بن الصامت إذ أرسله جدنا العظيم، الخليفة عمر بن الخطاب، لتحريرها.. وتسألني يا حسن ما بي؟!!

عدة في واحد.. قتلى وظالم ومظلوم.. ملوك ورعاة. عصاة ومطيعون أنجَبَلُ كومة تراب، ينفخون الروح.. أصير علّوش.. أصير آخر.. آخر ينبثق عني.

«لم تقل لي رأيك يا علي. رأيك يهمني»

هل أقول له كنت مأخوذاً بالعم صالح يا حسن. مأخوذاً بنضاله، أستعيد ثورته ضد الظلم والفقر والزعماء. وكنت أستعيدُ ليلى. ولكن ختاماً لكل شظايا ذاكرتي رائعة يا حسن القصيدة. أنت محق في رثاء العم صالح. وعليَّ أن أرثيه أيضاً. لكن يبدو أن الشعر هرب مني هذه الفترة.

عندما أحببت ليلى كنت كل يوم أكتب قصيدة. حسن يشرب الشاي وأنا؟! يبدو أن ثورة كآبتي لم تنته بعد.

رائحة ليلى تغمرني.

هاهي شجرة التين التي حفرنا على جذعها اسمينا قبل أن أذهب إلى الجيش. كانت حرب تشرين في أولها، وكانت أرض الجولان المحروقة بالنابالم والمرويّة بدماء الأبطال ما تزال تبعث برائحة الحنين والثأر، حرب حزيران لم تكن بعيدة كثيراً. وأنا لم أكن قد نسيت اشتعال البحر وبترول بانياس والطائرات اللعينة التي تحرق وتدمر البيوت الآمنة. وعندما كبرت شاركت في حرب تشرين «١٩٧٣».

شجرة التين تبكي وليلى تبكي وأنا صامت تتعارك في داخلي الهجرات والأحزان:

«ليلى أرجوك لا تبكي هذه الدموع تحرقني.»

أخذت يدها بين يدي. كان الغروب يشلح نداه على الأرض. وكان الخريف في أوجه.

«غداً لن أذهب إلى المدرسة. سأظل لأودعك»

«لا لن تغيبي عن المدرسة، لا أريد أن أودع أحداً، الوداع يزلزلني.» لم أودع أحداً إلا العم صالح. زرع في رأسي كلمات كثيرة عن الوطن والأرض والرجولة.

عندما وصلت إلى الجولان رأيت الصخور تتأهب من حريقها لتعود إلى الخصب. ورأيت الآلهة المقهورين يتجولون في سماء القنيطرة، سمعت صوتاً يناديني: يا هذا.. أنت من سلالتي. وأنا من سلالة أوغاريت. خذ السهم وابدأ.

بدأت الأمطار تنهمر والرعد يضج والأرض تحترق. ونحن نتقدم. نتقدم نصل إلى مشارف طبرية. ياه.. وأنا ألامس الماء المقدس، هلل الجميع وتذكرت ليلى.. أخرجت صورتها ورحت أتفرج على عينيها.. هما الوطن. هما القرية. صوت قوي يجلجل في أذني. العم صالح الذي يقرأ كثيراً قال لي: صوت الرعد. صوت الإله بعل، صوت «هدد» الذي يهدّ الجبال. لقد ترك قمة «جبل كاسيوس أي جبل الأقرع» ومضى باتجاه طبرية يا عم صالح. إني أراه الآن. سيزرع الأرض المحروقة ثانية وستعود مجدل شمس والقنيطرة، ستعود وسترقص في «غابة الجولان القديمة» عليا أنا لم أعد من الجولان مع الباقيين، صحيح أننا انتصرنا لكني أنا فقدت المقدرة على تحديد الجهات، رحت أمشي في طرقات صخرية بركانية.

«جبّاتا الخشب»

لقد تهت، ببساطة تهت لأني نفرت من قطيعي محاولاً استطلاع المكان بعيداً عن الجميع حيث يمكنني الاهتداء إلى قصيدة تفوق بوصفها قصيدة «وقعة عمورية الشهيرة» لكن تهت، لا أعرف أين أسير، استبدّ بي الجوع والعطش وأنا ألمس الصخور المجدورة بالرصاص. وأمرّ بالتلال تلوّح لي أن فقدت القدرة على السير. لا أعرف كم من الوقت مرّ على ضياعي إلى أن انتشلتني دورية سورية وأعادتني إلى أهلي. ما الذي جرى لا أعرف. ليلى ترتدي السواد الذي زادها بهاءً ووقارا.. لم أعرفها في البداية فأخذت تنتحب وتشد ثيابها، أخذتني إلى شجرة التين.

«علي.. انظر»

أقرأ على الساق.. «علي.. ليلى» من هؤلاء؟!!

علي؟! أنت؟!

وليلى؟!! لا أعرف. لا أعرف. اسم امرأة. أخذت تعيدني إلى أمكنتي القديمة، تحدثني، لكني لم أكن أسمع شيئاً، كنت أسمع أزيز الرصاص يخترق دماغي. وطائرات تغطّ كالنحل في شعري. أصرخ بين اللحظة والأخرى. هه.. سقط زميلي. أجل. انظروا القنيطرة التي تحولت إلى أوابد. ابنها سقط في القنيطرة وأشير إلى امرأة عجوز. أبدأ هستريا البكاء. أبكي بحرقة. ثم أخرج من يدي الجميع وأركض في القرية. هذه ليست الجولان، وهذا النهر ليس البحر الميت، هذا الماء ماذا؟!! أحد مشايخ القرية اقترح أن يربطوني إلى شجرة التوت ويضربوني ليخرج الشيطان مني.

«هو الشيطان واحد؟!»

«هو آلاف الشياطين، ثم كل يوم يزيدونهم واحداً»

عصا التوت اللعينة تنهمر على جسدي كأن سقفاً ينهار عليّ أتألم.

أستغيث، ليلى تبكي وتداري صراخها بالصبر. أستغيث بـأمي. وأمي منشغلة بحزنها. «ضاع الولد، الحرب جننته، يلعن أبو الإسرائيليين، أولاد الكلب. الله يهدهم. هكذا أمي، كل يوم تفتح صدرها وتدعو الله أن ينتقم من العدو الذي شرّد وهجّر أخوتنا وأولادنا وأطفالنا.

الشيخ يضربني والفضاء يحترق. يحترق. والجولان يحضر بكل طائراته وقنابله إلى أن أغيب فيجرّدني ككلب أجرب ويرمونني في بيت المؤونة وعندما تولول أمي يزعق الشيخ في وجهها. هس يا امرأة اصبري كي يشفى ابنك.

كان العم صالح غائباً عن القرية. كان في حلب وعند عودته ركض الأطفال نحوه، جاء عمّو. جاء العم صالح.

العم صالح يجتاز الطريق الترابي الأبيض الذي يشرّق عبر مفرق الطريق ينعطف شمالاً باتجاه نهر صغير. هاهو يعبر النهر. هاأنا مربوط على شجرة التوت. بدأت أتعرف الأشياء التي تتحرّك أمامي. هذا الرجل أعرفه. الرجل الذي يفيض وجهه بإشراق إلهي. أعرفه. يرتدي سترة سوداء وقنباز أبيض مخططاً بالأسود و«شملته» السكرية على رأسه، ذقنه نابتة بيضاء. اقترب نحوي. لم يسلم على أحد. الشيخ يقول له. الحمد لله على السلامة يا صالح. العم صالح يقطب جبينه. ماذا تفعل هنا يا شيخنا؟!. ماذا تفعل أيها الـ.. رآني كثور منبطح على الأرض. أشخر وعصا الشيخ فوق ظهري. تهبط وتعلو. رمى العم صالح أغراضه على الأرض وهرع إليّ.. أيها المجنون. ماذا تفعل؟!

«الولد ركبه الشيطان بسبب الحرب»

«جُنَّ الولد يا عم صالح»

الشيطان؟!!

أي شيطان تتكلمون عنه؟!

الشيطان لم يدخل إلا في جسدك يا شيخ. متى تتخلى عن طرائقك الوحشية؟!

ـ أخذت الولد من بين يديه.. إنه مثل ابني. ولد ذكي. مجتهد ـ شاعر ـ لطيف ظلّ شهراً على هذه الحال. كل يوم أحدثه بهدوء. وأمنع عنه زيارة الثقلاء ـ هكذا كان العم صالح يروي حكايتي. وكانت عيناه تدمعان.

ـ وشيئاً فشيئاً استعاد علوش ذاكرته. عرف ليلى أولاً. صرخ بأعلى صوته: ليلى. مشتاق إليك «بالجهل كانوا سيقتلون الولد» لم يخبروا الدولة به، كانت عالجته. يا أخي هذا محارب في الجهة وتعرض لنكسة نفسية. هذا الشيخ يحتاج إلى قصّ يديه.. الحمد لله.. شفي علوش»

ـ علّوش. سأقرأ لك قصيدة أخرى. أريد أن أطبع ديواناً باسم «عنت»

ـ يعني؟!!

ـ يعني أخت بعل. ألسنا من يرث أعظم أبجدية. وعلينا أن نذكر بها دائماً وأن تمثل رموز تلك الحضارة العريقة التي منحتنا أول تنويط موسيقي وأول أبجدية.

«عظيم.. هاأنت تغرف من الميثولوجيا. اترك لي قصيدة الرثاء للعم صالح أرجوك. العم صالح كان سابقاً لعصره. سابقاً لأولاده بكثير»

يهز حسن رأسه.. أتذكر كلبته السوداء المرقطة؟!!

«أذكرها يا حسن كيف لا أذكرها.؟ كانت تقطع لقاءاتي الليلية مع ليلى. أنادي ليلى من وراء نافذتها كي تخرج لنمشي في العتمة. كان يكفي أن نمشي في الظلام متجاورين لنمتلك العالم كله. ولكن الكلبة اللعينة كانت لنا بالمرصاد. دائماً تكشف خططنا بنباحها فتحتمي ليلى بي

لكني أبعدها عن صدري مضطراً قبل أن يخرج أحد من منزله. تندفـــع ليلى باتجاه بيتهم وأنا أصعد السطح الترابي عن طريق السلم الخلفـــي. عندما عرف العم صالح بالأمر.. طلبني إلى مشوار صغـــير. حدثنـــي صراحة وقال عيب أن أفعل ذلك. يجب أن أدخل المنزل من بابه.

ـ هذه الكلبة ماتت.

ـ ذهب الغالي ولا أسف على الرخيص يا حسن.

ـ لو تعرف كيف؟! منذ أيام فقط. عندما مات العم صالح. انزوت الكلبة عند عتبة منزله وعيناها تدمعان. في اليوم التالي رفضت الأكـل. وفي الثالث والرابع..هكذا لم تقبل الكلبة الطعـــام. حـاولوا كثـيراً أن يطعموها فرفضت الأكل نهائياً حتى ذبلت وماتت على عتبة بيت العـــم صالح. الحيوانات تحزن فتصور ذلك؟

ـ يا إلهي. معقول؟!

أشعر بالإختناق. لماذا حضر هذا الماضي كله دفعة واحـــدة فـــي قصيدة حسن. هل جاء قصداً ليوقظني على أثلام جديدة؟! منذ أن سكنت أمي بعيداً عن القرية نوعاً ما لم أعد أزورها.. حتى حسن لم أره منـــذ زمن طويل. الآن جاء حاملاً إليَّ ربع قرنٍ رماه أمامي. بعـــثره وقـــال أتعرف من الذي يمشي هناك؟ من سقط هناك من الذي يصمم علـــى أن يتنقل إلى الآن. بعد سنوات عديدة. وأنا ماذا أقول. هل أراهن على الذي سيمشي إلى ما بعد؟!

«اقعد يا حسن»

«لا. سأعود إلى القرية. المدينة تخنقني. أشعر أني منبـــوذ فيـــها. هي لا تخصني لأني لا أملك بها صخرة أجلس عليها».

«قد يقضي المرء منا عمره كله وهو لا يملك هذه الصخرة. أتقول عندئذ إن هذا الوطن لا يخصنا.؟!»

«أنا أقول»

«أبق اليوم».

«لا.. السيارات متوفرة ومتى شئت تعُود إلى قريتك هناك في القرية تجد لك وسادة.هنا أين سأنام.؟! ينظر حسن حوله إلى المنزل المتواضع ثم يقول: ربع قرن أيها الصحفي والشاعر وأنت ما تزال على سرير وكنبة وطاولة وكرسيين، والله عمتي لطيفة لا تقبل بذلك. وخالتي سعدة لا تقبل أن تزوج ابنتها لرجلٍ مثلك ثروته كنبة.

«هه.. ثروتي قصيدة. أيها الثرثار الجميل».

«يا سيدي الحال من بعضه».

«ماشي الحال. إلى اللقاء»

ـ ١٠ ـ

أغلق حسن الباب ورحل.

أغلق الذاكرة يا وغد..

رجل يغلق المحضر، رجل يفتح ثغرة في سور المقبرة. هناك في مدينة تغرق بهدوء في البحر، مدينة تدعى لاواديسيا فيها المرأة من خضرة الأرض، إلى الشمال من لاوديسيا. رأس شمرا. أوغاريت. المرأة قالت للرجل أنا سكنت هذه المدينة. الرجل يندهش. أيرجمها؟! هذه امرأة مجنونة. ولكن لماذا يطلق الواحد منّا هذه الأحكام؟ لماذا تحول بعل في أوغاريت إلى «هداد».. ومنه انتقل إلى مردوك.. لماذا صار جوبيتير. لماذا تقمصه «تشوب» إله الحثيين؟

آه يا تلبينو..يا إله الخصب الآخر. الـ«هو». لماذا تنام عندما تغضب من الآلهة كيف لك أن تنام. هل النوم هو هروب.؟!

أغمض عينيك قريباً سيأتيك النحل ويلسعك لتستيقظ وتنشر الخصب كمْ من الوقت هربت.. ثم عدت. ثم هربت ولم تعد حتى الآن؟ الذين يرحلون لا يعودون. لكن الماضي الذي تركته يعود إليَّ وكأن الآلهة سخرت لي خلية نحل تبحث عنه وتقرصه كل لحظة ليفيق ويأتيني. لمَ؟.

حسن أغلقَ الباب ورحل.

العم صالح أغلق دفتر الحياة ورحل.

ليلى أغلقت اليمّ ورحلت.

عليا تفتح عليَّ كل أبواب الرحيل وأنا اجتزت مرحلة من مسيرة القدر التي لا أقدر على تغييرها، الحكومات تسقط. والأسوار بين الدول تنهار. والذي كان يطلق الرصاص علينا صالحناه وصرنا نسهر معه ونحتفل بأعياده.. هاهو الملك المبجل ذو اللحية البيضاء لحية النقاء. هاهو يراقص زوجة عدوه الذي يتغذى على شهقات الأطفال. الملك في وادي عربة يحتفل. وأنا أكتب آخر صفقة في مجلد الذاكرة كهذه المرحلة..

كلبة العم صالح ماتت احتجاجاً على الزمن.

أنا يحضرني الزمن بكل فخامته، الذي فات مات يا حضرة الملك أليس كذلك؟!

حسن أغلق الباب ورحل. خلّف ربع قرن في المنزل ومضى. وكأنه لم يفعل شيئاً. نشر حبل طفولته كلها على البلاط العاري. أشعر بالبرد مع الشتاء لم يدخل بعد إلى المدينة. ماتزال نسمات البحر دافئة نوعاً ما. أرتعش. أشعر بوخز في قدمي. هاأنا الآن فوق الصخور

السوداء المحروقة في الجولان. أركض حافياً. جائعاً. الهضاب تـــدور بي.. تل الفرس. تل أبو الندى. تل.. تلال كثـــيرة أحضنـــها.. هــاهو سرحان زميلي لا يرد عليّ.. سرحان لا يرد سرحان. سرحان. انفجـــر باكياً لم أرَ شاباً ميتاً في حياتي إلا ســـرحان.. يــهرع قــائد الكتيبــة. يركلني.. اركض. هيَّا.. غيرّ مكانك.. حملناه ومضينا.. لم تصل سيارة الإسعاف حتى سقط قائد الكتيبة وراح جسده يحترق بالنابالم. لـــم أعــد أرى أمامي ولست قادراً على الحركة أو الكلام. صورة ليلى في جيبــي. سرحان.. آه يا سرحان ماذا أقول لأمك؟ سرحان جاء يشارك بــالحرب بإرادته، لم يكن مجنداً.. بكت أمه. لكنه رفـــض أن ينصـــاع لدمعـــها. سرحان.. الله يســامحك يا حسن ــ أشعر بتأنيب سرحان، هل صعــب عليك أن تتذكر سرحان يا علوش؟!

لا.. ولكنني حزين لأجلك، لا طاقة لي على الحزن. الأشياء التــي نحزن عليها الآن وسابقاً لا قيمة لها يا سرحان.

هاأنا يغمرني النهر. أسبح في مائه.. أمي تقول: لم تنظف جســدك جيداً.. تنظر إلى رأسي. تفلّيني من القمل. جدتي تقول. رشّـــي رأســه بالد.د.ت أوه. رائحة الد.د.ت تزكم أنفي وتخرّش حلقي. أكاد أختنق يــا أمي. يغمى عليّ.. تهرع أمي باتجاه مــزار القريــة. تشــعل البخــور وتبتهل. يراها العم صالح. يا مجنونة.. يا مجنونة هذه مادة سامة. خــذه إلى النهر ارميه في الدوار. أشعر بالانتعاش.. آخ. الماء بارد.. أنظـــر حولي لأرى ليلى النحيلة.. ذات العيون الواسعة «حميـــدوش» راعــي أبقار القرية يشبب بقصبته. ابعد الأبقار عن ماء النـــهر الآن.. المــاء ملوث بالد.د.ت. اسقيها من الجب، يصفّر حميدوش أنغاناً رقيقة عذبــــة كان من المفروض أن يدخل فرقة الإذاعة. ثـــم يختمـــها «بالدلعونـــة، وسكابة. ثم يابو الزلف» تتناطح الأبقار مع بعضها. ترتفـــع أصـــوات الصبية. يهربون من أمام الأبقار التي أصابتها «الدودابة» حشرة القـــرّاد في آذان الأبقار. الأبقار تركض في الظهيرة تأخذ في طريقها ليلى. ليلى

النحيلة تسقط تحت بطن ثور تزحلق على حجارة الدار، تصرخ ليلى. تركض الأمهات. يتفقدن أطفالهن.

ــ يهرع الرجال يحاولون سحب ليلى من تحت بطن الثور الذي انكسر فخذه نبكي نحن الأطفال على ليلى الصغيرة يقلبون الثور. بصعوبة. يحملون ليلى وهي غائبة عن الوعي. من يوم الحادثة هذه دخلت ليلى ذاكرتي. دخلت ولم تخرج. ولم تسمح لأخرى بالاقتراب. لا أعرف إذا كانت عليا ستقدر على الدخول.

لماذا جئت يا حسن؟

الجذور المتشعبة تمتص رطوبة جهات كثيرة. أردت أن أقطع بعض الجذور لأتفرغ للمدينة التي أسكنها فقط. ألا يكفي ضغط العمل وحرتقات الزملاء.. عدنان. سلوى. العمود الصحفي. أوه. أشعر أني بحاجة إلى سامح. بحاجة إلى أن يسمعني أحدهم.. الجدران. البحر. أي شيء آخر المهم ألا يقاطعني كي أطرد هذا الماضي كله وأنتهي.

«رجل يضحك على نفسه»

«رجل يريد أن يطرد الماضي. هل تصدقون كذبة من هذا النوع؟!»

أعرف أني لا أقدر.. نحن شعب ماضوي. أنا أريد أن أطرده لأنطلق إلى أمام. لأعيش الآن لهذا السبب تركت الشعر العمودي. وشعر التفعيلة وكتبت النثر.. فقط. الحاضر سيفرض نفسه شئنا أم أبينا. ما معنى أن نضع رجلاً في الجاهلية ورجلاً في الغرب.؟! سنتشظى يا سيدي الشاعر. لأول مرة أشعر بحاجة للقصيدة. منذ شهور طويلة لم تفتح لي القصيدة بابها. هاأنا أهيّئ القلم والأوراق. لكن للأسف لا يوجد عندي بن . أحتاج إلى القهوة كي تكتمل طقوس كتابتي.

عليّ أن أستعير من الجيران. أقرع الباب.. تفتح امرأة شابة. لا أعرف هذه المرأة.

«عفواً أنا قصدت الأستاذ سعيد جاري. هل هو موجود»

«لا. لقد ترك المنزل وأنا هنا الساكنة الجديدة. هل تريد شيئاً؟!.»

«عفواً. أنا .. كنت. أريد بعض القهوة».

«من عيني يا أستاذ. ألست الشاعر والصحفي..»

«أتعرفينني..؟! طبعاً وأتابعك».

«شكراً»

«ولكن لماذا لم تطلب القهوة من أم رافع؟!»

ارتعش جسدي. ماذا تقول هذه المرأة.؟! تقول إنها جارة جديدة. ومع ذلك تعرف أشياء كثيرة.

«تتابع.. لقد عثروا على ثياب رعد فقط»

«منذ متى تسكنين هنا؟!»

«منذ رحيلك يا أستاذ.»

«أنا لم أرحل. وأم رافع ماتت..»

«أم رافع لم تمت. كانت عند ابنتها في دمشق، لماذا تقول ماتت «فأل الله ولا فألك» يا عيب الشوم.

أترك القهوة وأمشي، الجارة تنادي عليّ بالقهوة ولكنني أغلق الباب ورائي مهزوماً مهموماً، بماذا تخرّف هذه المرأة؟

«خذ القهوة يا أستاذ» لم أردّ تكورت تحت اللحاف. أشعر بالبرد. كان تشرين يهم بالرحيل ليدخل تشرين آخر. أم رافع كانت مسافرة؟!! من الذي قتلته أنا؟!

وسلوى اغتصبت من؟!

سلوى؟.. أجل بعض النساء يغتصبن الرجل. هي التـــي أغوتنـــي راودتني عن نفسي وصورتني، هددتني بالصور. من أين لها الصـــور؟! يا لغبائي. إنها صورة ممنتجة، أجل عملية مونتـــاج بســيطة تخربــط الدنيا.. مونتاج صورة مونتاج صوت. إنه زمـــن. الكمبيوتـــر. آه يـــا علّوش. أيها الفلاح الحزين. هاهي صكوك معاهداتك، أنت توقع هنـــا. والملك في وادي عربة يوقع هناك.

أنا أقتل؟!

مرة قتلت رجلاً.. إذا به الفزّاعة التي تستخدمها أمي فـــي حقــل الخيار لتفزع منها العصافير التي تسرق البذار.

سلوى.. ماذا تفعلين بضحاياك.. أم أنت الضحية؟!

الله يسامحك يا حسن؟!

خمسة وعشرون عاماً، رميتها في حضني وذهبـــت. كنـــت قـــد خيَّطت جراحي. ربطت كيس الماضي كي لا تـــهرب إلـــيّ شـــياطينه وخيباته. لماذا فتحت الكيس في هذا الوقت؟ كدت أن أخرج. عليا تقـــف لي بالباب تريد أن تمسك بيدي. وأنا أريد أن أضمها. أضمها وأبتدئ من جديد.

المتفوق يبتدئ ولا ينتهي.

وعلى الشاعر أن يبدأ كل يوم. ليندهش كل يوم. مسكينة ســـلوى. لماذا فتحت الكيس يا حسن؟

ــ ١١ ــ

لا.. جارتنا كاذبة.

بالتأكيد كاذبة. أنا قتلت. ياأخي أنا رأيت امرأة مقتولة في حمام المنزل امرأة فزاعة. ثوب.. لاأعرف. المهم رأيت امرأة. هددوني. قالوا: إما أن أبيع لهم نفسي أو سيلقونني في السجن بتهمة القتل المتعمد والأعمال اللاأخلاقية خاصة وأن أم رافع امرأة جميلة جداً ولا يعرف الزمن طريقه إليها.. قد تكون أكبر من أمي. أو أكبر من جدتي. ومع ذلك هي تظهر ابنة عشرين عاماً. امرأة فاتنة. يهواها الرجال.. وهي لا تهوى إلا أولادها. قلت أبيع نفسي. ظننت أنهم سيأخذون كلية.. قلباً.. عضواً.. ولكن الأمر لم يكن هكذا.. إذا بهم يريدون أن أبيعهم صوتي وخيالاتي.

دهشت. فلم أقل نعم.. ولم أقل لا. صمتّ كمن وقف على رأسه الطير. قد أصرخ بعد قليل. آه يا أمي. كم أشعر بأني أحتاجك الآن. هل كان عليك أن ترحلي الآن إلى دمشق إلى عند أختي لتقضي وقتاً عندها؟! بحاجة إليك الآن. كي نذهب معاً إلى «المحفارة» حيث التراب الأصفر. نأخذه لنسدّ ثغرات الحيطان والأسطحة كي تمنع الوكف.. وحيث جارنا يمسك بقرته وكل فترة يقترب بها من الزرع يدعي بأنه سها ونام والبقرة دخلت وحدها إلى الزرع.

آه.. جاء الشتاء يا أمي. ألن تكومينا تحت اللحاف الوحيد؟! أخوتي وأنا بينما تذهبين أنت إلى جرة اللبن لتخضيه.

أنا هادنت؟!!

ماذا أقول لأمي؟ وكيف أرد على عيني جدّي الذي يأتي مساءً على جواده ويرقبني من وراء زجاج النافذة. وعندما أصرخ من أنت؟! يبتسم بود ويقول: أنا جدّك «أحمد» جدك لأبيك. حاول أن تتذكرني.

ماذا أقول لحليب أمي المخلوط بالتراب والقمح والعنفوان؟ ماذا أقول للعم صالح الذي كتفوه على جذع شجرة وتركوه يموت جوعاً أمام القرية كلها. ثم أهانوا كل من يقترب منه لمدة ثلاثة أيام فقط لأنه رفض أن يتخلى عن منزله لزوجة زعيم القرية بحجة أن منزلها قديم تسكنه البراغيث.

«السيدة المحترمة يا عم صالح كرهت قصرها وتريد أن تصطاف في منزلك الجديد» «ولكن لم أسكنه بعد.. طينه لم يجفّ بعد.. خشب سقفه ما يزال يحمل رائحة الحقول ورائحة مياه النهر.. هذا النهر الذي يغضب شتاء ويثور فيكسر الأشجار ويطغى على الحقول. «يا أخي أسرتي في العراء وهي أحق بالسكن فيه»

«ولكن زوجة الزعيم تعاني في الصيف من البراغيث في قصرها ومن الفسفس «بق الفراش» فغر العم صالح فاه. «وأسرتي؟»

«أسرتك نسكنها في بيوت القصر السفلية.. تطرد عائلة الدوري «أبو الحسن» وتسكنون مكانها.

«أنا أقبل بطرد أسرة إلى الأكواخ ومن أجل ماذا؟! من أجل الست»

كان حسن صغيراً مثلي وكان يلعب بالحصى لعبة «التكرعة» سمع كلام العم صالح ولكنه تابع لعبه.

«طيب.. أتضنّ بمنزل لعدة أشهر لزوجة الزعيم؟!

«أجل»

أتذكر ذلك يا حسن؟!

كنت أمسك بيد أمي حين سمعت العم صالح يصرخ ويشتم ثم ساقوه إلى شجرة زيتون وربطوه ناديته. عم صالح. عم صالح.

«اخرس يا كلب.. أبوك وأبو العم صالح. انقلع من هنا».

«اترك عمك صالح في محنته يا بني»

ما معنى المحنة يا أمي؟ لم ترد أمي. وعندما تعبت من أسئلتي تنهدت بعمق وقالت. اسكت يا ولد. فسكتّ.

الآن أدرك تماماً أنه كان عليّ السكوت من زمان. لأن الذي صرخت لأجله ما يزال هو تقريباً مع فارق في الأدوار. أنا أقول ذلك في كل مرة ولكن لا أدري ما الذي يدفعني للصراخ.

هاهو المطر يذكرني بالوكف. بيتنا الذي كنا نأكل فيه وننام فيه. ونخبز فيه ونستقبل الضيوف فيه وهو عبارة عن غرفة كبيرة فيها ساموك في الوسط. ومطبخ صغير. أو ربع غرفة بلا ماء ولا مجلى يقال لها مطبخ. وكانت شجرة رمان تتدلى فوق جرة الماء وشجرة توت فوق المصطبة.

أيها اللعين. يا حسن. هل كان عليك أن تفتق ذاكرتي وتنبش كل الذي فيها..؟ عليا تحاول أن تفعل الشيء نفسه وكأنك عندما تلتقي إنساناً مهماً بالنسبة لك عليك أن تنبش ذاكرتك أمامه ليتعرف عليك كم وغداً في داخلك وكم شيخاً وكم لصاً..؟ وإذا هو رفض سيرتك .. تحب نفسك مواجهاً لنفسك لتذكرك بنضالاتك القديمة مع الوحل. وطريق المدرسة الطويل. الطويل الذي لا ينتهي. وبثيابك الصيفية الشتوية معاً. وبمواقد الحطب ومنقل الفحم الذي يملأ الجو دخاناً وبشبابة الراعي.

حسن؟!

«مكدس» الحطب الذي يرقدُ وراء المنزل فيه القطن. أغصان صفصاف زيتون. وبلان.. «مكدس كبير» تلة حطب جاف. وتلة أخرى

«جلّ» هذه التلال هل تكفي لتشعل الذاكرة وتنتهي. يا أخي نحـــن أولاد الآن. ومعاهدتي. وحبك الفاشل. وليلى. والعم صالح.. وكلهم.. كلهم مع الست زوجة زعيم القرية. كلهم.. لنحرقهم ونبدأ من جديد. لكن صـــوت أمي يحفر في أذني.

تخضّ أمي جرة اللبن النائمة على خرقٍ باليـــة وتطلـــق العنـــان لصوتها الحزن. الجرة تعلو وتهبط. صوت أمي يدبغ جـــدران المـــنزل الترابي القديم بالأمل والقهر والانتظار. أخوتي ينـــامون جميعـــاً. أنـــا أتظاهر بالنوم. صوت أمي يفجّر في روحي أشياء لا أعرف كيف أعبّر عنها. أريد أن أبكي وأصرخ معاً. وأحياناً كان يخطر لي أن أقول لـــها: كفى يا أماه. أرجوك كفى. عند المساء كنت أشعرُ بالتعب فقدميّ حقـــل شوك وكومة ديس. أتقلب يميناً ويساراً. لا أستيقظ إلا على نباح كلبتنـــا. فإذا كان النباح عادياً ويستمر بوتيرة واحدة أتابع نومي. وإذا كان النبـــاح قوياً أيقظت أمي كي أحتمي بها من اللصوص الذين يمرُّون على القـــرى يقطعون رباط الأبقار الغافية ويسوقونها أمامهم. أو يدخلـــون المنـــازل الآمنة تنهض أمي مسرعة تقول بصوت عالٍ «لص؟! أي لص كلب ابن كلب يجرؤ أن يقترب من بيتي؟!»

العم صالح قال لأمي هامساً «احذري من زعيم القرية» هذا الآغـــا المحترم الذي ترين صورته في الجرائد وقد رشح نفسه للمجلس النيابي. يلبس أحياناً ثياباً غريبة ويتصرف تصرُف اللصوص هو لص حقيقـــي «عينك، عينك في النهار» ولكن في الليل يتخفى كي ينال مـــن بعـــض النساء الوحيدات. لقد دخل خيمة «ريما»لم تعرفه في البداية. صرخـــت لص.. لص. ولكنه غطى فمها بكفيه.. كاد أن يخنقها.. قال لها أنا لســـت لصاً يا بنت الكلبة.. أنا الزعيم. أريدك يا ريما ولكن لا أريد لأحد فـــي القرية أن يعرف.. عند المغرب رأيتك تملئين جرة الماء مـــن النبـــع.. سلبت روحي يا بنت الحرام. ساقاك العاريتان في الماء أذهبتا عقلي. ألم تشعري بي؟!

«بلى.. بلى يا سيدي. ولكن قد تعرف بنا القرية وينفضح أمري..»

«ولماذا لم تخافي أن ينفضح أمرك مع «هوّاش»

«هواش أحبه يا سيدي. أحبه والقرية تعرف ذلك»

«وأنا ماذا..؟! أنا أشتهيك أكثر منه.»

«لا. لا. يا سيدي.. أتوسل إليك يا آغا.. سأصرخ إذا أجبرتني على فعل شيء لا أريده»

لم يستغرق الوقت إلا دقائق حتى كانت ثياب ريما مشقوقة وثدياها يندلقان من ثوبها.. شعرها منفوش وهي تركض مسرعة باتجاه منزلنا. «يا عم صالح. يا عم صالح»

هرب الزعيم.. ولم يصدق ريما أحد.. الزعيم يأمر والكل يطيع. الزعيم قال: إنه شاهد لصاً في طريق عودته من المدينة. ورجاله أكّدوا من ذلك. وقالوا إن هذا اللص يدّعي بأنه الآغا.. هل يعقل أن يفعل ذلك الآغا يا عم صالح.. «لا. أبداً. الآغا رجل وقور محترم. يخاف الله»

لكن من الذي حمل خيمة «حسنة»؟! يا رجل.. حسنا نائمة في خيمتها أمام منزلها.. الزعيم لا يريد أن تثار الضجة حوله. أفضل طريقة أن يحملوا الخيمة كهودج، حسنة نائمة لم تستيقظ إلا وهي في حضن الزعيم في مكان آمن، اصرخي ما طاب لك يا حسنة لن يسمعك أحد. رجال الآغا يقهقهون ويرسمون بخيالاتهم أجمل صورة لفحولة لسيدهم وهو يغتصب امرأة لم ترزق بأولاد. أنين الآغا وتأوهاته مسموعة لدى الرجل. صراخ حسنة المكتوم الذي غاب أخيراً. تمنى رجال الزعيم أن يكونوا مكانه.. سيرون ماذا تفعل حسنة ومئة حسنة غيرها سيمصونها حتى العظام.. وسيرتوون بعد ذلك مع برميل عرق

«ولك يا ناس حسنة حامل.. حسنة زوجها مات في حرب «٤٨»

حرب فلسطين. وحسنة كيف هي حامل الآن بعد هذا السنّ، يـــا عيــب عليها؟!

لم يقل أحد يا عيب على الرجل الذي فعل ذلك. ولم يوبخه أحـــد إلا زوجته. حسنة حامل. حامل، إلى أن وجدوا حسنة تطفو على وجــه الدوّار في يوم عاصف. تنتفض أمي كلبوة «فَشَر» مـــن يجــرؤ علـــى الاقتراب من بيتي أنا عندي رجالٍ والتفتت إلينا نحن الصغـــار. تنظـــر أمي من شبّاك، وهو لم يكن شباكاً، كان طاقة ثم تتجه نحو الباب تفتحــه بحذر فلا تجد أحداً.. تعُود إلى فراشها. اشعر بها مضطربـــة «نــم يـــا علوش» اللصوص يأتون من الداخل يا ولدي.

أنام.. أنا علوش. الولد المطيع ولا أعرف الداخل مـــن الخـــارج. المهم هو أن أمي تطوقني بذراعيها وتهدهدني حتى أغفو. ثم ســـــنذهب صباحاً إلى المحفارة. «لقد كبرت يا علوش يا بطل.»

ـ ١٢ ـ

في الصباح.. امرأة تعد الحليب والخبز لأطفالها.

في الصباح الأطفال يتسابقون إلى المدرسة بصنادل جلدية عتيقة.

وفي ذلك الصباح لم نذهب إلى «المحفارة» حيث الـــتراب الـــذي نجدد به طين المنازل» كانت الرياح الخريفية محملة بـــورق التـــوت. تعرت شجرة التوات التي أمام منزلنا. العم صالح يربط بقرته في المرج ويعود ليلعب «المنقلة» مع رجل غريب لم أعرفـــه.. نـــاولني قطعـــة حلوى. ثم تابع حواره مع الرجل الغريب. سمعته يقول هامساً وهو يعد. ٧ ــ ٨ ــ ٩.. «الظلم لا يدوم يا أبو محمد»

ـ يا سيدي لو رجعت لحكايات الأقدمين لرأيت أن للظالم نهاية مهما طالت. وهذه الأرض التي نبذل دمنا في سبيلها ستكون لنا ذات يوم. أما هذه «الدبابة» زوجة الآغا التي لا يتسع لها قصرها. سيتسع لها القبر.. لك أن تتخيلها كبارجة تدور في القرية يوم أمس تبحث في أكداس الحطب المكومة منذ بداية الصيف عن أغصان كينا أو سرو لتلبس صاحب الحطب حالة سرقة.. كل السرو في العالم سروها.. وكل من يحمل غصن كينا من شجرتها.. الحياة ما عادت تطاق يا رجل.

ـ يالله ـ المستقبل قادم ـ هؤلاء الصغار سيكبرون. نظر إليَّ العم صالح وابتسم هو يراني منهمكاً بالاستماع إلى حديثه فأعطاني حبة مربى أخرى تشجيعاً لي ثم ردد أبياتاً شعرية ما زلت أحفظها حتى الآن. وعندما سمعت صوت أمي يناديني هرعت إليها. فذهبنا إلى المقبرة. سنعشب قبور الأجداد يا بني.. كل سنة أمي في هذا الفصل تجبرني على تعشيب القبور. كان الشوك يغطي القبور. والبلاّن ينتشر بينها.. حين دعسنا على بعض القبور الغائبة تحت الأعشاب سمعت أنيناً. لم تقل أمي شيئاً. سارت بي إلى قبر آخر، قبرٍ طويلٍ مزخرف. هذا قبر جدك يا علوش ـ والدي ـ يقولون إنه والدي. لم أفهم شيئاً. يقولون؟! لكني ولد مطيع لا أكثر من الأسئلة.

«لقد رأيت جدك يا علوش في منامي. رأيته يعاتبني ويشهر منجلاً في وجهي» عندما ظهر حمدان الكسيح في المقبرة لم نكن قد انتهينا من تعشيب قبر جدي. نظرت إليه أمي باندهاش.. «ولك حمدان متى صرت تمشي؟»

«شفيت بفضل الله وبفضل الشيخ شهاب.»

«الشيخ شهاب والدي؟!»

نعم.. والدك الطاهر ـ النقي. رأيته في منامي يمسك بي ويأمرني بالنهوض. قلت له لا أقدر على السير يا عمي. قال: قم. قمت. امشِ..

مشيت. رشَّ على ساقي تراباً.. قال هذا من ترابي. في الصباح نـهضت من فراشي كالنمر.. لذلك نذرت له البخور والدجاج.

صمتت أمي. كأني أراها الآن. امرأة قوية البنية. قوية الملاحظـة. شديدة البأس.. سريعة البديهة. تطلق أبيات العتابا كأنها تسكب ماءً. لـو كانت رجلاً في هذا العصر الرجالي لكان لها شأن. فجأة بهت لون أمي. تلعثمت ولم تعد قادرة على لفظ حرف واحد. تركت المقبرة ومشـت باتجاه «حاكورة المنزل» لتعشب شجيرات الزيتون الصغيرة.. دخلـت المنزل.. جدتي على الباب تدلك يديها المتيبستين.. وضعت «المنكـوش الصغير على الأرض».. أسمعت؟! قالت موجهة الكلام لجدتي..

«ماذا؟!»

«والدي ظهر له كرامات.. والدي شهاب ولي.. طاهر. نقي».

«ماذا تقولين يا فطوم»

«كما سمعت.»

«والدك.؟!! أنت تعرفين من والدك يا فطوم.. اذهب من هنـا يـا علي. أنا أذهب كما تأمرني جدتي. لكن لا أنسى همسهما..

«وهل أنجب أولاداً حتى يكون أبوك.. وهل هو إلاَّ.. لقد باع هدبا هي ليست ابنته.. عرف أن زوجته تلتقي برجل آخر وسـكت كـي لا تنفضح رجولته.. كان «سلّوم» يقوم مقام أبيك يا فطوم.

ماذا قالت جدتي لأمي المنكسرة. كدت أبكي عليها.. أمي المنكسرة الظهر. العارية الرأس «هيّا إلى المحفارة يا بني»

امرأة تحمل منكوشاً وكيس خيش وتشير إلى المحفارة. يتبعها طفلٌ صغير لم يتجاوز العاشرة.. نحيل.. أسمر البشرة. حافياً يسير.

المرأة تسير مثقلة بالهموم. والطفل تشده الطريق إلى الوراء.

أشياء كثيرة تنقلب الآن ويظهر وجهها الداخلي. أشياء تأخذ مساحات واسعة في الذاكرة ثم تبدأ بالموت.

جدةٌ هرمة تقلب كفيها أمام عتبة منزل ترابي ـ امرأة تتمتم بالسفر برلك والجوع. بالشيخ شهاب وأقنعته. من يصدقها؟! الذي يطويه الزمن يستمر على قداسته أو على قذارته.. من يقدر أن يصحح التاريخ؟ حتى لو أن اللقى الحجرية وجدت مكتوبة بحقيقة أخرى فلن يقدر أحد أن يصحح رُقم الزعماء.. من يقدر أن يقول أن بعل إله أوغاريت لم يضحِ من أجل الإنسان؟!

الزعيم يضحي من أجل القرية. هل تجرؤون أن تقولوا عكس ذلك؟!

القرية لا تضحي بشيء.. أكثير عليها أن تقدم نساءها وأرزاقها للزعيم الذي وهبها الحياة؟!

أمي تحفر. وأنا أعبئ كيس الخيش بالتراب. ننقله إلى القرية. على المصطبة ونعُود ثانية. نحفر. نملأ. نسكب كومة تراب أصغر على الباب. ماذا يقول سلوم البري لا أعرف؟

كنا ننقي التراب من الحصى قبل أن نسكب عليه الماء والتبن عندما قدم سلوم البري

«أليس هذا سلوم البرّي يا علوش؟»

«نعم هو يا أمي»

كانت تشكو أحياناً من تشوش الرؤيا. فتكحّل عينيها بالكحل العربي لتبدأ الدموع السوداء بالتساقط على خدها راسمة طرقات وشواطئ مخيفة.

نادت أمي «يا عم سلّوم»

اقترب سلّوم. كان رجلاً مسناً. يتوكأ على عكازة جرداء من العقد والزينة

«خير يا فطوم.»

«خير يصيبك»

«أعرف أنك تفسر المنام. وأنا رأيت والدي في المنام. يقرع عليّ الباب ثم يدخل ويخلع ثيابه. أخاف منه وأشعر أني غير قادرة على رؤيته.. أقول له يا أبي أين أنت خذ ثيابك. يضحك بصوت عالٍ: يقول لي أنت لست ابنتي. سأشرب دمك الآن. كان يركض في أرض المنزل. يحمل منجلاً وهو يبحث عني ليقص رأسي. لكني أراه يسقط على الأرض والأفاعي تخرج من أصابعه» ثم رأيت حمدان الكسيح صباحاً. قال إنه شفي عندما رأى والدي في المنام. صمت طويلاً سلوم. حملتُ له الماء. ثم قال بعد هذا الصمت.

ـ المنام بداية تشير إلى أنه رجل طاهر.. ونهاية مخيفة. على كل حال والدك ولي من الأولياء.

ـ أرجو ذلك يا عم سلوم ولكن؟!

هزت أمي رأسها وأطلقت نهدة دون أن تضيف شيئاً آخر. بينما رفعتُ أنا رأسي عالياً معتزاً بجدي. فخوراً بالحكايات التي تنسب إليه. يشفي ويبارك رزق بعض الفقراء.

«نحن فقراء يا أمي. لماذا لا يبارك جدي لنا في رزقنا لنصير أغنياء.»

«لا يبارك إلا الله يا بني.. لا تفخر كثيراً وترفع رأسك عالياً تقع بعد ذلك .»

في العيد.. ادَّعت جارتنا أنها دعت الله والشيخ شهاب فرزقها الله بصرة صغيرة فيها بعض المال حملها إليها أحد الأصدقاء ولم يفصح

عن اسم مرسلها.

جدي لم يرسل لنا في العيد حلوى.. ولا ثياباً جديدة.. كنت أريد من جدي محفظة مدرسية بدل المحفظة القماشية التي تبلل كتبي بالمطر.

«اسكت يا ولد.»

هأنذا اسكت.

عدنان قال لي اسكت بعد عشرين سنة.. سكتّ.. لماذا. لماذا؟!

«أنت لست رجلاً.. سلوى هكذا قالت؟!!»

«أنا لا شيء.. أنا ولد وكفى.. اسكت يا ولد. اسكت. لم يعد أحد يقول اسكت.. صرت أسكت وحدي. لا حاجة لأحد بعد الآن أن يقول لي هذه الكلمة. لقد حفظتها وعقلي يرددها آلاف المرات ويعرف متى ينذرني بالسكوت مع الأسئلة الجارحة التي تحز في نفسي.»

(الحال القديم. كالحال الآن. وما سودته في صفحات ومقالات لم تجدِ نفعاً إلاً في أن أنثر رمادي أمام الآخر. لن أعود ثانية إلى الحياة كما عاد بعل الإله لا أخت لي ولا أحد سيذري رماد أجزائي. في الحقول لتمتص الأزهار والكلمات والصحف والأوراق..

«والبتول عنت» أخت بعل.. الإله الذي قتله الجبار «موت» انتقمت لأخيها، طعنت «موت» ودفنت بعل على رأس جبل كاسيوس المقدس. عند ذلك عاد بعل «هداد» إلي الحياة ليتابع التضحية من أجل الإنسان.

«الكلمة = بعل. الكلمة المقتولة يا عليا»

هذا العماء هو «موت» الإله الجبار الذي يفتح شدقيه. شفة في السماء وشفة في الأرض. نحن بين فكي الجبار.).

اسكت..؟!

على الطفل ألاَّ يسأل.

أنا لا يحق لي أن أقترب من أمي وهي تتحدث إلى العم صالحٍ حديثاً هامساً. ولكن لم تمض شهور حتى صار قبر جدي شهاب.. مزاراً مبلطاً بالرخام.. حوله الأشجار الصغيرة. ونافورة ماء. الدجاج يذبح كنذور.. والخراف. والثيران الكبيرة.. دجاج القرية مرض بمرض «أبو هدلان» تذبل الدجاج وتموت خلال يوم واحد.. نذروا دجاج القرية للشيخ شهاب.. شفي الدجاج. وراحت الأضاحي تنحر. هكذا نساء القرية يقسمن. فإذا مرضن صرخن يا شيخ. وإذا هاجم الذئب الدجاج. صرخن يا شيخ. في الصباح يجدون الذئب ميتاً أمام المنازل.

«سلوم» قال.. العمى القرية كفرت. وابتعدت عن الإيمان لفترة طويلة. بعض الشباب الطائش زرع في القرية بذور الشر.. قال ديمقراطية، وطبقية قال هه!! مساواة؟! والله خلقنا درجات.؟ ابتعدت القرية عن الروحانيات يا ناس.. خربت الضيعة «الآن حقت الحقيقة»

استطالت الرقاب. اندهشت الوجوه. ثرثرات هنا. وهناك. نحن الأطفال. حسن وأنا وسامح الذي وفدَ جديداً إلى القرية لا نعرف شيئاً نذهب إلى المدرسة.. ونعودُ من المدرسة. وفي الصيف يتناولنا الخطيب بعصاه اللينة.

يبدو فعلاً أننا بحاجة إلى أولياء جدد.

«اللي بيعرف. بيعرف»

جدتي تقول هكذا وتنظر إلى أمي ممتلئة بالغيظ. كانت القرية أحياناً تسبب لنا المشكلات الصغيرة مع زعيم القرية. لم أكن أعرف لماذا؟ في الوهلة الأولى فكرت أنهم سيحبوننا أكثر ألسنا عائلة مزار القرية الجديد؟! ولكن يبدو أن جدتي لا تؤمن بشهاب.. وأمي أيضاً. كذلك العم صالح وبعض الشبان لهم ملاحظات كثيرة سمعت أطرافها.

انزوت أمي بعيداً.

والله يخطر في البال يا صالح أن أبني بيتاً في أرض «الدلب» لقد كرهت هذه القرية. اتركها.

كيف تركت أمي القرية؟! الآلهة يا أمي يسكنون الأعالي. تل سيانو ما يزال مليئاً بالآلهة والأولياء والمزارات الجديدة. ديغول نفسه، بعظمة فرنسا كلها يومئذ في فترة الانتداب على سورية جاء وزار سيانو.. أتتركينها أنت؟!

ديغول. بذاته أكل من دجاجات قريتنا.. وزوجته شربت من ماء سيانو. لم تندهش. كانت تعرف بأنها سترى بشراً مختلفين عن كل الناس.. ملوك وعبيد.. هذا هو نظام المملكة يا سيدتي. نحن نتآمر فقط. يومها غضب بعل الذي يسكن الأعالي وصب لعنته على الساحل كله لذلك استمر في فقره المدقع. كأني بأمي الآن وأنا عائد من المدرسة. «أريد أن آكل يا أمي»

«كل.. الأكل أمامك تحت الطبق»

«أرفع طبق القش لأرى البرغل.»

«كل يوم برغل. كل يوم برغل. كرهت هذه الحياة. أشتهي اللحم. لقد شممت رائحة لحم في الطريق.»

لحم؟! فغرت أمي فاها.. لحم؟! نحن نأكل اللحم من العيد إلى العيد وكفى الله الصابرين ثوابا.

بكيت. وأضربت عن الأكل. الشاعر سرحان مرض من كثرة تناول اللحم. عمّه الجنرال كل يوم يرسل إلى القرية خروفاً «يقول له. أطعم الجيران والكلاب. والقطط واترك قليلاً للجرذان الجائعة..»

ـ ١٣ ـ

أتدرين يا أم علي؟!

زعيم القرية ذبح دجاجات أم العبد.

واليوم ذبح خروف العم صالح.. القائمقام سيزوره الليلة. هكذا يقولون. أم العبد بكت بحرقة.

«الآغا كالذئب يا علوش»

«لا تقل هذا الكلام لأحد» جدتي توصيني.

النسوة شكون أمرهن لله.

إحداهن قالت سأنذر دجاجاتي كلها للشيخ شهاب. عند ذلك لن يستطيع أحد ذبح الدجاجات إلاّ برضاه. لكن الدجاجات كل يوم تذبح. والشيخ شهاب لا يحرك ساكناً.

وعندما حلّ عيد الأضحى ذبح الزعيم عجلاً لبيت «الدوري» جدي لا يحرك ساكناً مع أن والد حسن صديقي ذهب وبكى أمام المزار.

«جدك يا علوش دعا على امرأة رفعت ثوبها عن ذراعيها وهي تعجن. وعندما انحنت وهي تقرفص ظهر ثديها وجزء من بطنها. كانت تتقصد ذلك لتغوي الرجال الذين يجلسون على المصطبة المقابلة لبيتها. جدك دعا عليها.. فماتت بعد أيام بالجدري»

ـ والدك يا فاطمة «كنتِ صغيرة» له حوادث كثيرة تثبت أنه مقرب من الله وأن الله منحه الكرامات الكثيرة.. بوسطة القرية الوحيدة التي تصل القرية بالمدينة.. قتل سائقها بعد أن تدحرجت بالوادي لأن

حمدان الكسيح نذر لوالدك الشيخ شهاب ديكاً أزرق منقطـــاً بـــالأبيض. ذبحه الشيخ يومها ودعا على السائق لأنه لم يقف ويحمله من المدينة إلى القرية. كانت الشتوية قاسية وكان حمدان الكسيح لا يقوى على السـير.. ظلَّ الليل بطوله يمشي.. وصل القرية عند أذان الفجر. يمشـــي قليـــلاً ويختبئ من المطر تحت شجرة . أو بجوار منزل إلى أن وصل أخيراً.

حمدان شكا وقلبه مجروح.

هكذا الأحاديث.

تكبر. تكبر. تصير تلاً.. ماذا في جوف التل.. تلّ ســـيانو الـــذي يسكنه الفقراء الآن ماذا في داخله..؟!

تلال كثيرة. وملوك توقع معـــاهدات واتفاقيـــات ســرية وعلنيـــة والرعايا هم الرعايا.. يعملون لنجدة الملوك من الفقر.. الملك الفقر عنـد البتراء ينام قرير العين بعد الصكوك الجديدة.. هكذا هي الحال يا حسن. ماذا تنفع القصيدة مع حال مهلهل.. لا نعرف كيف تبـــدأ. ولا تعـرف كيف تنتهي.. الواقع سبق النبوءة.

أتذكر واقع القرية والثرثرات الكثيرة والفقر. ونحن فـــي مراحـــل الطفولة الأولى يا سامح؟! بالتأكيد قريتك الأولى كانت هكذا. كل القريـــة كانت تعاني الفقر والعطش والجوع والعري.. وكذلك في المدينة أتذكـــر رفاقنا الفقراء؟!!

الآن كم تغير أمر الفقر.. صار هناك فقر روحي وهذا أسوأ أنواع الفقر.

أحاديث جدي تشوى مع قرامي الزيتون المحروقة شـــتاءً حيـــث يصير الشتاء كله في وقدة الحطب التي تتوسط المـــنزل. وفـــي أغلـــب الأحيان هي حفرة مليئة بالجمر يصعد منها ضباب يغطي الوجوه فـــلا تظهر انفعالاتها ولكن نسمع الصوت فنعرف المرء من صوته.

وفي يوم رمضاني والقرية يكللها رمضان والمطر الغزير جـــداً.

دعا العم صالح عدداً من الرجال إلى الإفطار. أخذت الأحاديث تـــدور حول معجزات جدي. كنا نحن أطفال القرية نتحلق في المساءات حـــول الرجال الكبار. أحياناً يطردوننا فتغيم الدنيا بوجهي نهربُ. لكننا نعـــود ثانية. نقضم حولهم التين اليابس وننتظر أن يوزعوا علينا بعض حبـــات التمر. أو الحمّص المملح. اشتد النقاش بين الرجـــال حـــول معجـــزات الشيخ شهاب. والشبان صامتون. قال أحد الرجال: مرة رأيــت الشـــيخ شهاب «قدّس الله سرّه» عائداً من الكروم يذكر اسم الله ويسبّح بمســبحته التي تلمع كالبرق أهداها له القائمقام. كانت أصابعه نحيلة. طويلة كأقلام من نور. رأيت دمعة في عينيه. وقفت. ما بك يا شيخنا؟! لـــم يجبنـــي. مشيت أتبعه. وجدت صخرة منتصبة على هيئة امرأة والحليب ينزّ مـــن ثدييها، كانت الصخرة مغطاة بالأغصان والأعشاب اليابسة. رأيت الشيخ يتأملها بحزن. وقفت أنا الآخر. سمعت أنيناً خافتاً. نظرت إلى الشـــيخ. أدرك أن أسئلة تطوف في عيني.

«ما هذا الشيخ ــ سبحانك ربي الأعلى ــ؟!»

سبحت الله عشرات المرات.

قال: لله في خلقه شؤون.

«لم نقل لا.. ولم نعترض على حكمته»

ــ هذه المرأة لم تكن طاهرة يا ولدي.

ــ كيف يا شيخ؟

ــ لقد راودت رجلاً عن نفسه وهي أم ــ أستغفر الله العلي العظيم ــ عند ذلك دعوت الله أن يمسخها. هكذا ألهمني الله. لم أكـــن أقصـــد إيذاءها فهي أم. لكنها تحولت إلى صخرة. هذا يحزنني كلمـــا مـــررت بوادي الجن. سميته «وادي الأم»

صمت الشيخ بخشوع وأقسم عليّ ألا أقول هذا السرّ لأحد.

فارس استغرب الأمر. واستنكره. ثم ضحك حتى انقلب على ظهره. نهض شاب آخر يدعى «فاطر» إذا كان ذلك صحيحاً كيف له أن يبيع ابنته هدبا؟!

ـ اسكت هدبا فاسقة منذ طفولتها.

ـ أنت تقول هذا يا حمدان؟! كيف عرفت ذلك؟!

ـ هدبا طفلة. باعها والدها لرجل فاجر. باعها واشترى ألقابه. متى كان شهاب نقياً؟ كلنا نعرف كم كان مزواجاً.

ـ كان يبحث عن صبي.

ـ آ.. فقط؟!

اختلف الرجال وضرب فريق شهاب فارس ورفاقه. كان الدم يسيل من أنف فارس ويصب من صدغه. أشار حمدان قائلاً: أنت سبب كل البلوى في هذه القرية.. جيل فاسق.. فاسد. لا يعرف الله ولا يؤمن بقدره. أمكم الفاسقة تعلمكم الفجور. لم أعرف أبداً من هي أمهم. إلاّ أمهم الحقيقية التي تسكن في أقصى الشمال ونفر من أتباعها المحليين الذين يسرقون أنفسهم عندما يظهرون على الساحة وقد أحاطت بهم هالة لا تلبث أن تزول.

«سلوم ينهض خارجاً دون أن يقول شيئاً»

لكن حامد لم يسكت. ظل يثرثر.. قال لفارس اذهب يا كلب. يا مخرب.. أنت تحاول تخريب الضيعة كما تخرِّب الشعر العربي.. يقولون عنه شاعر.. «تفوه.. شاعر شو..» ولك هل نظمت بحياتك قصيدة؟!! إنه يسمي هذيانه شعراً.

يومها لأول مرة أسمع أنّ هناك شعراً جديداً لا يعترف به العجائز. كنا نقرأ الأناشيد المدرسية والقرآن فقط، هذا في الشتاء. نغرّب إلى المدينة. ونشرِّق مساء إلى القرية. نستمر ساعات في المسير.نجتاز

أنهاراً ووديانا لكن في الصيف كان على الأطفال أن يرعوا الأغنام.. أو الأبقار. وقد تكون بقرة واحدة كي نوفر أجرة الرعي التي يأخذها حميدوش.. وحين تمرّ بنا زوجة زعيم القرية تبتسم ابتسامة صفراء وتقول: أليس الرعي أسهل من حفظ الكتب والذهاب إلى المدرسة في البرد والوحل والنهر الهادر..؟! نهز رؤوسنا.

فتقول.. هكذا قولوا لأمهاتكم كي ترتاحوا.

«والله المدينة يا أم علي تخرّب وتنزع أخلاقهم. ألا ترون ما حلّ بفارس هذا الشيوعي الكافر. وبفاطر هذا البعثي اللعين..لأ.. والقائمة كبيرة.. المدينة تنزع الجيل الجديد..»

«ولكن أولادك يذهبون إلى المدينة.»

«صحيح ولكن أنا لا أتركهم.. أنزل معهم لا أفارقهم حتى لا يعبث بأخلاقهم أولاد الحرام»

«أينما ذهبت يا ست يوجد أولاد حرام! نربي أولادنا على الأخلاق الحميدة ونتركهم.. القبضاي يلاحظ على علّوش أي شيء ناقص» تزم زوجة الآغا شفتيها وتنهض كبارجة مستندة إلى عصاها ووراءها تسير فتاة تقوم بشد ثوبها من الخلف.

عندما تبتعد عن أمي.. تبصق أمي وهي تقول «تفوه..» تظن أنها ستضحك علينا؟ والله سأعلمك يا علوش حتى تكون مخرزاً في عيون الظالمين.

العم صالح يمتلئ وجهه بالحزن.

حامد يطلق تهديداته. يرتجف من شدة الغضب. يصرخ.. لأول مرة سأقول سراً. لقد منعني شيخنا من البوح به.

يا جماعة. السرّ يحتاج إلى رجال أشدّاء. إنه أصعب من حفر الجب. وأنا حملت السرّ زمناً طويلاً. كنت أشعر بتعب شديد. وبانتفاخ

في بطني. كبر بطني. صار كبطن الحامل.

شعرت أني أحتاج إلى شخص أقول له ما يتعبني. أريد أن أشكو. يا ناس.. هذا السر الدفين يعذبني. لكني رأيت الشيخ شهاب في منامي يتوعدني كيف تخون الميثاق يا حامد.؟!

الشيخ لا يريد لأحد أن يدري بكراماته.. حتى زعيم القرية كان يأتي إلى الشيخ ويفضي إليه ببعض الأسرار.. الزعيم يأخذ برأي الشيخ في أمور كثيرة حتى إن ديغول عندما زار «المملكة» أحضر الزعيم وحضر الشيخ إلى جانبه. لكن الحقيقة أنا تعبت ومولانا الشيخ سيغفر لي لأنني مضطر أن أقول هذه الحادثة لأثبت برهانه على الأرض.

لكن الذي حدث لي يشبه ما صار لحلاق الاسكندر.. عندما قصّ شعره رأى قرنين للإسكندر. فهدَّده الاسكندر بالقتل إذا فضح السرّ.. مرض الحلاّق. كبر بطنه وكاد أن ينفجر. إلى أن صادفه أحد الحكماء.. رآه الحكيم هزيلاً منتفخ البطن. منزوياً لا يكلم أحداً. وعندما أدرك حاله طلب إليه أن يذهب إلى بئر مهجورة. بعيدة.

«اخفض رأسك إلى الأسفل. وقل السرّ الذي تحمله يا حلاق، أنت تحمل سراً خطيراً ومتعباً. ذهب الحلاق إلى البئر.. طأطأ رأسه.. راح يردد العبارة إلى أن زال انتفاخ بطنه وخف ثقله. شعر بارتياح. ولكن لم تمض أيام حتى نبتت في الجبّ حبتان من الذرة.. استطالتا وصعدتا خارج البئر.. وكان كلما حركهما الهواء واصطدمتا ببعضهما رددتا السر «الاسكندر ذو القرنين. الاسكندر ذو القرنين.»

هكذا لا بد للسرّ إلاَّ أن يظهر.. أنا لا أقول السرّ لأرتاح. أقول لأثبت شيئاً. «يعني هو لا يفشي الأسرار..كم كان منافقاً هذا الرجل يا حسن» الشيخ لُقب بالباشا في آخر أيامه ــ منحوه لقب الباشا.. قد يكون الشيخ باشا.. حامد ما يزال يتكلم..

المطر ما يزال يدق على الجدران.

الوكف ينزل فوق إخوتي.

أنا أتكوم في زاوية من زوايا بيت العم صالح.

ليلى النحيلة ذهبت تنام..

حامد يجرش الصمت بصوته الأجش.. الباشا.. يحب الفقر.. وكان يدافع عنهم. ويوم قابل القائمقام. قال له بالفم الملآن.. ولك لماذا تفعل هكذا بعباد الله. من قيض لك أن تستعبدهم أنت وزعيم القرية.. كيف تأخذون أرزاقهم وتذبحون عجولهم في مناسبات خاصة بكم.؟! في اليوم التالي زار القائمقام الشيخ الجليل واعتذر إليه فأكرمه الشيخ وذبح له خروفاً. ابتسم العم صالح ولم يقل غير تلك الكلمة «ومن أين أتى شهاب بالخروف؟! كلنا نعرف أنه كان فقيراً يوم جاء إلى القرية حاملاً زوجة وابنتين صغيرتين»

«الله الرازق يا صالح»

«الله قال له تاجر بابنتك؟!»

«اسكت يا فاطر»

أكمل يا حامد.. حامد يكمل وكأنه لم يقاطع.. «أتعرفون جمول؟ جمول أرملة ولها أربع أطفال. الشيخ كان يرسل لها الطعام والثياب. وكانت جمّول امرأة جميلة. قلت له ياشيخ لماذا تفعل هكذا. عليها أن تعمل... قال لي:... لايابني... هكذا أفضل من أن تأكل بثدييها. مع ذلك خشية المعصية تزوج الشيخ جمّول ورزقت منه بصبي. لم يخبر أحداً بالأمر غيري.. كان يذهب إليها سراً ويعود سراً حتى لا يجرح مشاعر زوجاته.. وأحياناً يرسل لها ما تحتاجه معي. لكنها لم تصُن نعمتها. لقد أحبت رجلاً فقيراً. رجلاً يعمل مرابعاً.. أغراها بشبابه. وأتى يوم مقمر من أيام الربيع.. القرية نائمة. تسبح في عطر الكروم. اللوز. الزنزرخت. المشمش.. والزيتون والرمان.. دق الشيخ شهاب المنزل..

خرجت. قال لي: أرأيت هدبا؟!

ـ لا.. يا شيخ. هدبا هنا؟!

ـ يقولون أنها تحوم حول المنزل. تريد أن تحرق القصر على كل حال هي مجنونة. تظن أني بعتها.. لا. أنا لم أبعها.. هي تحمل لعنة سلالتها القديمة. أريدك يا حامد أن تسهر على المنزل وتحرسه لأني أثق بك. أنا ذاهب إلى جمّول: هي فتية كما تعرف ولا يجوز أن أطيل عليها الغياب.

لم يقرع الباب على جمّول.. دخل كعادته من الباب الخلفي للمنزل الترابي المغروس بين شجيرات السماق واللوز. لكنه سمع حركة. أنصت ظنّ أن لصاً يريد اقتحام المنزل. اقترب إلى الداخل.

جمّول عارية. عارية كما ولدتها أمها. ضوء الكاز ينوس.. الشيخ ما عاد يقدر على المسير.. جمّول واقفة. عارية يلتصق بها شابّ.. الجسدان متشابكان.. فرك الشيخ عينيه.. يقترب أكثر. لم يشعر به.. كان الشاب يمرر أصابعه بلطف وهو مغمض العينين على ثدي جمول وهي كأنها في غيبوبة إلى أن استلقيا على الأرض من شدة النشوة.. كاد أن يغمى على الشيخ. جمّول بين ذراعي رجل غريب؟!!

تمالك الشيخ نفسه.. بهدوء استدار. خرج. طفرت دمعة من عينيه. فتح ذراعيه وراح يدعو الله أن يقصف عمر جمّول. الموت هو العلاج الوحيد لهذه الفضيحة. جمّول تخون الشيخ؟!!

لم ينته حامد من حديثه حتى دخلت جدتي التي كانت قد سمعت صراخاً وشجاراً في بيت العم صالح. وعندما سمعت طرف الحديث قالت: اخجل يا حامد. لقد صرت جداً وتكذب.

ـ أتكذبينني أيتها العجوز الخرفانة؟!

ـ جمول أكلت فطراً ساماً فماتت.. طبخت الفطر لأولادها من

شدة الفقر والجوع. قالت لأولادها لا تأكلوا. أنا سآكل أولاً. ربما كان الفطر ساماً. الأطفال رأوا أمهم ميتة أمامهم.. جمّول قالت لي: الشيخ يهددني. يريدني أن أتزوجه . والولد الذي نسبه الشيخ إلى نفسه ليس ابنه.. إنه ابن جمّول لأنها فعلاً كانت تحب رجلاً آخر.

ـ هذا من غيرتك.. تختلقين الأكاذيب.

ـ أنا زوجته ويحق لي أن أغار.. شيخك هذا لم ينجب أبداً. لقد تزوجني ولديّ ابنتان.. فاطمة وهدبا. إنهما ليستا ابنتيه اشهدوا على ذلك يا صالح. شهاب كان زير نساء..

التفتت أمي فوجدتني في الزاوية. قم يا علي.. قم.. أخذتني أمي من يدي ومضت بي بعيداً. ألهذا كان أبي يشتم والد أمي..؟! ألهذا جدتي قبلت الفقر ولم تقبل العيش مع شيخ وباشا وزعيم.

أمي لم تقل شيئاً. إنها لا تريد أن تخرّب ذاكرتي. أنا كنت أفهم لكني كنت أدعي عدم الفهم. في الحقيقة فوجئت ولا أزال مدهوشاً.

جدي قتل امرأة بالفطر.

جدي سرق ونهب محاصيل كثيرة.

«جدي؟!!»

لكن جدي أحمد كان فارساً. لقد حارب الفرنسيين.. وقابل إبراهيم هنانو.. زمجر حامد وقال: لا بد أن لعنته أصابت القرية وستصيب الناس.. ما هذا الفجور؟ الحقيقة لم يقصر ابن الشيخ الذي لم يورّث أحداً من مال أبيه.لقد سافر إلى بيروت وعندما عاد منها كان كما الخرقة البالية يطلب الإحسان من أي كان.

«خالي. المزعوم. في بيروت يتنقل من ملهى إلى ملهى يسكن الفنادق وينام على الموائد الخضراء.

كل مساء يجب أن تبدأ المعركة السياسية. في كل القـرى. هكـذا يبحث في كل البيوت أيضاً. في البيت الواحد عدة أحزاب. على الجـدار الواحد عدة آلهة متصارعة.

في آخر الليل تخرج امرأة من بيتنا. تعانق امرأة أخرى بحرارة ثم تبكي أمي آه.. يا هدبا..

عبارة واحدة تحل اللغز.

سأنتقم يا فطوم.. سأقتله. سأسحق شهاب هذا سأقتله.. هدبا امـرأة من ظل وضوء. شعر أبيض. أسود. تغيب كأنها لم تكن هـي حقيقـة؟! خيال؟! لا أعرف. فعلاً لا أعرف يا عليا..

«كلهم كذابون يا فطوم ..لا تصدقي أحداً»

سمعت خالتي هدبا تقول بصوت مقهور. حامد هذا ابتلـع نصـف مال شهاب. والدنا العظيم. وحمدان هذا.. كان يرسل زوجتـه لتغسـل سيقان والدك. وغسيل السيقان يحتاج إلى الليرات الذهبيـة التـي كـان يأخذها من الناس «زكاة»

حسن

أدور في المنزل. حسن عاد إلى القرية وأنا مازلت أسـرد علـى مسامعه كل هذا الماضي المخصب بذكريات قديمة.. ذكريات تعُود إلـى ألف عام. آلاف الأعوام. ذكريات تؤجج في تعرجاتها حروب الآلهـة وحروب القادة و..و..و. والملك يا صديقي هو الملك.

الهاتف يرن..

ــ ألو..

ــ سامح..

ــ آه كيف حالك يا صديقي؟

ـ نتذكرك أنا وعليا.

ـ صحيح؟

ـ سأدعوكما على الغداء.

ـ في مكان ريفي.

ـ كما تشاء يا عزيزي.

ـ ماذا تفعل الآن.؟!

ـ أنا؟! كان عندي حسن.. شاعر القرية المحترم. أخبرني أن العم صالح مات. مات منسياً. أنا عاق يا سامح.

ـ لا تقل هذا؟

ـ هذه هي الحياة. لذلك أعاقب نفسي بسرد الماضي كله على ستائري. وغرفتي. وأوراقي.. سأسرد كل ما تخبئه ذاكرتي.. أريد أن أحيي الأوجاع القديمة.

ـ كل هذا من زيارة حسن؟!

كان عليه أن يزورني.

حسن أو واحد آخر. مشابه لحسن. كان يحب أن يزورني ليعيدني إلى ذاكرتي المسلوبة.. الشعوب التي بلا ذاكرة تموت سريعاً يا صديقي.

ـ الموت حق يا علي.. العم صالح أكل عمره. رحمه الله. لماذا يواسيني سامح.. ربما هو الآخر يواسي نفسه.

«موت العم صالح يعني موت الشاهد الوحيد على جراح لا تندمل بسهولة ويجب ألاّ تندمل.. عندما يضيق الجرح بينك وبين عدوك تستطيع أن تصافحه.. قزم العمامة لا جراح عنده.. مدّ يده لعدوه في

حقل أخضر ترعى فيه الخنازير. خنزيران كبيران باركا امتداد هذه اليد الملوثة.. بعد ذلك نصب الطاولات.. تحت الطاولات كانت أشلاء رافع.. وأشلاء قائد الكتيبة.. وأشلاء أطفال الحجارة. أوه.. أشلاء كثيرة يجب ألاّ يهضمها الزمن.

جدتي هرمت ولم تعد قادرة أن تسرد ذاكرتها القديمة لتحيي ذاكرة حديثة.

وأمي أيضاً هرمت.

هاهو فنجان قهوتي السادس. وذاكرتي لا تكف عن الدوران في أوراق بعيدة. دوران إلى الخلف.. الكاميرا تدور. تدور تلتقط تفاصيل صغيرة ليلى.. جمّول.. نساء كثيرات. ورجال كثيرون.. فارس وفاطر وآخرون طواهم السجن سنوات طويلة.

«تعال يا سامح.. أطبخ لك مجدرة برغل»

«الآن؟!! الآن مجدرة في آخر الليل.؟!»

«ماذا قالوا لك عني.. أ أنا حكيم مثلك.؟!»

«اجلب عليا معك.. صوتها يريحني.»

«أأقول لها..؟!»

«قل..قل.»

أجل بحاجة إلى عليا الآن. بالتأكيد هي عاشت واقعاً مشابهاً لهذا الواقع.. أو أنها تعرفه.. ألم تخبرني بأنها من منطقة قريبة لقريتي.؟! في قرانا عائلات كبيرة لها ألقاب غير مسجلة في الدوائر الرسمية. هذه الأسماء الرسمية لا نعرفها في القرية. قد تكون معروفة لدى أمي. الله يسامحك يا حسن. أنا بحاجة إلى علي.. إلى علوش.. ذلك الولد الذي يقولون له اسكت فيسكت يا علوش. لا أريد أن أسكت.

أشعر أحياناً أني خلقت قبل الآن.. ربما أثرت عليا على ذاكرتي بحديثها..؟!

ولكن لا أعرف هزائم كثيرة وحاربت في حروب كثيرة. ولم أنتصر حتى على نفسي. للساق الواحدة عدة فروع.. فرع أنا من أصل قديم يغور في العالم السفلي.. ليلى. هدبا. عليا.. فروع لجذر آخر.. ما صلة هذه الفروع بالعالم السماوي والعالم السفلي.. ما صلة السماء بالأرض. شهاب بالشيخ شهاب.؟!

لكن هذه الجذوع ينخر أحياناً فيها الدود. تدهنها بالكلس.. وتزين أغصانها بالمصابيح. ولكن للأسف. النخر موجود. والفراغ يأكل الجوع. العم صالح قال مرة وأنا أقلم شجرة وأعالج جذعها من النخر. لا فائدة يا بني.. الشجرة ستموت. الجذع منخور، لا يوصل الغذاء اللازم إلى الأغصان. ازرع شجرة غيرها.. رفضت. يا عم صالح الأدوية الحديثة قادرة على شفاء الشجرة. هز العم صالح رأسه وتابع طريقهُ. لكن الشجرة لم تعمر طويلاً. أدوية. تقليم. ماتت الشجرة.. وكلام العم صالح ما يزال حياً في الذاكرة.

الترميم لا يعني الخلق. إنه تجديد من الخارج.

كنت دائماً أرمم نفسي. حسن جاء وكسر الشجرة فوجدتها منخورة. كسر الشجرة ومضى. تركني أبكي عليها وحدي.

منذ مدة وأنا أهرب من زيارة بعض الأمكنة التي تواجهني بذاكرة حزينة. لقد هربت. لم أكن أريد رؤيتها كشجرة منخورة. ولا أريدها أن تعيدني إلى الوراء والأمام قدامي.. ستضعني في المفترق الصعب. وسأقارن. وسأضيع. قلت له يا حسن.. لا أريد أن أرى كل يوم رأس الحسين أمامي تتدحرج.. أيضاً لا أريد أن أنسى طريق الدم.. عند ذلك أكون بلا تراث.. بلا هوية.

«الهوية قاتلة أحياناً.»

«ما اسمك يا كلب؟!

إلى من تنتمي.؟!

ما اسم أمك؟!

أي الأشجار تحب. أي الأطعمة تحب.. ما نـــوع النســاء التـــي تتشهى.. وأي العطور تفضل؟؟!»

«لماذا أنت سوداوي؟!»

«لأنهم لا يصدقون شيئاً يا عليا»

أقسم أني شاهدت رأساً يتدحرج من جامع السلطان حتى البحـــر. المدينة ملأى بالدم..والأقزام توقع المعاهدات علـــى أن هــذا ليـس دم الحسين. دم من هذا يا عليا.؟!

«إنه دمنا.. دمنا نحن. كل المضطهدين في العالم»

إنهم يقتلون كل ليلة نعودُ إلى الحياة. يجب أن نعيش ليجربوا بنـــا آخر مبتكرات القتل النووي. أو لماذا الابتعاد آخر المبيدات الحشــرية.؟ حيوات كثيرة إذن، نحياها. ما معنى ألاّ أكون أنـــا رعــد. أو رافـــع أم حسين آخر.!! زميلي الذي قتل في الحرب حفروا له القبر ثلاث مرات.

أكان جسداً وهمياً؟ أم رأساً كرأس الحسين «لماذا يقطعونـــه كـــل يوم؟»

وضعُوه في تابوت وغطوه بالورود وأخذوه إلى درعا.. قالوا هــذا «بدر الدرعاوي» فتحوا له القبر.

أم بدر الدرعاوي شقت ثيابـــها. وأختـــه راحـــت تركـــض فـــي البراري.. «لا يجوز يا خاله.. هذا شهيد.. شهيد» والشهيد له الجنة.

شهيد أو غير شهيد الفراق هو الفراق. الرحيل هو الرحيل. مـــرّ.. مرّ. رجال ينصبون سرادقاً للتعزية.

ورجال يصلون على قبر الدرعاوي.. ونساء يرمين الورد ويقبعـن في سواد كئيب. الجيران يحملون الطعام لأهل الشهيد البطل.

ثلاثة أيام مرّت.. كانت ثقيلة كصخرة جاثمة على الصدر.

اليوم الأول. يا لهول الكارثة. الثاني. هناك كثيرون مثله. الثالث. في اليوم الثالث. هذا ليس بدر الدرعاوي.. ابنكم لم يمت.. بدر عاد..عاد بدر.. شق القبر وخرج..

إذن ما لذي يمنع جدّي أن يشق قبره ويخرج؟! ما لذي يمنع خالتي هدبا من الخروج في أوقات معينة لتشم رائحة البشر؟!

لا.. بدر لم يخرج من القبر.

هذا المدفون هنا ليس بدراً إنه «إسماعيل العلي»

أم إسماعيل. مثل أم بدر. شقت ثيابها. ورجل عجوز نزل سطح منزله وقرفص عند جثة ولده وراح يبكي.

إسماعيل وحيد أمه.زوج امرأتين حتى أنجب إسماعيل. «ستكون عمي يا إسماعيل. وستفاخر بك أخوتك البنات قريناتهن.. هن بدونك في القرية مكسورات الصوت. أنت صوتهن يا إسماعيل.

«إسماعيل شهيد يا عمي»

اذبحوا الخراف.. وزعوا الطعام للفقراء عن روح إسماعيل.. لا تبكي يا أم إسماعيل. تعذبين ابنك في القبر.

انتهت فترة العزاء. انزوت أم إسماعيل في زاوية قرب القبر، تقضي نهارها وفي الليل تعود إلى عويلها الذي يملأ القرية. عند الصباح الباكر قرع مجموعة رجال باب أم إسماعيل.

«من. من قرع عليّ الباب»

«إنه إسماعيل. إسماعيل يا أمي»

ركضت الفتيات ولكنهن فوجئن بجمع من الرجال.. أحدهم يقول: «يا عمي اعذرونا.. هذه الجثة ليست جثة إسماعيل.. ولدكم إسماعيل معنا في السيارة، مات البارحة. كان مجروحاً وكان بين الأحراش

والصخور. هذا الشاب الذي دفناه عندكم هو «جاسم الجزراوي»

افتحوا القبر..

بدأت المعاول تكشف الستر عن شاب كان قد ارتاح في قبره ودخل العالم السفلي إنهم مثل «أكتيون» الصياد الذي اقتحم على الإلهة أرتميس خلوتها وهي في البحيرة. فمسخته أيلاً. طاردته كلابه ومزقته إرباً»

المعاول تحفر وتنزل إلى القاع، تخلخل ذاكرة بدأت تنبت في جسدٍ آخر. قدموا التحية للجثة. غطوها وحملوها إلى الجزيرة.

«دعوا القبر مفتوحاً»

العالم السفلي كله حفرة واحدة.

«ضعوا إسماعيل في الحفرة بدلاً من جاسم» ابكين من جديد أيتها النساء استبدلوا الجثث. واستبدلو الأسماء. أعادوا جاسم إلى أهله. رأت أنه العجوز ابنها في التابوت.. فسقطت على الأرض ولم تنهض. دفنوها قرب ابنها. وهكذا انتهت معركة الأسماء.

جدّي يزورونه من كل القرى.

إنه يشفي الدمامل. ويخصب العاقر. لذلك قرر زعيم القرية الموقر كتابة «عريضة» منمقة. تحمل توقيع عدد كبير من أهل القرية يطلب فيها حراساً ودركاً لحماية ضريح جدّي من الوحوش البرية وكذلك حماية ممتلكاته.. وطالب بأخذ الحاكورة التي كانت تزرعها أمي بالشوفان والشعير.. لأنها تحيط بقبر جدي. وستكون من أملاك المزار.

وافق القائمقام على طلب الزعيم.. وولى الزعيم على أملاك جدي كلها.. زرع الحراس الأشجار والورود. فتحوا طريقاً وطلبوا من رجال القرية رصفه بحجارة النهر. ثم سجنوا من قطف زهرة من «دوّار» جدي.

إذن إنه يا «سامح» عريق الجذور.

أمتد بجذوري إلى الولي المقدس شهاب. لكن لا يعبأ بنا جدي لماذا لم تتغير أحوالنا يا أمي. ألسنا فقراء؟! الأولياء يحبون الفقراء ونحن أهله.

كم تمنيت أن تشتري أمي لي محفظة جلدية. رفاقي في المدينة يسخرون مني لأني أحمل حقيبة قماشية. يركضون ورائي وينادونني«فلاح. فلاح» «ريفي.. ريفي» أجل أنا كذلك.

لا أعرف ماذا يقصدون بذلك يا أماه.. هل الفلاح يعني حرامي؟! أم أنه وحش؟!

لماذا ينادونني هكذا؟ لا أريد أن أذهب إلى المدرسة بعد الآن.

«لا.. ستذهب يا ولدي. نحن لا نملك إلا كتبك وهذا الرأس الذكي»

جارنا حمدان الكسيح يرتدي جزمة جلدية وابنه يحمل محفظة جلدية.. أليس هو فلاحاً أيضاً؟!

تصرخ أمي بعد طول صبر على أسئلتي وتقول لي «اسكت يا ولد» فأسكت كنت مطيعاً لأمي. أعرف أنها فقدت مملكتها مثل جدتها عشتار. مرة سألت خطيب القرية.. يا أستاذ لماذا لا تعيد المزارات الأيدي المقطوعة لأصحابها الذين دافعوا عنها..؟! دافعوا عن ماذا؟

«من يا ولد؟!»

«عاطف قطعت يده دفاعاً عن الشيخ شهاب»

«اخرس يا ولد. ما هذا الكلام.. من عندك أم من عند صالح الأهبل؟! هه.. صالح أهبل؟! العم صالح يزنُ بعقله مدينة.

ولأني لم أخرس طردوني بعد أن علقني إلى شجرة الميس الكبيرة

وراح يضربني على ساقي ويقول «دود الخل منه وفيه». مـــرّ زعيـم القرية وقال للخطيب «الله يعطيك العافية يا أستاذ.. الأولاد بحاجة إلــى تربية شديدة هذه الأيام»

حاول العم صالح أن يخلّصني فرفض الخطيب. ضربه العم صالح أمام التلاميذ وأخذني من يدي ومضى بي. في المساء تسلل الخطيب إلى بيت العم صالح سراً. كنت في بيت العم صالح أحمل لهم الحليب مـــن بقرتنا. سمعت الخطيب يقول: «إذا مشيت يا صالح في مدينة العــوران ضع يدك على عينيك»

«ولكنك ظلمت الولد.»

«أريد أن أعيش يا صالح.. أريد أن أعيش. إني مجبر.. «مكــره أخاك لا بطل»

«بسيطة. إنه طفل وسينسى»

أنسى؟!

من قال بأني أنسى. الذاكرة الأولى للطفل هي الخزان الكبير الذي ينهل منه كل طرائق حياته بعد ذلك.. الذاكرة الأولى هي أســاس بنــاء شخصية.. ما زلت أحس بالظلم يطاردني حتى الآن.. الظلم لن يبارحني أبداً لأنه يعشش في ذاكرتي الأولى. ويحمل جزءاً كبيراً من مســاحاتها الواسعة.

«سلوى قالت لي مرة بغضب أنت ما تزال طفلاً»

ومرة كنت أروي حادثة لعليا بعد أن تكــررت لقــاءاتي بــها ـ ابتسمت وقالت. أحياناً أجد بك طفلاً يختبئ بين عينيك»

لم أفهم.. أتعني التدليل أم التقليل من شأني؟!

ولكن عندما رأيتها على البحر بمعطفها الأبيض. هي.. هي. أجــل

أدركت أنها لا تقيم وزناً لآلامي لأني طفل. والأطفال ينسون.. لذلك عليّ أن أحمل رأسي المقطوع وأتجول في المدينة دون أن أصرخ «آخ» فارس الذي تشاجر مع حمدان الكسيح ومع حامد، فارس الشاب الفارع الطول يزين رأسه شعر أسود لامع. لا أنسى صوته أبداً.. غاب الرجل منذ أمدٍ بعيد لكن ما يزال صوته قابعاً في رأسي.. «شاعر حر..» وفاطر.. ذلك الشاب النحيل ذو العينين الخضراوين. أيضاً لن أنساه. الطفولة خزان كبير.. ألم أقل لك؟!

«هه.. شاعر قال شاعر؟!.»

أسمع سخرية حامد الآن. وأرى نظرة القهر في عيني فاطر. الشيء الطبيعي أن يرفضوا شعره.. عقلية جاهلة تمشي إلى الوراء أبداً. إنها لا تحب إلاَّ التراجع.. يجب أن يشنق أمامهم غاليليه حتى يصدقوا أن الأرض تدور. وأن سور برلين هدم. وما كان اتحاد سوفيتي تفكك.. وأن تماثيل الحرية اسودت كثيراً أو سقطت..؟!

أما سمعتم؟!

ماذا؟!!

دخل رجل إلى مبنى الجريدة وراح يبدي ملاحظات كثيرة.. عند ذلك اجتمع حوله الزملاء وطلبنا القهوة. رشف من فنجانه رشفة كبيرة وقال أما سمعتم؟! ماذا؟! كل يوم نسمع آلاف الأخبار والمفاجآت لم نعد ندهش.. الموت شيء عادي. الكوارث.. حتى زلزال القاهرة صار عادياً.. حتى زلزال وادي عربة صار عادياً. ماذا تريد أن تقول؟! كان الرجل غريباً في شكله وصوته.

«أخاف ألاَّ تصدقوني؟!»

«كل شيء قابل للتصديق ــ أنا لم أكن أصدق أنّ عليا تلهو بي أبداً»

«قل يا رجل»

«اليوم صباحاً وجدوا تماثيل الحرية في العالم كله تحمل سياطاً وتركض وراء الناس»

«ماذا؟!»

كما أقول لكم.. التماثيل تركض في الساحات العامة.. حتى إن أحد الأطفال قتل مباشرة في موسكو.. وفي إحدى العواصم اجتمع الشباب وسرقوا تمثال الحرية..

سجنوه في بيوتهم.. بعد ذلك: قيل لن تقدر امرأة أن تمشي وحيدة في الشارع. ولن يجرؤ زعيم على الظهور أمام الناس.

في باريس هرب تمثال الحرية.. وفي واشنطن قفز تمثال الحرية المزعوم وهو يحمل آلاف المسدسات يطلق النار شمالاً وجنوباً وفي الجهات. كان يرتدي جزمة كاوبوي.. ويضخ السمّ من عينيه. بعض التماثيل كانت تسأل عن هوية المارة.

ما اسمك.؟

إلى أي بلد تنتمي.

«مع من أنت وضد من؟!»

آخر زمن هذا.. كما قالت جدتي.

الأرض تدور. الحرية تغير رموزها.. وأنا مازلت أنا.. تمرّ علي الأيام ولا أصدق بأني فقدت أشياء كثيرة.

أنا أحبّ عليا يا سامح.

أحبها لأول مرة أشعر أني أحبّ فعلاً. وأن للحياة طعماً آخر غير الذي كان.

ـ ولكنك غارق في الحزن.

ـ لا أعرف لماذا من شدة الفرح نحزن أحياناً. بصراحة مشاعري مختلطة حزن وفرح.. نسيان وتذكر.. مرحلة جديدة أقدم عليها بعد سنوات طويلة من القهر والوحدة والسقوط. ألم يسقط جدار برلين. سقطت قصيدتي يا سامح. ولكن أنا خائف.. لم أستطع بعد أن أثق بمشاعر الآخرين.

هذه الأيام أتصفح أوراقي. أي أفتح ذاكرتي، أنبش فيها.. كانت البداية مع حسن الذي بدأ معي أول صفحة. بصراحة لم أعد أخرج كالسابق إلى الأماكن العامة, ولم أعد أزور أمي إلا نادراً. حسن حمل إليّ القرية القديمة ورماها في غرفتي وهرب.

أنا هربت أيضاً من القرية. الآلهة طردتني وحرمتني نعمة الهدوء لأني لا أستحق العيش بين الأولياء. لكن عندما نزلت إلى المدينة طاردتني القرية. هويتي. اسمي.

لوني. صوتي. لم يكن أمامي إلاّ أن أرمم الهوية فأحذف الوكف والنهر الغامض. أظهر كرامات جدّي وجذوري العريقة. وعليّ أن أحذف مرحلة طويلة من حياتي.. أي أن أمسح ذاكرتي.. يا سيدي أنا لم أعرف الوكف. ولا البرد. كان عندي «سوبر ماركت في القرية» وكان والدي يركب سيارة كاديلاك.. وزعيم القرية لم يظلم أحداً ولم يغتصب امرأة. وكل هذه الأراضي الممتدة من البحر حتى سيانو. وخربة الورد..و.. وكل القرى المعلقة بالجبال حتى السهل.. كلها للزعيم اشتراها من تعبه. المحتل لم يساعده. وهو لم يكن عميلاً. كان وطنياً.. هكذا يا سادة تريدون؟!! ورحلة بحيرة قطينة ألغيتها تماماً..

سامح وأنا في الرحلة. الباص يقف عند البحيرة. طلاب كثيرون ينزلون. افرشوا طعامكم يا أطفال. سنأكل هنا. حاضر يا أستاذ. العشب الأخضر يملأ الأرض نضارة. نيسان يتلألأ عبر المدى الأزرق.

انتشرنا على العشب كزهور بريّة. جلست أنا وأنت يا سامح.. زوادتنا كانت الخبز البلدي المشوي على التنور.. «وقرص شنكليش.. خيار وبعض بقايا التين اليابس.. وما إن أخذنا نلتهم الخبز اللذيذ حتى تجمع حولنا ثلة أطفال تنظر شذراً إلينا ثم بدأوا بموجة ضحك وسخرية. هيه.. فلاح فلاح.. لم نعرف يومها ما هذه اللعنة الأبدية التي تطاردنا.. هذه أيضاً حذفتها من قاموسي. عندما جاء وقت الغداء لم نجرؤ على تناول خبزنا.. الأطفال كلهم يأكلون ونحن نتفرج عليهم. بكيت يومها يا سامح من الجوع. أنا كنت أكبر منك قليلاً. هدهدت جوعك بأن ندير ظهرنا وننبش من زوادتنا لقيمات نأكلها سراً. نظر إلينا المدير وسأل: ألا يوجد معكم طعام يا بني..؟!

«لسنا جائعين يا أستاذ»

ربت المدير على ظهرينا.. وأعطانا تفاحة وعدة كعكات.. هل أنسى هذا المدير الرائع.. لا والله.. الناس ليست سواسية يا سامح. أليس كذلك..؟! العم صالح قال مواسياً بعد عودتنا «معليش يا بني» إنهم أطفال والأطفال يجهلون ما يلفظون. الفلاح هو الذي يطعم الناس وهو الذي يحافظ على الأرض. إنه الإنسان الحقيقي الذي يأكل من تعبه فعلاً.

إيه.. الآن أرى هؤلاء الأطفال أنفسهم يفاخرون بأن خبزهم خبز التنور. أحياناً يخطر لي أن اصرخ بأعلى صوتي: أبي. أبي. بحاجة أن يكون لي أب. عليا قالت لي الكلام ذاته: مهما كبر المرء دائماً يشعر أنه بحاجة إلى أب أحياناً يتمنى أن يقتله. ولكن يظل الحنين قائماً للبحث عن أب حقيقي. «لا تضربوه. إنه يتيم» يا إلهي أية قسوة تحويها هذه العبارة! «اليتيم يعني الضعف. الشفقة» الأمم الضعيفة. أمم بلا أب.

ـ ١٤ ـ

أبي لا يرد. يظل قابعاً في عالمه السفلي. يتفرج على حراس جدّي وعلى دموع أمي. وعلى الشيوخ الذين يتلقفون الزكاة ويتقاسمونها مع الزعيم.

«أين تذهب كل هذه الأموال يا شيخ؟»

ـ ماذا تقصد يا صالح؟!

ـ كما تفهم يا حامد.

ـ للفقراء طبعاً.

ـ ولكن الفقراء لم يأخذوا شيئاً. حسن والده فقير هل أرسلتم إليه حذاء مدرسياً؟! أم العبد امرأة أرملة هل أعطيتموها شيئاً لأطفالها؟!

ـ نحن غير مكلفين بكتابة عريضة بأسماء الذين نوزع لهم.. أظن أن هذا يتنافى مع سرّية وخصوصية المعونة.

إنه سرّ. ولهذا ظل الفقراء فقراء. وأنا أظل أنادي أبي ولا يرد.

ـ ١٥ ـ

البحر يدخل من النافذة.

الرجل الذي يقبع من منزله يكاد يختنق.

الرجل يصرخ بأعلى صوته. يأتي جاره «ما بك؟! الرجل ينفي أنه رأى البحر يدخل إليه ويريد أن يقتله.

الكرسي الذي أمامه يسقط على رجله. الكرسي لم يسقط. العالم سقط داخله. هذا الرجل هو نفسه الذي ذهب إلى قريته وعاد خالي الوفاض. لم يقدر أن يتأقلم مع القرية. رأى بأم عينه كيف قتلوا حميدوش الراعي. اجتمع عليه حراس المزار. حميدوش كان يريد الدخول إلى حضرة القبر. حاولوا إبعاده فلم يفلحوا. طلب نجدة المزار.. نجدة الشيخ شهاب أن تشفى زوجته.. طلب الحراس منه عجلاً مقابل السماح له بالدخول إلى حضرة المزار الرخامي المليء بالبخور والجوخ والأوعية النحاسية. غضب حميدوش «ولَك لو كان عندي عجل كنت بعته وعالجت به زوجتي»

«وهل يقدر الأطباء على شفاء زوجتك يا مجنون؟!».

«نجرب على الأقل ولكن لا أملك المال.»

«ها.. أنت جئت إذاً ليس إيماناً منك بمولانا الشيخ. أنت تشكك بقريتنا وشيوخها ورجالها.»

«والله أنا أصدق العم صالح. أنتم لصوص. فعلاً لصوص»

«هذا الرجل يتطاول على مقدساتنا ورموزنا يا رجال.»

«حميدوش يشتم مولانا شهاب»

الآن حميدوش. يتململ في دمه. القرية الطينية المنخفضة، المتلاصقة والمتباعدة. والساحة المزروعة بالمصاطب تتكوم حول حميدوش. أثافي الحطب أطفأت نارها. طناجر النحاس الكبيرة التي تحتاج إلى «مبيض نحاس لتخلع سوادها وازرقاقها» الملاعق الخشبية.. الوجوه الثائرة.. فاطر.. فارس برهوم. و... كل ذلك وكل هؤلاء يدخلون مع البحر إلى غرفة الرجل الذي يحلم بحبيبة بعيدة لا تأتي. بقرية لم تعد ولن تعود قريته. وبمدينة لا تصير مدينته. هذا الرجل الذي يخرج صباحاً إلى الجريدة. يركب عدة سيارات ويعود بعدة سيارات. ينزل البحر. يصعد.. يتصل عشرات الاتصالات بالهاتف. يحلم. يكتب ويمزق. هذا الرجل هو أنا. علوش علي. لا هذا ولا ذاك.. لا أعرف

من أنا؟!

قلت لأمي: من أنا يا أماه؟!

أمي لا ترد. تمضغ تعبها وتعجن الأيام بانتظار خبز الزمن القادم. لعلّ قمحاً جديداً نبت في ساحة القرية. لم تكن الأيام التي مرت بقادرة على إخماد حريق في أشياء كثيرة أنا أشعلت بها النار.

ـ جدي حوّل قصره للحريم. يجرب فحولته.. جدتي لن تسَامح أبداً، وأمي التي عرفت بأنها ليست ابنته لن تسامحه أيضاً. قال حامد لأمي: اشربي البحر يا فطوم. والدك لم يورثك شيئاً.النساء بربع عقل يا فطوم.

أمي؟!!

أمي كانت أخت رجال. كانت داية القرية. تشاورها النساء في أمورهن المادية والمعنوية. تحكم بين الرجل وزوجته. أعرف أن أبي كان قاسياً عليها لكن في كل حوار عنه كانت تتطرق لحادثة قديمة ما تزال تجرحها.. أبي صفعها.. وهي لا تنسى أنه ضربها لذلك كانت تقف موقفاً عدوانياً من أقربائه الذين سببوا لها الأذى.

«لماذا لا تغفرين يا أماه. الله غفور رحيم. انسي الماضي»

أعرف الوجه الحقيقي للأشياء التي حولي. كيف أنسى؟!

أمي صارت «موسوسة» وشكاكة أكثر ـ ميتها لا يموت ـ رغماً عنها جدي هو شيخ القرية. والزعيم أمر بجمع التبرعات لتجديد «الخلعة التي على قبر جدي» وشراء البخور. وتبليط حوش الضريح. ومدّ المياه، والقرية عطشى.

منع الجميع من دخول الغابة التي تسوّر القبر. إنها مخصصة للأغنام التي يملكها جدي الشيخ شهاب. الأغنام هذه تنحر في المناسبات عن روح جدي توزع على الشيوخ وأصدقاء الزعيم. أي توزع على الفقراء كي يحفظ الله الجيل الطالع من الشبان من الغواية والشرور

والأفكار الفاسقة الهدامة التي لا تؤمن بمولانا الشيخ. أختي قالت.. لو أنهم عمّروا لنا بيتاً يا أخي.. ألسنا نحن من عائلة هذا الرجل؟! هزت أختي رأسها. فأجابتها أمي بكلمة «اخرسي أنت.. كلكم الحمد لله تعرفون الكلام»

سكتنا جميعاً ولكن جارتنا التي دخلت تضرب وجهها وتشد شعرها وتصرخ. يا أم علي.. أما سمعتِ؟!

هرعت أمي إلى العتبة. ماذا؟!!

لقد سرقوا خراف المزار. يا ويلي ماذا يحلّ بنا. ألا يكفينا كل هذا الفقر؟ أنكفر أيضاً؟ قولي شيئاً يا أم علي.. أنت فرع من أصل ــ والفروع لها قداسة الأصول.

كأن شيئاً لم يكن. أمي لا تحرك ساكناً. تفضلي تقول للجارة. من أخبرك؟!

ــ حامد أخبرني. أخبرت العم صالح فلم يترك المنقلة ولم يتحرك من مكانه.

ــ قطبت أمي حاجبيها. بالتأكيد سينزل غضب الله علينا. اللعنة من يجرؤ على سرقة خروف أبي.. ساد الصمت ولكن عندما خرجت المرأة مترددة أمام ردة فعل أمي فهي لم تفهم شيئاً. قامت أمي تخبر أمها العجوز التي انقطعت عن الناس في سريرها الخاص.

«من يجرؤ على سرقة والدك غيرهم»

«حامد يعرف من السارق»

«حامد رجل كبير» قلت لأمي. كرهت هذه الأحاديث. وكرهت التوتر الذي يظل ملازماً للقرية.. كانت هذه فترة الخمسينات المكتظة بالقلق والجَيَشان والجوع والعنف للخروج من شرنقة قديمة تخنق الأنفاس «لقد كبرت بما فيه الكفاية يا أمي.أرجوك أن تسمعيني» لكن أمي لا يوجد عندها أولاد كبار. الولد هو الولد. فنحن صغار أبداً.

اسكت يا ولد.. أتظن أنك صرت رجلاً؟! الرجولة ليست بالطول والعرض.

أتلمس وجهي. أتسربل بغضب مكتوم. ينزّ العرق من راحتي.. أنا ما زلت ولداً؟!!

ربما.. لاحظت أن أمي لا تصدق أي شيء. لقد خرج الزعيم وحراسه وأزلامه. والشيوخ. وجمع من الناس للبحث عن خراف جدي.

رحلة البحث تستمر من الصباح حتى الظهيرة والصيف حارق والرطوبة خانقة والجوع بدأ يستبد بالزعيم ورجاله. فضحك العم صالح مرة وقال الزعماء لا يجوعون. قلت له. ولا يموتون إنهم يتناسلون واحداً بعد الآخر يا عم: الزعيم يأمر الرجال بذبح خروف وطبخه سريعاً ليكون طعاماً للذين ناضلوا في البحث عن خراف المزار لحفظ مهابته وكرامته.

«هذه مسألة مقدسات. مقدسات يا حامد.»

«صدقت يا زعيم»

«ثروة مولانا الشيخ شهاب هي ثروة القرية..ثروة الفقراء ولا يجوز العبث بهذه الثروة»

«صدقت يا زعيم.»

استمرت عملية البحث في كل مكان وامتدت إلى البيوت. والجيوب.

«خروف جدي ضاع.»

«العم صالح قال: سيستمر البحث طالما الخراف موجودة ومتوفرة للذبح عند الغداءات المقبلة. كل يوم يذبحون خروفاً من القطيع من أجل الرجال المناضلين. بعد الغداء يتناولون قليلاً من نبيذ حامد المعتق. ثم

يلقون بعض القصائد العصماء ثم يعودون إلى بيوتهم ليبدؤوا غداً.

«لم يجدوا الخراف المسروقة»

«لم يمت أحد في الضيعة. ولا في المناطق المجاورة»

«لم يأتي الطوفان. أين لعنة مولانا؟!»

بعد أسبوع مرض الزعيم. فتوقف البحث عن الخراف. انزوى في قصره في البداية كان رجال القرية يتدافعون لزيارته. في الفترة الأخير خفت زيارات الناس. يبدو أنهم تأكدوا من عدم شفائه لكن حامد قال إن الزعيم لا يريد أن يراه أحدٌ الآن.. فهو لا يتكلم بل يشير إشاراتٌ بيده.. اقتصرت الزيارة أخيراً على حامد. وحمدان الكسيح ومعهما أحياناً سرحان. يذهبون محملين بالدجاج والسمن والخراف والبط الذي جمعوه من أهل القرية. يضعون ما يحملون في مدخل القصر. تأتي امرأة قصيرة سمراء تأخذ هذه الهدايا وتخبر سيدتها بالقادمين. تخرج زوجة الزعيم.. طويلة.سمينة. بيضاء البشرة.. تزن أكثر من مئة كغ أشارت إلى حامد بأن يدخل.. دهش حامد عندما رأى سيده يثغو كخروف.. خرج حامد راكضاً. خائفاً وعندما رأته أمي. قال لها: يا أم علي أنا لم أبح يوماً بسر.. الرجل يعرف من حفظه وكتمانه للسر.

«هذا صحيح يا حامد ما الذي جرى.»

«غداً يقولون أنا أفشيت سرّ الزعيم»

«معاذ الله يا رجل. أنت ذراعه اليمنى. بل واليسرى أيضاً.. وقد تكون سيقانه.. كما كان سرحان وأنت بالنسبة لوالدي».

«هه.. أرأيت؟! أنت قلت ذلك. هل أخبرتك مثلاً أن الزعيم يثغو كخروف..؟!»

«تبتسم أمي وهي تشيح بوجهها.. لا. أبداً لم تقل لي يا حامد أي كلام عن هذا الموضوع» غداً عندما ينتشر الخبر في القرية. يقولون:

الله قادر على كل شيء يضع برهانه في أضعف خلقه.

حمدان يبكي ويقول إن شوكة صبار دخلت حلق الزعيم ونمت في بلعومه. حتى إن جسده كله الآن شوك صغير يشبه شوك الصبار. شوك يشبه الشعر.

العم صالح «إنهم يعرفون كيف يختلقون الأكاذيب»

إنه الخبر الفصل بالنسبة لي.. إني أقع في شكوك كثيرة ولا أعرف كيف أصل إلى الحقيقة. أحياناً أشكك بأمي. لماذا تعارض هذه المرأة المعجزات عن جدي.. كان الحري بها أن تعرف هي وجدتي وأن تصدق. ربما كان الزعيم هو السارق!

ولهذا أظهر الله الحق.. لكن لماذا لم يمرض حامد وغيره؟! أسئلة لا أعرف لها جواباً. جدتي لا تحب شهاب. وأمي كذلك ولكل منهما أعذارها. حتى خالتي هدبا التي يقال بأنها تستوطن البراري وتظهر أحياناً في الليالي المقمرة وهي تدور حول قبر جدي صارخة سأقتلك. سأقتلك لها هي الأخرى أعذارها.

في الواقع.. جرّدوا أمي من حقوقها كلها كابنة للزعيم الديني للقرية. لدرجة أنهم يخافون أذاها. هناك أشياء غامضة لا أعرفها. لذلك كان لا بد من فعل شيء أريد أن أرى الزعيم. أنا الولد اليتيم.. انتظرت حتى هبط الليل فتسللت إلى قصره وتسلقت جدرانه. أريد أن أسمع الزعيم وهو يثغو. قبل الوصول إلى شرفة القصر رآني الحراس. ماذا تفعل هنا يا علوش بن فطوم.؟

أنا..أنا.. أريد..

ماذا يا كلب أمك أرسلتك أليس كذلك.. أمسك بي الحراس واتهموني بالسرقة.

«لم أسرق شيئاً والله.»

«لماذا تصعد إلى القصر ليلاً إذاً؟»

لم أجد أمامي غير البكاء. بكيت بشدة. ضربوني لأعترف. أتوا بحبل طويل يربطون فيه الأبقار عادة وربطوني به.

«قل لماذا جئت»

لا أقدر أن أقول جئت لأسمع ثغاء الزعيم.

اخترعت كذبة محترمة. جئت أتفرج على القصر من الداخل.. يقولون فيه بركة ماء، وأشجار وأشياء لا تخطر على بال. ويقولون فيه جنيات وساحرات وطيور غريبة.أمي قالت إن قصر الزعيم لا يحتاج إلى طين لأنه لا يعرف الوكف. لم أصدق أمي. كل البيوت في القرية تحتاج إلى طين في الخريف. أمي تسوقني كل سنة إلى «المحفارة» أحفر. أحفر. ثم ندوس الطين بأرجلنا. ثم نطلي به الجدران والأرض والسطح. فينبت الشوفان البري على الأسطحة لدرجة أن قريتنا ذات البيوت المتواصلة.. تصير حقلاً من الشوفان البري والشعير. والقمح البري.

ـ لماذا أنا أقول كل هذه الأشياء.. يا عليا..؟!

الحراس كانوا يعرفون ذلك. وكانوا يطينون بيوتهم هم حراس ولكنهم من القرية.

ـ تعبت؟!! لا بد أنك تعبت من أشياء لا تخصك.

الواحد منا يرغب في آخر ليشاركه كل ما في داخله.. كيف نتشارك إن لم نعرف كل هذه الأشياء؟.

في القديم يقال إن ملكاً كان يستأجر الرجال الأشداء ليسرد عليهم حكاياته. وكان على الرجل ألا يتفوه بكلمة. يظل يسمع إلى أن ينتهي كل ما في جعبة الملك. عند ذلك يودع الملك الرجل ويهديه بعض المال ويقول له لا تعد إلى هنا ثانية لقد انتهى ما سأحدثك به.

عليا. قهوتك لذيذة. وصوتك لذيذ.. أشعر أني الآن أبتدئ حياة أخرى لذلك أستذكر كل هذا البؤس لأرميه بعيداً.. لأنتهي منه هذا الماضي الذي يطاردني.. أنا بحاجة لمن يسمعني شهرزاد كانت تسرد حكاياتها كي لا تقتل.عندما تنتهي حكاية تبدأ أخرى.. استعانت بالكلمة.

عندما تموت الكلمة. نموت؟!!

عندما تموت الذاكرة. نمسخ؟!!

لا أعرف. عليا. كل ما أعرفه أني أحبك وأحتاجك.. لا يمكن أن أنسى حتى حسن يا عليا.. حسن صديقي. أتدرين ما فعل بي؟!

ألقى قصيدته عن العم صالح. تركها عندي. فترك عندي ربع قرنٍ ماذا أفعل بكل هذه الأكداس؟ لابد أن أحاول اكتشافها من جديد.. ترك النهر والصفصاف، والبيوت، الحقول. حذائي المرقع الذي آخذه كل شهر إلى عند «محلاّ» يصنع لي نصف نعل حتى صار نعله بسماكة الكعب وصارت أصابعي تخرج منه إلى الهواء الطلق أو إلى بحيرات الماء.

ــ لو أنك سايرت الزعيم يا فاطمة. كان يقدم لأولادك الأحذية والهدايا!!.

ــ كيف أساير الزعيم؟

ــ يعني هو أخذ مال أبيك بعد رحيل أخيك إلى بيروت. ولن تستطيعي أن تفعلي شيئاً. رضيت أو رفضت. «لذلك اليد التي لا يستطيع المرء كسرها. يقبلها ويدعو عليها بالكسر».

ــ لا أقدر.. هذا الزيف لا أستطيع القيام به.

وأنا كذلك يا عليا.. لا أستطيع. لا أستطيع. وحدك تجعلين لحياتي معنى. ما تزال كلمات هذه المرأة في مسمعي. قدمي الخارجة من الحذاء بدأت تنكمش.. محلاً كل شهر يقول لي: «شو يا علوش» متى

تشتري حذاءً جديداً؟ أبتسم وأقول له:ما الذي يضيرك؟! هكـــذا أفضـــل بالنسبة لك. كل شهر أجلب لك أربع بيضات بلديات وحذاء يحتاج إلـــى ترقيع.

أفرك معدتي. الجوع بدأ ينشب أنيابه عندما تذكرت البيض البلدي الذي صار نادراً. أتجه إلى المطبخ الرطب. أجد أن الشمس قد غادرت. وأجد أنه عليّ الانزواء بين كومة السنوات الباقية كي لا تهرب القريـــة مني أكثر. ألا يكفي أن أضيّع المدينة أيضاً؟!.

لقد انتهت محاضرتك الآن يا عليا.

لابد أنك الآن في المنزل فالليل يغدق بعتمته على البحر كله.

«علوش يسجل هذه الملاحظات.. لماذا؟!».

أنت الآن تشربين الشاي الساخن.. آه من صوتي يؤلمني يا علي.. أطوقك بذراعي. وأقول سلامة صوتك.. ربما كنت عند سامح الآن. لـن أتصل به سأصنع قهوة.. لا أريد أن أتناول غير القهوة.

«اصنع لي فنجاناً معك يا رعد.».

أتلفت حولي. من يكلمني؟!

أسمع صوتاً غريباً. أفتح الباب وأغلقه. رعدٌ قاتل. وأنا لا أقتـــل. دون إرادتك أنت حجر شطرنج في هذا الزمن: تهب الريـــاح الغربيـــة تقلب كل أوراقك.

«اختر».

«ماذا أختار يا سيدي».

«اختر الحياة..»

«ها أنا أختار الحياة»

«لا.. أنت لا تختار الحياة بهذه الطريقة.. أنت تختار الموت.»

«كيف أختار الحياة إذاً.»

«ادخل عالم النسيان. انسَ كل ما قلته. انسَ أنك علي.. انسَ ما تبحث عنه.

«يعني أُلغى»

«تماماً..»

«ما المقابل.»

«نعطيك اسماً جديداً وقصراً. وذاكرة جديدة وتاريخاً جديداً. يا إلهي. اضرب رأسي بالجدار.. عليا.. لا أجد إلا اسمها أناديه.

أنا علي الذي رضع حليب أمه فطوم الجبارة وزرع ذاكرته بصوت العم صالح.. وصوت الأجداد وأكتب الشعر الحرّ مثل فارس عليَّ أن أنسى ذاكرتي.. أصير أيضاً.. يلبسونني ويخلعونني متى يشاؤون. لا.. أصير حذاء.. وكلما اهترأ وضعوا له نعلاً جديداً أفتح الباب وأصرخ بأعلى صوتي: أنا علي.. أنا علي..اسمع أيها الجبل المقدس.. كاسيوس = صفون = الجبال العالية كلها.. أنت يا من تسكنك الآلهة.

اسمعي أنا علي.. بن ابراهيم. بن فطوم. ابن.. وابن.. إلى أن أصل إلى جده هداد = بعل المعظم مروراً بالفارس المقتول الذي يجوب أركان الأرض على ظهر حصانه.. مروراً بكل الزلازل والثورات. و.. مازلت أحمل وعاء السكر.. ماذا أفعل..؟!.

«أنت متعب يا علي..»

«سامح.. أنا بخير.. لماذا تقولون إني متعب.؟

قطرميز السكر بيدي. أجلس على العتبة. أسمع نقراً خفيفاً على الباب.. صوت خفيض يقول «افتح».

«من؟!!»

«عليا.. آه ربما كانت عليا»

ركضت إلى الباب أفتحه.. رائحة عليا تقترب. رائحة عطر ونعنع بري يخلّصني من وجه محلاّ.. ووجه سلوى وعدنان والمدير. والزعيم والحراس. هذه الوجوه سألغيها.. لا أريد أن يطفح قلبي بالألم.. كرهن هذه المهدئات.

«ما بك يا أستاذ؟!»

«امرأة تسد عليّ الباب.. لماذا تنادي يا أستاذ.؟!»

«أنا ناديت.؟!»

«أجل.. ناديتني.»

«لا أظن.. ربما سقطت الركوة من يدي. سمعت صوتاً. الحقيقة كدت أكسر قطرميز السكر أيضاً.. كانت الركوة ساخنة»

«هل حرقتك المياه الساخنة؟!!

«لا.. شكراً»

انحنت الجارة التي ترتدي قميص نوم شفاف ـ تكتشف الحرق المزعوم في يدي لامست يدي. ابتعدت عنها. دخلت إلى المنزل وأغلقت الباب. ها هي امرأة أخرى تريد اكتشاف عالمي. ربما لأني أنزوي فأشكل سحراً خاصاً لهذا النوع من النساء الوحيدات في أنصاف الليالي. شعرت أني أرتعش.. يدي تهتز.. «هات عنك السكر.. أنا أصنع لك القهوة.. أنت يجب أن تتفرغ كلياً للشعر.. أنت مبدع كبير يا أستاذ».

تأخذ السكر من يدي وأنا ملجوم اللسان. لا أعرف ماذا أريد. لن أقسم بأني لم أكن أريد امرأة تنتشلني من كومة الذاكرة. ولكن لم أكن أرغب أن تصل الأمور إلى هذه الدرجة.

جاءت بالقهوة.. هذه الجارة الرقيقة. إنها لا تخاف البرد. قميصُها مفتوح وثوبها شفاف لدرجة أن تفاصيل جسدها تظهر دون قصد.. وعندما قدمت لي القهوة انحنت أمامي إلى أن نفر ثدياها من القميص شعرت أني أتهاوى.. ظلت على نفس الحال وهي تقول لي: أنا أكتب بعض المقطوعات يا أستاذ. أرجو أن تساعدني قليلاً. إني أحب الكتابة. عندما نظرت إليَّ رأتني متلبساً بالجرم المشهود. كنت أرتشف من ثدييها النافرين كفرسين مشاكسين. لم تحرك ساكناً. ابتعدت إلى الوراء وعندما وقفت منتصبة. ظل جزء من حلمة الثدي الأيسر ظاهراً.فاضطرت بحركة عادية أن تعيده إلى مكانه داخل الثوب.

لم أكن قد رأيتها إلاَّ عدة مرات. في الصباح. أو في المساء وأنا عائد من العمل.. في الحقيقة هي جميلة. لكن لن أحتاج منها أكثر من أن تسهر معي. نتحدث عن الشعر. لم أجرؤ أن أبتسم لها. لا أريد أن أتورط مع امرأة لا أعرفها.. ولا أريد أن أخون عليا التي أحبّها. أتذكر سلوى الآن. لا.. لا.. يجب أن تخرج هذه المرأة من بيتي. كم هي جريئة. لكني كنت أتمنى في أعماقي أن تبقى. مع ذلك التزمت حدود قيودي. أمي قالت: حافظ على عرض الناس حتى يحافظ الله على عرض أخوتك البنات. مدت يدها العارية فلمست جبيني. أنت متعب يا أستاذ؟!

«أجل.. لذلك أرجو أن تذهبي وتنامي».

«لا.. أبداً. أنا أحب السهر. في الحقيقة منذ مدة أردت الدخول إلى منزلك لأعرف عالمك الغامض.. من أين لك بهذا الوحي.»

بدأت تقرأ بعض أشعاري.

«ليتك تذهبين إلى النوم.»

«أبداً.. لن أذهب. أنت حساس جداً أراك وحيداً باستمرار.»

«أجل.. أنا هنا وحدي.. مقطوع من شجرة..»

«ها.. ألا يوجد امرأة في حياة الشاعر؟!»

«ربما..»

«ربما..؟! بل بالتأكيد.. إذن من أين لك هذا الشعر الغزلي؟!!

«كان ذلك فيما مضى»

«كأنك الآن عجوز أتعرف.. أنا أحب الرجل الأربعيني»

«صحيح..؟!»

«صحيح. وأنا..»

«ألا تؤمن بحرية المرأة؟!»

«نعم.. جداً.»

«يعني هي تقدر أن تقول للرجل الذي تحبه أنا أحبك»

«طبعاً»

«إذن.. أنا.. أحبك.»

هي تحبني. أسمعت يا عليا..؟!وأنا أحبك.. مثلث.. رؤوسه متباعدة.. بل هو مربع. وأنتِ أعتقد تحبين سامي. تلميذك النجيب.

أو سامي يحبك؟! لا أعرف.. ضاعت المراكز ونقاط التلاقي. في كل مرة تضعين عذراً وفي كل مرة تروين لي مشكلة أو عائقاً.

«أنا لم أحب سوى مرة واحدة. أحببت شاعراً يدعى رعد.»

قالت الجارة ذلك فصرخت. رعد..؟!

دهشت أتعرفه؟؟

«لا..لا..لا أعرفه. أعرف رجلاً مجنوناً كان يدعى رعداً خفت

عليك منه تملكتني رعدة في جسدي. سقطت القصيدة التي كنت أقرؤها من يدي شعرت بخوف يجتاحني. لا أعرف لماذا أنا خائف. من المرأة أم من رعد.. خائف من أنوثة طاغية أم من مواجهة جديدة لواقع جديد. «أنت لست رجلاً» سلوى تصرخ في وجهي وتبعق بصوتها القوي.. يرتعش الليل بين يدي. لا أعرف كيف رحت أتقدم خطوة. فخطوة. أم أعود إلى قناعاتي القديمة. لم أفتح قميصها. ولم أقطع أي زر من أزرارها. هي بنفسها فتحت قميصها. تركته يسقط من أعلى وهي التي رفعت ثدييها بيديها كأم تريد أن ترضع طفلها الوحيد الجائع.. لأعترف بأني كنت جائعاً ولكن ليس أبعد من أن ألثم حلمتيها وأرشف عبير جيدها.. كانت تتلوى وتتهاوى.. همست بصوت عذب: «أريد أكثر. أكثر».. شعرت أني لا أملك أن أعطيها أكثر.. لا يمكن.. راحت تقبلني بنهم «ألن تكتب لي قصيدة؟!»

سأكتب. أجل. على يديك. ظهرك. فخذيك.. ثدييك.. بطنك.. وتابعت هي. أريد أكثر. أكثر.. كانت الأرض العطشى.. وأنا كنت الغيم الذي لم يسقط منذ سنوات طويلة. ولو أنها جاءتني بوقت غير هذا لما استطاعت أن تشرب مائي. لكنها جاءت في وقت كان كل شيء قد بدأ ينهار. كرامات جدي. سور برلين.. اتحادات. منظمات. معاهدات. والملك يلثم حلمتي امرأة يهودية الآن وأنا أرتشف قهوتي المرّة. «أريد أكثر». تراجعت. شهقت وراحت دموعها تنهمر.. «أنا أريد أكثر ولكن لا..لا».

خفت. تراجعت.. الرجل هو الذي يملك نفسه ويسيطر على رغباته. ولكن هي.. أنا لا أريد أن أؤذيك..

«لا.. أنت لا تؤذيني.. إن لم تفعل سأصرخ.. سأبكي. سأموت»

«أي امرأة هذه. ماعدت قادراً على الخلاص من رغباتها. بدأت أنكمش كسلحفاة خائفة».

«هيَّا ارتدي ثيابك.. أرجوك.. أتوسل إليك».

كدت أبكي وأنا أنهزم للمرة الألف. خرجت الجارة تجر خيبتها المؤلمة.

أي امرأة أنت يا عليا.

أنا لم أضعف بقدر ما كنت أبحث عنك في امرأة أخرى. صدقيني هذا كل الذي حصل. أقول ذلك لا لتغفري لي ولكن لتعرفي كم أحبك وحين لم أجدك أبعدت هذه المرأة عني.

هذه المرأة لم تعرف إلا لغة الجسد. أنا لم أحاورها كما تشتهي إلى النهاية.. حملها كاذب.. لم تحمل مني صدقيني. أنا لا أتخلى عن امرأة، لي في أعماقها بذرة أتفهمين عليّ..؟!

هي التي تدعي. هي تحبني. أنا واثق بأنها ليست حاملاً.. ولكن تدعي ذلك لتحوذ عليّ.. قد أضعف يوماً يا عليا.. أرجوك دعيني من هذه القسوة!..

أنا لا أريد حواء الجسد فقط.

عندما استيقظت صباحاً.. دقت عليّ الباب لم أفتح.. اضطررت للغياب عن الدوام كي لا أراها.. دقت كثيراً. لم أخرج. قبعت في المنزل. لا أريد أن أرى أحداً. سألت عليك لم أجدك.. كنت سأعتذر عن موعدنا. لم أكن قادراً على الخروج من دوامة الأمس. شعور بالإثم وشعور بالهزيمة وشعور بالحزن. كل هذه المشاعر تختلط وتعذبني.

هذه المرأة لم أكن أعرف اسمها.. كنت أقول لها. «يا.. يا»

«أنت متعب يا علوش»

«أجل أنا متعب يا عليا.» رحت أرنو إلى الستائر بعد أن أخذت

حبة مهدئة من الحبوب التي وصفها لي سامح. ثم حاولت أن أقرأ كتاباً جديداً اشتريته من المكتبة. لم أقدر.. شعرت بغربة قاتلة في منزلي. في المدينة كلها. كأني لا أعرف أدوات منزلي ولا مقلمتي. كأني لا أعرف المدينة شارعاً شارعاً. فكرت بالاتصال بأصدقاء كنت قد نسيتهم.. عليّ أن أستعيد علاقاتي بالآخرين.. سامح قال عليّ أن أتصل بالناس. أن ألهو معهم. ولكن أنا لست من زمنهم يا سامح. لي زمني الخاص..

«هذه أزمنة الشعراء»

«ربما. ربما يا سامح»

«ولقاء جارتي أليس لقاءً»

«لو كان جدك حياً لأحال هذه المرأة إلى صخرة. أو إلى شجرة.»

يضحك سامح. فتظل عليا صامتة. أشعر بالخذلان. تدير عليا وجهها وتقول:

«أنتم هكذا أيها الرجال».

المقهى مليء.. الطاولات عامرة بالطعام والشراب. أنا لا أقدر أن أشارك في كل هذه الملذات. أنا لست ابن هذا العصر.. لا أعرف إلى أي عصر أنتمي إلى الأمام؟!! إلى الوراء. إلى ماذا.. ولماذا لا أنسجم مع الواقع الجديد؟

«أنتم ترويكم كل امرأة. أي امرأة»

ـ لا أبداً يا عليا. صحيح أنها مثيرة ولكن أنا لا أرتوي إلا من امرأة أحبها..

وأنا لا يمكن أن أحب هذه المرأة. حاولت مراراً ورفضت.. أليست هذه بطولة في زمن الإيدز؟!

إنها لا ترضي فكري وعقلي.

نعيد الضحك حين أتذكر أنه يمكن أن أنقلب إلى صخرة. تقفز إلى ذهني ضحكة العم صالح حين سمع بأن امرأة حولها جدي إلى صخرة. «جدي كان زير النساء».

الزعيم أمامي الآن... لقد مات في آخر الصيف. بعد ذلك انفض بعض أزلام الزعيم عن الإيمان بجدي.

«الشيخ شهاب لم يشف ابني من لسعة العقرب فمات يا حسرتي»

«شجرة الكينا التي ماتت أغصانها أمام بوابة المزار لم تخضر في الربيع. لقد ماتت الشجرة القديمة»

نباتات السبع المتطفلة على حقل البندورة وحقول الفول قضت على الموسم مع أننا حملنا تراباً من تراب مولانا ورششناه في الحقل «لم يمت هذا الطفيلي اللعين».

يا شيخ حامد... ما الذي يجري. من مولانا. شهاب أم الزعيم؟

«شيء من شيء.»

هكذا بدأت بذور الشك تنمو.تكبر. في تلك الفترة كنت مشغولاً بحب ليلى ولا يهمني من العالم كله إلا أن ألتقيها عند دوار النهر.. مات السبع. مات الضبع كل هذه الأشياء لا تعنيني. مرة رأيت ليلى تستحم في الدوار.. ثيابها على الصخرة وهي تستحم بين القصب البري. تسمرت مكاني. لأول مرة في حياتي أشاهد جسد حورية. ما تشهّيتها.. بل خفت عليها. أشحت وجهي . لم أتمالك إلا أن أعاود النظر إليها. زاغ بصري. همست ليلى؟! شتمتني فابتعدت ولم أخذلها.

ليلى تستحوذ على تفكيري يا حسن. يبتسم صديقي ويسمعني أشعاره التي ينظمها في حبيبته.

«هذه سرقة يا حسن. هذه الأبيات ليست لك»

«عندما تحب بصدق ستعرف أن الشعر يأتيك وحده»

كتبت لسامح عن ليلى.. سامح كان في أوربا.. والعم صالح كان في أوج معركته مع الجهل..

«الشيخ حامد لم يقدم للقرية أي شيء إلا كرش الوجاهة الذي يحمله هو ومعاونوه أما نحن فجلد وعظم. نكاد نموت ومع ذلك علينا دفع المال للزعيم.

يندفع رجل من تحت مصطبة مجاورة ويشتم العم صالح الرجال تجمهروا.. صاح آخر. مات الزعيم وهو يثغو كالخروف.

«إنه الخروف الذي سرقه. لقد ثغا في بطنه حتى مات»

«الشيخ لا يقبل أن يسرقه أحد»

كنت صاعداً من على ضفة النهر ممتلئاً بوجه ليلى وصوتها الجميل. لا أرى أمامي إلا الزهور والعصافير تطير فوق رأسي. والمدن الملونة حين انتبهت إلى معارك الرجال.

هذا بالأيدي وذاك بلسانه يشتم. يمر الشيخ حامد أمام الجميع دون أن يحرك ساكناً و حمدان يقف متفرجاً. نظرت إلى أمي باندهاش وسكت.. يقال إن جدي زهد بكل شيء. وصار متصوفاً. هكذا قال حامد. أشعر بالحزن يغمرني. أنظر إلي العم صالح أراه متجهم الوجه. حزيناً. أتخيل أنهم ينبشون قبر أبي وأنه يموت للمرة العاشرة. جرح عدة رجال.. وتفرق أهل القرية إلى عدة فرق.. راح الخروف يلف القرية. ولكن وحدهم الفقراء دائماً يتلقون الضربة القاضية.

العم صالح يقول.. يا حامد. لماذا لم يمسخنا مولاك. ألسنا أعداءه؟ حتى ذلك الشاب الذي شتمه وضربتموه لم يتحول إلى صخرة.

ركضت أمي باتجاه حامد.. انتزعت عكازه من يده كي تمنعه من المسير حتى يسمع ما تقوله. لكن حامد سحب العكازة من يد أمي

ومضى.

«هربت؟!»

أسرع حامد فأسرعت أمي. كنت معجباً بها وهي ترشه بالكلام النابي وهو يسير صامتاً.. وصلت أمي إلى قبر جدي.. تبعها العم صالح وبعض الرجال قالت أمي:«انظروا»

هذا الرجل جاء بعجله منذ الصباح وهو ينتظر الشيخ حامد كي يذبح العجل ويوزعه على الفقراء.

«هاهو حامد يا أخي..شيخنا الكبير» قالت أمي للرجل الغريب.

«الحمد لله أنك لم تتأخر أكثر. إني أنتظرك.»

«الحمد لله على السراء والضراء. إني أنتظرك.»

حامد يشير بيده ويغمز بعينه أن يكتم الجميع أنفاسهم أمام الغريب يجب ألا ننشر غسيل القرية القذر أمام الغرباء. ولكن لم يأبه لكلامه أحد. الرجل الغريب لا يفقه ما يدور حوله.

أريد أن أذبح العجل فداءً لولدي الذي شفي من الحصبة.

«حاضر»

يأخذ حامد السكين. يسنذها جيداً ثم يقرأ عليها الفاتحة وبعض الآيات التي تقرّ وتحلل ذبح الحيوانات.. ويرفع صوته «سبحان من حللك للذبح» يعود فيسن السكين عدة مرات. يمسك حامد بالعجل. ويغرس السكين في عنق العجل المربوط في رقبته. اتجه العجل إلى حامد. ركله فسقط على الأرض. قفز الثور في الهواء وأخذ ينطح صاحبه حتى أغمي عليه. عاد العجل إلى حامد الملقى على الأرض. نطحه إلى أن سال دمه. لم يستطع أحد أن يوقف الثور الهائج. دخل إلى داخل قبر جدي. روّث داخله. دمه ينزف. السكين ما تزال عالقة. نطح

القبر بقرونه. سقطت قطعة الرخام المستطيلة. انكسرت مباخر الجمـر. ابتعد حراس المزار. الثور يخور. يملأ المكان رعبـاً. يلتفت يمينـاً ويساراً. جمد الناس. فر حمدان وبعض رجال الزعيم.

العم صالح ينادي إلى أين يا رجال؟!

العجل يخور. فجأة انبثقت خالتي هدبا تجر جدتي التـي صارت كالشبح. خالتي.. من أين جئت؟! لم ترد كانت فتية. شـامخة كحـورة. خالتي لم تهرم. وقفت ترنو إلى حامد وهو يلفظ أنفاسه. أمي كالخرساء. ظلت تشهد ما يجري دون صوت. تساءلت بحزنٍ هل سقط كل شـيء؟! كنت أتمنى بدافع الغرور العائلي أن يكـون جـدي صـاحب براهيـن وكرامات. أحد الرجال يقول: شهاب بريء مما يجري إنه إنسان عادي. الزعيم ألبسه هذه الحلة سوّاه شيخاً.. أجبره على بيع ابنته لأنه اغتصبها أولاً. شهاب أتوا به وزعّموه.. فلماذا أنتم هنا شامتون. هم نسبُوا إليـه الخوارق.

معقول هذا؟!

صرخ آخر. أنت تكذب «ولاه» شهاب شيخنا وسيبقى.

«وبقى المشهد.. بقي ولا أنساه أبداً»

خالتي كحورية تتقدم الجميع. تقول بصوت هامس. لم تكـن كمـا يصفونها مجنونة..قالت وهي تلتمـس حجـارة القـبر والقـبر تلـوث بالدماء..أنا أحبك يا أبي ولا يمكن لإنسان إلا أن يعجب ذات يوم بأبيـه. لكن لن أخادع نفسي أكثر وأصدق بأنك ولي الله على الأرض. رأيتـك وأنا طفلة تفضح «سلمى» ابنة الجيران الصغيرة. كانت سلمى رفيقتـي عند الخطيب. قلت لي سأقطع لسانك إذا تكلمت.. وعندمـا فعـل بـي الزعيم ما فعل لم تقطع لسانه. ولكن أعطيتني لذئب يمصّ دمي.. كـانت خالتي تحمل عصا كعصا الساحرات. يا حامد.. «نادت» حامد لا يـرد.. أنا لا أب لي عم صالح.. يا علوش أنا لا أب لي يحميني.. هـذا ليـس

أبي. الجميع صامت. والعجل واقف ينزف. حامد يا عم صالح وضـــع السم للزعيم وادعى أنّ لعنة أصابته، حـــامد أراد أن يـــتزوج زوجــة الزعيم. ويأخذ كل شيء لأبي وللزعيم. حامد رش السمّ لدجاج القريـــة. وحمدان عالجه الزعيم في المدينة. رأيته أنا عند الطبيب.

وأنا!! أنا العاهرة.. انظروا ما بداخل القبر. تعـــالوا وانظــروا.. العجل فتح كوة. أخذت خالتي تحفر بعصاها الكوة. اقـــتربت جدتـــي.. أخرجت جدتي صرة فتحتها.. لم يكن فيها سوى بقايا عظام بالية ينخـــر فيها الدود والقوارض. ومن قاع القبر. خرجت أفعى رقطـــاء. سَـحبت على الأرض ثم عادت إلى وكرها»

اندهش الجميع.. كأن على رؤوسهم الطير. حتى أنا لم أستطيع أن أصدق ما أراه. يقولون إن جسد الأتقياء لا يبلى.. يظل على حاله عصياً على التراب.. شهاب كان بالياً.. متعفناً.. والأفعى تسكنه.

صاح رجل فقطع الصمت.. لا تكذبوا هدبا. أنا أعرف كـــل مـــا قالته. سلمى أختي. وجمّول قريبتي. هو الذي قتل جمّول لأنها رفضتــه. بل لم يكن هو. بل الزعيم دفعه ليفعل ذلك.

العم صالح ظلّ مكفهراً. أمي لم تقل شيئاً. لأول مرة أراها حزينة. أمسكت أمي بجدتي وبخالتي. ومشين معاً باتجاه المنزل. العجل ســـقط أخيراً. دمه ملأ الساحة. تحرر الرجال من هول الصدمة. حمدان يبعق.. اللعنة عليك يا هدبا.. كل المصائب منك القرية كانت ســـعيدة بحياتـــها وبندورها وأوليائها.. هدبا هذه قتلت ما تربينا عليه.. يا مختار. لم يعـــد غيرك هنا. أرسل وراء الدرك ليقبضوا على هذه المجنونة.

ــ لو اقتربت منها فلن أتراجع عن ذبحك كـــهذا العجـــل. ارفـــع شريكك حامد وادفنه

لأول مرة أرفع صوتي. لأول مرة أشعر أن لي صوتاً وأني رجل. مشى إلى جانبي العم صالح. شدّ على يـــدي. ابتعـــدت أمـــي وخـــالتي

وجدتي.. هن يبتعدن ونحن نسيرُ.. أين خالتي هدبا.؟! كأنها الغيم الـذي تسوقه الريح. كأنها المطر الذي تحضنه الأرض. اختفت خالتي فبكيـت. وتكورت جدتي على عظامها النحيلة. فجأة تحولت من ولد إلى علـي.. لم أعد أمر بمراحل الصمت الطويل. لقد بدأ صراخي. وبدأت أسـئلتي تتفجر في قصائد جديدة مختلفة. لم أجد الجواب الكـافي. ولا الشـكوك الكافية التي تخرجني نـهائياً مـن قوقعـة آدم إلـى قوقعـة الطيـور والحيوانات. بما كان في ذلك الخلاص من أسرِ روحي وجسدي. قبل أن أبدأ القصيدة أسأل نفسي إلى من سأتوجه؟!

إلى القاتل. أم إلى المقتول. إلى المعلم أم إلى التلميذ.؟! إلى الشعب الطفل أم إلى السلطة الرجال؟!

إلى الريف المبكر الذي فقد عذوبته وعذريته. أم إلى المدينة التـي لم أستطع مسكها بيدي؟ إلى المدينة التي ضاعت بي أم التـي صعـت بها.. أدور الشوارع وأدور الحدائق والمقاهي ومكاتب الأصحاب أسـأل عني فلا أجدني.

أسأل عن علوش الذي كان وعن علي الذي شهر السكين في وجـه حمدان ولا أجد أحداً. وقفت بباب المدينة ورحت أستجدي كـل داخـل وكل خارج. هل رأيتموني؟! خجلت من السؤال. رحت أمشـي باتجـاه البحر. هذا البحر الذي يدفن غصته في قلبي وموجه المالح في روحـي. أغوص في الملوحة والغربة كي أستعيد بعض جراحي التـي تذكرنـي بي.. بالنعنع البري. بالشوفان الذي ينبت على أسطحنا. بعـواء ذئـب يسطو على دجاجات القرية.. بالأفعى التي كانت تسكن قـبر جـدي.. ولكن.. بقيت الأسئلة هي. هي. تكرّ. الروح الضيقة تريد الخروج مـن الجسد الواسع. لقد ضاق كل شيء.. كل شيء.. أُخرج من البحر بعد أن استسلمت له، ثم أشتمه: أيها البحر أنت غدار. أنت كالزمن. لا يؤتمـن جانبك أبداً. مرة تضحك ومرة تعوي كذئب أتذكر ليلى.. لـن أتصـالح معك يا بحر حتى أتصالح مع نفسي. هاأنا أخاصم نفسـي أبـداً ربمـا

أصالح الأشجار والزهور والأعشاب ولكن كيف أصالح الحياة.. كيف أصالح ذاكرتي القديمة مع الآن.. كيف أصالح ذاكرتي الحاضرة مع الذاكرة التي تركض من بعيد قادمة بسيارات إسعاف.. كيف؟ المدينة ضيقة مع ذلك لم أجد علوش.

تاريخ واسع. واسع. مع ذلك لم أجد الفارس الذي ما يزال يرقد على ظهر فرسه منذ ألف عام ولم يتسع له التاريخ بعد.

إني الآن في مفترق للبداية والنهاية معاً.

آه.. يا جدتي؟! لا أستطيع العودة إلى الجوف المظلم «البدء» ولا أستطيع الخروج من عنق الزجاجة.

فقدت أشجار قريتي قدسيتها. لم نعُد نصاب بالحمى إذا كسرنا أغصان شجرة الميس.. ولم نعد نهذل كالحمام إذا سرقنا حمامات الجيران.

هل تفهمني يا عم صالح؟!

ربما كانت تجربتك التي تتمفصل مع نتوءات العمر الطويل أشد إدراكاً ووعياً من كل ما قرأناه. الآن أستخدم المهدئات. موضة العصر الجديد. وآخر مبتكرات الحضارة. ما مضى ـ كان صوتك يريحني أكثر من مهدئات سامح. أكثر من أمسيات جارتي «يا. يا.» وأكثر من قصص «فيصل الذي عاد من الغربة»

«شيء مضحك والله»

تذكرت فيصل. في الحياة أشياء مضحكة رغماً عنك. فيصل يكتب قصصه في مقهى المدينة ثم ينشرها ويدعى أنه كتب قصته في مدريد وأنه كتبها منذ عشر سنوات، وعندما يقدمها في أمسياته يقول هي لا تمت للواقع هنا بأية صلة.؟!

أي هي ابنة غير شرعية للمكان.

هي هذا الكم الهائل من البذاءات التي تصيب النساء اللائي يرفضنه. ولأنه ليس الشخص الذي يعجبهن كان من الطبيعي أن يكون هذا الرفض الذي يبعث في نفسه مشاعر غير طبيعية تتسم بالحقد.

يرشف قهوته ثم يفرك صدغيه. ويقول: نساء ساقطات لا يركضن إلاّ وراء المال..

عليك ألا تناقشه إذا قال ذلك. لأنه من غير المعقول أن تقول له ما قالت امرأة جاهلية لرجل أديب عندما رفضته قال بحسرة:

«أترفضينني وأنا الأديب الأريب؟!»

فردّت المرأة قائلة: «ليس لديوان الرسائل أريدك»

فيصل عندما حدثته مرة عن عليا.. قال هي مثلهن. كلهن. سواسية لا.. لا يا فيصل. صدقني.

هو لم يصدقني. وأنا لم أتعب روحي معه.. امرأته التي يكتب أو التي يبحث عنها هي امرأة سيئة السمعة.

المرأة التي أبحث عنها وأكتب عنها. إنسانة بكل مقاييس الإنسانية.

لو كان العم صالح موجوداً وسمع كلام فيصل لقال له: انقلع.. يلعنك. كأنك لا تعرف إلا الخمارات ومحلات الدعارة لذلك لا تتحدث إلاّ عن هذه الأشياء.

العم صالح رجل طويل التجربة. الإنسان هو التجربة كما الكاتب هو اللغة. يا عم صالح. أعرف أن هذا اليوم لا بدّ آت. إنه الوداع. الفراق. ولكن أشعر أن جزءاً من تجربتي غاب. هاأنا أشعر بالخواء, بالفراغ. أبحث عن الامتلاء. كيف؟! زمن الصداقات انتهى. انظر. هاأنا أستهلك قهوة كثيرة.. وشايا وكتباً. وحبراً وأكسر أقلاماً. فكرت مرة أن أستجيب لرغبات جارتي «يا.يا».

صدقني لا أعرف اسمها. قصداً لا أعرف اسمها. هي تدّعي أنها حامل مني. وتدعي بأني أحبها. ذهبت إلى عليا وأخبرتها كل خيالاتها المريضة. «وحياتك يا عم صالح» لو استجبت لها. ولرغباتي أيضاً. لما حصل ما حصل.. هي ليست حاملاً صدقني وعندما اكتشفت لعبتها. ادعت أنها أجهضت بسبب القهر. لم أعاتبها بعد جلسة الطبيب. ولن أعاتبها. إنها مريضة فعلاً. هي تحب ولكن عبرت عن حبها بطريقة خاطئة. طريقة لم نعتد عليها نحن الشرقيين بعد.

ليلى كانت تسبق الكثيرات حالياً.. ليلى الصغيرة ـ الجميلة لم تكن تؤمن بالزمن الاستهلاكي. أجد في عليا صورة أخرى لها.. بل هي يا عم صالح. لها الابتسامة نفسها والشعر نفسُه.. لها الصوت نفسه. «هل أنا مجرم لأني أبحث عن ليلى مرة أخرى».

عليا زعلانة مني.. تظن أني خنتها مع جارتي.. أنا لم أفعل. معها حق.. لأنها لا تعرف العم صالح. عليا أحياناً تتقوقع في محارة الحريم. تمدُّ رأسها إلى النور وتعيدّه ثانية لتخبئ تحت المحارة. هي تخاف أن يقطعوا رأسها بسيوف الجاهلية التي يرثونها.. تخاف أن يقطعوا صوتها. ومن يقطعوا صوته تنقطع أفكاره ويتصحر جسده..

كم أنا بحاجة إليك يا عم صالح. لأعترف لك بسرٍ.. مرات وددت أن أناديك «أبي».

أشعر أني بحاجة إلى أب.. أب أبكي بين يديه. ويعاقبني إذا أخطأت. ويشتم أولاد الجيران الذين يضربونني.

كنت سأطالب إليك أن تسامحني لأقول لك «يا أبي» لكني خجلت. وعندما أخبرني حسن بأنك رحلت بكيت بحرقة و انتظرت إلى أن غادرني حسن. بعد ذلك أغلقت الأبواب والنوافذ ورحت أصرخ. يا أبي. يا أبي.. ياأبي. كنت أظنك أحياناً عصياً على الموت. ربما كان الموت بداية. ولكن كيف أجد البديل لحضورك.؟؟ أعتقد أن البديل هو

استحضارك دائماً.

موتك الآن فتح جمجمتي. أخرج كل الذي خبأته. وأنكرت أني أعرفه.. هل كان عليّ أن أقول إني مشيت حافياً إلى أن صرت في الصف الأول؟! هل أقول إن زوجة الآغا ضربتني لأني أردد الأناشيد وأحفظ الأشعار الثورية؟!

هل أذكر..؟!

الآن مفروض عليّ ألاّ أذكر شيئاً. وأن أقول كي يقبلونني في زواريب المجتمع الراقي: نعم أنا والدي باشا.. أجل باشا..وأنه كان يرسل أمي إلى الاستجمام كل سنة في أوروبا.

«ولَك فيصل لماذا لا تذكر في قصصك مكاناً واحداً من مدينتك.. شارعاً. جداراً. أو من قريتك الموبوءة بالجراد والبرغش. لماذا؟!

«وأنت لماذا تريد أن تبهدلني يا علوش؟

«أن تذكر أن العم صالح كان أستاذك هذه بهدلة»

أن تفرش ذاكرتك وتقول للأصدقاء: هنا تركنا البيوت الطينية المطلة على بعضها والمتصلة «بكوى صغيرة ــ طاقات» أو فتحات تمرر الضوء والصوت للاطمئنان وللمناداة عندما يأتي اللصوص.. أو عندما كان يقتحم الفرنسيون القرية فيطلبون أبي. أو العم صالح وباقي الرجال.. كان أهل المنزل الذي يبدأ الدرك الفرنسي بتفتيشه أولاً يدخلون طفلاً من الكوة إلى بيت الجيران وهكذا من كوّة إلى أخرى.

ينتشر الخبر فيتهيأ الرجال للمناوشة أو للاختفاء.

أنا الآن بحاجة يا عم صالح إلى هذه الكوة لتصلني مع نفسي. ولتصل الذي مضى بالذي يأتي كي أنجز مشروع إنسانيتي. هاأنا أحاول. أحاول بشراسة. والكوة كما ترى لا تتسع لي الآن. فكيف أعود من خلالها إلى الوراء؟!

لا يتسع لي إلاّ البحر. هذا الغدار ـ الجميل ـ الفاخر الذي سلبني جزءاً من حياتي. المرأة التي كانت تكلمني. أخاف أن أفقد الجزء الآخر يا عم صالح.

موتك.. أخرج الأموات كلهم وجاء بهم إلى غرفتي. كل الذين أعرفهم.

حضروا. أناديهم. أصرخ.. أبكي. لا يردون. فأقلب الطاولة في وجوههم. أسمع ليلى تبكي. عاتبة تشهق في وجهي تقلب طاولة أوراقك؟!

أنت؟!!

ليلى.!!

أنا علي!!

أقترب منها فتبتعد.آخذ كرسياً وأجلس عليه كي تطمئن إلى هدوئي.

ليلى.. أتذكرين القرية.!!

تهز رأسها نفياً.

أتذكرين العم صالح.. رسالتي الأولى..؟

أوه يا حبيبتي. لماذا؟!.. فقدان الذاكرة شيء مخيف. يعني فقدان الهوية. الاسم. الشكل.. يعني الذوبان بالذي يلقننا ذاكرة هو يشكلها. تذكري معي حاولي.

أعطيتك الرسالة الأولى. كنت صاعدة في الطريق النهري تحملين جرّة الماء. الشمس تلقي خيوطها على شعرك وتتحلل شجرة الصفصاف المتدلي على الماء. النهر يُسقسق بهدوء وهو يغسل سيقان الحور والزيزفون. القرية كلها مشغولة بإدخال جرار الماء وتعبئة الفوانيس

بالكاز قبل هبوط الليل. وإدخال الأبقار وإغلاق الأبواب على الدجاج. خوار بقرة تنادي ابنها الذي مات والذي حشوه بالتين. كذبوا عليها «هذا البوّ» هو ابنك.. تصدّق البقرة وتبدأ أمي بحلب البقرة.

العم صالح يصلي.. كنت أنت تدندنين بصوت هامس «سكابا يا دموع العين» سمعتك.. خرجت من بين الصفصاف.. وعندما اقتربت منك «لقد أفزعتني»

«هل أنا جنّي»

«في النهر يقولون يختبئ الجن.. ربما كنت منهم»

دائماً كانت كلماتك لاذعة. مع ذلك عندما ابتسمت عرفت أن ذلك أول إشارة لي للمرور بلا أسلاك شائكة.

قلت لك: «أريد أن أقول لك شيئاً يا ليلى»

وقفتِ. ماذا؟

لم أستطع أن أقول أي كلمة جمدت الكلمات في حلقي. بدأتُ أرتجفُ كأن برداً مفاجئاً أصابني مشيت.. لم أستطع أن أقول أي كلمة. لم أنادك ولكن مددت يدي بصعوبة. أعطيتك ورقة مطوية.. ربما اعتقدت للوهلة الأولى بأنها مسألة رياضيات. كان طبيعياً أن أحل لك المسائل. وأن أساعدك في مواضيع الإنشاء. أخذت الورقة ومشيت. لا أعرف كيف تجاسرت وناديتك بصوت كأنه يخرج من قاع وادٍ عميق «ليلى» لم تردي. تركتني ومضيت. لم أرك بعد ذلك عن قربٍ إلا بعد أسبوع. حاولت الصمود في وجه هواجسي وقلقي دون أن يدري بي أحد. كانت القرية تمور بالتوتر السياسي والاقتصادي وكانت الخلافات الاجتماعية وحملات المجالس النيابية قائمة.. ومشاكل الزعيم. وكل مرة أنتظرك على باب المدرسة وكل مرة تخذلينني بوجود زميلة معك. بعد الرسالة أعطيتك وردة.. كنت قد سرقتها من حديقة المدرسة الزراعية

التي أدرس بها.. أتذكرين.. مدرسة أبي العلاء المعري التي تتصدَّر مدخل المدينة؟! المدرسة مازالت. لكنهم «الْغوا» القسم الزراعي في المدرسة. والأستاذ الذي كان يعلمنا كيف نربي النحل. شاخ وصار لا يعرف أحداً منا.

قدمت لك الوردة. أخذتها ولم تقفي. «ليلى» تبعتك.. كان الطريق ترابياً مفروشاً بالغبار الأبيض الذي يشبه بودرة التلك. هذا التراب الأبيض كان يصبغ أحذيتنا السوداء بطريقة بدائية. وكان يتطاير فوق رؤوسنا كدومة مع كل نسمة هواء.

«أنت مستعجلة جداً»

«ولماذا أقف؟!»

صحيح لماذا تقفين. أنا أيضاً لا أعرف. سألتك ألم تقرئي الرسالة..؟!

«لا.. أنا لا أقرأ رسائل من أحد»

«وأنا لست أحداً.. أنا علوش.. سأقرأ لك الرسالة..هي كلمة واحدة. كتبت لك فيها.. «اسكت.. قاطعتني»

«كتبت.. وجهك لا يفارقني»

تجرأت كم كنت شجاعاً يوم قلت لك ما بداخلي.. كنت قد انتصرت في كل معارك الأرض..

انتظرت الرد طويلاً. لم أعد أقرأ جيداً ولا آكل جيداً أشرد. يسألني الأستاذ.. ما بك يا بني يا علوش؟ تمرين أنت في سطور الكتاب. وصوتك يتردد مع كل أصوات النساء لم أعد قادراً على دخول بيت العم صالح. خفت أن يكتشف هذا الرجل الذكي ما يجول في أعماقي. سألني.. ما بك يا علوش لماذا لا أراك هذه الأيام؟!

«منشغل بالدراسة يا عمي»

بدأت أخاف صوتك.. لا أريد أن أسمعك وأنا عند العم صالح. صوتك كان يجعلني أرتجف .

انتظرت طويلاً. وأنت لم تقولي شيئاً. أدخل منزلكم مدفوعاً بقوة. وأخرج مدفوعاً بحزن.. أنزل إلى النهر. أحاول اصطياد لحظة انفرد فيها بك. لكن أهل القرية كالنمل المجد.. في عملهم. في الطرقات. في الحقول. أنزوي تحت شجرة الدلب.

أتخيلك. «لو أنك تردين الآن» كانت قواي خائرة. حاولت العودة إلى المنزل فلم أستطيع. نادت أمي.. لم أرد. هبط الليل سريعاً. ثم بدأت حركته تتباطأ. أمي تبحث عني في بيوت الجيران وأنا أبحث عنك عند شجرة الدلب. صاحت ديوك القرية. أمي تقسم إني لم أغادر المنزل أبداً من دون علمها.. أسمع صوتها البعيد وأنا ألتف بالعتمة والقصب البري والنهر وأستند إلى شجرة الدلب. العم صالح يطيّب خاطرها وجدتي تقول لأمي «قلت لك ابنك مجنون».. لن أرد على أحد.أكره هذه القرية العجفاء. ضفادع تنق. عصافير تزقزق. يبدو أن الفجر يقترب.. نجوم تسقط.. وسماء تبدأ بالارتفاع..هاهي ترتفع. ترتفع. أنفصل عن بحر السواد أجدني على الأرض والسماء عالية جداً. زرقاء جداً. غيوم تحبو على وجه مشرقة ونسمة لاذغة. الندى يهطل على الأرض.. تكشفت الستائر السوداء عن قرية بدأت تتململ من نعاسها.. حملت أوجاعي وعدت إلى المنزل.. عندما رأتني أمي صرخت وراحت تتوعدني.. لم أرد عليها.الآن شعرت أني قطعت حبل السرّة مع الجميع. أندس في فراشي الموجوع. أغطي رأسي محاولاً النوم. كان أيار في آخره عندما رأيتك تقرأين تحت شجرة المشمش.. تجولت في الحقول ومن هنا انعطفت إلى شجرة المشمش.. تجولت في الحقول ومن هنا انعطفت إلى شجرة المشمش كي لا ألفت نظر أحد. مشيت بهدوء وتسللت إلى الشجرة هززت غصناً فتساقطت ثمرة مشمش فوق رأسك. «آخ»

سمعت صرختك المكتومة وأنت غارقة في الكتاب. أنتِ لم تسمعي صراخي مع أني ملأت الفضاء نحيباً. أخذت الثمرة وأنت تنظرين إليّ ثم رميتها في وجهي وقلتِ «كل» قلت ذلك بغضب. ولكن عندما لمست طرف ابتسامة قلت «لا أريد» قطعت ثمرة وقدمتها لي وقلت ثانية «كل»

«لا أريد»

«لماذا؟»

«لا أحب المشمش»

«أنا أحبه.»

«مالي علاقة بالأشياء التي تحبينها»

«خذها من يدي»

يا يدك التي تسور العالم. يا يدك التي تساوي مشمش الأرض كله.. أتذكرين قصيدة «يدها».

يدها بستان كرز يزهر على قميصي.

يدها مدينة تتجول في أرجائها السحب.

مدّي يدك نصطاد البحر ونرتق شباك القدر. آخر قصيدة كتبت «لها.. وأحبها» أسابيع من الهلاك الذي ذقته على يديك وبعد هذه الأسابيع المريرة الطويلة جاء ردك بسيطاً عميقاً. «وأنا كذلك».

لم أكن أحتاج لغير هذه العبارة. كانت كافية لأصير سيد العالم. سيد الزمان. كانت كافية لأشعر أن القرية حبيبتي. وكل شيء جميل. احترت أين أخبّئ هذه القصاصة الزرقاء التي غيرت مجرى حروبي كلها.. هادنتُ العالم كله. أخذت أغيّر موقع الورقة من كتاب الهندسة إلى كتاب الجبر. لم أكن أخاف من أخوتي. بل كنت أخاف عيني

أمي..كانت تعرف القراءة وكـــانت بحكـم تنظيفــها للمــنزل تجمــع القصاصات التي أنساها. عينا أمي تتهمانني دائماً بـــالتقصير. وعندمــا رسبت في امتحان الثانوية. بكينا معاً. أمي بكت بحرقة. أنبتني بشدة بعد ذلك أمسكت بيدي وقالت: يا بني لكل جواد كبوة. عليـــك أن تنـــهض. وعندما رأيتني أنتِ حزيناً، ضائعاً. قلت لي بهمس حنـــون لاتزعــل.. مررت أصابعك الغالية على وجهي. ولم أتمالك إلا أن أطوقك ونحـــن تحت شجرة الصفصاف الكبيرة المتدلية الأغصان فوق ماء النهر. كـــان الليل في أوله. وكان القمر ساطعاً يغتسل بماء النهر. وكانت القرية تخلد إلى الهدوء.. اتفقنا أن نلتقي تحت شجرة الصفصاف. لأول مـــرة وأنـــا أركض في دوائر القلق والهموم والفشل، شعرت أنك قريبة. مني بكيــت بصمت وأهرقت دموعاً خرساء. الفشل شيء مرّ.. مرّ جداً يا ليلى.

راحت أناملي ترتب خصلات شعرك وهي ترتعش. القمر يرانـــا والنهر وشجرة الصفصاف وأبي الذي يطلّ من قبره كل فترة. أزهـــار النعنع البري التي تملأ ضفاف النهر تتفتح في جسدي. لم تكن أزهـــار شهوة. كانت أزهاراً من نوع آخر.. من نوع مقدس يصلنا باللانهايـــة. كان وجهك ساخناً. اقتربت شفاهنا. ولم نسمع شيئاً إلى أن ســقطنا فـــي الماء. ابتلّت ثيابنا. نهضنا. لم نقل شيئاً. ولم ينظر أحدنا في عين الآخـر كل منّا مضى باتجاه وعاد إلى منزله.

«لا أعرف ماذا أناديها الآن؟! أهو شعور بالذنب لأني أحب عليـا. أم لأني افتقد عليا فيها؟!

أيهما التي تسوغ للأخرى وجودهـــا..؟! الإنســـان ليـس خزانـــاً للعواطف يجمع المتناقضات. أنا لا أقدر أن أراكم شيئاً فوق آخر. أنـــا؟! لا أعرف لماذا أذكرُ ليلى بالتفاصيل الصغيرة. هل أريــد نســيانها؟! أم أريد استعادتها. لا أعرف..آه. رأسي يؤلمني. لا أريد أن أُستعيد جراحـاً قديمة يا عم صالح.. حسن جاء وألقى بين يدي كل مصـــاطب القريـــة. وليلى حضرت دون إذن مني. كانت فوق المصطبة وكنـــت أنـــا أمــرّ

قربها.. رشت الماء على المصطبة كي تكنسها.. فاحتِ رائحة التراب المبلول.. فاحت رائحة الماضي المدفون تحت التراب.

خرجت ليلى!

لأعترف. أريد أن أمحوك يا ليلى. ولأعترف لك بأني أناني.. صرت أحب نفسي وأكرهك.. لماذا.. تطاردينني كلما التقيت بامرأة. أنا الشاعر المعروف.. نساء كثيرات دخلن بيتي ولم يدخلن أعماقي بسببك. كنت قاسية. كنتِ تطردين الجميع. أنت ميتة يا ليلى ألا تعرفين ذلك؟! سأعاشر الكثيرات لأنتقم لحضورك المفاجئ ولغيابك. ارحلي عني. إني أكرهك كلما امتلكت امرأة بين يدي تخرجين إليّ حاملة غضبك واتهاماتك «تخونني يا علي؟!!»

بصراحة حاولت. حاولت خيانة وصايا صالح. وتمنيت أن أتحور من صفصافة النهر. ومن عيني جدتي العجوز. لكن في كل مرة أقبل فيها امرأة كنت أقبلك أنت. وعندما كنت أحيط امرأة بذراعي. كنت أحيط جسدك. كم أنت شرسة. وقاهرة. وأنانية. هاأنتِ تشيئينني في الحضور وفي الغياب. رسوبي في الثانوية سهّل عليّ التفكير بالزواج. كان العرس بعد عودتي من الحرب. لم نفوّت شجرة الصفصاف يوماً. نستند إلى جذعها. ندعس النعنع البري. «المشرور» عند أطراف الحافة النهرية. تفوح رائحة عبقة من أوراقه. وجاء آب. كان شديد الحرارة. وكانت هزائمي في أوجها. فقداني الذاكرة وخوفي المتكرر. فجأة ترتفع درجة حرارتي وأجدني في الجولان. النابالم يتساقط كالمطر. وطائرات النسور تحلق.. القنيطرة الحزينة تحدق بنا. الهزائم القديمة تحدق بنا هي الأخرى أنا في الجولان الآن.. مطر القنابل يتساقط نتقدم.. هانحن نتقدم. أشلاء حولي. أبكي بحرقة. أتلمس الحجاب التي وضعته أمي في رقبتي أتلمس القلب الذي يحضنك. آب اللّهاب.. الرطوبة القاتلة «آه.. خذني إلى البحر يا علي»

«حاضر يا حبيبتي»

لماذا هذا الطلب الآن.. كنت في إجازة وكان عليّ تلبية رغـائبك.. وكنت غارقاً في بحرك حتى رأسي..«خذني إلى البحر» يجب أن آخذك لأرتاح قليلاً من هاجس الكتابة لمجلة الجنود التي حولوني إليها أخيراً.

«خذني اليوم إلى البحر»

«حاضر..» أعرف أنك تسبحين في دوّار القرية أيتـها الشـقية. أتذكرين يوم تسللت من داخل القصب البري الذي يحيط بالدوّار؟ هي لم تكن مرة. بل مرات في المرة الأولى لم تريني. وفي الثانية شـتمتني.. وفي آخر مرة. فوجئت بي في الماء. حملتك بين ذراعي كوردة أخـاف أن تفرط وريقاتها. لم أقبلك. خفت عليك مني.

قطعة نور أنت بين أناملي. نور قدسي. كيف أطفئك؟!!

أعرف أنك تسبحين.

لم أعترض.. سأنفذ رغباتك. كل ما يحلو لك أمر. الهجير ينشـر الرطوبة. الهواء ساكن. لا يتصادم مع الموج ولا يثرثر مـع الرمـل.. أمي تضرب كفاً بكف.. يا ناس.. النهر أمامنا.. و هو يأخذ زوجته إلـى البحر.. عيب.. الرجل يأخذ زوجته لتتعرى أمام الآخرين. ـ آخر زمن ـ جدتي تقول وهي تعد الحصى الذي بين يديها المرتجفين «ما قلت إلك إبنك مجنون؟» الله يرحمك يا جدتي. شط الرميلة خالٍ لا أحد هنـاك إلا نهر قريتنا يغرّب باتجاه الجسر. بعد الجسر يصبّ مع نبع «غرنيو» في الدوّار. نباتات السويّده ونباتات السعد..القصب الـبري.. العيصـلان.. اليغنص.. صفصاف بري.. شماريخ وقرّام. كل ذلك يشكل غابة هابطـة باتجاه البحر مارة ـ في تل النقعة ـ حيث المزار القديم ـ هذا المـزار غير جديّ طبعاً أنت تعرفين ذلك يا ليلى.. بعد ذلك تغرّب المياه. تذوب في ماء البحر.. وتصل إلى شواطئ قبرص أو مصر.. وغيرهما.

فرشت قميصي لتجلسي عليه.

«لا.. يا علوش يا حبيبي.. البحر سجادتي»

«البحر سجادة. نحن نفتق وسادة البحر ونغوص في ريش أحلامها.» أليست عبارات جميلة؟!

«أجل يا حبيبتي ولكن..»

أردت أن أغيظك. هذه الـ ولكن تغيظك.. أعرف أن لديك موهبة في الكتابة ولكن لم تكن ضمن خطة حالية!.

«اسمعي يا روحي.. أنا لا أريدك شاعرة.. أريدك للمطبخ. آ.. هذا الشعر الحر.. لا يعترف به حامد.

«هذا هو البحر. ليبتلعه..»

غضبتِ مني. ورحت ترددين أسماء شعراء كثيرين يكتبون العالم بشكل حرٍ.

ابتعدت عني وأخذت تخلعين ثيابك.

«ماذا تفعلين»

«أريد أن أسبح»

«قد يمر أحد الصيادين»

«أعتقد أن البحر للسباحة يا علي»

«أجل ولكن!!. لأول مرة أجدني أتفق مع أمي. إذاً أنا لم أقطع حبل السرّة مع القرية ومع أمي وأشياء كثيرة».

«ولكن سأسبح يا حبيبي. لماذا جئنا إذن؟»

ونزلت البحر كحورية. لم أستطيع أن أعترض مع أن شرقيتي ظهرت فجأة. كنت كسمكة مذهبة. مازلت أذكر قميصك الشفاف الذي التصق بجسدك العاجي وأخذ ملامح صدرك ورد فيك وشعرك يتدلى

كشلال يصبّ على ظهرك.. كنت تقضمين خبز التنور بنــــهم وجــوع. «كل»

«خبز حاف؟!»

وماذا تريد أكثر من الخبز إنه خبز الأرض خبز الفلاحيـــن أيــها الفلاح. ضحكنا وأخذنا نبتعد قليلاً عن الشط. «هاهو أحــد الصيــادين» فوراً غصتِ بالماء. وعندما ابتعد الصياد شعرنا بارتياح. لم يكن مؤذيــاً ولا طاغياً. لا أعرف لماذا شعرنا أنه يتقصد إيذاءنـــا. بــالأحرى. أنــا شعرت. كنت أغار عليك. هو لم يفعل شيئاً. إنه يبحث عن رزقه ونحـن الذين اعترضنا طريقة. مع ذلك أردت أن أذهب إليه وأشتمه.

«لا أريد أن أسبح»

«طيب كما تشاء»

نخرج من البحر. هناك على بعد أمتار توجد شجيرات تين صغيرة متقزمة بسبب الهواء الملحي. طلبت أن أجلب لك التين الأخضر. مشيت بتثاقل نحو شجرة التين بينما افترشت الرمل يا ليلى. ولكن عندما عــدت لم تكوني على الرمل.. كنت داخل الماء. ناديتك. قلـــت أنـــا قادمـــة.. فرشت الخبز وبعض الجبن والعنب ووضعت ثمرات التين أيضاً ورحت أنتظر عودتك. أنا أناديك وأنت تضحكين وتلوحين بقميصك الذي خلعتــه في الماء. «تعالي». لوحت لك بالتين. كنت تبتعدين. القميص الشـــفاف في يديك. غضبــت لأنك تعرّيت مع أنك تريدين الماء. ناديتك بصــوت خائف.. تعالي. ما هذه المزحة الإمام ينتظرك.. كنـــت أعــرف أنــك تشتهين التين. وكنت أدرك أن بداية كائن تتكون في أحشائك يا حبيبتــي. أجل. كنت أعرف. نزلت الماء أتبعك. مزاجك ثقيل ها؟ تعالي. تبتعدين. الموج يأتي ويروح. دوامات الرمل تحت قدمي.. أنا لست سباحاً مــاهراً إني أعرف أن أسبح على الشط.. لا أعرف أن أدخــل إلــى العمــق.. الأعماق الغامضة مخيفة. حتى هذه اللحظة كنت مقتنعاً بأنك ســتعودين.

وأنّ البحر لا يهزم امرأة جريئة مثلك.

وكنت حتى تلك اللحظة أظنك تمزحين معي. رحت أتبعك ببطء. أخيراً لم أعد أسمع صوتك. ناديت.. لم تعودي تلوحي بيدك.. ترتفعين مع الموج وتسقطين مع هبوط موجه عنيفة. ليلى.. قميصك لا يرتفع. قميصك يحمله الموج بعيداً.. شعرك بقعة بنية في البحر. قميصك يرقص مع الموج. قميصك المفجوع يقترب مني. أصرخ بخوف.. لم أعد أملك نفسي. حاولت السيطرة على قواي في هذه اللحظة الحرجة فلم أقدر. تغيم عيني والملح يملأ فمي. أدخل الأعماق باتجاهك. أفقد توازني مع قوة الموج. أرتفع وأنخفض. عيني عليك تبتعدين. تبتعدين وتتحولين من بقعة كبيرة إلى نقطة صغيرة في عالم أزرق. أزرق. صاخب. يا إلهي. اختلطت ملوحة قهري بملوحة البحر. أيتها النقطة التي تقف في أول سطر للموج.. اقتربي إليّ.. أرجوك. ليلى اسمعيني أرجوك.. الماء يحملني حيث يشاء. أنت تذهبين باتجاه الغرب.. أحلم يا علوش بأن ندور العالم أنا وأنت. أريد أن أعرف ماذا هذا البحر. أي كيف ينتظم هذا العالم. هذا الكون أتخيل لو جفّ البحر ما الذي يحدث؟!

أتخيل كل هذه الأشياء يا ليلى وأنا لم أعد أقدر أن أرفع يدي وألوّح لقميصك. بدأت أبتلع الماء المالح. بدأت أزفر السنوات. أفرش على هذا الموج آخر لحظاتنا. وآخر رائحة القرية. شعرت أن النهاية تقترب. خارت قواي. أسلمت نفسي للموج ربما أستعيد لحظة قوة أجرّ نفسي إليك أيتها الهاربة. ولكن عبثاً. أنت تطوقين الماء كله. تطوقينني وشعرك ينساب طليقاً كعاصفة وأنت كنقطة في غبش بعيد. أنتفض لا يمكن أن نفترق. لا.. لنكن معاً. بدأت أعاند الموج من جديد. ها أنا أقترب منك. هاهي النقطة ــ أنت ــ تكبرين. مددت يدي إليك. شعرت أن يدك تمتد لتودعني. لا يمكن أن ترحلي دون وداعي. أليس كذلك يا ليلى. ألم تمّدي يدك؟ بلى. قولي بلى أرجوك. ولكن لماذا غافلتني وأنا أجلب لك التين. أنت مددت يدك وأنا مددت يدي. ودعتك وأنت

تغادرينني إلى العالم الغامض. الذي كنت تحلمين به. قلت لـك: تعالي نعود إلى الشطّ. تينك المشتهى هناك. تعالي معي. ظللت أمدّ يدي إليك.

أمد يدي وأنت لا تردين على ندائي بكيت ولم أعد أراك ولا أسمع صوتي. اختلط الماء بالصمت. الأيدي المودعة بالأيدي الراحلة. اختلط الشط بالقاع وصرنا كنقطتين في فضاء لا نهاية له.

«انتباه»

كانت اللحظة البعيدة ماثلة أمام علي. من قال إننا نخلع الماضي كحذاء. من قال إننا غير قادرين على استحضار الذين غابوا. كل قتلانا من الجاهلية حتى الآن يحضرون متى نشاء وكل أبطالنا وخيولنا. لماذا إذن تجري كل تلك الدماء في ساحات المدن العربية..؟!

رشف علي القهوة. نهض واتصل بعلياً أكثر من مرة ربما يخرج من الماضي الذي يسحقه لكنه في كل مرة يعود إلى سجائره وأوراقه ويستطلع وجه ليلى ولحظتهما الأخيرة. إنه الانشطار. نحن ننشطر.. مازلت في هذا الطور. لم نكوّن بعد بنيتنا الخاصة بنا.

قال الرجلان اللذان حملانا من القاع إلى الشطّ: كنا نلقي الشباك من أجلِ الصيد. رأينا نقطتين تعلوان وتهبطان بعيداً في دوامات زرقاء وإذ بالنقطتين امرأة ورجل. حملناهما إلى الشطّ. المرأة ماتت.. والرجل كتبت له الحياة بعد عمليات التنفس الاصطناعي. وكل المدينة سمعت بالتين يا ليلى. وأنت الوحيدة التي لم تكترث لهذا الأمر. وكل المدينة عرفت بأنك كنت تحملين ولدي في أحشائك.. عندما فتحت عيني رأيتك بجانبي. ورجلان يقفان فوق رأسينا. ظننتك نائمة. وكنت مغطاة بقميص غريب. ناديتك فلم يصل صوتي إليك.

«لماذا كل هذا النوم يا بني»

«ماذا وراءنا يا أمي؟!»

كنا في أيام العرس الأولى وكان ممنوع علينا أن ننام إلى الضحى. كان يجب أن نذهب إلى الحصاد. أو إلى الحقل للحراثة. أو.. العمل يلاحقنا. ها أنت شبعت نوماً يا حبيبتي. لم يقدر أحد أن يوقظك. زرعت لك شجرة تين. أثمرت الشجرة وماتت لأن الدود نخرها. لكني زرعت لك شجرة أخرى وهاهي الآن تثمر لا أعرف من يأكلها.. لقد هربت من القرية. لا أعرف من منا قتل الآخر. كان البحر ينادينا معاً. هزمنا البحر أنا وأنت والجنين. لقد أجهض حبنا. لم أستطيع الانتقام.هل يقدر أحد أن ينتقم من البحر؟

إنه البحر. يرأف ويغدر. يثور ويهدأ. يتقدم ويتأخر. لا يثبت على حال. ربما كان الريف هو ملاذي الحقيقي. ملاذ البراءة التي ضيعتها. حيث لا بحر ولا غدر. لا شعر ولا لهاث في مدينة بعيدة لا تعرف كيف تصلنا. في الريف حيث كان علي الخروج إلى الحقول. أزرع القطن واللوز والزيتون. وفي الشتاء «نقطع قرامي الحطب. نشعل النار في أرض المنزل الكبير وأكتفي بقراءة ديوان العرب القديم.. هل كان ضرورياً أن أدخل الجامعة وأغترب. أغترب. إنها المعرفة الجديدة.. المعرفة التي كلما زادت. كلما زاد اغترابي. كم أنا غريب هذه اللحظة يا ليلى. لذلك أبحث عنك كي أقصّ عليك كل ما جمعته خلال عشرين سنة مضت. قد أكون أنانياً. بحاجة لمن يسمعني. ولأنك لم ترغبي في سماعي أبحث عن بديل.. قد تكون عليا البديل. أريدها أن تسمعني لكن هي الأخرى تبحث عن رجل لا لكي يمارس معها الحب. ولا لكي تعيش اللذة العابرة ولا الخالدة. إنها تبحث عن رجل يصنعها.. أتفهمين عليّ؟ .. أنا لا أخونك يا ليلى. أنا أبحث عنك.

علي ينهض فيكسر فنجان القهوة.. يمسك بأوراق كثيرة يمزقها.. يصرخ بأعلى صوته.. أيتها الغائبة. العاهرة. ارحلي. سأخونك. أقسم أني سأخونك لا تخلص منك. سأخونك قريتي لأتخلص منها. أنا لست سوى قشة تطفو على بحر الزمن ماذا تفعل القشة بالبحر..؟! لماذا

تطالبينني بأشياء تفوق طاقتي. يركل الكراسي برجله. صوت حطام ينبعث من الشقة.

«لن أفتح»

كان الباب يقرع. قرر ألا يفتح. لا يريد أن يرى أحداً. ربما بعد أيام يشتري جارية أو عبداً يأمره بأن يسمعه إلى النهاية.. لا عمل له سوى أن يسمع. ولا عمل لعلي سوى أن ينشطر ويتناثر.

الباب يقرع بشدة. يهدأ على كرسي. الباب يقرع يسمع همساً خافتاً. لابد أنها الجارة «لا أريد أن تدخل» يظّل صامتاً. لن يفتح.. قرع الباب يهدأ قليلاً ثم يركل بقوة.. تغيب الأصوات ولكن فجأة ينفتح الباب عنوة.

«أنت هنا؟! هنا ولا تفتح؟! ما الذي يجري؟

علي ما يزال يفرش أحزانه. سامح وعليا يتبادلان النظرات بذهول ينظر علي إلى زوجة سامح. يقول بصوت ضعيف»

«ماذا تريد؟!»

«علي.. ما بك. أنا سامح»

«أي عليّ تقصد؟!

«علي الشاعر صديقي. الذي كنا نشوي الحنطة الخضراء ونعمل فريكة في البراري مع حسن أتذكر حسن؟!

«تقصد رعد.. رعد الذي قتلني؟!

«علي. ما بك؟»

«أنا لست علي. أنا رافع. كنت أدفن زوجتي ليلى.. كان في بطنها طفل صغير.. ناداني.. أنا سمعته يناديني.. بابا.. زعيم القرية ركل زوجتي في بطنها. مات ابني. مات. مات.»

تقترب عليا وهي تبكي.. تحضن علي بذراعيها..تناديه. علي ما بك أنا عليا. انظر إليّ. لقد جئتك أعتذر لأني سببت لك كل هذه المتاعب. سامحني على مواعيدي الخائبة. كنت مجبرة. أنا لي اعتذاري أيضاً. سنعوض عيد رأس السنة والفراق الذي امتد بعده.

ـ عيد رأس السنة؟!! أنا لم أدع أحداً. أنا قابع في قبري. لماذا تدخلون عليّ قبري. طردت المدن والنساء. والحياة.. هذه الكلبة جارتي تدعي أنها حامل مني..أنا؟! مت منذ زمن طويل.. كنت أقتل نفسي. أليس الإنسان هو قاتل الإنسان.. أخيراً نجحت وقتلتني.

«علي» أنت اتصلت بي وقلت لي تعالي.. إني متعب. وهاأنا جئت..

«ابتعدي عني يا سلوى.. لماذا تطاردينني بترهاتك.. ابتعدي يا سلوى وإلا ذبحتك..»

تقرفص عليا قرب علي، وتبكي. القهوة جافة على فناجين مكسورة. شعر علي منكوش يحني رأسه إلى الأمام مطرقاً إلى الأرض.. يلفظ بعض الأسماء بين لحظة وأخرى..

جدتي ماتت.. أسمعهم.؟! كان يجب أن تموت منذ زمن كي تريحني من ألقابها. ولكن.. لجدتي ذاكرة في المنزل. العم صالح مات هو الآخر العم صالح ذاكرة مستقبلية. ماتت ليلى. اتركوا جثتها أرجوكم. يا أخي غطونا معاً. يكذبون عليّ ويقولون هي نائمة. إنه البحر الغدّار. هاهو يدخل غرفتي. أكاد أغرق في البحر القادم ساحباً جسده كله من المحيط إلى هنا. إنه يستلقي على صدري. أكاد أختنق ليلى. أرجوك أبعدي سلوى عني. أظافرها تنشب في جسدي.

تبتعد عليا. يهمس سامح.. يجب أن تراعي ظروفه يا عليا.. إنه متعب جداً.

أرجوك لاتزعلي من كلامه.

«أبداً أنا زعلانة من الزمن»

ينقل سامح صديقه علي إلى المستشفى وهو صامت حزين، من الذي يقول الحقيقة. عليّ الآن أم علوش الماقبل..؟! يشعر سامح بدوار شديد. يشد على يد عليا ويخرجان من غرفة الشاعر الكبير.

– ج –

أتحبينه؟!

امرأة ترشف القهوة في غرفة واسعة مليئة بالأصص الفخارية. وحيث السقف يتدلى منه أصيص «شعر البنت»

المرأة تسند وجهها بيديها وتنظر إلى نبتة «اليوغا»

هناك في الزاوية رجل نحيل.. وسيم الوجه. تجاوز الأربعين بقليل. يدخن وينظر إلى المرأة الحنطية الجميلة.

الدخان يتصاعد بهدوء عبر ممرات هوائية يمرّ فوق شعر المرأة ثم يخرج من النافذة التي تعلو رأسها.

ينفتح الباب وتدخل سيدة تجاوزت الخمسين من العمر..

«سيدتي صديقتك على الهاتف»

«قولي لها بأني مشغولة»

«حاضر.»

الرجل يعيد السؤال نفسه «أتحبينه؟!»

المرأة تجيب بعد صمت.. ما هذا يا دكتور.

لم تكن المرأة سوى عليا.

ولم يكن الرجل سوى سامح. ولم تكن الغرفة سوى صالون عليا.

«هذا سؤال ككل الأسئلة. أنا صديقك. وصديق علـــي. إن كنـت تحبينه يجب أن تقفي معه وتسانديه على الزمن.. علاقتكما الآن تتخبـط منذ فترة طويلة..أعتقد أن هذه الفترة كافية لأن يحكـم الإنسـان علـى عواطفه.

لم تضف عليا أية عبارة. صمتت إلى أن انتهى فنجـان قهوتـها سامح احترم صمتها. عندما أنهت عليا فنجانها نهضت وقال لسـامح: «الآن نمشي إلى المستشفى» في غرفة علي جلسا صـامتين. ولكـن عندما دخل سامي الشاب الوسيم ابن الجنرال المعـروف فـي المدينـة اعتدل سامح في جلسته فشعرت به عليا وقرأت بعض ملامح الضيـق على وجهه.

«ذهبت إلى منزلك لم أجدك. وفي الجامعة أخبروني بأنك لم تـأت ولكن ممرضة الدكتور سامح أخبرتني أنك هنا. آسف لتطفلـي. ولكـن كان يجب أن أسأل عنك. قال سامي بكثير من اللباقة.

«لا.لا بأس. بعد قليل نذهب سوية»

عليّ ما يزال نائماً.. سامح يرقب هذا الشاعر المسـتلقي. كأنـه يرقب فترة من عمره.. إنه حزين.. لم يكن علي ضعيفاً أبداً. ما الـذي يجري في المدينة. البارحة سمع أن أستاذاً جامعياً وقـع فـي غيبوبـة النسيان وكل يوم تتكرر هذه الحوادث حتى عليا لم تكن أكثر تماسكاً من علي.. الآن بدأ سامح يفكر.. ربما كانت المياه التي تروي منطقة ما من الساحل هي السبب؟! ربما كانت مياه نهر ما تؤدي إلى فقدان الذاكـرة وإلى تشويش في العواطف وفي إمكانية التأقلم مع الواقـع.. لا بـد أن

الأمر يحتاج إلى دراسة. طفولة علي وطفولة عليا مشتركة بعوامل كثيرة حتى إنهما شربا الماء نفسه.. ربما كان هذا هو السبب؟! لا.. لا يمكن. هناك أمور أعقد من ذلك؟! ما بك يا دكتور..؟! قالت عليا. كان سامح شارداً. ولكن عليا قطعت شروده عندما استأذنت الذهاب. نهض سامي قالت لسامح سأتصل بك مساءً.

لم يقل الدكتور سامح أي شيء. ظلّ صامتاً يرقب الاثنين إلى أن مشت السيارة الفارهة. على امتداد الشارع ثم انعطفت باتجاه معاكس.. في السيارة لم يتحدث سامي إلى عليا.. فتحت هي الراديو.. كانت أخبار فلسطين تحتل النشرة: المعاهدات.. السلام والعدو الإسرائيلي. رش مادة سامة تسبب العقم في مدرسة للفتيات العربيات في الأرض المحتلة» تتدحرج دمعة على خدّ عليا. تمسحها بهدوء. ينظر إليها سامي دون أن يقول شيئاً. السيارة تسير ببطء تشق طرقات المدينة.. المدينة تكبر. المدينة تكتظ بالبيوت المتشابهة لدرجة أنك لا تقدر أن تعرف بيتاً من بيت. كل البيوت ناصعة الألوان. كل البيوت لها أسوار كأسوار المقابر. كل البيوت باهتة إلا بعض البيوت للتجار والجنرالات والمتعهدين . تهبط السيارة إلى كورنيش البحر.. هنا في هذا القسم الجنوبي لم تكن المدينة تعرف المقاهي ولا المطاعم. وهنا.. لم تكن عليا تجرؤ على النزول إلى هذه المنطقة بمفردها يوم كانت في الجامعة. كانت تخاف الحيتان البحرية التي تخرج فجأة وتنقض على الفتيات الصغيرات, تتنهد عليا وهي تمر بحي القصور. تتذكر حوتاً طاردها مرة.. المرأة هي هي. يسحقها الواقع والماضي. وسيظل المستقبل ملاحقاً لها.

ـ مسحت عليا دمعتها.. تسربت إلى أنفها رائحة اليود البحري. السماء الربيعية تشع بالشمس الذهبية. البحر أزرق غامق. تتذكر عليا بكل القهر ذاك المستلقي في غيبوبته. علي الذي تجمعها به أشجار وحور وصفصاف. ونهر. ودوّار. تجمعها به أولياء ومزارات. وزعيم وزوجته الجشعة. أيضاً بينهما قرى صغيرة وقرى منسية ضائعة بين

دخان الحطب وقرامي الزيتون. بين ضوء الكاز «والتمز» والوكف وخم الدجاج.. كأنهما ولدا في بيت واحد.. أحياناً لا تعرف إن كانت تحبه أم متعاطفة معه إنسانياً. أي متعاطفة مع ماضيها. علي هو الماضي الذي عشته يا سامح. ولكن هذا لا يعني أنه الماضي فقط. أريده الحاضر أحياناً وأحياناً.. لا أعرف.»

عندما ألقى علي أستعيد جدتي نعامة وأمي ووالدي والأرض. الأرض التي سرقها برهان أدهم..

قال له: أتبيع الأرض يا أحمد القاضي ؟!

ـ لا. لا أبيع من أين أعيش أنا وأسرتي؟

ـ أعطيك أرض في مكان آخر تزرعها وتأكل ربع موسمها.

ـ لا. الله الغني. هكذا ماشي الحال.

«كانت عليا صغيرة. وكانت أختها الصغرى في القماط». والد عليا يحرث الأرض كي يبذر القمح. الخريف يضفي على المدى روعة وحزناً. دخل برهان أدهم «أين زوجك؟!»

«زوجي في الأرض يا باشا»

«قولي له سآخذ الأرض. بيعاً. هدية . قوة. كما يريد»

«زوجي لا يبيع الأرض. وأنا لا أقبل أن أبيعها.. ألا تشبع من الأراضي؟! لديك الكثير. لماذا هذه الأرض بالذات»

«هكذا.. هذه الأرض في عيني.. لي غاية بها»

«عينك لا تشبع يا زعيم»

التفت برهان أدهم إلى أم هاشم وضع البارودة في رأس الأم وهي تحمل الطفلة الصغيرة لكزها وقال: قولي لزوجك ما أخبرتك به. أو أطردكم من البلاد كلها. لكزها مرة أخرى فسقطت الأم على الأرض وسقطت الطفلة الصغيرة تحت أمّها.

بكى الأطفال. التفت إليهم الزعيم. قال للفتاة الكبرى «ستكونين جميلة يا فتاة» وضع بندقية في بطن الفتاة. لكزها إلى الوراء فسقطت هي الأخرى.

«هذه الفتاة هي عليا»

«هذا الراوي له ذاكرة عجيبة.. من الذي أخبره قصتي.؟!»

«ما عملي أنا إذا.. لست الراوي الذي يطاردك؟!»

«أنت تشبه الزعيم إذاً»

لا وحياة عليا.. أنا لست كذلك.. أنا أبحث عن قصة. أختزل فيها أزمنة.. وجدتك بالمصادفة. إذا أردت أترك الاهتمام بماضيك وأبدأ بالحاضر. أو أترجم لك المستقبل. أي أقرأ لك فنجان المستقبل عند ذلك أصيب وأصير نبياً أو أخطئ وأصير مشعوذاً. أليس كذلك؟ وإذا كان الأمر يزعجك كلياً فإني أذهب لالتقاط قصة امرأة غيرك.. النساء كثيرات. ولكل امرأة قصة كالبيوت.. كالقرى.. هل أتابع؟!

لا.. أنا أتابع.. أنا أريد أن أصير روايتي الخاصة.. سأتحدث إليك. عليك أن تسمعني فقط.. وإن سمعتني إلى النهاية قد أحبك. أجل المرأة تقع في حب الرجل الذي يسمعها.. الآن دعني سأشرب الشاي بالزعتر لأستعيد هدوئي.

أبي يبيع أرضه للزعيم لأنه سيأخذها عنوة. أو سيدبر مكيدة لأبي لأن الزعيم عميل لسلطة خارجية. ما يريده الزعيم هو الحق. لكن أبي ظل على إصراره. يا ناس. الأرض هي كرامتي. أ أبيع كرامتي وشرفي؟!

ذات صباح خريفي. كانت بقرتنا الوحيدة مذبوحة في الزريبة. أقسم الجميع أنهم لم يشاهدوا أحداً. وأن خنزيراً برياً سطا على القرية وذبح بقرتنا. لكن بعد فترة اعترض رجال الزعيم طريق أخي وضربوه

بالفأس على رأسه. كان أخي يافعاً وكان يبذر الحنطة وحده في الحقل..

«يا أم هاشم يبدو أننا سنبيع الأرض»

ماذا تقول..؟!

كما سمعت.. هذه القرية لم تعد تحتاجني. سنشتري غيرها. لا تزعلي. حزنت أمي وبكينا نحن الصغار على بكاء أمي. ولكن والدي ظلّ شامخاً كشجرة حور. في الصباح نزل إلى المدينة. باع أبي الأرض. وكتب العقد مع برهان الأدهم في المحكمة. قبض أبي سعر الأرض كما طلب. شعر بانقباض شديد. كاد أن يقع على بلاط المحكمة. حاول أن يواسي نفسه. غداً أشتري أرضاً وأبني بيتاً جديداً من طين. وحجارة. وتعب كثير. ثم يصير لي بيتاً جديداً. خرج والدي من غرفة العقارات. تلقاه الممشى الذي يطلّ على المساجين. الأبرياء والمظلومين. نظر إليهم أبي بأسىً وهو يمسك بدرابزون الحديد. شعر أنه مسجون مثل هؤلاء كان الممشي طويلاً يلتفّ حول ساحة مربعة. وكان في الطابق العلوي لدار السرايا التي تتوسط المدينة حيث يهبط منها شارع إلى البحر. ويزنرها الشارع المسقوف. وتمتد أمامها ساحة صغيرة تنطلق منها البوسطة إلى القرى والمدن الأخرى. مشى والدي فكر بأن يشتري بعض الحلوى لنا وبعض الدفاتر وأقلام الرصاص.. كان مدركاً لقيمة العلم. خرج والدي إلى شرفة دار السرايا حيث يهبط منها سلّمان حجريان قذران دائماً.

«أريد أن آخذك إلى مكان مريح أراك متعبة»

«ليتك تأخذني إلى المدرج الروماني في جابالا أريد أن أرى مهد طفولتي»

(ليكن.. كما ترغبين يا أستاذتي)

«والآن نحن صديقان فقط..»

«أعرف. ولكن أريد أن تبتسمي. إني حزين لأنك صامتة أبداً»

«أني أتكلم.. ألم تسمعني؟!»

السيارة تشطر المدينة إلى غربية وشرقية.. هاهو جامع السلطان إبراهيم. وتلك هي الحديقة التي أقيمت في مقبرة.. هاهي المقبرة الغريبة التي حدثني عنها علي.. هاهي القلعة كما يسمونها في المدينة «أي المدرج الروماني» فوق القلعة اختار الحاكم الفرنسي سكنه. جهّز حمامات وغرفاً وشرفات فوق المدرج.. الحاكم الفرنسي يسكن فوق كومة من الأزمنة. كومة من الحضارات والجثث والأوابد.. لم يكترث بكل ذلك «ولماذا يكترث أهي بلدته؟!» هناك على جنوب السرايا..

«على مهلك يا سامي لا تسرع» قالت عليا بصوت حزين يبطئ سامي.. إنه لا يعترض أبداً على رغبات عليا.. إنه تلميذها.. مهما ادعى أنه النّد لها الآن في هذا المشوار إلا أنه في داخله يشعر بعكس ما يدعيه. بهدوء سارت السيارة مواجهة لدار الحكومة القديم. «هاهما الدرجان الحجريان ما يزالان على قذارتهما» رأت عليا والدها ينزل السلم.. والدها الذي مات منذ سنوات.. هاهو يرتدي «شملته» الصوفية ويهبط كما هبط السلالم من قبل.. كم من الأقدام داست هذه الدرجات الحجرية. كم من البشر صعدوا وهبطوا إلى هذه الشرفة. ظالمون ومظلومون. مقهورات وقاهرات.. كما مرّ على هذا السور من المساجين. هنا.

وراء هذا الجدار الحجري القذر. تشهق عليا. سامي لا يجرؤ أن يحرك ساكناً.

تمنى أن يأخذ يدها بيده. أو أن يقول لها اسندي رأسك على صدري كي ترتاحي. عليا ترى والدها الآن ورجال برهان أدهم يضربونه: هات ثمن الأرض يا كلب يتمسك الرجل بمال أرضه، يضربونه. يصرخ رافضاً.؟! من يسمع الغريب في مدينة مغلفة؟ رجال يصعدون وآخرون ينزلون. ورجال برهان الذين يحركهم كفزاعات

يدحرجون الرجل الذي تجاوز الستين عاماً.. يخلصونه المال بينما يستمر الرجل في تدحرجه على السلالم الحجرية إلى أن يصل الساحة. يمرّ أهل المدينة أمامه فلا يجرؤون أن يحركوا ساكناً. أبو هاشم يحاول النهوض فلا يقدر. يقترب منه عجوز يحاول مساعدته. ولكن فزاعات برهان الأدهم.. تركل العجوز وتقول له: اتركه.. لماذا تغضب روحك لأجله.. أتعرفه؟!

ــ لا أبداً لا أعرفه. ولكن أراه مظلوماً والله ورسوله لا يحب الظلم.

ــ اتركه يا عم.. إنه كافر. لقد شتم الرسول.

ــ شتم الرسول.؟! الله يحاسبه يا والدي. اتركوه وشأنه.

أبو هاشم لا يحرك ساكناً. لا يقرّ ولا ينفي. كان مأخوذاً بالظلم الذي وقع عليه.

إنه غير قادر على الكلام أبداً.

تنتفض عليا وهي داخل السيارة. لا أبي لم يشتم الرسول. لا. أبي كان مؤمناً بالله. أيها الكلاب. يندهش سامي. ما الذي يسمعه.. يراها تتمتم وتحرك يدها.

«آنستي ما بك؟»

«آ..»

«أراك متوترة»

«لاشيء لا شيء عذراً يا سامي. إني تذكرت شيئاً ضيعته هنا.»

تغطي وجهها بيديها وتبكي بصمت تشعر بالقهر يتجدد من عليّ.. تتمنى أن تبقى الليل إلى جانبه. ولكن لا تقدر. ذكريات والدها جعلتها قريبة من عليّ الذي يعاني انهياراً حاداً.

«أتقبلين دعوتي يا آنسة؟»

«شكراً أنا متعبة يا سامي.

«أشعر أنك تعاملينني بحذر.

«لا أبداً. إني أحترمك.. وأثق بك. لكنني فعلاً متعبة ولا أريد أن أنزع مساءك، أريد أن أنزل أمام الحديقة. ثم أكمل أنا الطريق

كانت عليا تسكن وحدها في لاوديسيا بعد أن عادت من أوربا. وكان أخوتها بحكم عملهم بعيدون عنها. أما أمها فرفضت أن تترك بيتها القديم. ودّعها سامي عند باب الحديقة. كانت الشمس تهبط بهدوء إلى البحر. وكانت أسراب الناس ممسكة بأطفالها. وكان الربيع دافئاً. شعرت أنها الوحيدة جداً وحزينة جداً. لم ترغب بالعودة إلى المنزل حيث الوحدة والفراغ.. أتذهب إلى علي؟! لا.لا.إنها مضطربة ولا تعرف أي قرار ستأخذ. مشت في الحديقة. رأت من بعيد رجلاً عجوزا.. يشبه والدها ولكنه أكبر منه سناً. «خففي عنك يا عليا» وقفت.. أشارت بيدها.«كيف؟! يا أبي» لقد رأيتك اليوم. يدحرجونك أمام السرايا القديمة. رأيتهم يجبرونك على بيع أرضنا بعد أن خرجت من السرايا منذ ذلك الحين ونحن بلا أرض تسكننا بالحنين.. حملتنا يا أبي إلى المدينة استأجرت لنا بيتاً متواضعاً.. أمي بكت على القرية.. بكت بحرقة على جاراتها . ونحن أيضاً بكينا.. لأن المدينة لم يستقبلها ولأن القرية لم تحتوينا. لماذا يا أبي. إنني حتى هذه اللحظة مهزومة.

ضحك شاب مراهق وهو يرى امرأة تجاوزت الثلاثين تكلم نفسها وتشير بيدها

«علي لا يصدق يا سامح»

علي الذي يرقد في المستشفى يظن بأني سبب غيبوبته. أنا؟! أنا لا أستطيع الذهاب إليه كلما أراد. كنت أرغب في ذلك. ولكن لا أجرؤ.

وجه أمي يطاردني يدخل عليّ غرفة المحاضرات. تبصق في وجهي.. وتقول لي «يا ضيعان التربية.» لا أقدر ما زلت غير قادرة على نزع ورقة التوت وأن أسبح في البحر. ولا أقدر أن أحرق عمامة أبي ولا دموعه. أشعر أني أختنق.. أبي ركلوه في المدينة لأنه أراد أن يقتل الذئب الذي طارد أخوتي في الذهاب والإياب.

ماتزال الذئاب حتى الآن تختبئ في ثياب البشر. أليس كذلك.

عليا تتابع المسير في الحديقة. تنتبه إليها امرأة مع أطفالها. تأخذ عليا مقعداً ترتاح عليه. تطلب المرأة أن تجلس أيضاً على المقعد.. ولكن عليا تعتذر بحجة أن المقعد محجوز لرجل واقف يحدثها.

«ألا ترينه؟!»

«من؟»

«أبي.. المقعد محجوز»

تتلفت المرأة حولها. مذهولة تنظر إلى وجه امرأة شابة جميلة. يصفّر وجهها إذ لا ترى أحداً يقف قريباً أو بعيداً منهما. تركت عليا المقعد واتجهت إلى الشارع الخلفي للحديقة. انعطفت يميناً. صعدت درج عمارة بيضاء. دخلت ممر الطابق الخامس.. أخرجت من حقيبتها سلسلة مفاتيح فضية كان عليّ قد قدمها هدية لها. حاولت أن تفتح الباب فلم تقدر خرج شاب من الشقة «ماذا تريدين سيدتي؟» عادت إلى الوراء خطوة. نظرت إلى الشاب ولم تقل شيئاً. عاد الرجل فكرر السؤال لكنها استدارت إلى الوراء وهبطت الدرج مسرعة. عند أسفل البناية وقفت تنظر «كل البيوت في الأحياء الشعبية مثل بعضها. يبدو أني أخطأت» دخلت مبنى آخر ولكنها لم تستطع أن تهتدي إلى المنزل. «يبدو أني ضيّعت الجهات في هذه المدينة البحرية» أنا أعرف أنني إذا اتجهت إلى الغرب أصل إلى البحر. وإلى الشمال أصل إلى مملكتي. وإذا مشيت باتجاه الجنوب أصل إلى جابالا.. إلى سوكاس.. إلى مملكة أخرى. وقد أخرج منها إلى نهر عذب ثم أمشي إلى حربة الفارس المزروعة في

قلب الموج منذ ألف سنة وأكثر.

مشت كثيراً في المدينة. كانت المدينة قد أشعلت مصابيحها.. فكرت أن تتصل بسامي..ولكنه يظل في مقام التلميذ مع أنها تستلطفه. عدلت عن الفكرة. ودخلت أحد المقاهي الصغيرة أسعدها أن المدينة مليئة بالمقاهي.. يبدو أن المدينة أخيراً ستتحول إلى مقهى كبير.

«قهوة سادة من فضلك»

كانت منهمكة بالقهوة عندما رأت والدها يدخل أولاً ثم رأت علي يتبعه وكل منهما يعصب رأسه.. ما الذي يجمع الميت مع الحي؟ لماذا جئتما. أنا بخير» ندهت للنادل بأن يجلب لها فنجانين آخرين من القهوة. استغرب النادل لماذا تطلب هذه المرأة الوحيدة ثلاثة فناجين من القهوة. «نحن مشتركان في الإثم.. أنا ووالدك» ماذا تقول يا علي؟! أتعرف والدي؟! ـ أجل أقول لك نحن مشتركان بالإثم. إثمنا أننا خرجنا من الطيون والوكف والكتب. تصوري أن قبر جدي كان فارغاً من الأولياء.. سنوات طويلة يضحكون عليّ ويقولون لي جدّك شهاب مولانا وسيدنا. أنا رأيت قبر جدي فارغاً إلا من أفعى. طلبوا مني أن أشعل له البخور مراراً ولكن.؟! والدك ذنبه الكبير أن ابنته أستاذة خرجت من الفقر إلى الكتب البيضاء إلى عالم أكثر رحابة من إطار البيوت.

«ما الذي يجمع الميت مع الحي؟! هل أنت الآن في عالم الأحياء؟! نحن نتحرك فقط كالروبوت.» تجهم وجه علياء أخذت تنظر إلى الفناجين الثلاثة بخوف.

«الحساب من فضلك» قالت للنادل الذي اقترب منها بود. وعندما أعطته الحساب سألته. هل أنت حي أم ميت؟ لم يرد النادل. خرجت وهي مستاءة المارة ينظرون إليها لماذا؟ هل شعرها منفوش.؟ هل حمرتها سيئة.؟ لم يكن هذا ولا ذاك. انتبهت على أنها تمشي بلا هدف وتشير بيدها أحياناً. إذاً أنا وحدي؟! شعرت أنها متعبة لدرجة السقوط

على الرصيف غامت عيناها. ما الذي يجري حولها؟ منذ أن عادت من أوربا وهي تقع في دوامات الكآبة والحيرة. يبدو أن صديقتي سعاد معها حق ــ نحن يا عليا لسنا أحراراً من الداخل لذلك نعاني من الانشطار اللعين ــ لو أن ماندل المحترم أوجد طريقة وراثية يتم فيها تهجين الفرح. بالنسيان ربما يخلق على الأرض جيلٌ متفائل دائماً لا يعرف معنى الدمع أمام الكوارث. لاح لها وجه عليّ لم يعرفها. قالت له أنا عليا. تلمست أصابعه. لم يقل شيئاً. ظل صامتاً المدينة تشعل مصابيحها بجرأة.. آذار يعلن أعياده. أمام المركز الثقافي الذي يعترض الشارع لافتة كبيرة «عيد آذار عيد الفلاحين والطبقة العاملة» الآنسة قالت لها أنت أخذت صفراً في الوظيفة الرسمية المنزلية. بكت بشدة لماذا يا آنسة غادة؟! لماذا آخذ صفراً في الوظيفة المنزلية التي أنقلها عن الكتاب المدرسي؟ بينما آخذ العلامة الكاملة في الامتحان؟ ــ لا أعرف يا عليا. اسألي نفسك ــ توسلت إلي الآنسة أن تريها الورقة لكن دون جدوى. ذهبت إلى المديرة وشكت إليها الأمر. المديرة ظلت صامته. لم تجد تفسير السكوت المديرة. المديرة كانت قلعة وهي كانت مثل كوخ تهزه العاصفة. كل المدرسة صامته وهي تبكي. كانت طفلة «أبوها فلاح» على باب المركز الثقافي «عيد الثامن من آذار عيد الطبقة العاملة. عيد الفلاحين. الأرض لمن يعمل بها. والـ يا.. آنسة.. عليا أبوها فلاح. ماذا يعني والدي فلاح؟! هو فعلاً يفلح الأرض. يحرثها.. يزرعها ويبيع محصولها في المدينة» علي قال لها نحن يا عليا متشاركان بالإثم نفسه. إثم واحد يتكرر منذ أبينا آدم حتى الآن. ذنبنا أننا خرجنا من أثلام الأرض. ذنبك أنك أستاذة في الجامعة وفي الشارع أنت أَمَةٌ يركلونك ويعيرونك بثوب الأنثى. ألم تأخذي حقوقك؟! هذه هي المساواة.. أن يركلوك في الباص وفي العمل.. لا يشعرون بالأنثى الأم. الأخت. إلا عندما يريدون منها الأنثى.. الجسد.

«أي مساواة هي التي تتكلم عنها يا علي؟»

أنا الآن مطلوب مني أن أعزز دوري كامرأة. وأن أرسّخ أنوثتي أكثر واختلافي أكثر. لأكون أنا. أنا أكثر. «آنسة. أبوها فلاح». أجل أنا مشتركة مع علي في الإثم نفسه. في الجريمة ذاتها. كثيرون مثلنا يشتركون معنا في الجريمة التي لا كفّارة لها. جريمة الفقر. والفقر جريمة لا تغتفر إلا بالتوبة عند طلب المساواة الإنسانية والتوبة عن النظر إلى الأعلى.. يبدو أن علينا أن ندلق رؤوسنا إلى الأسفل دائماً كأشجار مقطوعة من منتصفها. هواء المساء الربيعي يحرك الأوراق في الشارع. عليا تجتاز سينما الكندي وتتجه إلى الشمال. عليّ الصلمت على سريره الأبيض أبداً في عينيها. هي تسير ووالدها ما يزال على درج السرايا. رجال كثيرون حوله. ينظرون إليه. وآخرون يصفعونه. «هات المال يا كلب».. الشارع المتجه إلى الشمال يفيض برائحة الأوراق الخضراء التي لعب بها الهواء. أشجار تقف على طرفي الرصيف. هذا الهواء الأخضر يثقل على صدرها. هواء قادم من جبل كاسيوس الذي يقف منتصباً. علي قال لها: أنا لي منزل في أعلى الجبل.. ضحكا معاً قالت له هذا موطن الإله بعل ــ لا هذا موطن الإله هداد.. ــ كلهم مثل بعضهم ــ الشوارع تميد شمالاً. والشمال هذا المساء صاخب الحزن لا تعرف لماذا. مرة قال لأمها: «كلما اتجهت شمالاً أشعر بالحزن وأريد البكاء» لفحها هواء البحر القريب الممزوج بالملوحة والماء. تغلِقُ أزرار جاكيتتها الجلدية السوداء. الليل يغمر البيوت. والمصابيح تغسل عتمة الشارع. إلى أين تسيرين يا عليا..؟! تسمع صوت والدها وهو ملقىً على الرصيف. ــ لا أعرف يا أبي. على بعد أمتار لوحة كبيرة مضاءة بالنيون. «كافتيريا الوردة الزرقاء» فكرت بالدخول لتطلب سامح أو سامي هاتفياً. إنها شعرت بالضياع. الجهات تظهر وتغيب. الشوارع المشرّقة تنقطع فجأة بشارع مهزوم إلى البحر. نقاط التقاطع هذه صعب اجتيازها. على المرء أن يكون حازماً في هذه النقاط. في المقهى تستريح على طاولة أمام زجاج النافذة. أريد شاياً.. ترشف الشاي الساخن. تنظر إلى ساعتها. تشهق.. كادت أن

تصرخ «أين أنا؟» تستعيد بعض هدوئها.. المقهى مليء بالعاطلين عن العمل الذين يسهرون ليلاً وينامون نهاراً. هؤلاء المتطفلون على الحياة لا يشبعون من السهر. هي نفس الوجوه التي تراها في كل المقاهي. وجوه مترهلة.. حمراء من كثرة الشراب. عيونها جاحظة.

ترقب الوجوه باشمئزاز.. تشعر أن هؤلاء المحيطين بها أقزام مع ذلك هي تخافهم وتكرههم. «أعتقد أن بعضهم سماسرة، وبعضهم تجار جدد. هؤلاء تتزايد أعدادهم باستمرار. لدرجة أن المدينة قد تتحول كلها إلى مقاهٍ ومطاعم وفنادق من الدرجة الخامسة» ترشف عليا الشاي وتتأمل الشارع من وراء الزجاج. شجرة أكاسيا مزهرة. ووجوه مسرعة تذوب في العتمة أو بين الواجهات. يتعلق نظر عليا برجل يعبرها.. ارتجفت أصابعها وهي ترفع الفنجان إلى شفتيها. هذا الرجل أعرفه. لفحتها حرائق الدخان التي تتكون في المقهى.. تتابع الرجل الذي وقف ينظر إلى واجهة مقابلة. يدها ترتعش. جسدها كله. أعرف هذا الرجل. هذا الرجل هو «عبد الله محمد» رغبت بمناداته. خرجت من الكافتيريا. ناداها النادل. «أين الحساب» لم ترد عليه وقفت وراء الرجل تتأمله. نظر إليها مستغرباً ثم تابع مسيره كان يمشي بطيئاً. لقد تجاوز سنّ الشباب بكثير. مشت عليا وراءه. المصابيح تلقي بنورها المتعجرف على الأرصفة. الرجل يقف أمام واجهة أخرى. إنه هو. هو زوجي. أجل هو. طفرت دمعة من عينيها. مسحتها بسرعة كي لا تراها أشجار الشارع. أسرعت تقترب من الرجل. يدها تربت على كتفه وتسأله: «كيف حالك» صوتها لم يخرج من حلقها. تتابع السير وراءه في ليل مظلم ومدينة لا تقبل تسكع امرأة في العتمة. فالمرأة الوحيدة في الليل عاهرة. فجأة التفت الرجل إليها بغضبٍ وقال: ماذا تريدين يا آنسة؟!

«هو.. أجل. صوته نفسه. زوّجها والدها وهي ما تزال يافعة. كان اسمها ماري. ما تزال تتذكر. كان يأخذها معه إلى الحقل لحصاد القمح. وتجمع حطب الغابة المجاورة لقرية فقيرة مرمية في حضن الجبال

الساحلية. ولدت له بنتاً. أسمتها «هدى»

ـ لا بد أن هدى الآن أكبر مني سناً وسأعرفها عندما أراها.. لها خالٌ على ظهرها. في الجهة اليمنى..»

أرادت عليا أن تصرخ. وتقول هذا الرجل قتلني. لقد ضربني بالعصا على رأسي. فأغمي عليّ.. أتذكر كلامكم «قالوا ماتت» سكبوا عليّ الماء البارد. فتحت عيني.. لا. لم أمت دفعة واحدة. لقد متّ على دفعات. كان قاسياً وجلفاً والمرأة لا تحب الرجل القاسي أبداً. عليا تمشي والرجل يمشي وذاكرة جديدة تتفتح من أروقة العتمة.

عليا= ماري.. عليا تبكي ماري بحرقة. «مرة قال عبد الله أريد أن أشرب.. حملت له الماء وقدمته بكل أدب. أخذ «الطاسة» وسكبها في وجهي. صرخ بي هاتي ماء أكثر. عدت أحمل طاسة أخرى مملوءة بالماء. وقدمتها وعيناي مملوءتان بالدمع الصامت. نظر إليّ وقال ما بك؟! قلت لاشيء قال: لا أشرب وأنت تبكين.

«أنا لا أبكي»

«خذي إذن. دلق الماء ثانية في صدري. «هاتي ماء يا امرأة. بسرعة. عدت بالماء للمرة الثالثة فشربه وما بقي في الطاسة دلقة في وجهي. ضحكت الجارات وانفرجت أسارير عبد الله. الآن هو رجل ويشعر بعظمته. نظر حوله مبتسماً وقال هكذا أربيّها على طريقتي ولست كغيري. تحسس بعض الشبان وتركوا المكان فقلت لأبي «خضر.. سأترك عبد الله يا أبي. لا يمكنني العيش معه» نهرني أبي وقال: والله أذبحك يا ماري. الرجل ستر المرأة. نحن آل خضر لا يوجد عندنا بنات يتركن أزواجهن. لكني تركته وهربت.. لبست ثياب امرأة عجوز ورحت أهرب من قرية إلى قرية. لكني مرضت بالحصبة.. ارتفعت حرارتي فعدت إلى أهلي. حملوا إليّ ابنتي الصغيرة. إني أسمع صراخها. أسمعها الآن. وهاهو يمشي أمامي والحمى تلدغني. هاهو المنزل. منزل كبير مليء بالنساء والرجال والأحفاد. اخوة جدات.

كنّات. وحيوانات كثيرة تملأ الزريبة. في الركن الآخر مكان الخطيب الذي يعلم الأطفال دروس القرآن. ثوبي الصيفي هو نفس ثوبي الشتوي. عندما تمزّق عليٍ كتفي لم أقل لأحد. أمه رأتني ألبس «جاكيت» صوف فوق ثيابي صيفاً

«لماذا ترتدين هذه الجاكيت يا ماري؟» بردانة أنت.

لم أرد.. كررت السؤال ثانية. ما بك يا بنتي. أعرف أن عبد الله صعب عليك ولكن طيب القلب ويحبك.

«أعرف.»

«اخلعي هذه الجاكيت. أنت صغيرة وجميلة. يجب أن تعتني بنفسك أكثر.

سحبت والدة عبد الله الجاكيت فاضطررت لخلعها. عند ذلك ظهر كتفي عارياً. ضربت أمه صدرها بحزن.. يا ويلك يا أم عبد الله ــ ثوبك مشقوق ولا تقولين؟! والله أنت أصيلة»

لمن أقول؟! أشعر أن النار تأكل جسدي. الحمى ترقد في مفاصلي.. الطفلة هدى تبكي. يأخذونها بعيداً. يدور المنزل بي. أطلب أبي. أريد أبي خضر لأراه. صوت الطفلة يشق روحي أكثر من شقوق الثوب الظاهري لكن لا أقدر على نداداتها.. أسمعهم يتهامسون.. أدرك أني في وداعي الأخير. أنظر إلى الوجوه ثم أغمض عيني. أريد أن أتشبع بالوجوه. أنظر إلى عبد الله.. لأول مرة أشعر بالإشفاق عليه. يقترب مني. تلوح دمعة في عينيه.. يمسك بيدي ويقول لأول مرة «أحبك يا ماري لا أقدر على العيش دونك» إذن سأموت.. تذوب نهدة بين شفتي. يقتحم هذياني وجوه أهلي.. أريد أبي. عندما حضر أبي وجلس أهل المنزل صامتين. لاح لي وجه زوجي باكياً.. ثم ارتفع نحيبه. «لا تبك كي لا تحرقها» أعتقد أني سمعت مثل هذه العبارة. نظرت إلى أبي. أشرت إليه أن يقترب. أبي العجوز يعارك حزناً.. يعارك صرخة. إني أحس به. يده تمسح على جبيني الملتهب. ورفعت

يدي في الهواء.. كنت أرتدي خاتمين. هما كل ثروتي. خاتم فيه فيروزة زرقاء. وخاتم الزواج.. أبي .. ناديته بصوت هامس خائر القوى. انفرطت دمعة من عيني رحت أخفيها.. عند ذلك لم يستطيع أبي أن يكتم لوعته. أشرتُ لأبي أن يأخذ الخاتمين. سحبهما من أصابعي. أعطِ الخاتمين لعبد الله يا أبي. إنها له. بكى عبد الله. وسمعت صوت طفلتي الصغيرة تلفظ حروفها الجارحة «ماما..ماما» كانت الحربة تدخل في صدري كلما سمعت صوتها. غمامة كبيرة في سقف المنزل. وهناك طائر كبير أسود يرفرف بجناحيه فوقي. منقاره طويل. يريد أن ينقر عيني. أغمض عيني. صوت أبي يظل عالقاً.. ماري.. ابنتي ولكني لم أستطع الرد.. كنت أسمع نحيبهُ وكنت أنتحب. لا أراهم ولا يرونني. شعرت بسخونة دموع وجهي. وبذقن رجلٍ «تشوكني» يبدو أنها النهاية.

الطائر يجثم على صدري وينقر عيني.. لم أعد قادراً على أن أفتح عيني. أسمعهم يقولون غطوا وجهها..

— د —

امرأة تسير وراء رجل عجوز «لن يصدقك أحد»

ما الذي تقوله فتاة شابة؟! أتدعين أنك تتقمصين امرأة أخرى؟!

«أنا لا أدعي.. بل هي الحقيقة»

الرجل يسرع. وعليا تسرع. رجل طويل أمامها. وما يزال يحتفظ بهيبته القوية. هو يمشي وهي تركض. انعطفت باتجاه ساحة الشيخ ضاهر. تابعت وراءه. انزلق بين السيارات. الزحمة تعيقها. سيارات جديدة تملأ المدينة.. راقبته وهو يتجه إلى كراج بلدته.. ركضت بين

السيارات. اصطدمت برجل.. الرجل يبتعد.. خافت أن يضيع منها. نادت بأعلى صوتها «عبد الله.. عبد الله محمد» التفت الرجل.. امرأة شابة جميلة ترتدي ثياباً أنيقة تناديه. إنه لا يعرف امرأة بهذه المواصفات. تابع سيره. لعلها أخطأت. ركضت عليا إليه. أمسكت بقميصه.. نظر إليها مندهشاً.. هذا أنت؟!! ألم تكوني ورائي عند دار السينما؟!!

«أجل. وتابعت كل هذه المسافة وراءك»

«ماذا تريدين؟!»

«لا أريد شيئاً. أريد أن أسألك عن هدى؟».

«هدى بخير أأنت صديقتها؟»

قد أكون صديقتها.. كانت طفلة يوم متّ. ويوم ولدت لم يكن فارق السن بيني وبينها كبيراً. أجل يمكن أن تكون صديقتي»

«ولكن من أنت»

«كيف حالك يا عبد الله؟!

لم تترك له مجالاً للجواب. أمطرته بأسئلة كثيرة. كيف حال القرية. وأمك كيف حالها. هل مازالت أشجار اللوز التي أمام المنزل سابقاً؟! ثم أخذت عليا بالبكاء. «لماذا تبكين يا ابنتي.. هل أنت من قريتنا؟! ابنة من تكونين..؟!» في الحقيقة أمي ماتت.

«أم عبد الله ماتت؟! يالها من امرأة طيبة.»

«أتعرفين أمي؟»

«أجل. أعرفها.. وأعرف كل شبر في المنزل. وأعرف الجاكيت الصوفية التي كانت تلبسها ماري. وأعرف آغا قريتكم اللعين.. لكن قل لي كيف حال هدى؟!»

أتقصدين الصغيرة أم الكبيرة؟!

ماذا يعني بالكبيرة والصغيرة؟! تابع الرجل. هدى الأولى.. ابنتي ماتت. ولكن عندما رزقت بابنة أخرى سميتها هدى إكراماً لزوجتي الأولى. هي صبية الآن وهي متزوجة تعمل معلمة!

ــ إذن ماتت هدى. ابنتي هدى ماتت.. تبعتني. هدى التي على ظهرها شامة ماتت؟!

«ولكن أنت من يا بنتي»

أنا الآن ابنته.. أجل أنا ابنته.. لي ذاكرة ماري ولكن جسدي هو جسد امرأة أخرى وروحي روح امرأة أخرى.

اعذريني يا بنتي فأنا لم أعرفك.

«أجل. لن تعرفني. أكثر من ثلاثين سنة مرّت. فكيف تعرفني؟ انهارت عليا على الرصيف ركض عبد الله باتجاه دكان مفتوح. حمل إبريق ماء وسكبه عليها. هاهو يعيد ذاكرته الأولى. اجتمع بعض المارة. همس أحدهم: ماذا فعل الرجل بهذه المرأة؟ أقسم عبد الله بأنه لم يفعل شيئاً. وهو لا يعرف هذه الصبية كانت تسأله عن ابنته. حزنت فجأة وأغمي عليها. ابتلت ثياب عليا بالماء. نهضت وكأنها استيقظت متأخرة. نظرت حولها مذهولة لا تدري ما تقول. لماذا تستعيد ذاكرتها الآن؟!

للإنسان عدة ذاكرات.. كل واحدة فوق الأخرى. وقد تختلط التعاريج فتضيع الأزمنة والأمكنة. إنها مصابة بلعنة الأجداد.. منذ عودتها إلى هذه البلدة وهي تعارك هذه الأشياء الماورائية. الماضي الذي يحضر فجأة يكاد يصير الحاضر في مدينة يمتزج فيها الماضي والحاضر والمستقبل بحيث يصعب الفصل الأكيد. الخيمة والقصرُ. الجمل والسيارة. الهودج والتلفون الخلوي.. أرقى درجات الفسق وجماعة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.. رجال يحجّون ومن هناك يسافرون إلى ممثلات هوليود. ما هذه المدينة العربية التي لا

فاصل بين أزمنتها ولا بين أشخاصها.. كل واحد يتقمص العشرات.. وكل قميص عاش في عصر.. ينظر الرجل إلى عليا الباهتة. الحزينة.

«هل أنت بخير يا ابنتي؟!»

«أجل. أجل يا سيدي.»

«سلامتك.. ولكن ما الذي جرى؟»

«لا شيء.. أحياناً أصاب بغيبوبة.»

«ولكن أرجوك قولي من أنتِ»

«أنا؟!! أنا لا تعرفني يا عم»

«طيب قولي ابنة من وأنا سأعرفك»

ماذا أقول له؟. لا. لن أقول. نهضت عن الكرسي الذي قدّمه لي صاحب الدكان ولكن عبد الله ما يزال يصر على معرفتي. ماذا أقول له. لن يصدقني أحد.أ أقول له أنا ماري؟! ماري التي ضربها مرات عديدة. والتي سكب الماء البارد على جسدها في عزّ الشتاء «أم تقول له إنها أم طفلته التي ماتت.. لماذا عليها أن تعيد نبش الماضي.. نبش الغد..؟ لنسر الأمور كما هو مخطط لها»

غابت عليا في العتمة. أخذت تبتعد عن العيون المندهشة المتسائلة. ناداها أحد المارة «آنسة عليا؟!!» لم ترد. لا تريد أن يعرفها أحد الآن. كان ضرورياً أن يسكبوا عليها الماء كي تفيق من اللعنة التي تطاردها.. تشعر بالبرد.. إنه برد الماضي الذي أعاد إليها توازنها. كادت أن تقول لعبد الله. أنا زوجتك ماري التي ماتت بالحصبة. ولكن لا.. ليس ضرورياً أن تقول له. هدى التي كانت صلة الوصل بين زمن مضى وزمن حاضر ماتت. لا. لن يصدقها أحد. مرة قالت لأخوتها أنا لست عليا. أنا ماري ابنة خضر ضحكوا عليها. ويوم نادت والدها خضر الذي مرّ صدفة أمام قريتها وهو عجوز يركب فرسه. قالوا لها عيب

الإنسان لا يكون له سوى أب واحد. الآن هي بلا أب. لقد مات والدها أحمد القاضي. إنها تراه الآن يتدحرج على سلم السرايا. كانت صغيرة جداً وكان الأب يعيد هذه الحكاية الجارحة في لحظات الحزن.

صوت الشاب ينادي مرة أخرى «آنسة عليا. أنا تلميذك.. هل أوصلك؟!

«لا.. شكراً سآخذ تكسي..»

عندما رن الهاتف كان الدكتور سامح هو الذي يتصل. كانت تلهث وهي تقول «ألو»

ـ عليا.. ما بك.. كأنك تركضين.

ـ أجل. كنت أركض.. منذ أن غادرتك وأنا أركض يا صديقي. الآن وصلت إلى المنزل ولم أخلع حذائي بعد. ركضت طويلاً في شوارع المدينة المتشابهة القذرة. لماذا كنت أركض؟!» ركضت لأن امرأة راحت تتبعني امرأة كنت أعرفها منذ خمسين عاماً. يضحك سامح.. وهل تجاوزت الخمسين؟! أجل يا سامح.. أنا أكبر من ذلك.. بل قل مئة سنة. ألف سنة. هذه المرأة تسكنني وجسدي هذا قميص خارجي. تبدله الأزمنة عندما يتمزق.

«أنت متعبة»

«كنت متعبة. الآن ارتحت بعد أن علمت أن هذه المرأة كان لها ابنة تدعى هدى. وكانت هذه الفتاة صلة الوصل بين مرحلة ماضية وأخرى حاضرة. هذه الفتاة ماتت.. صلة الوصل هذه لم تعد موجودة. هكذا عندما تفتقد هذه الصلات بين الحاضر والماضي نرتاح.. على الأقل نعرف إلى أي زمن ننتمي.

«عليا ماذا تقولين»

«كما تسمع. هذه الـ هدى التي ماتت قد تكون موجودة الآن بيننا باسم مريم. أو سلوى. أو تكون هي جارة علي أو هي امرأة أخرى.. يتبدل الاسم ويتبدل القميص.. الجسد طلاء لروح لا تفنى صدقني. لقد رأيت عبد الله زوجي السابق. في زمن سابق. ناديته. وأخبرني أن ابنتي ماتت؟! «لن أناقشك الآن. ولكن سنتحدث عندما نلتقي. هل آتي إليك الآن؟!

«لا.. شكراً أنا أريد أن أنام. كيف حال علي؟»

«علي تركته نائماً.. أعتقد أنه سيتحسن بعد أيام.. زارته جارته ولكن عندما رآها شتمها وقال من هذه البومة. إنها تريد أن تغرز مخالبها في وجهي.. لا تقلقني.. سأزورك غداً.. إلى اللقاء..»

«إلى اللقاء»

الشاي الساخن على الطاولة. عليا في سريرها.. تسترجع النهار كله.. أحياناً تشعر بالغضب من علي.. وأحياناً تشفق عليه.. لماذا تصر هذه الجارة على زيارته؟! هل حقاً لم يتورط معها؟!! تشعر بانكسار. ولكن لا تظهر ذلك.. سقف إلى جانب عليّ حتى النهاية. ولكن لا تقدر أن تنسى أنه ربما خانها مع امرأة عابرة. ترشف عليا الشاي. مفاصلها ترتعش. كأنها كانت في معركة. الهدوء موجع أحياناً. تشعر بشوق إلى صديقتها سعاد.. غداً سأكتب لها. يلوح وجه سامي. تمتد يدها لتتصل به ولكنها تتراجع قبل أن تكمل الرقم.

الأيام التي تمرّ رتيبة لا تؤرخ لشيء مضى ولا لشيء يأتي.. كأن المرء يقتطع جزءاً من عمره ويرميه في سلة المهملات.

«أيها الراوي. لماذا تتكلم عني؟ ألم نتفق أن تسمعني؟!

«أنتِ صمتِّ.. كان علي أن أتابع كي لا يسبقني الزمن.. زمن

السرعة. والإيدز والسقوط والسلام. أجل. الحروب تدمر الأرض. والسلام هو الشعار.. هو قميص عثمان.

«أنا كنت متعبة. لهذا سكتّ.. كان عليك أن تسألني رأيي..»

«لماذا أسألك..!!»

«نوع من احترام رأي الآخر»

«أتصدقين ما تقوله الجرائد..؟! أتصدقين ما يقولونه في الخطب والاجتماعات. أي آخر. آخر ماذا؟! آخر من.. هو صوت واحد.. واحد لا أكثر.

سأخبرك شيئاً.. غداً سيحتفل سامح بعيد ميلاد علي. إنها نكتة. بأي عيد سيحتفل؟! ما قبل بعل؟! أم ما بعد حدد؟! سامح سيطلب إليك أن تهتمي بعلي أكثر.

«عليا.. ظلت تنظر إلى المرأة.. ما وراء المرأة يقف الراوي. أخذت حبة مهدّئ وضعت لنفسها كأس شاي اتصل بها سامي «قلقت عليك.. منذ أيام لم أسمع صوتك.. هل تسمحين أن أشرب عندك قهوة؟

«حسناً ولكن..»

سادت فترة صمت.. كيف تسمح لسامي بأن يدخل منزلها الجديد أمام جيران جدد. ماذا سيقول الجيران؟

هزت رأسها «ليشربوا البحر.. قد يصفونها بأسوأ وصفٍ. سيقولون هذه امرأة سيئة السمعة.. وسيقولون. ولكن أمي قالت. المرأة الحرّة تدخل طابور العسكر وتخرج منه حرّة لا يمسّها أحد.. أحياناً أخالفك الرأي يا أمي. لأن هناك عسكراً وهناك حرامية!»

«سامي.. اعذرني اليوم. الحقيقة أنا متعبة»

«كم أنت جبانة! تسمع صوت الراوي. أ أنت متعبة أم كي تحضر المرأة التي تدير شؤون منزلك لكي تكون شاهداً على عفتك»

«أرجوك أن تخرس.. لا تقاطعني.»

كانت تود أن يأتي سامي أو سامح. أو علي.. بحاجة لمن يكلمها.. ولمن تشكو له ولكن ينتفض الراوي. كلميني أنا. أنا أسمعك تنهض وتلقي بالكأس في حوض المطبخ.. تتناثر الكأس نثرات صغيرة. هي لا تقدر وحدها أن تتجاوز هذا الكم الهائل من التخلف الذي يجتاح نظرة الرجل إلى المرأة. لا تقدر أن تواجه المجتمع بمفردها مع أنها مصممة أن تفعل شيئاً.. قد لا يكون ثورة ولكن ربما يترك أثره على سلوك نساء كثيرات. تشعر بالخذلان والتصميم في الآن ذاته. أي امرأة هي؟! أستاذة في الجامعة وما تزال غير قادرة على استقبال أصدقائها في منزلها. تشعر أنها تختنق..

معقول أن تنصاع لعقلية الشارع الذي يأخذ تعاليمه من غبار تراكم ويجب أن ينظف؟! عليا بالذات عليها أن تتجاوز هذه الترهات. لا أحد يجبرها على فعل شيء لا تريده ولا أحد يجبرها على ترك شيء تريده وترغبه. وهي مقتنعة بالصداقة بين الرجل والمرأة.. ويجب أن يقرّ المجتمع بذلك ولو حصلت بعض التجاوزات. الأقمار الصناعية تدور العالم. تدخل غرف النوم. تفتش تحت الوسائد عن أحلام ممنوعة. مع ذلك هي لا تستطيع أن تشرب القهوة مع سامي؟!

لا.. لن تعيشي الآن بعقلية ماري السابقة.

«ألو.. سامي»

«ألو .. تعال نشرب القهوة»

«أشرب الشاي»

«طيب. تعال.»

«شاي لذيذ «شكراً»

«ألست جائعاً؟!»

«لا..»

بدت عليا متماسكة حاورت سامي في أشياء كثـــيرة. مفاوضـــات السلام مع العدو الإسرائيلي الذي اغتصب الأرض وشرّد وقتل. وشـرذم .و.. ويريد السلام ؟! «قد نتصافح» على الورق يا سامي. لكن الجــراح القديمة لا تندمل إلا إذا استعدنا فلسطين عربية.. فلسطين هي الجرح في كل جسد عربي.

كيف تمدّ فلسطينية يدها لتصافح قاتل زوجها. ؟ أو قاتل ابنــــها؟! الأرض.؟! يا للأرض. الوطن.. ولكن ألا ترى أن الإنسان هــو الــذي يصنعُ الوطن؟! ماذا يفعل رجل عجوز بمنزل يعود إليه في غزّة وقـــد خلا من أبنائه وزوجته.

«أسرٌ بكاملها طردت من منازلها ولم تعد إليها بعد. والقــزم هــو القزم يفرش عمامته ليدوسها جندي يذبح أطفالنا.»

«لقد ثرثرنا كثيراً يا سامي.. ولكن هي مجرد ثرثـــرة. أظــن أن أحداً لن يستمع إلى آرائنا.. إننا كمن يصرخ في الطاحون.»

«ستذهبين غداً إلى الجامعة؟!»

«أظن ذلك؟!»

يودع ســـامي عليا بعد أن ترك بعض الهدوء في منزلـــها.. بـــدأ النعاس يثقل جفنيها.. تضبط منبه الساعة على أن يوقظها في التاســـعة صباحاً. الساعة ترن. ولكن عليا متعبة ولا تريد أن تنهض.

إنه السؤال ذاته.

السؤال الذي يتكرر يومياً فلا أعرف كيف أجيب.

أنا أحبّ علي؟!

عندما كنا صغاراً كانت قراراتنا أسرع. كنا قادرين علـــى اتخـــاذ القرار. الآن لا أقدر أن أقرر. هل هذا تراجع في مقدرتي العقلية؟!

لا أعرف حتى الآن إن كنت أحبّ هذا الرجل. سامح قال لي: حددي موقفك. وأنا لا أعرف أن أحدد وجودي ـ عالمي ـ اسمي. هل أشفق عليه؟ أم أشفق على نفسي؟

هل هو الصورة التي تكمّل صورتي لنكون الفرد الضائع في ظلمة مستقبل قادم يتهيأ لمهدي منتظر حتى ينشله من ظلمته؟!».

أنا وعلي نرث زمناً قديماً من الخراب لهذا نحن علينا أن ندفع الثمن الآن؟! علي صرخ وقال بأعلى صوته. جدّي هو الذي سبب هذا الخراب فلماذا أحمل وزره أنا؟!» جدي الذي يعود إلى ألف جد هو المسؤول فلماذا تحاكمونني؟!

نحن كنّا جيل الحلم والأمل. الجيل الذي هيأ للثورة التوازن بين الجهد والمردود. وجيل ما بعد الثورة حالماً، وساعياً لأن ينجز مشروعه الحضاري. مشروع وجوده ولكن للأسف أجهض الحلم قبل أن يكتمل قبل أن تمشي قرانا باتجاه المدينة وقبل أن تستقبل المدينة الأطباق الطائرة. أجهض الحلم قبل أن أخلع منديل أمي وعباءة أبي. وقبل أن يندمل صدر أمي من بندقية برهان الأدهم»

ـ لا أعرف لماذا هذا الحوار الطويل الذي تلقيه على نفسك وتعذبين ذاكرتك به.. الأمر بسيط ولا يحتاج إلى كل هذه المشورة. «أتحبين علي؟» ـ نعم .. لا ..

لا أعرف. أنا أحب علي أم أحبّ نفسي؟! ولماذا نحمل فظاظتنا ونواجه بها العالم. معرفة الحق تجريح وفظاظة؟ الدفاع عن الكرامة والأشياء الجميلة فظاظة؟ لا أستطيع أن أتصور المدينة. البحر.. الأماكن الحميمة دون علي. ولكن هل هذا يعني أني أحبّه؟! أم لأني بحاجة إلى رجل، إلى من يستمع إليّ.. إلى من يشتق منيّ.

«الأخ رجل»

«ولكن الأخ لا يكلمني»

«سامح.. ما هذه الأسئلة.؟!»

«كان عليّ أن أسألك هذه الأسئلة كي تدركي أين تقفين. الزمن لا ينتظر أحداً والحياة قاسية تحتاج إلى مشاركة.. هذه المشاركة الآن باتت ضعيفة.

أشعر أن سامح ما يزال نقياً.. لم تزيفه الحياة الجديـــدة. لا يقبـــل الأقنعة. أشعر بحاجة إلى أمي العجوز التي تسكن بيتها الريفي تـــزرع النعنع والثوم والحبق.. أقول لها أمي: تعالي ابقي معي بعد أن غـــادرك أخوتي هنا الحياة في المدينة أكثر راحة.

ترفض أمي باستغراب.

«المدينة؟! لا أستطيع أن أصعد الدرج»

«أحملك يا أمي. أحملك بيدي»

«أنت مشغولة يا بنتي.. سأظل وحدي عند ذلك. لا أحد يحدثنـــي ولا أحدث أحداً»

«أنا أتحدث معك.. كل يوم نقصّ سيرة أبـــي. ســـيرة أخوتـــي.. القرية....

ــ أمي هي الأخرى تبحث عن شخص يسمعها.. كلنا الآن في هذه الدوامة. وعندما ينتهي الكلام ما الذي سيحدث..؟!

«أنا فخورة بك يا عليا. ولكن يا ابنتي حديثنا المشترك قليل.. بماذا سنتحدث بعد ذلك» ستنتهي هذه الأشياء التي نتحدث عنها.. هنـــا فـــي القرية أفتح باب بيتي.. واحد مسافر أودّعه.. واحد عائدٌ نستقبله ونســـمع أحاديثه الجديدة. واحدة تطبخ مجدرة تفوح رائحتها على الجيران فترسل لهم صحن مجدرة مطبوخة «بالمقلي الفخاري». طفل يقـــترب ويدخـــل

باحثاً عن عش سنونو في سقف المنزل.. لا عليا. لا أترك بيتي.

«ولكن عندي أم عارف يا أمي إنها ستلبّي طلباتك وتخدمك»

«لا أقبل أن يخدمني أحد طالما أنا قادرة على الحركة.. يا عليا أريدك أن تتزوجي المرأة بلا رجل حديقة بلا ورد. وبلا سياج»

«والرجل..»

«الرجل كذلك يا عليا.. يجب أن يكون لك أسرة وأطفال.»

«أنت السبب يا أمي»

«هل نظل نعيد الماضي؟! أنت المتعلمة المثقفة تقولين ذلك.»

«لأني متعلمة أرفض أن تخططوا لي مستقبلي. وتحددوا مسار عواطفي. لو لا منكم.. كان لدي ولد يافع الآن هذا نصيبي في الحياة. ثم إن المرأة التي تسير باتجاه العلم.. تختلف عن المرأة التي تنتظر فقط الرجل والأولاد. سيكبر سن الزواج عند المرأة الجامعية. وسيكبر أكثر عند المرأة المتخصصة التي لا تنهي دراستها قبل الثلاثين من عمرها وقد يكون بعد الثلاثين»

سكتت أمي. وسكتّ أنا. لم أجرؤ على محاورتها. إنها محقّة. هل أحدثها عن ماندل مثلاً لندير حواراً: وعندما يأتي الأصدقاء ويسألونها عن صحتها وأحوالها.. ثم ماذا؟! هل يحدثونها من أزمة الغلاء. أزمة الحروب الأثنية. أزمة الهرسك أم عن نهر النيل الذي فاض بالجثث المتفسخة القادمة من راوندا.. عشائر وقبائل وعروق..و.. لا تقبل العيش على الأرض ويستبدلون حياتهم بموت فظيع. هكذا للزمن طبقات. يمرر سيوفه ببطء تحتها.

أمي في بيتها تخاطب رائحة السنين. تزرع الحبق وتبعثر ساعات الانتظار بين وريقاته. أمي تقول: في الجيل القادم أرجوك أن يخلقني الله متعلمة.. إيه كأني أراها طفلة تحمل حقيبة وتركض باتجاه المدرسة.

ولكن لمن أنادي يا أمي.. أخوتي قالوا: عيب.. الإنسان لا يكون له أكثر من أب.. أليس عيباً أن يكون له أكثر من أم؟!

يا أم عارف قلت لك عندما تنظفين المنزل لا تحدثي جلبـــة.. إن هذا يقطع سلسلة أفكاري ويمنعني من التركيز على المحاضرة.

أم عارف تحدث جلبة لتؤكد لي بأنها موجودة. هي لا تجـــرؤ أن تأخذ من وقتي في حوار قلت لها إنه عقيـم. لذلـك تضـجّ بـالأواني. بالأصص. تجرّ الطاولة الكبيرة. تحدث شيئاً ما يدل على سير الزمـــن الخطي.. هذا السير المقيت. أنظر إلى ساعتي. يجب أن أذهــب إلــى الجامعة لقد بدأ العدّ العكسي. أتذكر موعد سامح.. قال لي. ســنحتفل.. يجب أن نجد سبباً للاحتفال لنخرج من قوقعة المجاملات المتعبة. أثنـاء الولائم تلغى المجاملات. ويفرد المرء شخصيته متخليـاً عـن أحزمـة الوقار المصطنع.

«آ.. الآن أدركت سرّ الولائم الكبيرة التـــي تقـام للمسـؤولين» يضحك سامح.. تتذكر عليا الحوار فتضحك.

«خير يا بنتّي. أراك سعيدة»

«خير يا أم عارف.. اهتمي بشأن المنزل»

«أشعر بالشوق الجارف للذهاب إلى ملاقاة علي. الصباح غــائم. والسماء كئيبة وزعلانة. ضباب خفيف فوق البحر. فكأن الموج يطلــق تنهدته إلى السماء. لماذا يحزن البحر. هذا الجبار؟! ما يــزال الأمـس ينفرط أمامي بوريقاته الشاحبة. سأحاول.. وفي كل مرة أحاول أن أغلق كتاب الماضي كي لا يصير هو المستقبل.. عليّ قال: سأبني لــك بيتـاً على الطريقة العربية القديمة..

«لا.. لا أريد يا علي.. أريد أن أعيــش الحـاضر والمسـتقبل.

أرجوك. هذا الماضي يتعبني ونحن أوزاره قسراً»

«أريد قهوة يا أم عارف»

ولكن كيف؟!

الماضي جذع الشجرة التي تنمو عليها أغصاننا النفسية. الجذع المنخور سيعطي أغصاناً ضعيفة. وأوراقاً صفراء تميل إلى السقوط في كل هبة ريح.

«أغصان ترف على قارعة الحياة.

أوجدتنا العاصفة فانسكبنا على شبك الحنين.

أنا وأنت.

وأزهار المودة.

نحرقها.

فيومئ البرد للعصافير المتعبة»

قرأت قصاصة علي التي وجدتها في كتاب «لحظة الأبدية» تألمت على شعر علي الضائع. قررت الذهاب.

هناك أنا.

امرأة تجمع الأزمنة على الطاولة. أرتدي ثوباً سكري اللون. متناقضة بذلك مع قتامة السماء. أريد أن أكون مبتهجة. أستعير البهجة أمام علي. سأحاول أن أخرجه من الزمن القاتم. هذه مسؤوليتي. لولا ذلك لما ساق القدر هذا الرجل إليّ. لا بد أن يخرج. لن أسمح لعلي بالهزيمة. هزيمته يعني هزيمة الكلمة.. وهذه نهاية الصبر.. نهاية الفرح والأمل.. لا.. مازالت الكلمة في البدء.

أنتظر طويلاً في كراج التاكسي. كل المسافرين يركبون

«الميكروات الصغيرة» لا أستطيع حشر جسدي في هذه السيارات الخرافية التي ملأت البلد. أشعر بالاختناق.

«ألهذا يحنّ المرء للماضي..؟! أيحن للفرس الآن؟»

ربما.. أضيق ذرعاً بالوقت. اتجه إلى الرصيف.. أنوي العودة إلى المنزل. ولكن وقوف سيارة مرسيدس فارهة رشّتني بالماء وأجبرتني على التراجع.. نظرت إلى ثوبي الفاتح المرشوش بالماء القذر والوحل.. لا أعرف ماذا أفعل.. أ أبكي..؟! أم أضحك؟ يطل وجه امرأة مصبوغ بشتى الألوان. أتخيل أني أعرف هذا الوجه. أجل أعرف هذا الوجه. لم تعتذر. كانت تحدق بي. أعجبها منظر امرأة متأنقة وهي مرشوشة بالوحل.. الأناقة!! يريدون احتكارها هي الأخرى؟!.رجعت السيارة إلى الوراء قليلاً. وقفت قبالتي تماماً. مدّت المرأة رأسها خارج النافذة وسألت «ألست عليا؟» لم أرد. عادت وسألت. قلت: «أنا الأستاذة عليا».

صوتها أعادني إلى الوراء سنوات كثيرة. عندما يعود المرء هكذا مسافة زمنية يدرك أنّ كل شيء يهرب. الطفولة. المقاعد. البراءة.. الـ..

ـ ألم تعرفيني؟!!

كيف لم أعرفها.. إنها هي. سحر. كانت تجلس معي في مقعد واحد. هي في المنتصف.. وأنا على اليسار. وسعاد في الطرف الآخر.

«أنا سحر»

كيف لا أعرف سحر الكسولة جداً. فتاة خرقاء. وضعتها المعلمة بيني وبين سعاد كي تنضبط وتجتهد. هكذا كانوا.. يضعون التلميذة الكسولة بجانب التلميذة المتفوقة. من أجل أن تصاب بعدوى التفوق.؟ يا للمهزلة. إذاً ماذا يفعل ماندل؟ ومع ذلك ورغم أننا ساعدناها في

الامتحان فإنها لم تستطيع الحصول على الشهادة الإعدادية. بعد تلك الفترة لم أرها.. ولا أعرف ماذا حلّ بها. فقط علمت أنها انقطعت عن الدراسة وانشغلت بتسريح شعرها والبحث عن رجل.

«الرجل ملاذ المرأة»

«ماذا يعني أن تكوني مهندسة. جامعية. أو حتى أستاذة جامعية وأنت بلا رجل.؟! يعني المجتمع يرفضك»

عندما يلفظون اسمي أمام المعارف القدماء. يقولون: أستاذة ممتازة ولكن حتى الآن لم تجد ابن الحلال.. انتبهوا.. أنا لم أجد ابن الحلال. أنا أبحث.. وأفتش. وأنا منشغلة بهذا الأمر. ورغم ذلك لم أجد ابن الحلال الذي يقبلني!! أما علي.. عليّ أو سامح.. فيقال: لم يتزوج حتى الآن. ثوبي الذي اخترته لملاقاة علي بعد نوبة حنين ترشه زميلة قديمة بدولاب سيارتها التي تعادل راتبي منذ ولادتي.

لو أخذت فرضاً راتباً إلى يوم وفاتي.

«أنا سحر. أتذكرين»

سحر.. سحر من؟!»

أمعنت في التجاهل. إنها لا تستحق أن تحتفظ بها ذاكرتي. كانت نكرة وما تزال.

«سَحَر المهاجر»

«آ.. تذكرتك.»

«ما هي أخبارك»

«أحوالي. ماشي الحال. كما ترين»

فتحت عينيها وهي ترمقني من أعلى إلى أسفل ثم قالت: «وأنت كيف حالك ما هي أخبارك»

«حالي!! كما ترين. مرشوشة بالوحل من سيارتك. أما أخبـــاري فإني أدرّس في «الجامعة»

«آسفة جداً. يعني عملت دكتوراه؟!

«يعني..»

«قريباً سأكون زميلتك.»

«عظيم.. رائع ولكن أعرف أنك تركت الدراسة مبكراً»

«صحيح ولكن بعد أن تزوجت من بهجت رفـــض إلا أن أتـــابع دراستي ــ رجال آخر زمن لا يرضون بزوجة كالسابق ــ لذلك تـابعت دراستي. حصلت على إجازة في التاريخ. وهنا أنا أعدّ دراســـة لنيـل الدكتوراه ولكن أنا أرى كل ذلك تعب على الفاضي»

«الحقيقة البلد تحتاج جداً لهذه الشهادات العليا. لم أكـــن أعرفـك طموحة بهذا الشكل» كنت أشعر بالاشمئزاز وأنا أتكلم معها. أنا أحمـل الدكتوراه وهذه تحمل الدكتوراه؟ تمنيت لو أن أمي قريبة مني.. أو أنـي أعود إليها. تأمرني أن ألبيّ طلبات أخواتي الذكور. تسخين ماء. طبخ.. كيّ الثياب بمكواة الفحم.. هكذا ككل أخت متفرغة في المنزل.

ســحر هذه لم تكن قادرة على حفظ جدول الضرب. ولم تقدر مرة أن تركّب جملة مفيدة في اللغة العربية. لـم تودعنـي حيـن صعـدت سيارتها وقالت..هاي.. ذاهبة إلى جابالا.. أتريدين شيئاً؟!

«أنا أريد منها شيئاً؟!»

لا.. لا أريد منك ولكن أريد من الزمن.

زحفت سيارتها. ثم راحت تعصف بحفر الماء. دارت في ســاحة الشيخضاهر.. رشت رذاذها على الكثيرين. شعرت أني أتــهاوى وأنـا أرنوا إلى ثيابي. مرت طالبة جامعية من طالباتي. ســلّمت علــي فلـم

أسمعها.. وقفت طويلاً قبل أن تأتي سيارة خاصة بالبلدة الصغيرة.

في المقعد الخلفي جلستُ. وضعت نظارة شمسية على عيني ورحت أهرب من أسئلتي. لأول مرة أزور المدينة بمفردي.. المرة السابقة كنت مع سامي. هذه المرة سأطلب من السائق أن يمرّ بي في أماكن لم أدخلها منذ سنوات الطفولة واليفاعة. سألمس جدراناً ووجوهاً.. سأقبض على أزمنة. انفرطت دمعة من عيني. وضع السائق أغنية ونظر إليّ من خلال مرآته.. هل تعجبك الأغنية؟!!

«ماشي الحال. شكراً»

«حضرتك موظفة؟»

«نعم..» لم يكن بي رغبة للحوار مع السائق. ولكني أعذره أحياناً فهو يقطع الطريق كل يوم عشرات المرات وعليه أن يقتل الملل والروتين.. الطريق نفسها ولكن الوجوه تتغير. ومع كل وجه حكاية. وجهي غير مألوف ويريد أن يعرف ماذا أخفي وراء نظاراتي.

«أين تعملين. يعني في أي شركة»

«أعمل في الجامعة.. مدرسة في الجامعة»

«آ.. دكتورة يعني»

«تماماً»

«ألا تملكين سيارة.؟! في أوربا فئة أساتذة الجامعة محترمة جداً ولا تقف مثلك في الشارع تنتظر سيارة. أنا كنت أشتغل بالسفن حيث زرت دولاً كثيرة.

لماذا يستنفرني هذا السائق؟! لا أريد أن أنساق وراء نظرياته. أنا أعرف أن العلم لم يعد قوة في الدول المتخلفة. أو بالأحرى في زمننا.. المال هو القوة. وأشياء أخرى أشياء لا داعي لذكرها.

كانت السيارة تطوي الطريق العريض. وكانت أشجار الأكاسيا ترجع إلى الوراء. كنت أتمنى أن يطول الطريق أكثر كي تهدأ نفسي قبل ملاقاة علي. أظنه الآن استعاد نشاطه.. صوته على الهاتف كان يدل على ذلك. قال لي حبيبتي.. آه مازال على هذه الأرض من يحتاجني. بعد قليل أصل. أعرف. سيعاتبني. الحق معه ولكن لي ظروفي. هذه الحياة لم تعد تتسع لمشاغلنا وأعذارنا. سأحاول أن أخفف من حزنه. علي شاعر مهم ورجل محترم. لكن مشكلته أن لا مكان له في هذا الزمن..

السيارة تقترب من المدينة. أتذكر سعاد صديقتي. ليتني أراها عائدة من أوربا.

سأحاول السؤال عنها. فترة طويلة لم أرها. يلوح لها وجه سحر المتعالمة.. «ترى كم ستكلفها الدكتوراه من هدايا؟»

السيارة تلف ساحة صغيرة ثم تدخل المدينة من شارع أعرفه منذ طفولتي. ما يزال على حاله. كأن الزمن لا يمر على هذه المدينة. مازال بيت علي بعيد مع ذلك قلت للسائق «أريد أن أنزل هنا».

لا أعرف لماذا نزلت في أول المدينة. أحتاج لكثير من السير المنفرد مع نفسي كي أستعيد بعض هدوئي. يبدو أني غير قادرة على التواصل مجدداً مع الآخرين. وإلا لماذا كل هذه العصبية.. ليكن. سحر أو غيرها.. العالم مليء بالمتطفلين.

إنها لا تختلف عن «رندة» التي جاءت تحضر محاضراتي.

قال لي يومها مدير المركز الثقافي: «الحضور ممتاز يا آنسة. نوعية متميزة. أرجوك أن تكون المحاضرة قيّمة وتبيّض الوجه. لم أرد. اكتفيت بابتسامة. تابع رئيس المركز. ستحضر شخصيات المدينة المعروفة. السيد رامز أخو وزير الدولة. والسيدة ابنة عم المحافظ.. والآن اتصلت بي السيدة رندة ألا تعرفينها؟!

«لا.. أبداً.»

«ولوه.. رندة زوجة منصور باشا»

كدت أقول له من منصور باشا. ولكن كنت لبقة جداً وهادئة. قلت له: ربما فترة غيابي أثناء التحضير للدكتوراه في أوربا حرمتني معرفة شخصيات هامة كثيرة ظهرت على الساحة.

«آه.. معك حق»

كدت أفقد لباقتي وأقول له «طز في رندة وأمثالها» ولكن أنا أستاذة جامعية وعلي أن أكون مهذبة «يا أخي شيء بيجنن أحياناً لا تجد الكلمة المناسبة التي تعبر عن غيظك. فتجد أمامك الكوى التراثية المكتظة بكلمات من نوع طز ثم.. إلى الأسفل. يكون الأثقل..»

رندة؟!

رندة ما غيرها.. زوجة المقاول الكبير والتاجر الكبير. واللص المحترم الكبير. كيف لا أعرف رندة. إني أعرفها جيداً. ولكن ربما لا أعرف أشياء جديدة عنها. قد تكون أستاذة في السوربون ولا أدري.. رندة ابنة الزعيم الذي كان يأمر وينهي ويسرق. قدمني لها رئيس المركز. «الأستاذة عليا تدرس في جامعات القطر. لها طلاب في دمشق. وحلب ثم انتقلت أخيراً إلى جامعة المدينة. ولكنها مازالت تحاضر في جامعة حلب»

ثم انتقل إلى السيدة رندة فقال: السيدة رندة. راعية الأدب والأدباء في المدينة وراعية الثقافة والمثقفين. لها أكبر الفضل في دعم المركز ودعم الأنشطة الحضارية التقدمية»

«أهلاً وسهلاً. تشرفنا»

نظرت إلي رندة. ونظرت إليها. سألني رئيس المركز «ألا تعرفينها؟! هززت رأسي بأسف كبير «لا. أبداً مع كل الأسف»

ابتسمت رندة ابتسامة صفراء

سألت أليست مهنة التدريس في الجامعة متعبة؟!

«نعم. ولكن فيها خلق وإبداع. فيها بناء لوطن يسعى في طريق التقدم العلمي الذي هو أساس كل بناء»

«كنت في جامعة حلب؟»

«أجل. ومنذ فترة قريبة جداً جئت إلى هنا»

هزت رأسها وتركتني لتحتل مقعدها الأمامي.. ولكن قبل أن تصل انحنى لها العشرات احتراماً. الحمد لله صار رجالنا لطفاء جداً. كان سامح قربي. سامح الذي يقرأ ملامحي ويعرف بماذا أفكر. يضغط على يدي.. ينظر إليّ بحنّو كبير.. أشعر بقهر يتجدد في داخلي.

«أنا أعرف لماذا جاءت هذه يا سامح.. جاءت تراهن على عليا القاضي. هي ابنة زعيم العقارات القديم والجديد.. يحق لها أن تراهن على ابنة الفلاح الذي طرده والدها من أرضه. وخلّصه ثروته وأبعده عن القرية كلها.

«لن تكسب الرهان يا عزيزي. عليا أرجوك كوني أكثر هدوءاً»

«سامح. آه منك.. هاأنا هادئة. انظر. لم تستطع نظراتنا أن تتلاقى»

في نهاية المحاضرة خرجت رندة كالمذعورة. ركضت إلى سيارتها يلف بها أزلامها لم تنتظر النقاش القيّم الذي دار. ضحك سامح وهي تركض خارجة من البهو الكبير. «ألم أقل لك.. خسرت الرهان.. سمعت الثناء عليك. والثناء لا يجوز لامرأة سواها.

في اليوم التالي قالت: هذه محاضرة؟! إنها صفّ كلام. لا.. والله يا ست رندة المحاضرة مذهلة.

يعني تريدون أن تعلموني من هي عليا القاضي.؟! البارحة كانت ترتدي «جزمة بلاستيك». متى ذهبت إلى أوروبا وعملت الدكتوراه.؟!

«يا بنت الكلب.. ذهبت يوم كنت تغوصين في حرير أبيك الذي سرقه من عرق الفقراء»

«أبي لم يكن عنده قصرٌ للأسف. ضيّع أمواله على الراقصات. كان يذهب إلى بديعة مصابني وإلى تحية كاريوكا. يقضي شهوراً في بيروت والقاهرة يسافر هنا وهناك»

«تشعل رندة سيجارتها وتقهقه.. كان يشعل الألوف من سيجارة الراقصة.. عاش حياته بالطول والعرض» تضع ساقاً فوق أخرى. تهزهما وتفاخر ببطولات والدها الجليل. بينما يتدحرج والدي على سلم السرايا.. هناك إلى الأمام. بعد أن اجتاز كومة من سنوات أهرقتها هنا.. المدينة رمادية.. هواء الصيف يلفحها.. كراجات القرى تغير محلها.. صارت في مجمع واحد مملوء بالقذارة والروائح الكريهة. كأن المدينة بلا بلدية.. أف.. يجب أن يضع المرء يده على أنفه عندما يقترب من بعض الزوايا.. في أوربا يغسلون الأرصفة كما تغسل الصحون بالصابون.. تجتازني البيوت. وأنا ما أزال أبحث عن بيت كنا نسكنه.. أدخل حارة وأخرج من أخرى. تعبرني غيمة حزن. أشعر أني أتقهقر «أيتها المرأة عمّا تبحثين.؟!

لا أعرف ولكن هاأنا أنتظره.. ذلك الذي لم أجده حتى الآن. إني أنتظره. هنا مشينا. ذكريات هي مؤلمة. يزداد ثقل الزمن على صدري. أود لو أني وحيدة الآن في المدينة أنقّب عن كل خطوة كانت لي فيها.. سأجمع حتى العذابات الكثيرة وأجففها بين أوراقي لتبقى شاهدة على تعاقب الأزمنة وبقاء الألم صامداً في وجه كل تغيير.. هنا كنّا نسكن. في الشارع. أمشي إلى الأمام بهدوء. بترصيد وترقب. أخاف أن ينبثق وجه أعرفه. مرتبكة كأني أقتحم غرفة سرّية.. أو أفتح جراراً منع علي

فتحها. ثقل يثبتني في الأرض. تلوح لي نافذة منخفضة الحافة وبوابة أعرفها جيداً هذه النافذة كانت لي.

وكان لي عليها نبتة حبق. أسقيها وأعبث بوريقاتها لترش عطرها. على أصابعي. هنا من هذا الباب استلمت أول رسالة حب. لم أجوؤ أن أفتحها. قالت طفلة صغيرة هذه من أخي. مزقتها فوراً.. هذا هو الخوف نفسه يطاردني. أنا في الحارة أنبش طفولتي. أتفرّج عليها.. لا أريد لأحد أن يشاركني أشيائي الخاصة في المرات السابقة جاء معي سامح وسامي.. أول مرة جئت لم أقدر أن أدخل المدينة وصلت إلى نقطة معينة ثم تراجعت الآن أنا وحدي وعليّ اقتحام هذا المجهول مهما كان قاسياً. سعاد قالت لي مرة لم أدخل بيتنا القديم منذ غادرناه ولا أجرؤ على الدخول إليه كي لا أرى والدي ميتاً فيه. أمرّ بمحاذاته ولكن لا أدخله «ولكنّ أُخاك يسكن فيه. نعم. ولم أدخل بيت أخي أبداً. لا. لن أفعل مثل سعاد. سأقتحم هذا الماضي المخيف.

«الإمام علي قال: إذا هبت أمراً فقع فيه»

سأقع اليوم في كل الأشياء التي ترعبني وتحزنني لأتحرر منها. «سامح أكد لي ذلك» عليّ الآن أن أسرع.. فأنا وحدي أمتلك المدينة. البحر. الجيران. الحديقة. الجامع القديم، والقلعة. هنا مشينا نرفع العلم ونغني بالأعياد التي تحيي ذكرى التحرير. وذكرى ثورة آذار. وهنا راح شاب يلقي القصائد الثورية. لم أكن أعرف أنه علي. كنّا نسميه الشاعر. وكنا نهفو لمعرفته.. لم تتغير المدينة كثيراً. قلبي يخفق بسرعة. ــ هناك منزله. أجتازه بسرعة لا أريد أن تتفتح كل أشواك الذاكرة. أركض.. أمشي في اتجاه معاكس. فجأة تعترضني المدرسة.. المدرسة التي قضيت جزءاً من عمري فيها.. هنا كنت ألقى بنهر الحور وأنشر طفولتي القاسية. هنا كذبت على الآنسة ــ من كانت ثيابه غير نظيفة لا يجوز أن يصلي. مع ذلك صليت أول فتاة في درس الدين. لم أعترف بأنني سقطت في الوحل ولم أعترف بأن دخان «الوجاق» الذي

نحرق فيه «الجلّ» وحطب التين جعل قميصي باهتاً. المهم كانت روحي نظيفة شاخ سور المدرسة. المصطبة الأمامية غاصت قليلاً في الأرض. باعة العربات ما يزالون ينتشرون كما كانوا.. يبيعون السحلب وكعك «البريوش» سأشتري الكعك. تشهيت لرائحة الكعك.

«ولكن هذا اليوم يوم علي..»

«سيكون لي أيضاً»

سنوات طويلة تفصلني عن كعك المدرسة. ابن الكلب البائع القصير سرق نقودي مرة. مدّ يده من كوة في الجدار. أعطيته النقود وقلت له أريد كعكة. لم يعطني قال بأني لم أعطه. «والله العظيم أعطيتك.» ولكن لم يرد.. انسحب وراح يعطي غيري. بكيت. كنت جائعة ولم يكن معي نقودٌ غيرها.. قلت لصديقتي معك ربع ليرة»

«لا والله. ما معي»

أكلت كعكتها أمامي والدمعة في عيني ولم تطعمني. في قريتنا لا يأكل أحد أمام الآخر دون أن يطعمه مهما كان صغيراً أو كبيراً.. أفكر بشراء سخّاب من الكعك والسمّاق. وسأشتري غزل البنات. سآخذ لعلي من هذه الأشياء التي أحبها. انتقاماً لشهواتي القديمة. سأنتقم لطفولتي. وسأشتري السحلب.. سأدخل المدرسة أوزع الكعك وسأبحث عن مقعدي الذي حفرت عليه اسمي. لا أعرف لماذا أريد أن أبكي. لا يحق لي استرجاع أشياء هربت.. أشياء سرقت مني. «هكذا نحن العرب نحبُ الحزن. وإذا لم نجد ما يحزننا نختلق قصصاً تبكينا»

لا.. ليس الأمر كذلك يا سعاد. أنت تبالغين في تحليل الحزن العربي هذا الحزن قضية أخرى. إنه حزن وجداني. إنه موقف. أشعر بشوق إلى سعاد. أسمع جرس المدرسة يرنّ. أنا هناك أقف في الصف. تنادي المعلمة. تعالي يا عليا. أعقد شريطتي جيداً وأصعد المنصّة. تصعد سعاد وسميرة وأخريات أهتف: أمة عربية واحدة ..

يرددن الشعار ثلاث مرات. نكمل باقي الشعار ثم نغني نشيد العلم «حماة الديار» مشتاقة إلى ذلك العلم الذي كان يرتفع شامخاً تشمخ الروح وتعلو النفس وتكبر الطموحات. يتوالى دخول التلميذات إلى صفوفهن نخرج نحن إلى درس الرياضة ونبدأ تدريب كرة السلة. وعندما يهطل المطر في الحصص الأخيرة تسأل المعلمة «من منكن بيتها في القرية» نتردد في رفع أصابعنا. «أنا يا آنسة» تصرفنا الآنسة. لأن التنين يصعد من البحر في الأيام العاصفة. السماء يضيئها برق يخطف البصر. يتوزع الضوء الخاطف في شوارع المدينة المقفرة. مطر قادم يسرع في ركضه. أبتعد عن القطيع. وحدي عليّ أن أجتاز الطريق إلى قريتي. وحدي عليّ أن أمشي ساعات لأصل إلى قرية مشلوحة قرب نهر الحور. أحياناً نستأجر بيتاً في المدينة. وأحياناً أخرى لا أطيق البقاء بعيداً عن أمي. «ستتعذبين يا بنتي. لا سيارات. ولا صديقات. نامي في بيت خالتك».

ـ لا. لا أريد. لا أرتاح إلا في بيتنا. البرق يفزعني. والرعد يقصف خطواتي. أرتجف تحت المطر. من بعيد ألمح نقطة سوداء. الشمس غاصت في البحر لكن شعرها الأرجواني مازال طافياً فوق الماء. النقطة السوداء تقترب.. أسمع نداءً بعيداً:

«علياء»

إنه صوت أبي.

«أنا قادمة. يا أبي»

أشعر أن العالم انفتح حدائق وورود ونور. إنه صوت أبي. لم أعد أهتم للمطر والرعد. إنه أبي العجوز. يتكور في معطفه الأسود على حافة الطريق ويمسك في يده حبل «الحمارة» الرمادية إنها سيارته الخاصة.

«اركبي ورائي يا بنتي»

ألتصق بظهر أبي كعصفور يرتعش من البرد. الطريق الموحل يوصلنا إلى حافة النهر. تقف الحمارة. تنظر إلى الماء بخوف. يلكزها أبي لكنها ترفض الخوض في الماء. يضربها بالعصا.. تظل الحمارة على عنادها.. إنها خائفة من هذا الماء العكر الهائل، المتدحرج من صخور عالية.. والقادم من جبال بعيدة. «الحمارة: الأتان» تتأمل الماء وتطلق نهيقاً حزيناً. الماء المحمرّ ينطلق بعجرفة ماراً بقرى كثيرة من الجبل حتى البحر يوزّع طميه على الأطراف. يأكل من حافة ويضيف إلى حافة أخرى..

خائفة يا أبي «لا تخافي. أنت بطلة» ينادي أخوتي. الجيران. الظلام ينهمر. والنهر شريط مائي يظهر تحت البرق الذي يخطف الصوت وصداه. ينهمر المطر. أمسك بأبي جيداً. ينقشع القمر أحياناً بين غيمة وغيمة. رائحة الخبز المشوي على الصاج تملأ أنفي. «أمسكي بي يا عليا» يقول أبي وهو يلكز الحمارة بقوة لدرجة أنّ دماً سال من رقبتها. صوت رعد يتقصف وقناديل القرية الصغيرة الملقاة على تخوم قرية الحور تظهر ضعيفة نحيلة من نوافذ صغيرة. تدخل الحمارة في الماء. يدخل النهر في البحر.. تمتزج المياه الحلوة بالمياه المالحة. تتصل السماء بالأرض وعجوز ما يزال يعبر طوفاناً هو وابنته. «جائعة يا أبي»

النهر يجتاز أبواباً وأشجاراً وقطعاناً. قدمي تغوص في الماء. ماء النهر يرتفع.. «ارفعي ساقيك يا ابنتي حتى لا يذهب حذاؤك بماء النهر».. يحاول أبي أن يخرجني من دوائر الخوف.. يسألني بصوته الحنون: ماذا فعلتم اليوم في المدرسة؟! رياضة. حساب. غنيت النشيد الوطني ورددنا الشعر.«يحيا الشعار» يقول أبي: هذا الشعار أعادني إلى القرية بعد غياب.. هذا الشعار طوق الظالم. خنقه. لم أكن أفهم على أبي شيئاً لكنني أتذكر الظالم الذي كان يتاخم بيتنا. لم أكن أعرف اسمه. كانوا يسمونه الظالم... وأتذكر خروجنا من بيتنا قسراً.. الخروج من البيت

يساوي الخروج من الوطن. سكنا في المدينة ثم عدنا إلى الريف. أمي تحب الريف. وأبي لا يعرف أن يعيش إلا في الأرض. الحمارة تمشي ببطء. الحصى تتدحرج. تميل الحمارة. أكاد أقع. وقفت الحمارة وحرنت في منتصف النهر. أخذت أبكي. أمي تتفقد غياب أبي.

نادت أخي من بيت الجيران.

«أبوك لم يعد حتى الآن يا هاشم»

«أين أبي»

«ذهب يجلب أختك الصغيرة»

«لماذا لم يقل لي؟ يظن نفسه أنه شاب»

في منتصف النهر كنا أنا وأبي والحمارة غائصة في الماء. دوامات المياه المحملة بالقش والأغصان المكسورة تحيط بنا. أنا أبكي بصمت وأبي العجوز يشجعني. أبي لا يقوى على معاركة النهر والماء بارد في كانون. ينادي أخي نقطتين سوداوين في الماء.. يرد أبي بصوت داخلَهُ الأمل فجأة. يتمتم «يا ويله الذي ما له أولاد» يخلع أخي حذاءه وثيابه الخارجية وينزل إلى قاع النهر. يسبح باتجاهنا لكن تيارات الماء تحمله بعيداً. يحاول أن يقف. يغمره الماء إلى صدره. الحمارة تنهق.. إنها تستجدي. لم تعد قادرة على الصمود. تميل مع تيار الماء. تقذف بنا إلى الماء البارد. أصرخ. يجرفني النهر. «لا تخافي يا عليا» أبي قريب مني يتكوم بمعطفه الأسود. يركض أخي إليّ يحضنني ويمسك بالحمارة. يضعني على ظهرها ويجرها باتجاه أبي.امسك بي يا أبي. امسك بي الماء غدار.. النهر يهدر. جذع شجرةٍ كبيرةٍ يصطدم بنا. يتعلق به أبي إلى أن نصل إليه. يمسك أخي بأبي ثم يقذفه على ظهره. كطفل يعربش أبي العجوز على ظهر أخي هاشم. وأنا أعربش على ظهر حمارة ضعيفة يجرها أخي عبر الماء. مرة تعترضه صخرة ومرة حفرة. مرة يغوص إلى رقبته ومرة يرتفع فوق الماء.

أخيراً يشلحنا الماء نحن الأربعة على الضفة.. البرد يحزّ كالسكين في أجسادنا. النار يا أمي. أرجوك النار. أشعلوا النار للحمارة وضعوا لها الكثير من العلف.. عندما أخذت النار تشع بالدفء نظر أخي إليّ وقال.. يا شقية.. كل يوم لنا قصة في عودتك من المدرسة. عندما تصيرين معلمة ستشترين لي بدلة جوخ ولأمي منديل حرير.

سأصير يا أخي «والله كان النهر سيأخذنا يا أمي»

للأسف. لم أشترِ لأخي بدلة جوخ. ولا منديل حرير لأمي لأن «موضة» الحرير بطلت ولأن منديل الحرير صار غالي الثمن جداً. يعادل راتب مدرس عربي. بعض النساء يرتدينه كرنده، وسحر.. وذلك نوع من الفولكلور وتعبيراً عن الأصالة والجاه.

«يبدو أن الحاضر عندما يعجز عن السير إلى الأمام باتجاه المستقبل، يرتد إلى الوراء ليصير الماضي هو المستقبل».

ـ اتركني من هذا الحوار يا علي.. لكل شيء مسوغاته عندك.. دع الأمور تسير عفوية. يبدو أن علياً على حق.. أنا ما أزال أسير عبر طبقات أزمنةٍ قبضت عليها قابعة في ذاكرتي. يجتازني رجل يذكرني بأبي. كل الرجال الذين يرتدون القنباز والعقال يذكرونني بأبي. أحياناً يخطر لي أن أناديهم كما ناديت والدي خضر. عندما اشتريت لأبي قنبازاً هدية تخرجي.. وضعته عند أبي عبده. «أرجوك يا عم عبده اعتن بالقنباز إنه هدية مني لأبي».

«حاضر يا بنتي. إن شاء الله يراك أستاذة كبيرة في الجامعة»

لكن أبي لم يلبس القنباز.

أبو عبده قال: أريد والدك كي يقيس طول القنباز ثم يأخذه معه. أبي لم يأخذ القنباز. قلت لكم. كان أبي نعسان. قلت له: أبو عبده يريدك أن تمر عليه. لكن أبي لم يرد. كان يريد أن ينام. اقتربت منه.. أبي.

أتسمعني؟ قال وهو يغمض عينيه نعم. ثم عاد إلى النوم. ظـل نائمـا.. اجتمعنا حوله أنا وأخوتي. ناديناه ولم يرد. لم تجرؤ أمي على الاقتراب. شغلت نفسها بأقراص السلق التي تعجنها. لا تريد أن تصدق بأن أبـي سينام طويلاً. صرخنا بصوت عالٍ. أبي.. لقد مات أبي. لقد غافلنا ملـك الموت وأخذ روح أبي. بكت أمي وناحت وقالت: هل آن الأوان لنفترق يا أبو هاشم؟! ناحت طيلة الليل وغنت له أغاني الحزن. اجتمعت القرية كلها.. أبي مسجّىً في المنزل الكبير المفروشة أرضه بالطين الأبيـض وفوق هذا الطين ـ لبّاد ـ صوف ملـون.. الكل في حركـة وضجـة وبكاء. وأبي نائم هادئ. كان يكره الضجة. هذه المرة لم يصـرخ فـي وجه أحد. قرأنا القرآن حتى الصباح. ودّع القرية في الثاني من نيسـان وغادرها إلى قبره الذي يجاور قبر عمي.

«هذا المنزل يطوقني بفراغ قاتل. لم أعد قادرة على فرش أحلامي به بعد أن مات أبي فيه.. أمي أقسمت بأنها لن تتركه.. نزلت أنـا إلـى المدينة لمتابعة الدبلوم. ومن ثم رحلت إلى أوروبا من أجل الدكتوراه».

ها هي المدينة «جابالا» ترتد إلى الوراء لتلاقيني. تغافلني دمعة لا أشعر بها. عندما يصل سامح إلى بيت علي لن يراني.. ربما انشـغل. قال لي: انتظريني حتى أنهي العيادة ونذهب معاً.

لا.. لن أنتظر. غافلته وجئت وحدي. أريد أن أبعثر نفسـي فـي مدينة الطفولة. هناك أشياء ما زلت أخفيها عن عيون ذاكرتـي.. حبـي الجميل الذي قتل في هذه المدينة.

هذه المدينة نقطة تلاقي بيني وبين علي.. كل منا تتعرج طريقـه في غابات مليئة بالذئاب والورد وفي مدنٍ طليقة ثم انتهينا إلى هنا لنبـدأ من جديد.. كنت أتمنى ألا أعود إلى هذه المدينة على الرغم من حبـي الشديد لها لأنها تعيدني مرة أخرى إلى ماضٍ أريده أن يمشي إلى الأمام كي أنساه.

جيران أنا وعلي.. في القرى والنهر والمدينة والذئاب والصفصاف والنعنع البري.

«السؤال الذي يراودني يا سامح.. لماذا علي بالذات الذي أحمل ذاكرته وليس ابن الجيران الذي أرسل إليّ أول رسالة حب؟! لو مرّ هذا الجار فلن أعرفه. الوجوه غير الأمكنة. الأمكنة لها ذاكرة والوجوه لها أقنعة.. أتخيل وجه خالد وأصمت. لا يمكن أن أنسى باحة المدرسة مثلاً.. ولا أول مقعد ولا أول معلمة. بائع الكعك ينادي على الكعك «التازه» البائع بعيداً يقف وهو يدير ظهره للمكان الذي أقف فيه. أخرجت قطعة نقدية واتجهت إلى بائع الكعك. سأشتري لعلي. ولسامح. سأقول له: هذه هديتك يا علي.. «كعكة» الأولاد يلعبون ويتجمعون حول البائعين. اقتربت من عربة الكعك. بائع الكعك مطرق الرأس ينظر إلى الكعك وأنا من ورائه جئت وسألت بكم الكعك؟! رفع الرجل وجهه نحوي. صعقتني ملامح البائع كأنّ الفراغ الزمني بين أول مرة رأيت البائع وهذه المرة لم يتجاوز الدقائق.. إنه هو.. مددت يدي وقلت «أنت. أنت» وقف الرجل مندهشاً لا يعرف ماذا أقول. انتبهت إلى الضجة التي أثرتها كغبار مفاجئ. تأملته عن بعد. هو. وجهه الأسود الكالح. ثيابه القذرة، صوته القذر: عندما قال الكعكة بخمس ليرات. ابتعدت أكثر. بدت لي المدينة ضيقة والشوارع قذرة.. والأطفال الأبرياء ينسكب على رؤوسهم الكاز.. إنه «أبو بقعه» هكذا كنّا نسميه. لم أقدر أن أتقدم ولم أقدر أن أتراجع. صُليت لحظات كان يمكن أن تهرب من امرأة غيري. صوت أبو بعقة يملأ ذاكرتي بالبوم والنسور المقتولة. «أتريدين الكعك؟!! أعاد عليّ السؤال أكثر من مرة. وفي كل مرة أبتعد أكثر. وقف تلاميذ صغار ينظرون إلي.. همسوا «هذه آنسة جديدة» كالبرد الذي يفاجئ مسافراً فاجأني الخوف. صوتها يأتي إليّ مبعوجاً.. صوتها.. هو.. صوت يملأ باحة ذاكرتي. صوت يقطع أوصاله رجل مقطوع اليدين.. الكعكة بين يدين كعصوين محروقتين. الكعكة هي تلك

الفتاة الخرساء التي تتشظى ولا تصرخ. يداه السوداوان المدهونتان بالأوساخ جلدهما مزموم مثل فوهة كيس مربوط.. السماء حزينة. الأولاد يشترون ويدخلون باحة المدرسة. الهواء يسوق الغيم الربيعي القادم من صوب البحر «لن نلعب رياضة يا سعاد. الآنسة هند معلمة الرياضة تأكل الترمس في غرفة الإدارة». يمتد الصوت.. يملأ الفراغ الذي يسده بناء قديم متهدم، مهجور. بناء له دهاليز وأبواب منهارة. بعض غرفه كانت صالحة ولكن منذ فترة لم تستخدمه المدرسة.

«سعاد أسمع صوتاً»

«أنا أخاف يا عليا»

«ولماذا..؟!

«الصوت غير مفهوم»

«هذا البناء المهجور يخبئ ساحرات وجنيات. أتذكرين قصة «الساحرة الجميلة» تعالي يا سعاد. ربما هي في هذا المبنى».

«لا. لا. أخاف.»

الفتيات زميلاتنا يلعبن تحت أشجار السرو الكبيرة. يربطن الحبال ويصنعن «زنزوقة» كي يتمرجحن. الآنسة ما تزال تأكل الترمس وتحدث المديرة عن شاب يريد خطبتها. وربما كانت تحدثها عن ثوب جميل اشترته. وربما.. والصوت يئن.. يضيع في الفراغات المهجورة. وأحياناً يعلو.. أو يموت الصوت. سعاد ترفض أن تمشي معي. أمشي باتجاه البناء المهجور. أقترب من الصوت. صوت يستجدي بلا حروف. إنها هي. الساحرة. أقف بدهليز أحجاره متساقطة. أنظر إلى الأعلى أرى بومةً سوداء متكورة في السقف. أتراجع. اصطدم بالجدار وأسقط على الأرض. الأنين يخفت. صوت بكاء. وحشرجة... «أبو بعقة يسألني: كم كعكة تريدين؟!» أستنفر كل طاقاتي وأصرخ «سعاد» يرتفع

صوت الحشرجة يملأ البناء المهجور. «إنها الخرساء يا سعاد. الفتاة التي تبيع غزل البنات. إنها الخرساء. يأكلها الوحش. أحبو في الدهليز. أريد أن أخرج.. لا أقدر على النهوض أصرخ «سعاد». ولكن سعاد ابتعدت خائفة والمعلمات منهمكات بشرح الدروس. أترك الرجل وأمشي إلى الأمام. أستحضر.. اللوح. النوافذ. أشجار السرو الشامخة.. ـ البائع يتعارك مع طفل صغير ـ في أيامنا لم تكن المدارس مختلطة. هناك فتاة صغيرة تركض باتجاه الماء «لماذا تأخرت يا عليا؟!» كنت أشرب يا آنسة. هذا ملعب كرة السلة. وهناك سقطت تلك الفتاة وسال دمها. هنا طردوها من احتفال الثامن من آذار لأنها لم ترتدِ حذاءً جديداً. يا آنسة لا تقبل أن ترقص معنا عليا.. بكيت.. قلت لأبي.. بنات الزعيم السابق يمنعنني من الاشتراك باحتفالات آذار.. قال أبي: قولي لها الثورة للفلاحين.. لا للذين يرتدون الثياب المستوردة الفاخرة. قولي لهم أنا ابنة الثورة وأريد أن أغني لها.. لا يقبلون يا أبي لا يقبلون. لقد احتفلوا بها وحدهم.. رنده وأخواتها وقريباتها.

مع ذلك ركضت وراء الآنسة وهي تسير في الغرفة إلى دار السينما لتقدم عدة فقرات على مسرح السينما الوحيدة.. يا آنسة أنا تدربت.؟!

ـ «معليش يا عليا». في الحفل القادم في نيسان الجلاء. دخلت الآنسة والفتيات الراقيات: قال خالي: إنهن بنات الحرامية.. عدت أجرّر خيبتي. التي تحولت إلى حقد على الآنسة فقط. لكن فرحة الآنسة لم تكتمل. كان لابد أن يحدث ذلك حتى لا أشعر بالندم على حفلة من حفلات الطفولة.

كأن السينما أمامي الآن بزحمتها وموسيقاها.

كأني أنا الآن هناك على الباب الحديدي المغلق أرجع عنه إلى الوراء... كانت الفرقة تدبك على مسرح السينما. الصالة غاصة

بالشباب المراهقين والمراهقات طلاب إعدادي وثانوي.. ممنوع دخول طالبات الابتدائي إلا اللواتي اشتركن بفقرة راقصة أو غنائية.

«اذهبي يا شاطرة. ممنوع دخول الابتدائي»

أنا لا أشارك ولذلك عليّ العودة.. رندة. وسامية. وريم. وميس على المسرح الآن. أما عليا وجميلة ونمنوم ممنوع مشاركتهن. في الصالة أيضاً مدرسون وغير مدرسين ممن يعملون في حرف صناعية أو تجارية أقرباء الطلاب. بدأت فقرات الغناء.. الميكروفونات توزع الأصوات إلى الساحة التي تتسع أمام السينما. لكن الصوت يغيب وتعم العتمة.. إنه التيار الكهربائي.. التيار انقطع..

فوضى. صراخ. بكاء. عويل.. ضجة.. تكسير كراسي.. تكسير أسنان. رجال ينهشون فتيات صغيرات. رجال بأصابع متوحشة تفترس مراهقات. مشارط تلعب بالأحشاء. فتيات يختبئن تحت الكراسي. فتاة في حضن أخٍ يحميها وهو ينزف. صراخ يدوي وأنين وراء الكواليس. والأبواب ما تزال موصدة. معلمة تستغيث بنخوة رجل كي لا يعريها. شبان كثيرون لا حول لهم ولا قوة. منذ لحظات كانت فتاة تغني وتملأ الصالة بالفرح. ها هم الآن يعرونها ويفقدونها أعز ما تملك بأصابع مفترسة.

ياه...

أحزان من صوب الطفولة تأتي. ينفتح الباب.. هذه تبحث عن ثيابها. وتلك عن حذائها. وثالثة تخرج على النقالة. و.. غامت الشمس باكراً وهبط الظلام على المدينة لمدة طويلة. عم صمت.. صمت. عليكن أيتها الفتيات أن تصمتن إلى الأبد. لا داعي لذكر الأسماء ولا للبحث عن الجاني لا داعي لكل هذه الأشياء. سمعتكن تتطلب ذلك.

السمعة؟!.

وتنطلق الفتيات إلى المستقبل بسمعة طيبة ولكن كل واحدة تخفي جرحاً لا يندمل. من يجرؤ على الكلام.؟! من يقدر على إزاحة هذا القناع الضخم «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر».

«أتريدين الكعك يا سيدة»

على المرأة أن تخفي حالات قهرها. واغتصابها. وذلها.. السمعة أولاً. أليس كذلك. ولكن هو الذي مزق ثياب طفلة وافترسها. بائع الكعك هو الذي افترس الخرساء صرخت بأعلى صوتي «سعاد..؟!. لم يسمعني أحد. كان صوتي لا يتجاوز الدهليز الذي سقطت فيه والذي بدأت حجارته وسقفه وكل جدرانه تضغط على صدري عندما رأيت وحشاً أسود الشعر.. ضخم الجثة يجثو فوق فتاة خرساء تبيعنا غزل البنات. كانت تغرز أظافرها في جسده ووجهه. وتهمهم وتصرخ بطريقة تجعل الروح تنبجس من الجسد.

«سعاد..»

الصوت العميق. المجروح. الغامض. والوحش الذي يعيش في الظلمة الرطبة ينقض على فراخ الحمام الآمنة.

«لا.. هو يخنق الفتاة» يخنق خيرية، ولكن لماذا خيرية عارية.؟! ولماذا هو بلا ثياب. «وهل الوحوش ترتدي ثياباً؟! أحياناً. أحياناً يا علي «كان له يد واحدة. والأخرى مقطوعة. كان يضغط باليد المقطوعة على عنق الفتاة أما يده الأخرى فكانت لها دورها. كان يتكوم كزبالة عفنة والفتاة تنتفض كطائر مذبوح أصيب برصاصة. خيرية لم تكن تتجاوز الرابعة عشرة. ربما كانت أكبر بقليل أو أصغر بقليل لا أدري. كانت صغيرة الحجم. «تفوه عليك.. يا كلب يا حقير» لم اقل غير هذه الكلمة. رفعت حجراً وضربته بها.. أصبته.. ولم يشعر بي. حملت أخرى وضربته على رأسه.. عوى كذئب. هربت وأنا أشير بيدي. ولكن لم يخرج صوتي. جئت إلى الآنسة.. أشرت لها وأنا أرتعش.. لم تفهم

شيئاً.. أمسكت بيد الآنسة وأخذتها إلى البناء المهجور. تجمهرت الفتيات.. وعندما وصلت الآنسة كان الأوان قد فات. لم تفهم المعلمة شيئاً. الفتاة الخرساء لم تستطع أن تقول شيئاً. ضاع السر فترة طويلة. بعد ذلك لم يعد له قيمة. عاد الوحش يبيعنا الكعك ومكان إصابته بالحجر واضحاً.. لم يعرف من أين جاءته هذه الحجر الصغيرة وأنا لم أقدر أن أقول شيئاً.. كنت قد فقدت صوتي وتحولت إلى فتاة خرساء.

المعلمات في ساعة الرياضة.. أو في ساعات الفراغ يجتمعن.. يثرثرن ويطلبن من التلميذات إبريق ماء وشاي.. كنا نقترب منهن وكنت أسمعهن.

«خيرية حامل.؟!»

«تصوروا الكلبة. الحقيرة!»

«أهلها القذرون يتركونها تبيع وهي ليست أهل للثقة»

غابت الخرساء. لم أعد أراها. الوحش «أبو بقعة» يبيع الكعك. كل صباح أراه فأضطرب وارتجف.. تمسك سعاد بي وتدخلني إلى الصف.

«ما الذي أصاب عليا؟! لماذا صارت خرساء.؟!»

أخذتني أمي إلى المزارات. ذوبت لي البخور في الماء. رشت على رأسي تراب الأولياء ونذرت بعض المال للفقراء. ولكن لا فائدة.

ضاق منزلنا. أمي تبكي كلما نظرت إليّ. أبي العجوز تكوم فوق صخرة عند «جدار الحاكورة» يرقبني وأنا احل وظائفي وأكتب مواضيع التعبير، تغرورق عيناه وهو يضمني إلى صدره بحنان.

مرت شهور. بعد ذلك شاع خبر في المدينة. البحر لفظ جنيناً إلى الشط.. مات الجنين.. أمه مجهولة.

بعد ذلك قيل.. أبو بقعة.. قطعت يده الأخرى وهو يضرب

الديناميت ليصطاد السمك.. غاب هو الآخر عن بيع الكعك في المدرسة. معلمتي تربت على كتفي وتنظر إليّ بحزن. لا أحد كان يعرف ما الذي بي.. ولا الذي رأيته. وحش. أجل وحش حقيقي. بقيت زمناً طويلاً وأنا موقنة أن أبو بقعة خنق الفتاة لذلك كنت أهذي في الليل وأخاف العتمة والدهاليز. وكنت أظن أن أبو بقعة هذا لم يفعل شيئاً إلا أنه يتحول إلى وحش في أوقات معينة ويخنق الفتيات.

انتهت المدرسة. نجحت. رحت أشارك أمي بقطاف التين صيفاً. وأساعدها في سطحه في المساطح. وعندما تشاجر أخي مع ابن الجيران. قال الأخير: «يا عيب أختو خرسا»

انقض عليه وضربه فنزل الدم من أنفه. حزنت أمي. وكنت أسمعها تغني غناءً حزيناً وهي عائدة من سطح التين. أخوتي كانوا يلتفون حولي والصمت يغمرهم. يدللونني. يقطفون لي عناقيد العنب. ويأخذونني معهم أينما يذهبون. كنت أرسمهم وأكتب لهم الأوراق الصغيرة. أوزعها عليهم. كل ورقة تحمل اسم واحد منهم. وكل ورقة أكتب في ذيلها «أحبك يا أخي أو يا أختي». كنت أدرك تماماً أني أسبب لهم الحزن.

أخي الكبير يقرأ الورقة يغالب دمعة. في كل يوم يسألونني ما بك. أكتب لهم رأيت وحشاً يخنق خرساء المدرسة.

«بلى. ماتت»

أمي لاحظت أني أخاف نوعاً معيناً من الرجال. أشير بأنه ذئب. من يومها ضيعت الإنسان ووجدت الذئب.

قبل افتتاح المدرسة سمعت أمي تقول لشيخ أحضرته خصيصاً لرؤيتي.

يا شيخ.. لدي فتاة صغيرة. يبدو أنها فزعت في المدرسة. في

الطريق. لا أعرف كيف.. مرضت ونحل جسدها.. بكت أمي وهي تقص على الشيخ حكايتي.

بعد ذلك فقدت صوتها.

ـ يا أم هاشم. لا تقنطي من رحمة الله. اغلي لها ورق الريحان.. اغسليها بمائه لمدة عشرة أيام.. وليقرأ أخوها القرآن على مسامعها كل يوم. ثم احفري حفرة واسكبي ماء الريحان به. بعد ذلك ستشفى الفتاة بإذن الله إن لم تكن تشكو من شيء آخر. هذا إذا كانت روحها طاهرة. أما إذا كانت روح الفتاة خبيثة فإنها...

«ماذا تقول يا شيخ. أي روح هذه طفلة»

«لم أقل شيئاً يا أم هاشم. جربي ما أقول»

أخذت أمي كل يوم تنفذ وصايا الشيخ. شعرت أن ماء الريحان احتشد كله في دمي حتى كدت أصير ريحانة.

في أحد الصباحات أفقت باكراً.. قلت لأمي صباح الخير.. صرخت أمي بأعلى صوتها.. أبو هاشم.. هاشم.. ثم أغمي على أمي.. امتلأ بيتنا بالجيران. حملني أخي على ظهره وراح يركض.

«أخ.. الحمد لله. قال أبي»

«بدأت الأسئلة تنهمر علي.. ما الذي حدث. ماذا جرى؟!»

«لم أعد أذكر شيئاً. نسيت كل شيء. عدت إلى المدرسة. عدت نشيطة. استقبلوني بالغناء. سعاد همست: «اشتقت إليك» المعلمة قالت: عليا عرّيفة الصف. وعندما أردت تفقد البناء المهجور لم أره. كانت جرافات كبيرة قد نقلته خوفاً من انهياره على التلاميذ.

عليا ما تزال تجمع نتف الذاكرة. المكان يبث في خلاياها السنوات القديمة. الدهشة أيقظت أحاسيسها. ها هي تتوغل في الماضي وتتقدم باتجاه منصة المدرسة.. المنصة غاصت قليلاً. لم تعد مرتفعة كالسابق

لتطل على السرايا القديمة.. صوت النشيد يملأ أذنيها.

رآها آذن المدرسة.

«ماذا تريدين يا آنسة؟»

أتعرف ماذا أريد يا علي.

أريد الإنسان الذي ضيعته هناك في ذاك البناء المهجور وأنا في الصف الرابع. بل الإنسان الذي مات في تلك اللحظة. الإنسان الذي كانت في قريتي يقتل الذئب ليعيش الحمل الصغير.

ـ ولكن هذا الحمل أخيراً يذبحونه ويعيدون عليه.

ـ ..آ.. أجل.

ـ إذن الحياة هكذا؟!! حمَل وذِئب؟! يا إلهي. وأكداس النظريات؟

ـ النظرية شيء والتطبيق شيء آخر! القول شيء والممارسة شيء آخر.

ـ هذا الفراغ.. أو هذا الوادي السحيق بين المقولة والممارسة هو سبب انعدام التوازن.. سبب هذه الحرب المضطرمة في أعماقنا.. أ لهذا أبحث عن الماضي كي أحكم على الحاضر؟!

أو ربما نحن لم نفقد الأمل بعد. نريد البحث عن شواهد تؤكد وجود الإنسان.

«ربما»

ـ أحياناً أجد الإنسان مظلوماً.. أقصد الإنسان الذي تحول ولبس ثياب الوحش. قد يضطر لذلك كي لا يكون الضحية.

عندما تسرق إنسانية الإنسان.. يلجأ إلى أنسنة المال والسلطة والحرامية والجشع.. يفعل ذلك ظاهرياً. ولكن في العمق يكون العكس.. إنه يتحول إلى وحش ويقول.. هل من مزيد؟!

هل من مزيد. مال.. أزلام. حراس. نساء. وغابة لترتع ضباعه فيها.

ـ يا أختي ماذا تريدين..؟

ـ حضرتك الآذن في المدرسة؟!

ـ نعم. ماذا تريدين؟!

ـ أريد فتاة صغيرة.. أسأل عن طفلة في المدرسة..

ـ ما اسمها؟!

ـ عليا القاضي.

ـ في أي صف؟!

في الصف الرابع الشعبة الأولى.

يركض الآذن إلى الشعبة الأولى وأنا أركض في فجوات الهواء.. أدخل دائرة الضوء.

أختصر أزمنة. يعود الآذن.. هي غير موجودة. ربما كانت في الدوام الثاني.

هل أسأل المديرة؟!

لا. لا. شكراً.

«ما هي صفاتها؟! ربما أعرفها. فأنا أبيع في الدوام الثاني «أي بعد الظهر»

ماذا أقول له صفاتها.؟

أ أقول بأنها ابنة موظف؟! لن يرد عليّ بالتأكيد. لو قلت له: هي ابنة فلاح. أيضاً لن يرد. ربما يرد إذا قلت له إنها ابنة جنرال. ابنة مدير قطاع عام.. ابنه متعهد أبنية الدولة. مدارس وطرقات وجسور.؟!

أم أقول هي ابنة مزارع كبير اشترى كل بساتين القرية بالترهيب والترغيب.

«هي خرساء.. لا تتكلم؟!»

«خرساء.. وفي المدرسة هنا؟!!»

«أجل.. نحيلة. كانت نحيلة. ركضت باتجاه المبنى القديم. فرأت به وحشاً يأكل اللحم البشري. الوحش هرب. واللحم البشري حكموا عليه بالنجاسة. الوحش الذي أكل خيرية ما يزال هنا.. ألم تره.؟!»

«أنت متأكدة أن الفتاة في هذه المدرسة؟!»

«الحقيقة أنا غير متأكدة»

تركني الآذن ومضى.. جدران المدرسة عتيقة. دهانها أجرد.. باهت.. الأشجار الكبيرة بدت هرمة وأغصانها مكسورة. والسور الذي كان يحيط بباحة كبيرة تقدم إلى الداخل.. ضاقت الباحة وامتلأت بالقاذورات. بينما ارتفعت في المكان الذي أكلته المدينة دكاكين الخضار والدخان المهرّب. والأدوات الكهربائية.

عاد الآذن وإلى جانبه معلمة. أشار إليّ. وقفت المعلمة تنظر إلى امرأة ترتدي ثوباً أبيض اللون.. هذه المرأة هي أنا التي جاءت إلى زيارة علي من أجل الاحتفال بعيد ميلاده. أردت أن أقول لها مرحباً. لم أقدر.. عدت خرساء. تقاربت أسوار الباحة. خنقتني. والسماء المكتظة بالغيوم المسافرة افترّت عن غيمة هطلت على رأسي. لابد أن أقتل الوحش القابع على الباب. عند ذلك أستعيد صوتي.. لماذا عليّ الهروب دائماً.. هذه الحالة بدأت تستشري.. أحياناً لابد من المواجهة. سأقتله.

دخل الطلاب إلى الصفوف. أبو بقعة أمام المدرسة يبيع الكعك. يدي ترتجف. جربت الصراخ فلم أستطع.. كان البائع يجلس على كرسي صغير.. حملت غصن سرو مكسور.. وبكل هدوء.. بكل

الخرس القديم والجديد هويت بالعصا على رأس الرجل.. سقط الوحش.. الوحش ينزف دماً من رأسه.. لم يصرخ. ولم يقل شـيئاً. لقـد هـوى ككرسي مخلوع «أيها الوغد» هؤلاء الأوغاد أعداء الإنسانية. لأنـهم.. يخربونها. لقد سمعت صوتي. «وليه.. ماذا فعلت؟».

«لم أفعل شيئاً يا سيدي. صدقني»

«لماذا ضربت الحاج.؟!»

«أنا ضربت الحاج.؟! أبداً أنا ضربت وحشاً كان يبدو أليفاً. انتـهز فرصة وجود الخرساء وحيدة.. دخلت الفتاة إلى الدهليز المهجور.. ربما كانت تبحث عن بيت خلاء.. دخل وراءها.. أكلها.. لا.. لا. لم يأكلها.. لقد قتلها.. كانت حديقة صغيرة تنمو وسط التلاميذ.. تنظر إلى المدينـة على أنها مدينتها والتلاميذ أصدقائها.. وكانت تأخذ كتبنا وتنظر فيـها.. ثم أخيراً جاء الوحش دعس ورودها. وقطع أعشابها.. ومزق التلاميـذ في عينيها. هدم المدينة أمامها. ولم يكتف. لقد اغتصب المدينة.

«أنت ضربت الحاج أبو بقعة.. الرجل المعطوب الذي لا يد لـه.. إنه عاجز».

«لا يمكن يا سيدي.. أبداً. هو ليس عاجزاً.. كيف إذن استطاع أن يمسك سكيناً بيده.. يغرزها في اللحم البشري.. يـأكل بـاليد الأخـرى ويغرف الدم؟! لم تكن خيرية تؤذي أحداً.. كل ذنبـها كـان فقـط لأن جسدها يمتد من تاء التأنيث إلى نون النسوة».

«ماذا تقولين يا امرأة.. من أنتِ؟!!»

أنا؟!!

أنا التي جئت من صوب البحر.. لم يصدقني أحـد. قلـت لـهم خرجت من الموج. كنت أعيش على ملح البحار.. لقد سحرتني الآلهة.. جعلتني سمكة، تصور..؟! زوجة الإله ادعت أني عفريـت زوجـها.؟!

كيف تغوي امرأة أرضية آلهة السماء..؟! أنا يا سيدي لا ذنب لي «هيرا» هي السبب.

«من يقترب سأقتله. أو أمسخه كلباً»

جابالا.. أيتها المدينة البحرية المستنفرة. جابالا تصوغ حكاية جديدة ــ امرأة من صوب البحر تسحر الرجال وتحولهم بعد ذلك إلى ذئاب. ثم تقتلهم»

«جابالا.. يا المدينة المسحورة.. رددي.. «أمة عربية واحدة..... ذات. حصون.. وآلهة.. وساحرات. ووحوش.. و..

«رددوا»

«بسم الله الرحمن الرحيم»

«يا أم عارف.. ألم أقل لك أيقظيني باكراً..»

«أيقظتك يا بنتي لم تردي.. كنت تبكين. وتهذين. أمسكت بيدك.. ناديتك.. قلت كلاماً غريباً. ثم قلتِ: لقد قتلت الوحش..»

«أنت منذ فترة يا بنتي تهذين وتصرخين في المنام»

«أعدّي لي القهوة يا خالة.. سأذهب إلى جابالا.»

أم عارف شاهدة يا علي.. على أني نويت أن أزورك وأن أسهر معك.. كنت مكتظة بوجهك.. بشعرك. حضورك كان طاغياً. وما يزال.

جئت.. لم أصل. أجل. لكن لي أيضاً ظروفي.. لست وحدك الذي يعاني من هذا الزمن اللولبي الذي نعيش فيه كثافة تغيير تعادل التغيير في قرون.

الرياح الغربية تلفح وجهي. تلفح المدينة. يختلط الحاضر بالماضي. يبقى المستقبل لغزاً. لا أحد يمتلك الحقيقة. وأنا أجيء من صوب البحر. أرش المدينة بالمطر فتحترق الطرقات ويظهر من الرماد

رجل مشوه القامة، مسكون بالرماد والخوف. لا يشبه الإنسان ولا يشبه الحيوان. قد يكون جنياً سلطته أبدية. قالت الساحرة العرافة: المرأة ـ أقصد أنا ـ ستكون شاهدة على بناء ودمار. خراب واخضرار. ستكتظ الأرض بالحيوانات والبشر. لا يقدر بعض على تمييز شيء من شيء. سينبثق من جوف الآلهة السفلى ذهب أسود منصهر.. سيعمر الجبال والصحاري والوديان... يردم البحار والمحيطات ويرفع جسراً في السماء. وسيجوب أزلامها أقطاب الأرض باحثين عن حوريات وجنّيات.. سترتفع حصون حتى تعانق السحب، وستتشبه النساء بالرجال وتتشبه الرجال بالنساء. وسيغيب من الفؤاد وقار الإيمان. وستصير ملامح الإنسان كملامح الحيوان ـ سيأكل المال الذي يصير الاله المعبود.. وستكون هناك جماعة النهي عن المنكر والأمر بالمعروف.. ستأكل لحم الأطفال وتشرب النساء. وتحمل السياط باحثة عن ناقةٍ لتعقرها باسم الأمر بالمعروف.. الناقة تأكل العشب والعشب ملك لله ولا يحق لدابة أن ترعاه.. ستمور الأرض يا أخوتي. ولكن لن يطول الأمر كثيراً.. ستأتي امرأة من صوب البحر. امرأة مقهورة. تذرّي قهرها على التراب والرمل والبحار. ستعم الحروب ويقتل الأب ابنه والأخ يقتل أخاه.. والأم ترمي ولدها.. سيمتلئ الشاطئ بأطفالٍ لم يكتملوا في أحشاء أمهاتهم وسيتخذ الرجل خليلات كثيرات بديلاً من الجواري السابقات.. ستعود «عَريب محظية الخلفاء» ساخرة من الجميع ستعود سيدة الجميع ستثورون في وجه الكتّاب..

«أيها البلهاء.. الشامتون.. يا من ترجمونني بكل النواقص والذنوب والشهوات، هل نظرتم حولكم؟!» ألفُ عريب يا عريب هنا.. آلاف.. بيع لحم أبيض وأسود. سوق نخاسة. كل ذلك باسم الحضارة. كل ذلك يتم تحت ستار الأمر بالمعروف..

«استتروا»

«إذا ابتليتم».. «استتروا» الشقق الفاخرة ستارٌ محترم أكثر من

الخيام يا عريب.

تضحك عريب.. صوتها يفجّ القصور ويدخل ليرى الخليفة الجديد وحوله جاريات الغرب والشرق. آراميات وعموريات. وآكاديات.. و.. والربة أوروبا.. تديرهن بعصا من ذهب وماس.. لم تكن الربة وهي تشرب الخمر منتبهة إلى راعي البقر الجديد. «الكاوبوي» حين خلّصها العصا.. وساق القطيع.. آه يا عريب ابكي.. ستبكي عليكم عريب».

تصمت الساحرة..

«لماذا تصمتين.؟»

«السحر مرفوض.. حرام.. ملعون»

«قولي يا جدة..؟!»

تخلط العجوز عطرها. وقواريرها.. «الآن سأصمت.. جماعة الأمر بالمعروف ستمر قريباً ستكسر زجاجات السرّ.. دعوني اليوم يا أبناء الأرض الجديدة.. غداً أعود..»

«هذا وعد يا جدتي؟»

«وعد.. أيتها المرأة من صوب البحر»

«يا بنتي.. ما بك؟.»

«أم عارف.. هكذا رأيت في الحلم.. دعيني أكمل..

كنا مجموعة نتحلّق حول الساحرة.. غضبت عندما قلنا لها أيتها الساحرة

«أنا لست ساحرة.. أنا عرّافة.. عرافة أسمعتم»

سيأتي يوم تتمنى فيه الحرة دور الأمَة.. ستتداخل الأزمنة. وسيجري الدم في الساحات. في كل مكان. وسيظهر رجل أعورٌ مبتور

الأطراف وله أذن واحدة سيسمع هسيس العشب في الشرق والغرب. وسيطغى الرجل الأعور، سيحرك جيشه للقضاء على الورد والحلم.. واخضرار الشجر. أمّا الإنسان القابض على الحقيقة كالقابض على الرمضاء.. سيجرونه أمام الملأ. وسيجلدونه.. وينادون به «باسم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. نجلدك أيها الكافر» وقد يذبحونه ذبح النعاج..

ويسلخون جلده.. وعندما ستغيم السماء ويهيج البحر. ستميل المدينة غرباً فتنبثق امرأة من صوب البحر. لا هي حورية ولا هي جنية. لا إنسية ولا وحشية... سيعمّ الذبح والتشريد. ستتهدم المنازل وتحترق الحقول.. ستغضب آلهة الأرض السفلى وستخرج البراكين من عقالها.. سيخرج إله النار.. يبدأ بالتهام كل ما بنوه وما سيجوه ويلمس إله البطش كل الأحجار الكريمة المخزونة فيحيلها إلى حجارة وكل المركبات الفارهة. براً وبحراً وجواً وتحيلها إلى هياكل جامدة. ستتدحرج الرؤوس في الشوارع كحبات الكرز. وسيتشاجر الرجال على تلك المرأة الفاتنة. ولكن لا أحد يقدر أن يمسك بها.. هل يقدرون أن يمسكوا النور أو الماء أو الهواء بأصابعهم؟! إنها ستتسرب كهذه الأشياء..

«آه.. يا جدتي.. نحن خائفون؟!»

«العرافة لا تسكت.. تظلّ تتابع. ونحن نظلّ حولها مقرفصين متكورين على مستقبل نخاف أن يأتي أو لا يأتي.

«ستجف المياه.. ولن يبقى إلا عدة أنهار منها الفرات والنيل كي تغتسل الآلهة والقديسون والعرافات. وسيعود الإنسان ثانية على ضفافها ليبدأ من جديد بناء الأرض التي خرّبها ودمرها.

ستموت الأنعام. وسيعمّ الجراد. تتشقق الأرض وتصرخ من العطش القاهر.. يصير الشقّ كخندق يبتلع الرجل. يموت أبناؤكم. إلا

القليل القليل. ويأتي الطير فينقر عيونهم. والمرأة تنشـر نارهـا علـى المدينة إلى أن يأتي رجل من صوب القمـم.. العاليـة.. «كاسـيوس» صفّون.. أورانوس.. أوزيوس.. أوحرمون: أو.. رجـل مـن الجبـال العالية حيث مقر الآلهة. بعل.. مردوخ.. ينسكب نوره علـى الأرض. يتبعه الحيوان والطير والأشجار ويفرّ منه الإنسـان.. وحيثمـا يمشـي يخضر العشب اليابس ويزمزم النحل وينبت الماء. يهدي الناس إلى حبّ البشر والطير والشجر.. إلى الحبّ الإلهي المقدس. المـنزّه عـن كـل غرض وغاية.. تحاول جماعة النهي أن تقتله.. «إنه دورنا يا سـيد».. فينظر إليهم شذراً ويتابع.. عليكم أن تصدقوا مع أنفسـكم أولاً ولكنـهم كاذبون.. فيمسخهم يرابيع كبيرة تعيش في شـقوق الأرض. وتخـرّب السدود الجديدة بعد عودتها إلى حالتها الأولى حيث خرّبت سد مـأرب وعمّ الخراب..

الرجل القادم من الأعالي. يرى المرأة القادمة من صوب البحـر.. يقع في هواها. تجتمع العتمة بالنور. الماء بالنار. يتبدد سرّ المرأة فـي أولاد كثر.. يحاربون أعور المدينة. يلقون في وجـه أتباعـه التعـاويذ وينفخون في وجوههم النار.. فمن تلفحه نارهم يخرّ ميتاً. ها هم ينحتون الصخور ويصنعون أقنعة واقية لوجوههم.. يربّـون الذقـون الطويلـة ويتجولون ليلاً. يمشون زحفاً في البلاد حتى لا يلفحهم الهواء المقـدس فيذيبهم كما يذاب القصدير. يحفرون بيوتـهم كأوكـار. ويفـرّون فـي الأصقاع. تابعين الرجل الأعور الذي يسلخ من يعارضه والـذي يتبـع رجل المحبة الذي أرسلته آلهة الغيم والمطر والرعد والخصـب. آلهـة الشمس التي تذيب صقيع الحروب والبغضاء والفساد والنهب الذي عـمّ كل شيء.

«يا أبنائي.. المؤمن هو المؤمن يظلّ ويظلّ قابضاً علـى الجمـر ويظل يبثّ النور للإنسانية» المرأة القادمة من صوب البحـر والرجـل القادم من الأعالي. ينجبان الذرية الكثيرة. التي تقتل الأعور وأزلامـه..

تتطهر الأرض. وتنتش نباتات المحبة. لكن كان هناك حفيداً للأعــور.. كان يختبئ في جوف شجرة زيتون قديمة. اختبأ بالزيتون ليبــدأ رحلــة جديدة مشابهة للرحلة التي انطلق منها.

يصرخ.. جئت من الرماد. جئت لأهيئ لخراب جديد. هكذا تبـــدأ اللعنة.. تكبر. تكبر ويظلّ أحفادي يصارعون رمادهم.

«يا آنسة. سألتك.. أتريدين الكعك..»

«تفوه عليك. يا كلب. يا سافل. أنت ابن الأعور»

«ماذا تقولين أيتها المجنونة»

«أقلب صينية الكعك على الأرض وأمشي. يتبعنـــي بـــائع آخــر صارخاً في وجهي لا تشتم.. كم ثمن الكعك.. خذ.. أعطِ هذا الحيــوان. أرمي له النقود وأفر هاربة.. أتذكر الكابوس الذي أراه باستمرار والذي توقظني أم عارف وأنا في أوجهِ.. تسمعني أصرخ وعندما أستيقظ ألهث متعبة كأني كنت أصعد جبال همالايا. يغمرني العرق.. أنظــر إلــى أم عارف. بتساؤل وقلق.

«أنا أم عارف يا بنتي»

«آ.. صحيح.. عذراً يا أم عارف الحقيقة. ضغـــط المحــاضرات والجامعة كان قاسياً الليلة لذلك أرى كوابيس مفزعة..»

أحياناً أعود لأتابع نومي.. وأحياناً أخرى لا أقدر.. فأشرب الزوفا وأقرأ كتاباً ما..

«سامح.. هذه الحالة تتكرر معي باستمرار.. لم تكن قبل أن أزور جابالا بعد غياب طويل»

أمر بباب الســينما.. أراه مقفــلاً.. أرى النقــالات تخــرج مــن جدرانها.. فتيات صغيرات.. مدبوغات بالهزيمة..

«لا تقلن لأحد» وإلاّ العار.. العار

أشعر بحاجة إلى الذي رحل.. أهمس له أن يأتي.. «أنتم السبب يا أمي»..

المدينة ضيقة. ضيقة. الذاكرة أكثر اتساعاً. الحزن. الألم. الانتظار. كل هذه الأشياء أكثر اتساعاً. إسفلت الشارع يبدو كرماد يعلّق على حذائي. أنظر إلى ساعتي.. لا اصدق بأن كل هذه الساعات مرت وأنا أتسكع وحدي في المدينة أحاور فتاة أعرفها.. أو امرأة مرت من هنا. وسنوات بعيدة. «إن هبت أمراً فقع فيه» كم تهيبت هذه اللحظات.. تهيبتها وتهيبت مواجهة المدينة التي أخذت أشيائي الحميمة.. هذا الخوف لازمني طويلاً لدرجة أني تخاذلت يوم طلب إليّ علي أن أسهر معه لوداع السنة.. لم أجرؤ دخول المدينة بعد أن وصلت إلى الساحة التي تطل على دار السينما والمدرسة وتتوزع إلى الحارات التي عشقتها.. رآني السائق أترجل فأسقط على الأرض.

«ما بك يا أختي»

«يا إلهي ما تزال الدنيا بخير»

هناك بشر في المدينة وهناك ذئاب..

يا أختي أنا مثل أخوك.. أمسك بيدي.. نهضت. شعرت أن نقالة تجول باحثة عن امرأة منكوبة..

«أرجوك.. هل تعُود بي إلى الجامعة ثانية؟»

«حاضر..»

عدت.. لم أجرؤ على اختراق عالم بعيد.. كنت جبانة جداً. لا.. كنت وفية جداً لدرجة أن علياً «زعل»، افترقنا لفترة.. خسرنا فيها الثقة وأشياء كثيرة.

«سامح.. هذا الكابوس الفظيع يتكرر كلما فكرت بزيارة علي في جابالا. إنه حلم مخيف»

أنسيت؟! الكابوس الذي رأيته أول مرة أزور فيها المدينة لأحتفل مع علي بعيد رأس السنة. لم أستطع أن أكمل. عدت. لم أقدر على اقتحام عالم سحيق سبق وأن مررت به.

«على كل حال لا تخافي.. لا أهمية لمكان الحدث في تحليل الحلم»

عليا.. اسمعيني جيداً.

أنا وأنت وحدنا. أريد منك الحقيقة. آسف لتطفلي. ولكن أنا أتحدث الآن كصديق وكطبيب. أريدك أن تكوني صريحة. هذا الهروب الميتافيزيقي. ما تفسيره؟! ــ أتحبين علي؟!.

ــ تسألني أنا؟!!

ــ طبعاً؟!

ــ لا أعرف.. لم أعد قادرة على تحديد الجهة التي أتوجه إليها. أحياناً أكفر بكل المشاعر الإنسانية. نحن مسحوقون.. لا يحق لنا الحبّ ولا الاستقرار. إننا ورقة تحركنا الرياح القوية.

ــ لماذا تلتقينه؟!

ــ أحياناً أشعر بشوق لأسهر معه. لأراه وأتحاور معه.. إنه شاعر كبير كما تعرف. يملأ روحي بورد قصائده. ولكن هل تكفي القصيدة طعاماً للمحبين؟! فجأة أجدني أتراجع. المستقبل يشكل بؤرة خوف بالنسبة لي. ممنوع عليّ الفرح. أحياناً أفكر ألا أراه أبداً هكذا نمسح عذابنا.

ــ هذا هو الهروب. وهذا هو الكابوس الحقيقي.

ـ لم أعد قادرة يا سامح أن أحب بعواطفي. لا وقت لدينا لنحب. لنحترق.. أنا أحب الآن بعقلي. وعقلي يرفض أشياء كثيرة. لذلك أعدّ للعشرة قبل أن أقدم على أية خطوة.

العقل يملي شروطه فلا تستطيع أن تخالفه. أحياناً أشجّع الزواج المبكر.. أراه الأفضل لجيل يكثر الأسئلة والحيرة.. زواج أمهاتنا وآبائنا قبل أن يملي العقل شروطه..

ـ أترى يا سامح أن للزواج ميزات كالسابق؟!

ـ لا أعرف ماذا تقصدين. أهو تجارة؟!

ـ لا.. هو ربح وخسارة بالنسبة لامرأة مثلي. لا أستطيع أن أغلق علي قفص الزوجية. أطفال ومطبخ. وبلاط نظيف، وبالمقابل.. وأنا امرأة موظفة. عاملة. أساوي زوجي مرتبة وراتباً. لا أستطيع أن أفرض عليه غسل الصحون ومساعدتي في الأمور المنزلية. إذاً ماذا يجني عليّ الزواج غير العذاب والانشطار النفسي.

هذه ليست حجة.. قد تأتي بمربية.. وقد يكون الزوج واعياً لهذه المشكلة.. أو هناك دور حضانة.

ـ الزوج الواعي يسبق القوانين.. أعترف بذلك.. هو الآن يتخلى عن الكثير من حقوقه للمرأة العاملة الواعية. ولكن إذا أراد أن يقول: لا.. فلا أقدر أن أجبره بالقانون. ثم أين المربية يا دكتور؟ أين دور الحضانة التي تستأمنها على أعزّ ما تملك. المربية تحتاج راتبي كي تقبل مساعدتي.. و.. كأنك يا سامح ما تزال تظن نفسك في أوروبا.

ـ يضحك سامح «اطلبي مربية سيرلانكية؟!»

ـ ..آ.. كهؤلاء الذين يحتاجون إلى سيرلانكية للطبخ ولخنق الأطفال. وإنكليزية للغة. ويابانية لـ.. و

ـ خلاصة ذلك كله؟!

ـ لا أعرف يا سامح. أنت ما رأيك؟! أأنا أحبّ «علي» أم أخاف أن يصدم؟! لأعترف. أنا بحاجة إليه. بحاجة إلى رجل يسند مخاوفي وأنوثتي. لكن أخاف أن يعجز عن هذه المهمة. أخاف على ماضينا الجميل أن يضيع في أرجل المستقبل. لذلك تجدني مترددة. تصور. لم يقدر أن يعذرني يوم أخلفت بموعدي. الحق عليّ. أعترف. لكنني جئت يا سامح ولم أستطع الاستمرار، أشياء كثيرة منعتني. أنت تعرفها. بالإضافة إلى أني لم أرغب في تحدي المجتمع «امرأة وحيدة تدخل بيت علي عصراً وتخرج منه آخر الليل. أو في الصباح. لا أستطيع تحدي مشاعر المجتمع وحدي.. لا تقل لي هذه ترهات لأن عليّاً ذو أخلاق عالية. وأنا أثق به. ولكن كيف تغير تفسيرات كثيرة.

«ما اجتمع اثنان إلا وكان الشيطان ثالثهما» معقول؟ بيد واحدة لا تقدر أن تخيط رداءً مشقوقاً.

ـ أعرف أنك تحبين التحدي. قال سامح بصوت يفيض ألماً وحناناً. ارتبكت عليا.. لم تعرف تفسير هذه الأسئلة المتلاحقة.

عدت أيها الراوي؟!!

أخاف أن يخطفوك مني. أريد أن أكمل عنك.. مللت من الاستماع. ألا تحبين الاعتراف؟!

ولكن لم أتعب بعد.. مازال لدي الكثير لأقوله ولتسمعني أنت.

عليا تملك رغبة التحدي. ولكن لن تتبعها المرأة. ستظل عليا نشازاً لأن المرأة ضعيفة. مترددة. تلبس الثياب الحديثة وفي أعماقها تختبئ الأمَة.

اسكت أيها الراوي. دعني أكمل.. لا أقبل أن تكون الناطق الرسمي باسمي. أنا أيضاً مثل هذه النساء. هذه مسألة بيئة. مسألة تراكم.. مسألة محيط يفرز عناصره الموائمة له. أنا أرى أن هذا يجافي

الواقع.. وأعرف أين يمكنني أن أقف وذلك بحكم ثقافتي واغترابي.. أعرف ما لدي وما عليّ. ولكن مثل كل مواطن أنا.. هل يقدر العامل أن يدخل على مديره ويقول له أنت حرامي؟! لا.. لا. لا يقدر. هو يساعده في تحميل السرقات ولا يجرؤ أن يلفظ ذلك. ثم إن أحداً لن يصدقه.

هل يصدقون بأني سهرت مع علي حتى الصباح لنشرب القهوة والشمبانيا فقط؟! غبش المدينة بدأ يهبط.. شرفات صغيرة تخرج من أبنية قديمة.. فتيات يسترقن النظر إلى الشارع. إنهن لا يعرفن كيف ينظرن بوضوح للأشياء. أراهن أنهنّ الآن وراء الأبواب ينصتن لحديث الرجال.. وأرى الأمهات «يبعقن» «ادخلي جوّه وليه».. المدينة تتطاول أمامي.. تسرّح شوارعها إلى الغرب. أجدني ألتف على حارة لي فيها وردة قديمة.. وردة قصفت بسنوات بعيدة ولكنها لم تمت. آه.. أريد أن أبكي. بحاجة إليك يا خالد الآن.

«أنا أستبدلك؟!»

«لا.. لا أقدر. أنا أبحث عن شبيه لك»

لا تحملني قدماي لأمشي باتجاه الأماكن التي عرفناها معاً.. دائماً أهرب من هذه النتف الصغيرة المختبئة في زوايا الذاكرة.. سأهرب.. هكذا لأعترف ـ كما يقول سامح.. صوت خالد في كل مكان.. تمر بقربي سيارة تاكسي.. أشير لها.. أصعد إلى داخلها المعتم. أرجوك خذني إلى حارة الـ... كانت السيارة تمشي ببطء.. ببطء. أردته أن يسرع.. قال لي إنه يسير بسرعة. كنت أشعر أن السيارة لا تمشي، أن المدينة تتفرج على امرأة تسرّح ذكرياتها وقهرها على النوافذ والشرفات. كل الذين أحببتهم في هذه المدينة مرّوا أمامي خلال لحظات.. من أشجار حديقة البلدية. إلى المصابيح المكسورة إلى المعلمات والطالبات. والجيران. كلهم وقفوا.. نظروا إليّ ومشوا. لم ينتظروا أن أسألهم عن أموالهم.

«هنا إذا سمحت»

مرت أيام وأنا في هذه السيارة. عندما نزلت.. شعرت أني أخرج من سجنٍ قديم.. رأيت النور يلفّ الشارع.. منزل علي.. هنا. أرى سيارة سامح أمام الباب. يبدو أنه سبقني.

رجلان يجلسان في البهو..

الأول يستلقي على الأريكة وهو في كامل أناقته. يتصفح مجلة.

الثاني يقول: لقد اتصلت بالمنزل.. قيل إنها خرجت.

الأول.. ربما غيرت رأيها كعادتها.

ـ لا.. معقول..؟! اتفقنا أن نلتقي هنا. ثم ننطلق إلى الجهة التي نريد.

ـ الأول. الطقس جميل هذا اليوم.

الثاني.. سأتصل بها ثانية.

هي. تقرع الباب.

ـ الأول. انظر من العين السحرية. لا أريد شخصاً غير مرغوب فيه.

ـ الثاني.. ورد على العين السحرية يغطي الوجه. أتكون إحداهن؟!.

الأول.. لا تمزح. تعرف أني أنتظرها..

الأول كان يستلقي نهض وأصلح شعره. إنه علي الذي خرج من أزمة حادة.

الثاني. كان سامح الذي يعاني قلقاً على تأخر عليا.

أنت؟!!

لماذا كل هذا الوقت.؟ أين كنت؟ لقد انشغلنا جداً.

يبتسم علي.. يأخذ يدي عليا بين يديـــه.. يقبلـــهما.. ينظـــر إلـــى عينيها.. تتغرغر الدموع يخفي كل منهما غصة. تسحب عليا أصابعـــها بهدوء من يدي علي ثم تعانقه بشوق.

«الحمد لله على السلامة»

حبيبتي لماذا تأخرت؟

تناوله الورد. يقطف وردة من عنقها يشكل بها شـــعرها ويتـــأمل وجهها بحنو.. «مشتاق إليك جداً»

يسعل سامح. «إحم» نحن هنا. تبتعد عليا بهدوء. ظل علي واقفـــاً. تمدّ يدها لتسلم على سامح.. كان سامح مطرقاً لم يرَ يدها الممدودة إليه. ابتسم وهو يعتذر ثم يقول: أتشربان قهوة؟!

عليا.. أنا أصنع القهوة.

سامح: لا.. وحياتك أنا سأصنعها لك وللشاعر الكبير. يدخل سامح إلى المطبخ. عليا ما تزال واقفة. وعلي مازال مكانه.. كل منهما يتـــأمل الآخر صامتاً. سألت عليا نفسها «أأحبـــه؟!! بالتـــأكيد.. أجـــابت علـــى أسئلتها. لكنها عادت وكررت السؤال..»

علي ما يزال واقفاً.

«عليا.. تعالي ارتاحي»

«آ.. صحيح.. مشت باتجاه الكرسي..»

علي: لا. لا. هنا.. أرجوك. أظن أني أراك للمرة الأولى.. في كل مرة تدهشينني..

«علي...!!»

«يطوقها بذراعيه. شعرت أنها تذوب بين أنامله.. أخفضت رأسها على صدره»

«سلامتك يا علي»

ظلت مطرقة الرأس.. رفع شعرها عن عينيها.. ظلت تسند رأسها إلى صدره جاء سامح. وضع القهوة. لم يشعرا به. الصمت يسود المكان.. دموع علي توقظ عليا من غيابها.. دمعته تسقط على جبينها. ترفع عليا رأسها. تنظر حولها.. ترى سامح واقفاً في الزاوية الأخرى يغالب صمته. تنظر إليه. «آسفة يا سامح» تنهض آخذة مكاناً قريباً من القهوة. عليّ يطرق رأسه.. تتبعثر شهقته في الغرفة. يقترب سامح منه.

«اليوم عيدك.. ما بك يا علي...؟! جئنا نحتفل يا أخي.. هذه عليا أمامك.. الأيام القادمة ستكون أفضل.» يربت سامح على ظهر صديقه علي.. تقدم عليا القهوة إلى علي.. تبتسم.

«علي.. ابتسم أرجوك.. أريد أن أستعيد الفرح معك.»

سامح يقول لعليا.. أسمعت؟!

ـ ماذا؟!

ـ علي مسافر إلى مهرجان شعري عالمي.. لقد جاءته بطاقة دعوة إلى باريس..

تصرخ عليا فرحة. «صحيح؟» سنسافر معاً.. آه.. سنمشي ونمشي.. ونتسكع في شوارع لا تعرفنا.. سنطير.. ونحلق في كل مكان جميل.

«ولكن أنا لن أذهب يا عليا!»

«لماذا؟»

«لأن الترشيح جاء من جهة غير مشرّفة. تصوري عدنان ذاهبٌ أيضاً»

«ماذا يضيرك؟!»

«سامح.. أنا لا أبيع نفسي برحلة إلى أوروبا.. لا أقبل أن يشتريني أحد. عدنان جاء إليّ وطلب مني أن أكتب بعض القصائد التي تمتدح النظام العالمي الجديد وزعماء المال والذهب الأسود الذين سيحضرون المؤتمر كونهم هم أيضاً شعراء أليس كذلك يا سامح. زعماء المال لا يقبلون بأقل من شاعر كبير».

قلت لعدنان لماذا؟!!

«يا علي هؤلاء يمنحون الجوائز والألقاب والحياة المرفهة» ثم طلب مني متوسلاً أن أصوغ له قصيدة عصماء على النمط الخليلي كي يمتدح بها تاجر لؤلؤ مشهور. وقال: بأن المكاسب التي سينالها سيعطيني نصفها.

ينتفض سامح «ابن الكلب» أيظنك مدّاحاً؟!

عليا تندهش.. تقترب من علي.. تفرك شعر رأسه بأصابعها.. «أنت رائع دائماً يا علي»

«ما قيمة المرء بلا قناعات؟!»

ينهض علي متثاقلاً.. هل عرفتم كيف يشترون صوت المرء؟!.. هكذا.. أنا أكتب وهم يأخذون صوتي. اسمي. لكن أرجوكما لا تخبرا أحداً بالموضوع.. إذا علموا أني أتحدث به قد يلفقون لي تهمة جديدة. الكتابة هي الحرية الوحيدة التي أمارسها.

عليا تبتسم «والحب؟!»

علي يرد يتوسل «أتسمحين أن أحبك يا حبيبتي؟»

تنظر إلى بلاط الغرفة. يقترب منها علي.. يحضن رأسها ويقبله.. ينظر إلى سامح ويقول.. اعذرني يا سامح أشعر أني التقيتها بعد ضياع. كأني لا أصدق نفسي.

أكان من الضروري أن يقرع الباب الآن؟.. من سيكون القادم في هذا اليوم؟

يفتح سامح الباب «إنها المفاجأة» تدخل امرأة فارعة الطول.. بيضاء البشرة.. يستغرب علي من هذه المرأة. تركض عليا تطوق المرأة. تقبلها..

«غير معقول.. سعاد.. يا إلهي. سعاد.. متى جئت؟ آه منك يا سامح.. إني أحبك من أجل هذه المفاجأة الهائلة..»

«فقط؟! أيتها العاقّة»

عليا ما تزال مندهشة. وما تزال تنظر بامتنان إلى سامح.. قل لي كيف وجدتها هذه «الأرخميدسية»

«وجدتها. وجدتها»

هذه سعاد يا علي.. صديقتي ورفيقة طفولتي. وهذا علي. الشاعر الكبير صديقي ورفيقي. و.. «قوليها» وحبيبي.

سلامات.. أشواق. كيف حال أوروبا؟ متى جئت.. أوه. من كثرة الأسئلة «سكوت» يقول سامح.. آمركم جميعاً بالسكوت.. هس.. ثم آمركم بفتح الشمبانيا. أما أنا فعليّ أن أفتح كيس الهدايا التي حملتها لصديقي الغالي في عيد ميلاده.. انظر.. فتح علي الكيس. أخرج مجموعة من الكرات رماها في الأرض. أخذت تنط في الصالون.. هذه الطابة الجنيّة.. ضحكوا وقطرات الشمبانيا تنسكب على الطاولة. زبد أبيض يصعد إلى الأعلى.. زبد أبيض يغسل اللحظة ويتدفق كشوق عاصف.. يشربون الشمبانيا ويستمعون إلى أغنيات هادئة.

أخذ يلقي قصيدة مهداة إلى عليا.. بينما راحت هي تخرج سلسالاً ذهبياً فيه حرف اسمها وحرف اسمه حرفا «ع» متعانقان. وضعت السلسال في رقبة علي.. كان ما يزال يقرأ القصيدة. هبطت دمعة من

عينها. أدارت وجهها. أيعقل أن يحبها علي كل هذا الحب وهي ما تزال تسأل نفسها «أ أحبه؟» شعرت بالذنب «إني امرأة فظيعة» على كل حال.. خالد. قال لها مرة هكذا.. خالد.. كادت تردد اسمه «يبدو أننا في الأوقات الحرجة نتذكر أحبتنا الذين غابوا» يطفح وجه علي بالبشر والسعادة. إنه ليس علي الذي كان يهذي.. والذي كان شاحباً. ناحل الصوت. قال: يا أصدقائي. أظن أن ميلادي لا يستحق كل هذا..؟ أنا أحتفل بعليا. بكم جميعاً. بعودة امرأة بحرية إلى رجل مكث على الشطّ سنوات طويلة ينتظر عودتها. فرّع القصب البري في وجهه. واخضر الرمل على قدميه. عادت كل السنونوات المهاجرة. مرّ طائر «الحوم» آلاف المرات. ولم تعد تلك المرأة. أخيراً أخرجتها أنا من عينيّ.

قهقهت سعاد كعادتها.. أيها الشاعر الكبير.. هنيئاً لك بهذه الجنيّة. لقد حدثني سامح عنك قبل أن أجيء إلى هنا كثيراً. وأنا قرأت لك طبعاً.. أنت غني عن التعريف. ولكن لم أظن أن جنية تسحرك بهذا الشكل.. هه.. من هذه الـ... عليا؟! اتركها ترقص مع سامح. وتعال ارقص معي. يضحكون.. عليا تقترب من علي. تأخذ يده وتنظر إلى سعاد «لا أسمح لك يا صديقتي» تبدأ الموسيقى الراقصة، الحالمة. «علي. أتسمح لي أن أرقص معك؟» يبتسم «أنا لا أعرف أن أرقص» لكني أعرف الدبكة.. لن يقشرها الرقص الأوروبي عن ساقي..» عليا تقول له: طبعاً. ولكن أريد أن أرقص معك بهدوء. سأعلمك..

«أمرك. يا روحي»

سامح يرقص مع سعاد.

عليا تغمر رأسها المتعب في صدر علي. تجتاحها موجة ذكريات طويلة.. المدرسة.. الوحش. دار السينما. خالد.. تشهق.. «أتبكين؟» أبداً يا علي.. أنا سعيدة. كانت تكذب مع ذلك استمرت في حركاتها البطيئة. همس علي «أحبك يا عليا.. أتحبينني؟».

تظل عليا صامتة.

«عليا.. إني أسألك. أتحبينني؟!» الموسيقا تصدح.. يتنهد علي. سعاد تضحك وتحكي بعض «القفشات» لسامح.. يبعد علي رأس عليا عن صدره.. ينساب كضوء من بين ذراعيها.. يأخذ مكانه ويظلّ محافظاً على هدوئه.

«ما بك يا علي.. لقد تعبت يا سامح..»

سامح يغرق في الرقص مع سعاد. ربما كان يقصد ذلك تاركاً الفرصة أكبر أمام علي ليحاور عليا. أو ربما شعر بميل نحو سعاد. أو تجمعهما عاطفة ما منذ أن كانا معاً في أوروبا حيث كل منهما كان يدرس في المدينة نفسها. يلاحظ أن عليا جلست بعيداً عن علي. الكآبة تمسح وجهها.. لكن سامح لن يترك المناسبة تمر تحت حرير الكآبة الخادع. «في صحتك يا علي» يبدأ سامح بتناول كأس ثانية. ثم يأخذ بالغناء.

ينتشي. يمسك بيد عليا ويأخذ الدبكة. هيا يا علي. هيا.. تعالوا إلى الدبكة. «لا أقدر يا سامح» هكذا أجاب علي.

تعال يا رجل.. أريد أن أدبك مع سعاد. تعال كرمى لسعاد.. ألا تراها معجبة بي؟ وكرمى لسعاد سأدعوكم إلى العشاء.

«العمى.. ونحن ألا نستحق أن يكون لنا إكرام عندك»

«سأرى.. وسأعيد حساباتي. لأني أراكم تخططون لحرماني من الانفراد بسعاد.»

تضحك سعاد.. «ستخسر يا سامح» عشاء واحد لا يكفي..

«سأدفع وحياتك. المهم نخلص من هذه العبسة»

يأخذ علي يد سعاد ويبدأ بالدبكة.

«يا أخي. خذ يد عليا لماذا تريد أن تأخذها مني أتريد الاعتداء على حرية الآخرين.»

«تضحك عليا وتقول. الأيام قادمة لن تغادر سعاد بعد الآن. لقد كرهت الغربة»

«الحقيقة لم يعد مريحاً وضع الأجانب في أوروبا وخاصة العرب. لقد طردوا الكثيرين من فرنسا بلد الحرية. والحصول على إقامة أو فرصة عمل صار من المستحيلات تقريباً»

«أفضل.. كي نراك. إني بشوق إليك. جداً جداً. جداً.. الخ. تقول عليا»

لم تقطع كعكة عيد الميلاد بعد.

سعاد تغني بصوتها الجميل «ليه يا بنفسج»

سامح يهمس في أذن عليا بعض الكلمات.. يرجوها أن تمسح كآبتها هذه الليلة.

«عيد ميلاد سعيد يا علي.. كم صار عمر شاعرنا الكبير؟»

«عمري كبير جداً. لا أعرف. سلي الأستاذة عليا. هي التي تعرف»

«كيف لي أن أعرف. أتظنني عرّافة؟!»

«لو كنت تحبينني لعرفت»

«أعتقد أن هذا هو سبب مجيئي إلى هنا.»

«لكن أظن أن هناك من ينتظرك الآن بسيارته. إنه يوفر لك أماكن أكثر راحة»

تنهض عليا. تحمل حقيبة يدها «أعتقد لا داعي للتجريح. سأذهب»

تتدخل سعاد بلباقة. أظن أن هذا الحوار ليس مناسباً الآن. تعالي يا عليا لنقطع الكاتوه.

«لا.. معلش.. سأذهب.. وجودي غـــير مريـــح. ثـــم إن ســـامي ينتظرني»

«عليا.. ماذا تقولين؟ علي يحبّك ويغار عليك من نسيم المســـاء.. كيف تتصورين أن وجودك لا يريحه؟!»

«سامح.. إنه يشكك بخياراتي وقناعاتي. لا أحد يجـــبرني علـــى المجيء إذا كنت لا أرغب.. لقد تجاوزت مرحلـــة الـــتردد. ومرحلـــة المراهقة. وتجاوزت ضرورة المجاملات. أنا لا أجامل.» تمشي عليـــا باتجاه الباب. تحاول أن تقنع نفسها بأن عليّ مريض ولكنها لا تقدر أمام كلماته اللاذعة. لا تقدر أن تغفر له.

«يمسك سامح بعليا.. «معقول..؟! والعشاء؟! لقد حجزت طاولة لنا جميعاً. يهمس لعليا أن تصبرَ. إن علياً ما يزال متعباً. تقول له، لمـــاذا علي أن أتحمل وزر مرضه. إلى متى أصبر على أخطائـــه. لا أقـــدر. لأنه مريض عليّ أن أغفر كل شيء؟! طيب.. غفـــرت قصّـــة الجـــارة وقصص أخرى. لا أستطيع يا سامح.»

«أرجوك يا عليا. أرجوك. أنا أيضاً سأذهب إن ذهبـــت. لنحتفـــل بحضور سعاد»

«طيب..»

«سعاد تصر أيضاً على أن عليا هي المخطئة.»

«يعني المطلوب..؟!»

«اعتذري لعلي.. لأنك كدت أن تنزعي عيده.، إننا سنتعشى علـــى حساب سامح. بعد ذلك نعود إلى منزلنا. أمي تنتظر رؤيتك منذ زمن.»

«علي.. أنا آسفة» يظلّ علي صامتاً.. تنده عليا هامسة.. أقول لـــك أنا آسفة. تطوقه بذراعيها.. تمسح وجهه.. يهمس «أحبك. ألا تعلمين كم أحبك..؟»

«ولكنك تعذبني»

«طيب أعتذر. أعتذر. أنا لا أطيق الحياة دونك. أتفهمين؟»

لحظة صمت سادت.. لحظة شوق. عتاب.. ثم تبادل الضحك والقفشات. تقطيع الحلوى. عيد ميلاد سعيد. تبتسم سعاد.. هل نخرج يا عليا حتى يقبلك علي..؟!

«لا.. لا. لن أمنحك هذه الحجة لتختلي بسامح»

«هه.. أنا أقبلها؟!»

«يا سلام.. ومن قال بأني سأسمح لك. المرأة الشرقية يجب أن تدوس على مشاعرها.. وصدق أحاسيسها.. يجب أن تكون متبلدة المشاعر.. لا تحس.. ولا ترغب.. ولا.. هكذا تكون هي الأنقى والأطهر.» أليس كذلك؟! هكذا تفضلونها. أما مجرد تهاونها في قبلة فهي عاهرة.

يقطع الحوار الساخر ــ الجاد ــ دقٌ خفيف على الباب.

«أتنتظر أحداً يا علي؟»

«لا. أبداً.»

تفتح سعاد الباب فتدخل امرأة سمراء جميلة الملامح.. تدخل دون الوقوف والاستئذان. اتجهت صوب علي. «الحمد لله على السلامة. كيف حالك؟» انحنت أمامه وأخذت.. تمسح دمعة.. قيل لي إنك مريض. منعوني من زيارتك» لم يحرك علي ساكناً. ظلّ جالساً في مكانه. هادئاً. ينظر إليها مندهشاً، مذعوراً.

التفت إلى عليا.. «أقسم إني لا أفهم شيئاً» ظلت عليا صامتة. راودها الشك «علي يخونني؟» انكمشت في مقعدها. لاحظت الجارة أن أحداً لا يعيرها انتباهاً. بلّغت رسالة شوقها.

«كنت مسافرة. اليوم فقط علمت بخروجك»

لم يرد أحد. نظرت في الوجوه الصامتة المندهشة. أدركت أن

المكان لا يتسع لها. والظرف ليس مناسباً لتتمادى أكثر «أتريد شيئاً يا أستاذ؟» سألته بمودة. كأنه كل يوم يطلب منها مساعدة. لم يرد الأستاذ. بدا الجو مسكوناً بالشك. خرجت المرأة بهدوء نادر.

«أقسم أني لا أعرف هذه المرأة.»

«أليست جارتك؟!»

«جارتي..؟! لا.. أنا لا أعرفها. ولم أرها أبداً.

«ربما.. ربما»

عليا ما تزال صامتة. لم توجه سؤالاً. ولم تقل شيئاً. سعاد التي تخلق البسمة أينما كانت صمتت. إنها مندهشة لهذا الإشكال.. أيكون عدنان هو الذي أرسلها.؟!

«علي ينهض يقترب من عليا.. يقرفص أمامها كطفل مذنب صدقيني أنا لا يمكن أن أخونك.. هل يعقل أن أسمح لامرأة أن تأتي إليّ بكل هذه الجرأة أمام الأصدقاء؟!»

أيضاً عليا لم ترد..

«قولي شيئاً. أرجوك..»

«أنا أصدقك يا علي.. لم أتهمك.. هل قلت شيئاً؟»

«لا. ولكن نظرتك تعذبني»

«اسمع يا علي.. أنا لا أستجدي حبّ رجل.. المرأة الضعيفة. الجارية هي التي تفعل ذلك.. الرجل حرّ يختار التي يشاؤها.. أنا لا أتشاجر مع رجل من أجل أخرى. إن كنت لا تريدني فإني أنسحب فوراً. القضية لا تحتمل العراك. لسنا في حرب والانتصار ليس هنا.. الضعفاء وحدهم هم الذين يخونون حبيباتهم سراً ويقسمون على الإخلاص. جبناء لا يتجرؤون على إظهار مكنوناتهم.

بالنسبة لي الأمر ببساطة. أريد أو لا أريد.

«يعني؟»

«يعني أريدك يا علي. ألا تعرف ذلك؟»

عاد الجو ثانية إلى الموسيقا والمزاح. سامح الهادئ الجميل.. راح يزرع الفرح والبهجة. رقص وغنّى «عيد سعيد للمرة العاشرة».. ثم قال: هيا.. لننطلق أيها السادة.. السيدات أولاً. هيا إلى السيارة الفاخرة. سأكون أنا السائق. هيا. صعد الجميع سيارة لانسَر عادية يستخدمها مدير الجوارب في المدينة عادة لتخديم المنزل. أما سامح فهي سيارته الفاخرة فعلاً. زينها بدبٍ صغير وبصورة لأمّه.

المطعم البحري يستلقي بلطف على الصخر.. يمد شرفته فوق الماء. موسيقا صاخبة تتوزع في أرجاء المطعم ذي الجدران البيضاء وكراسيه وطاولاته الزهرية اللون. في الواقع الموسيقا الهابطة كسرت حنان الجوّ الرومانسي الحالم.

«ماذا تأكلون؟!»

«هه.. يعني ماذا يا دكتور.. ؟!»

«يعني سمك؟! سمك السلطان إبراهيم.»

«حاضر يا أحبتي.. أتعرفون؟! أنتم جميعاً أعزاء على قلبي»

«شكراً يا سامح.. تقول عليا»

بدا علي مرتاحاً.. عليا بقربه يوشوشها.. سعاد توزع ملاحظاتها الطريفة على الطاولة.. سامح الرائع.. يستوعب الجميع.. إنه أخو الجميع.. وحبيب الجميع. وصديقهم.

يرفع علي كأسه.. «في صحة الجميع»

يشربون أنخابهم.. يضع يده على ظهر عليا.. كأنه يريد حمايتها

من لسعات البحر.. يده لا تفارق مسند كرسيها وهي تجبره على تناول أكبر كمية من السمك كي يستعيد وزنه.. «أمرك»

بدأت نسمات الليل تبرد.. قالت عليا: أنا بردانة.. سعاد أكدت أن الذي يحّب لا يشعر بالبرد..

«اسمعوا» قال علي: قبل أن نغادر علينا الاتفاق على يوم أدعوكم به إلى تناول السمك.. متى تريدون؟!

«الأسبوع القادم.. مثل هذا اليوم. اتفقنا؟!»

«اتفقنا».. افترق الجميع.. سامح وعلي.. سعاد وعليا.. كل اثنين يشربان الشاي آخر الليل ويثرثران بأحاديث مختلفة إلى أن يأخذهم النعاس جميعاً. قبل أن تغفو عليا.. يتصل علي. يرجو سعاد أن يتحدث إلى عليا..

«تصبحين على خير يا حبيبتي»

«تصبح على خير. إلى اللقاء»

في جابالا المدينة الممتدة في جذورها إلى أرواد.. سوقٌ مسقوفٌ.. يمتد من الساحة حتى الأحياء القديمة جنوباً. في هذا السوق الذي تفرع منه زقاق يصل إلى البحر، فتاتان تسيران بهدوء عند الصباح.. دكاكين الذهب مغلقة. والنساء بقمصان النوم يخرجن بعد أن يغطين رؤوسهن لشراء الخضار. رائحة اليود البحري النفاذ يضفي جواً خاصاً على المدينة.

«أتذكرين الصيف على شواطئ أوروبا؟!»

«هي فترة وانتهت.»

«ولكن آثارها مستمرة بحيث تجعلك تحزنين عندما ترين جابالا.. مرفأ مملكة سيانو العظيمة منذ آلاف السنين لا تعرف النظافة. ولا الساحات المشجرة. لماذا ونحن أصل الحضارة».

«هنا يشعر المرء أن الأيام تمر متسلسلة. انزعي ورقة يمضِ يوم.. الورقة المخلوعة من الرزنامة هي التي تدل على هروب الزمن.. نحن لا نعرف كيف نجعل اللحظات فاعلة»

«نحن مهزومون»

«أجل.. هذه التغيرات. وهذا السقوط لا يتحمله عقل خلال فترة زمنية بسيطة ولكن يجب ألا نستسلم، عند ذلك تشيخ الروح وتشيخ أوطاننا»

المرأتان تصلان إلى البحر فجأة يعتريهما الصمت. للبحر هيبته. وقاره. للبحر لغته الخاصة.

القوارب في الميناء تكتظ بالشباك. قوارب صغيرة لصيد السمك.

«زمن طويل لم أرَ هذا الميناء»

نسمات بحرية رطبة تلفح الوجوه.. النساء على الشرفات المطلّة يدخنّ «الأركيلة»

المقهى الملقى على الشطّ بمقاعده الخشبية المهترئة وسقفه القصبي خالٍ تقريباً إلا من فتاة وشاب يتهامسان، خوفاً من البحر.

«لنشرب قهوة»

«ولكن.. كان عليّ الذهاب»

«اعتذري اليوم عن الدوام»

المرأتان تصمتان.. كان زبد البحر يذوب في الزرقة الغامقة. موجة تلتف حول صخرة محفّرة. رذاذ مالح يلفح الوجوه.

«هل نغير المكان؟»

«لا.. دعي الملح يغمرنا.. نحن بحاجة للملح لنحفظ به أشياء

جميلة تخصنا أشياء يجب ألا تضيع. نريد الكثير من الملح لهذا الزمن».

بالتأكيد أنت لست التي أعرفها. ما بك؟ كانت أوروبة لا تتسع لك.. وكانت المدينة وردة في جيبك.. ما الذي جرى.. «عليا» كل هذا بسبب هذا الشاعر، عليا لا ترد.

وسعاد لا تكثر من الأسئلة.

يعلو الصمت.. نسمات الصباح تعبث بالقصب المرصوص فوق الطاولات.

النادل يحمل الماء البارد.

«آه يا سعاد.. إنه الربيع. يرحل. عمرنا. ساحات أوروبا تهرب من أرجلنا. الآن لم أعد تلميذة. أنا أستاذة وعليّ العيش بطريقة أخرى»

«.....»

«هيا. يجب أن أعود»

تسير المرأتان سعاد وعليا باتجاه «الكراج..» وقع خطواتهما وحده يملأ فجوات الصمت. عند تقاطع الشارع مع مفرق الكراج وقفت سيارة سامي.

«ما الذي أتى بك إلى هنا؟»

«أنتَ من الذي حملك إلى هنا»

«سيارتي»

«هذا سامي يا سعاد. صديق. وطالب مجتهد»

«تبتسم سعاد. جحا أكبر من أبيه»

سامي ضاحكاً.. هذا ما أريد أن أقوله باستمرار للأستاذة عليا. أين كنتما؟

«على البحر»

تفضلا أوصلكما.

«لا.. أنا سأذهب إلى منزلي. أما عليا فهي مسافرة»

لم تكن عليا تعرف. أترفض الذهاب مع سامي. أم تذهب معه؟!!

«أنا ذاهب بطبيعة الحال إلى الجامعة»

سارت السيارة.. تلفّ الساحات. عليا صامتة. وسامي لا ينبس بحرف. يدير مفتاح الراديو. الأخبار المزعجة تملأ السيارة. عند الخروجً من المدينة شاهدت عليا رفّ جراد يحلّق عالياً. غطى أشعة الشمس.. شعرت أن الظلام يحيط بكل شيء. لم تقل شيئاً. غطت وجهها. لأول مرة سامي يتجرأ ويمد يده بهدوء إلى يديها..

سحب كفيها عن وجهها. نظر في عينيها. لم يقل شيئاً. وهي لم تقل أي حرف. أسندت ظهرها إلى الوراء وأخذت تفكر بحفلة الأمس.. بعليّ صارخاً في وجهها.

«انزلي من سيارته.. هيا. سأقتله»

كم هي مقيدة.. حبّ عليّ يقيدها.. تلتفت إلى سامي. لا تعرف ما الذي تريده من سامي؟!

«أستاذة عليا»

لم ترد.. السيارة تطوي المسافة. جابالا تبتعد والبحر يظل مطارداً للطريق.

الجامعة وبيت عليا.. أم عارف.. كل هؤلاء يقتربون.. وهي تظلّ بعيدة.

«كيف كانت السهرة؟»

«سامي يقول بصوت خفيض. فيه انكسار»

من قال لك؟!

أم عارف أخبرتني.

«السهرة حلوة.»

أتذهبين إلى الجامعة أم إلى المنزل. أم تقبلين دعوتي إلى بحر لاوديسيا.

لا.. شكراً يا سامي.. يكفي أنك خلّصتني من زحمة الكراج والانتظار. أشكرك جداً أريد أن أذهب إلى المنزل.

يقف سامي مخذولاً.. يتساءل فقط لأنه خلصها من زحمة «الكراج» هذا كل شيء. لن يتصل بهذه المرأة المتعجرفة مرة أخرى.

تنزل عليا تودعه.. يظل قابعاً وراء مقود السيارة. تلوح له بيدها وهو ينظر إليها..

يمشي ببطء مجتازاً عمارة كبيرة حولها سور وحديقة وأشجار سرو عالية.

عندما نزلت عليا إلى البحر بعد محاضرة طويلة ومتعبة. اتصلت بصديقتها سعاد. ولكن لم تجدها.. لذلك فضلت أن تمشي وحدها. عند رأس الشاطئ الجنوبي رأت رجلاً يسير وحيداً ويلبس قبعة. حين وصل الرجل إلى محاذاتها. رفع قبعته محيياً وقال:

أنصحك ألا تذهبي بعيداً. هناك أشياء مخيفة. مذهلة. لم ترد عليا.. أخذت تتابع سيرها إلى أن وصلت إلى مقعد حجري. جلست عليه. عاد الرجل واعتذر. ثم طلب الجلوس. قالت له.. تفضل. راح يدقّ بقدمه الأرض. أشار بيده إلى البحر. ثم أخذ يصفّر. أرادت عليا أن تنهض أمسك الرجل بيدها «انتظري» لم تسمع كلامه.. نهضت. عاد الرجل وجذبها من ثوبها «قلت انتظري» شعرت بالخوف. كانت كلماته متوعدة.

«انظري إلى البحر»

«كل هذا البحر ملك لي.. الآن سأشير للسمك أن يخرج»

السمك على أقدام عليا.. شعرت بالخوف. السمك على سيقانها.. تنهض تدهس سمكات صغيرة. يقهقه الرجل. لا تخافي قام وراح يدهس الأسماك الصغيرة. أما الكبيرة فأشار إليها أن تلتهم هذه الأسماك الميتة.

«نحن أسماك صغيرة.. وهم يأكلوننا»

«أتعرفين من هم؟!»

هم الذين هناك.. الذين يملكون البحر والبرّ.. ويملكون حتى ثياب زوجاتنا.

ولكن من أنت؟!

«لا أعرف..»

ضحك الرجل.. الآن سأجلب لك حوتاً.. سأعطيك ألف دولار إن استطعت الهروب من أسنانه.

«أرجوك.. دعني وشأني.»

«هيا. انهضي»

ساقها إلى الشط.. السمك الميت يغطي المكان. حوت كبير يتقدم باتجاه الرجل.

«أمرك يا مولاي»

«خذ هذه المرأة»

«يبتلع الحوت المرأة.. المرأة تصرخ. تصرخ. يخفت الصوت. الرجل يقهقه.

«لقد خسرت الرهان.. هاتي كل ما تملكين؟»

أنا لا أملك شيئاً.. لا صخرة ولا حقلاً. ولا كرسياً.. أنا أستأجر بيتاً مفروشاً ولا شيء آخر.

ها.. تملكين أنوثتك..؟!

أتراهنني عليها؟!

أولاً نسيت أن أسألك عن اسمك؟!

اسمي؟! سمني ما شئت. عشتار. مريم. خديجة. فاطمة. عليا. ماري أي اسم تريد.؟!

لا أحد يرد.. تلتفت عليا حولها.. تنظر إلى البحر. إلى الوراء. لا يوجد أحد.

السمك الميت ما يزال يفرش الشطّ.

أيكون الرجل قد سقط في البحر..؟! هي تعرف أن البحر غدار. فجأة يخرج من جوفه الحوت. أو السمك الصغير. أو يبتلع كل شيء.. وأحياناً يلقي باللآلئ للعابرين.. غدّار أيها البحر. لكنها سمعت صوتاً يناديها:

«ما الذي تريدينه يا عليا.. عودي»

هذا أفضل.. تعود من حيث أتت.. تتصل بسامح.. أين أنت؟ نحن نبحث عنك..؟

«من.. نحن.. أنت أكثر من سامح؟»

«أجل.. أنا وعلي.. خذي كلّميه»

«عليا.. مشتاق إليك.. أريد أن أكلمك في أشياء كثيرة.»

«أنا قادمة.. ابق عند سامح حتى أجيء إليك.»

«أتذهب يا سامح معنا؟!»

«لا.. لا أريد أن أكون عذولاً.»

في مكان صغير، يجلس اثنان امرأة ورجل.. كل منهما يستمع إلى الآخر إلى أن يتعب.. هما بحاجة إلى من يستمع إليهما.. مازال عندهما الكثير من الكلام.

«وإذا انتهى الكلام؟!»

ـ لا أعرف...

أتعود إلى سيرة شهرزاد أخرى؟!

كلمة تؤجل النهايات. كلمة. تلغي كل شيء. ويبدأ من لا شيء. فتصير الكلمة. الحضور. الحياة.

عندما افترقا. اتفقا على تثبيت الموعد.

«لا تنسي موعدنا على العشاء. اتصلي بسعاد. إنها لطيفة»

«لن أنسى.»

وحين استدارت الشمس نحو الجنوب الغربي وأرخت ضفائرها الطويلة. كان هناك مجموعة من الأصدقاء كل يتجه من طرف من أطراف المدينة باتجاه البحر.

زمجرت الرياح قليلاً. رفعت أكياس النايلون من القمامة الباقية منذ الصباح.

طارت بعض الأوراق. ثم هدأت الريح..

المرأة ترتدي ثوبها الواسع جداً تربطه على الخصر «بزنّار عريض» يظهر خصرها النحيل ورقة الجسد الأنثوي. هذه المرأة تضع يديها على تنورة الفستان كي لا تطير التنورة.

هذه المدينة تسحر المرأة ذات الفستان الواسع. تشتتها.. هي تريد الهروب من وجوه تلاحقها. ولكن لا تقدر.

«يا عليا.. عليك أن توثقي علاقتك بعلي أكثر لتطردي كل الوجـوه القديمة وليبقى وجه علي وحده.. أو عليك أن تغيبي من حياته أبداً»

سعاد لا يبدو عليها الحماس تجاه حب علي لصديقتها.

المرأة ذات الفستان الواسع هي عليا. يسير بقربها سامح بعـــد أن نزلا من السيارة واتجها إلى بيت سعاد.

«هل أنت جاهزة»

«أجل.. ولكن لنشرب القهوة أولاً»

«لا.. علي ينتظرنا في المقهى»

سار الثلاثة. باحثين عن ثلاثة هم. هم.. كان الكلام المصطنع هـو الذي يسيطر على الطريق. أمام المقهى. وقفت سيارة زرقاء. نزل منـها سامح.. وعليا. وسعاد.

علي.. عند الباب. «لقد تأخرتم»

سعاد تقول. الذي ينتظر حبيبته هكذا يشعر.. أما نحن فلا شـــيء يرغمنا على المجيء باكراً.

تظلين لاذعة يا سعاد.. مع ذلك إنني أرتاح لكلماتك.

«شكراً يا أستاذ»

«أستاذ.؟!! هه.. شكراً يا أستاذة.»

أضاء وجه علي. وابتسمت عيناه وهو يضع يده وراء ظهر عليـا ليقودها إلى الطاولة.

بدأت الكؤوس تتوزع مع المقبلات. «في صحتك يا علي»

رفعوا الكؤوس وشربوا إلا سامح. وقفت الكأس في يده المرفوعـة «هذا حسن... انظر يا علي»

يستدرك سامح فوراً. لا يجب أن يراه علي.. هو في الجهة المقابلة لظهر علي بحيث يقابل سامح. تابع سامح «انظر إلى البحر.. جزء من الليل في السماء. هادر. قاسٍ هادئ.»

ــ أوه.. شاعر آخر بيننا. تقول عليا.

ــ لا.. لا أحد يجرؤ وعلي موجود.

بدا واضحاً أنهم سعداء. لكن وجه سامح كان منقبضاً.. راحت الأسئلة تتشابك في نظرته المشتتة. حسن؟! ما الذي أتى به إلى هنا.. إلى هذا المكان ومع من؟! مع... لا. لا يقدر أن يلفظ الاسم لأنه لا يقدر على اتهام حسن.. شاعر الريف المعروف.. صديق علي وصديقه. لا. هذا ليس حسن. إنه واحد آخر يشبه حسن. لو كان فيصل زميل علي. لما استغرب الأمر. فيصل الذي يتاجر بمحاضرات حول الموقف. الانتماء واللا انتماء. وتراه بعد المحاضرة في أماكن عامة مع أناس مشبوهين.

ولكن هذا صوت حسن.

علي يشعل سيجارة لسعاد. وأخرى لعليا. يقرأ هامساً:

«لك كل هذا الفضاء الرهيف»

لك حور قريتنا.

وموسم الأفراح

ونيسان

وهذه الورود التي تنمو على طيفي.

لك قصائدي المزهرة.

لك.......

يرفع سامح كأسه ويقول: في صحة أعظم الشعراء.. سنموت نحن. وستبقى أنتِ يا علي. إنها الكلمة ستبقى وحدها.

مالت عليا برأسها على كتف علي وهمست.. أريدك أن تبدأ من جديد. أن تحلّق عالياً.. أن تعود إلى النشر مجدداً وتأخذ موقعك المناسب. أريد من حبيبي أن يكون أهم الشعراء في العالم كله. ألا تعرف رغبتي هذه؟.

سامح يعلق فرحاً محاولاً السيطرة على شكوكه.. «يا ستي هو يعرف ذلك ولكنه يتدلل أليس كذلك يا أستاذ؟»

«في صحتك يا سامح» تقول سعاد. تبتسم عليا وتقول: إنه للأسف لا ينتبه لوجود أجمل سمكة بحرية هنا.»

لم ينتبه سامح لهذه الكلمات. كان مشغولاً بمراقبة الطاولة المقابلة. حسن يجلس إلى جوار..

لا.. لا يا أخي غير معقول.

«وحياة القرآن هذا ما رأيته»

حسن يجلس إلى جوار سلوى.. يقشّر لها البندق ويطعمها.. وإلى الطرف الآخر منه عدنان متصدراً مجموعة لم أعرفها.. عدنان يلقي ترهاته عليهم وهم يضحكون. بينما حسن منهمك بحوار جانبي مع سلوى.

«عدنان ما غيره زميل علي... الانتهازي الأول.»

وهناك حرامي أول. وحرامي آخر. يبدو أنهم يتراهنون على أهم كذبة. سمعهم يضجون.. علي منسجم في حوار مع سعاد وعليا. لكن الضجة والصخب والضحك الذي ملأ قاعة المطعم.. جعل علي يلتفت إلى الوراء «العمى ما هذا.. إسطبل..؟!

فوجئ علي بالوجوه التي يراها.. هل يصدق. «سامح.. انظر.. الثنائي صار ثالوثاً» لم يرد سامح. لكن عليّ عاد والتفت ثانية.. معقول..؟! إنه حسن.. حسن الذي تربى على أفكار العم صالح. ما الذي جمعه بعدنان؟.

عليا قالت له: لا علاقة لنا بالآخرين. هذه الأيام تتغير القناعات كما تتغير الموضة بل أسرع.

ـ قولي كما نغير الأحذية.

ـ تركت قداسة لبعض القناعات التي يجب ألا تتغير.

يفرك على جبينه. ثم يضغط على صدغيه بيديه. سامح يقول له: ما بك يا علي.. دعنا في حالنا.. ولكن علي لم يقدر أن يستوعب أربعين سنة تفرّ فجأة.

حسن الذي عذّب. وطرد. وأهين. حسن.. الحمل يجلس مع الذئب على مائدة واحدة. انظري يا عليا. إنه الذئب. الوحش.

ـ أرجوك يا علي.. أما زالت هذه الأشياء تدهشك؟!.

ـ كان يجب أن تموت الدهشة منذ أول معاهدات السلام.. منذ كامب ديفيد.. إلى وادي عربة.. يجب أن تموت الدهشة. يبدو أن الشعراء لا تموت دهشتهم وإلا توقفوا عن الكتابة. أليس كذلك؟

وقف علي والتفت إلى الطاولة التي وراءه. قال بهدوء.. ماذا تفعل هنا يا حسن؟ أتجلس مع هؤلاء؟

ابتسم حسن ولم يقل شيئاً. رفع كأسه عالياً وراح يرشفه بسخرية. غام وجه علي. يبست نظرته. ارتعش صوته وصرخ. أتجلس مع الكلاب التي تعضّ؟! انهض يا حسن مكانك ليس هنا. إنهم لصوص. سيسرقونك الآن. انتبه إلى اسمك. أو يدك. أو.. مشى علي باتجاه حسن. هزه من كتفه عدة مرات. فلم يتحرك. قهقهت سلوى بصوت

عالٍ.. ظل عدنان محتفظاً بابتسامة صفراء هادئة. قال: سامحوه.. البارحة فقط خرج من المصح النفسي. رفع علي الكرسي وهوى بها على رأس عدنان.

حسن ينهض من مكانه وقد بدا العرق يتصبب منه «ابتعد أيها المجنون» جمدت يد علي في الهواء. كان يريد أن يهوي بها على حسن. نظر إليه مندهشاً. سقطت سنوات الطفولة والشباب. والصداقة والشعر.. سقطت كبرج تهدم فجأة. برج ظلّ يعمر به أربعين عاماً. انسحب علي دون أن يقول شيئاً.

أمسك سامح بعلي الذي بدا منهاراً. مسحت عليا وجهها عدة مرات كأنها تمسح غضباً ساحقاً انسحب الجميع منكسرين قبل أن يكملوا العشاء وقبل أن تنتهي الكؤوس. سعاد تبدو متأثرة جداً «يد واحدة لا تصفق.. على المرء أن يغمض عينيه عن كل شيء ويعيش وحيداً.. ليتصور نفسه وحيداً على الكرة. ما يفعله الآخر لا يعنيه.»

سامح يصمت حزيناً. أما عليا فتقول: كيف هذا..؟! «الأرض إذا خَلت خربت» يجب أن يكون هناك من يقول كلمته. من يشير إلى الخطأ.. «من رأى منكم منكراً فليغيره.. أليس هذا حديث الرسول «ص»؟

ينظر علي إلى حبيبته بأسىً.. لم يقل لها شكراً. ولكن كان يعبر عن ذلك بانكساره. في منزل علي.. ساد صمت موجع. سعاد صنعت قهوة. أخذ علي يرشف القهوة أجبره سامح على أخذ بعض الحبوب المهدئة.. مسح على رأسه.. قال له: حاول أن تهدأ يا علي. الأمر لا يحتاج كل هذه الثورة. إنه ليس أول السقوط. هذه هي البداية. «سامح. أتذكر حسن؟! تذكر طفولته. حاول أن تذكر مواقفه. قصيدته التي رثى بها العم صالح. وأخرى كان قد رثى بها فارس وفاطر وآخرين. لا أستطيع أن أتقبل فكرة البيع هذه. حسن باع نفسه بثمن بخسٍ.

الآن فهمت.. هو كتب لعدنان القصائد الجديدة. وعدنان ينشـــرها باسمه الشخصي. أي يفرّغون حسن من محتواه الإنســاني والوجدانـــي والعاطفي ويسكبون في جسده روح عدنان الانتهازية. كيف أسكت يـــا سامح؟! لقد رأيتم بأعينكم. أليس كذلك يا عليا؟! كنتم ســتكذبونني كمـا حدث من قبل.. تصور حسن رثى العم صـــالح. بكــاه بحرقــة. والآن يجلس مع الذين قتلوا العم صالح. كيف للعقل أن يحـل هــذه المعادلــة «الحدود ملغاة هذه الأيام يا علي».

العم صالح واجه قرية بكاملها.. لم ينحن أبـــداً. تلميــذه النجيــب يتمرغ. ثم يقول عني مجنون؟! يحاول سامح أن يهدئ صديقه علي.

ـ هذه حساسية المبدع يا أخي. لولا حساسية خاصة يتمــيز بـــها المبدع.. لما أبدع.. إني أقدّر هذه الرهافة وأحترمها.. الأدبـــاء الكبـار مثلك ثروة قومية. المتنبي ثروة قومية. وكل المبدعين. حاول أن تنام يـا صديقي. سأوصل عليا وسعاد.

تكور علي على نفسه. ظلّ مطرقاً اقتربت عليا. قالت له: سـأتصل بك. خرج الجميع وبقي رجل منكسر الأحلام على كنبـــة كأنـــه كومــة مجلات مهملة.

هو...

هل انتهينا هنا.؟

هي.. لماذا تعترض على سير أحداث لم تكتمل بعد. أيها الراوي.. لو أنك تتنحى قليلاً.

هو.. لا أقدر.. إني أتنبأ بأحداث تلوح من بعيد.. ها أنـــا أسـتعد لحزن قادم أو فرح قادم.

لن أسمح لك.. على الإنسان أن يخرج من جلده ألف مرة ليؤكـــد حضوره.

ـ لن يقبل علي أن يكون رقماً. وأنا لن أقبل أن أكمـــل مجــرد رقم. الحياة تحتاج إلى كفاح.

هو.. إذن يجب أن يكون هناك ظالم. ومظلوم. لعبة يعني!!! هذه اللعبة الأبدية التي يعرفها الجميع والجميع يتورطون بها. يسمّون التوريط نضالاً. أليس كذلك؟!

هي: والقدر.. ما هو دور القدر..؟!

قيل للفارس الذي مرّ على حصانه.. سيقتلك رجل صفاته. كذا. وكذا عندما اجتمع الفارس بقاتله.. قال له: أنت قاتلي. اندهش الرجل. معاذ الله يا سيدي. بل ستقتلني يا هذا.

هو: ثم..؟

هي: ثم قتله.. حملوه على ظهر حصانه وأطلقوه في الأرض الرحبة. الفارس ما يزال على ظهر حصانه. والحصان ما يزال يدور. يدور. ولم يتوقف أبداً.

هو.. لو تتركين بعض الأمل.؟

هي: وهل هذا ضروري.؟!

هو.. هكذا هي أهداف الكتابة.

هي: أنا لا أكتب. أنا لست كاتبة.. أنا أستاذة في الجامعة. علي. هو الكاتب. احمل أوراقك واذهب إليه. سيطردك. لأنك ستفرض عليه أن يكذب.

هو: أنا؟ كيف؟!

هي: ستقول له اكتب عن الفرح. ولا فرحَ في حياة الكثيرين. وستقول له.. عليك بث الأمل في كتاباتك. سيقول لك كيف؟! من أين. ستقول له: «حاول أن تجسده.. مثّله» سيقول لك.. اخرج، اخرج.. لا تأتِ إلي.

هو «وأنتِ»

أنا أيضاً سأقول لك اخرج من هنا.. لا أريد أن أراك لم أعد

بحاجة لمن يستمع إليّ.. لقد اكتفيت بما سيرويه عني الزمن القادم. اخرج.. هيا.

..يخرج.. رجلٌ غير معروف. الباب يفتح. ثم يغلق. ثم تدّوي خطوات تهبط درجاً عالياً. ثم تنكمش الجدران. رجل في آخر الحزن يقبع صامتاً. وامرأة في أول الانتظار تتأمل أقنعة مكومة في دهليز مظلم.. وسعاد.. تغلي القهوة وتحاول أن تجد مخرجاً لليلة هادئة. تتصل عليا.. كيف حالك يا علي. يرد بصوته الرهيف.. ها أنا أفضل. آسف لأني أزعجتكم. إلى اللقاء.

«ملاحظة»

هناك في المدينة.. شجرة جميز كبيرة. ثمارها تتساقط على الرصيف. مرّ عليّ فرأى على كل غصن طائراً كبيراً. وعندما كان يقف تحوم الطيور فوق رأسه. تغرّد بصوت جميل. يمشي. تتبعه الطيور إلى الشارع المعاكس للشجرة.

تحلق الطيور عالياً وتختفي.

الرجل العجوز الذي رآه مرة.. قال له: هذا يدل على الرحيل يا ولدي.

أي رحيل تقصد يا عم؟!

يدير العجوز ظهره ويختفي بسرعة..

«يا بني، الحقيقة جمرة»

ينكبّ علي على أوراقه.. يهجم عليه الشعر. أولى القصائد مهداة إلى مدينة كانت في ذاكرة علي. والثانية لقريته التي ضمّت طفولته والثالثة للعم صالح.

«الرابعة كانت لك يا عليا»

عليا!! ثقي بي. أنا هادئ جداً. لم أعد أهتم لما يجري.. اقتنعت بالصمت.. لذلك رحت أكتب وأكتب ربما يكون الحرف بديلاً لصراخي. ثم شعرت بالتعب الشديد. شعرت أني أفرّغ ذاكرتي على الورق. وأني أنظر إلى بعض تعاريجها. أحاول أن أمحوها لأنها مكتظة بأحداث كثيرة. أنا لم أكتب لأي امرأة بعدك يا عليا. ماذا يعني ألا تثقي بي؟ القصيدة لك يا عليا. عندما انتهيت منها.. أخذت حبة منوّم لأني كنت متوتراً وقلقاً. ثم لا أدري متى غفوت. لا.. أخذت حبتين لا حبة واحدة. فكيف أخرج من المنزل وأقرع باب الجارة، ثم كيف ضربتها ولماذا؟!

هي تقول بأني ناديتها يا سلوى.. قرعت عليها الباب. فتحت بلهفة لأني حملت إليها القصيدة. وتقول بأني مارست الحب معها؟!!

قالت: عند العتبة احتضنني. حملني بين ذراعيه وطار بي إلى الداخل. أردت أن أصرخ ولكن خفت من الفضيحة. أنا أحبه، وهو كذلك يحبني. لم ينتظر لأخلع قميصي الشفاف. لقد مزقه وأخذ يقبلني بشراهة وشوق. كنت مع كل قبلة أسمعه ينادي «ليلى» بعد ذلك عندما رآني عارية ناداني سلوى وأخذ يضربني.. قلت له أنا لست سلوى.. قال: بل أنت سلوى.. وأخذ يرفسني فصرخت عند ذلك فرّ هارباً. كان دمي يسيل.. وكنت عارية لا أقوى على الحركة.

هي تقول أشياء أخرى يا عليا.. تعرفين أني أكره العنف وأني لا أجرؤ على دهس نملة مع أنه ضروري في حالات كثيرة.

قولي.. كيف سمحت لها أن تدخل منزلك؟! ومن الذي دلّها عليك؟! عليا صامتة. وسامح يقول اهدأ يا علي.. لقد عرفنا أنها ورطة. لقد طردت عليا المرأة وكذبتها. وعندما لم تسكت.. قالت لها: انتبهي.. الرجل الذي أحبه سينال نساء المدينة واحدة واحدة. إنه كالآلهة. فتباركن منه.

ابتسمت عليا.. أجل قلت لها ذلك.

«عليا.. أتتزوجينني؟!!» أنا لم أعد قادراً على الحياة من دونك..

الجريدة وتركتها كما تعلمون.. لقد وضعوا بديلاً لـي صديقنا الرائع حسن».

ما رأيك يا سامح؟ أفكر بالعودة إلى القرية؟! أزرع الكوسا. والخيار وأصير سيد زماني. هكذا قالت لي أمي:

«الذي يعمل في أرضه لا يحتاج أحداً يكون سيد زمانه». يضحك علي وهو يرشف قهوة عليا. بينما أم عارف تنصت في المطبخ لكلام تظنه سحراً. أريد أن أصبح سيد زماني مرة واحدة. يتنهد علي.. أعود مع عليا إلى الأرض.. نعيد سيرة الإنسان الأولى.. نبدأ بالزراعة. بالتراب وننتهي بالتراب. لقد خنقتني المدينة. لا. لا. الحضارة الناقصة. التقدم المزيف».

أتوافقين يا عليا؟!

«أعتقد يا سامح بأن عليا لا تحبني»

«من أين لك هذا الاعتقاد؟!»

«لا.. أعرف. الحياة اثنان.. أنا وهي. رجل وامرأة. تربة وشجرة. غيمة ونهر».

«لا.. يا علي.. ولكن ضغوط الحياة قتلت في أعماقنا القدرة على البوح.. هذا البوح الداخلي لم يأخذ حيزاً من حياتنا.. تكاد الحياة العاطفية والروحية تكون معدومة. كما أن تأخر سن الزواج غيرّ مفاهيم كثيرة»

«ما رأيك بفكرة العودة إلى الأرض»

«فكرة مدهشة.. ستبتعد فترة عن عليا وعن الضغوط النفسية. فتش عن مكان آخر لك. ربما تقدر أن تقرر ما تريد. حاكم نفسك وانتهِ إلى القصيدة. حرام. أنت شاعر كبير. كيف تصمت وأنت في الأوج.. ابدأ قصيدة كأنك تزرع شجرة.. ابدأ وسترى أمامك وحولك بساتين من

اللوز المزهر.. هيا يا علي.. اخرج من دوامة هذه المدينة بما فيها من الضجّة. المزلزلة.

ـ دعيه يذهب يا عليا.

ـ لا أعرف لماذا أجد سعاد غير متحمسة لعلاقتي بعلي. لم أقل علاقة حب وكفى. لا. هناك أشياء تجمعني به. أشياء كثيرة تساوي الحب. ربما هو كان يحبني. وربما يجدني بديلاً لحب قديم يريد أن يجدده. لكن أنا بصراحة لم أجد فيه حبّي القديم يا سعاد.. إنه يشغلني الآن.. يشغلني عن أشياء تحيط بي وعن كوابيس تعترضني. ولأعترف لك يا سعاد:

أنا غير قادرة على الحبّ بالطريقة السابقة. الطريقة التي كنا فيها طلاباً. كان على أمهاتنا أن يجبرننا على الزواج المبكر.

عندما يتدخل العقل في الحب يقتله.

أخي قال: يجب أن تتزوجي يا عليا. جاء بعريس غني جداً. قال له: أختي أستاذة جامعية. ولكنها تجاوزت الثلاثين.. يعني أنا صرت شجرة هرمة.. قال لي يجب أن تتزوجيه.

كيف يا سعاد؟! نظرت إليه. وجدت فيه نسخة لذئب سابق. «تزوجيه لقد كبرت»

كان يشبه أخي. لا يتقن إلا لغة المال. «المال يحلّ المشكلات.. يفتح الطرقات. يلغي القوانين ويضع قوانين جديدة».

ضحكت.. ضحكت بألم.. قال «المال يجعلك سيدة راقية.. إنه يملك معامل كثيرة.. تزوج عدة مرات ولم يرزق بأطفال»

«يعني أنا سأكون المفرخة. فقط؟!»

تصوري يا سعاد.. الرقي الآن له مفاهيم مختلفة. كل شهاداتنا التي حولتنا إلى أشجار هرمة لم تجعل منا سيدات راقيات.. أخي يعرف كيف تكون المرأة راقية.

ـ تسلخ خروفاً وتوزعه على الكلاب.. تسلخ أفعى وترتديها.. تسلخ طفلاً وتجبره أن يكون خادمها.. وكل هذه الشهادات حتى الآن لم تقدر أن تمنحنا لحظة اختيار. لحظة حرية. أتتذكرين رنده؟! ابنة الزعيم السابق للمدينة. لقد افتتحت مجلة، وترأست تحريرها.. راحت توزع الجوائز على شعراء المدينة. هي الآن راعية الأدب والأدباء. تعطي رأيها في كل قصيدة وفي كل قصة. يجب أن تكون المادة الأدبية تخدم أهداف راعية الأدب. يعني.. يعني هاتي القهوة يا سعاد وإلا أيقظت أمك لتؤدبك.

ـ طفلة أنا برأيك؟

ـ ليتنا كذلك يا سعاد ولكن بتوجيه جديد ورؤية جديدة.

كانت سعاد تعدّ القهوة. وكنت أراني معها نركض تحت المطر. وجوهنا مزرقة ووالدي ينادي بقعة سوداء في عتمة الطريق. تقترب وتقترب وتكون أنا.

غداً تتخرج سحر زوجة الجنرال من الجامعة بشهادة الدكتوراه.. ولكنها لن تحمل ذاكرة محملة بالمقاعد المكسورة. والأقلام المكسورة. وغداً الدكتورة سحر سترعى العلماء وتشكل الجمعيات الخيرية. تنفق ما يفيض عنها على الفقراء وتوزع أحذيتها التي بطل «موديلها» على طالبات الجامعة.

تأتي سعاد محملة بالقهوة والفستق.

ـ لماذا الفستق يا سعاد؟! إنه يؤدي إلى السمنة.

ـ ليكن.. ضروري أن نقضي العمر نتّبع نظاماً قاسياً في الغذاء لنحافظ على وزن ثابتٍ؟! ولماذا؟! من أجل رجل لا يقصّ أظافره إلا

بالمناسبات؟

«كان حقل الفستق أمام المنزل وكان عبد الله يجبرني على أن أعزق في أوج الهجير.. كنت أبكي وأنا أنطوي على معول مكسور وبطني مملوء بطفلة ستأتي إلى الحياة باسم هدى. وعندما تسألني أمي ما بك يا ماري؟ أقول لها لا شيء يا أمي.. كرهت قرية عبد الله؟

ـ سعاد.. أتعرفين أن لي أسماء كثيرة غير عليا.. كان اسمي ماري. تضحك سعاد.. فأنزعج منها لأنها لا تؤمن بالروحانيات والماورائيات.

ـ أنت واقعية زيادة عن اللزوم.. الغرب نفسه لم يستطع نفي تقمص الأرواح. أحنّ إلى البحر يا سعاد. أشعر أني قادمة من عمق موجة. أو من بطن المحيط. هذا العالم الممتد بين ليل ونهار.. كأني أعرفه. بعض الشوارع في بلدان آسيوية تحضني على الحزن.. أشعر أني أعرفها منذ زمن بعيد.. أحن إليها كما أحن لمقهى جلست على طاولاته عشرات المرات.

البحر عالم واسع يا سعاد. أمي قالت بأنها رأتني في نومها أجيء من صوب البحر. هذا البحر بدا مفزعاً بعد حوادث غرق كثيرة. أسمعت بحادثة الغرق الجماعية لأطفال «كلماخو»؟

ـ أجل.. قرأت عن ذلك في الصحف.

ـ البحر الآن مخيف.. أسمع فيه أصوات الأطفال الأبرياء وهم يتدافعون. البحر طغى وغدر جيرانه. عندما ركب الأطفال زورقاً.. غنوا للبحر وراحوا يلتقطون السمك بخيالاتهم. صفقوا له «يا بحرنا.. هيلا» لكن البحر غدر بهم.. ابتلع الزورق. طفا الأطفال مثل أسماك مقتولة بالديناميت.. طفت الأرواح على الزرقة المالحة.. العالم كله يطفو على ملح يذوب الأطفال يبكون. أسمعهم كلما نزلت إلى البحر. ينادون أمهات منهمكات بقطاف الكوسا والسلق في حقول «كلماخو».

«ولك يا عزيز. أين الأولاد..؟!»

«الأولاد الثلاثة في البحر. غرقوا.. ألم تعرفي ذلك»

«لا والله.. يا عزيز.. ما كنت بعرف..»

تفتح الأم باب المنزل وتغرّب عند الفجر إلى البحر. ترجمه بالأحجار الصغيره تنادي الأطفال وتعود.

«والله لم أسمع أحداً يا عزيز. أنت تكذب علي»

يبكي الزوج على أم فقدت ذاكرتها في دوامات البحر»

عندما عاد الباص الذي كان يحملهم إلى البحر.. كان محملاً «بمرايبل» الأطفال وزجاجات المياه الحلوة.. عاد الباص فارغاً إلا من ضحكاتهم وصراخهم. رفعت المدرسة علماً أسود. رفرف الأطفال بأرواحهم كعصافير صغيرة.. صفقوا بأجنحة من نور. ثم غرّبوا بعد أن اطمأنوا إلى قبورهم الصغيرة المتناثرة في «كلماخو».

حزنت سعاد.. «دموع الأطفال في بطن السمك؟! لن أستطيع أكل السمك بعد الآن. البحر غدار دائماً.. أمي قالت: بأن جنية كانت في القديم تخرج من صخور البحر.. تطارد الرجال الجميلين وتقتل النساء الجميلات في المدينة.

«هذه تسكنها روح هيرا.. التي تغار من كل امرأة. وتحيط زوجها بالحراس»

«بصراحة نحن نبتعد عن همومنا الأساسية إلى هموم الآخرين» تشرب سعاد القهوة وقد بدأت بشكل جدّي حديثها. وعندما سألتها ماذا. قالت أجد سامي رجلاً مناسباً لك.

«ولكن أنا أكبر منه بسنة»

«وماذا في الأمر.. إنك تفكرين بعقلية المرأة القديمة التي كانت لا

همّ لها سوى الإنجاب.. المرأة الآن كيان إنساني مستقل مشارك وفعال في الحياة. همها الأول ليس الإنجاب لذلك إذا تأخرت بالزواج فليس الأمر مشكلة.. المرأة الآن شابة في الخمسين. ألا تلاحظين ذلك؟!

ــ ألاحظ يا سعاد. ولكن هذه ليست مشكلتنا.. إنها مشكلة الرجل الشرقي.

ــ أتعرفين بأني تزوجت رجلاً عربياً في باريس أكبر مني بعشرين سنة؟!

ــ آه أيتها الشقية. لماذا لم تخبريني؟! إني مندهشة.. معقول.؟!

ــ أجل معقول.. وقد استطاع التفاهم معي واستطاع أن يلتقي معي فكرياً وهو أكبر مني بعشرين عاماً. فلماذا لا تستطيعين التفاهم مع رجل تكبرينه بسنة؟!! هذه الأفكار يجب أن تلغى.. أو ترفض المرأة الزواج من رجل يكبرها بأكثر من خمس سنوات.

الرجل لا يخجل أن يتأبط ذراع امرأة يكبرها بثلاثين سنة.

ــ هه.. إنه يفاخر بذلك.. إنه مرغوب.. إنه روميو زمانه دائماً.

ــ بصراحة.. أرى سامي مناسباً لك أكثر من علي.. سامي سيريحك أكثر.

عليك أن ترتاحي مع رجل يؤمن لك الخروج إلى الحياة. أنا لن أتزوج إلا رجلاً غنياً. لم أعد قادرة على أن أبني من جديد «حجراً حجراً» العمر ضيق. الآن أجد بعض الفوائد للزواج المبكر.

«كنا دخلنا الحرملك الأبدي»

«أحياناً أشتاق لأن أعيش بالطريقة الأوروبية فلا أقدر. حبال تشدّني إلى الماضي. كما أني لا أقدر أن أعيش بطريقة أمي. نحن جيل الضياع. ألا ترين ذلك يا علياء؟ لا نقدر أن نحبّ كما نرغب ولا نقدر أن

نقبل بطريقة الآباء. لذلك ينمو في أعماق كل رجل ذئب تجاه كل امـرأة في داخلها أمة ووراءها جنية تخطف الرجال.

الستائر الزرقاء مربوطة بعقدة في الوسط بحيـث يتسـرب إلـى المكان حزمة ضوء. ترتاح على وجه سامي وسعاد وعليا وهم يتناولون الغداء في بيت عليا.. أم عارف تحمل صحن المخلل وتقول: إنه لذيذ مع المجدرة. كانوا يضحكون ويتبارون بأفضل كذبة تقال.

سعاد.. الحقيقة أن ابن خالتي لم يحب امرأة غير زوجته مع أنـه وسيم ويملك سيارة فارهة ويعمل بالاستيراد والتصدير.. ولديه عدة شقق في كل مدينة شقة وفي كل عاصمة غربية.. ولكنـه وفـيّ لزوجتـه، يضحك سامي.. الحقيقة أنها كذبة جميلة. دور الأستاذة عليا الآن.

«عمي كان مدير أملاك الملك.. مزارع. مصانع. جيوش.. ومـع ذلك لم يكن عنده إلا سيارة واحدة لزوجته. وأخرى لحبيبته. وهـو لـم يأخذ أبداً إلا راتبه المقرر».

«الحقيقة كذبتك مثل كذبتي يا عليا»

الوجوه فرحة. مضيئة وضحكات تتناثر على السـتائر الزرقـاء عندما قرع الباب.

«افتحي يا أم عارف» تركض أم عارف إلى باب الشـقة تفتحـه وتقف بالباب.

«إنه الأستاذ يا بنتي»

الأستاذ يعني الشاعر علي.. جاء يحمل النعنع البري لعليا.

استقبلته عليا باضطراب. أرادت أن تقول فوراً: أنا فوجئت بسـعاد وسامي هنا في انتظاري. لكنها شعرت أنه لا يريد أن يسمع شيئاً. نظـر إليها بأسى رمى باقة النعنع البري على الأرض واستدار عائداً باتجـاه الباب. وقفت عليا تتأمله.. لم يلتفت.

حملت النعنع البري وأخذت تنتف وريقاته كطائر مذبوح يجردونه من ريشه.

«ما به صديقك؟»

لم تستطع عليا أن ترد. كانت رائحة النعنع البري عابقة في المنزل.. أم عارف ظهر على وجهها الحزن.. دخلت المطبخ ولم تخرج منه وعندما سألت عنها سعاد وجدتها تضرب الجدار بيدها..

ماذا تفعلين يا أم عارف؟ تظلّ أم عارف على حالها. كأنها لا تسمع.. «يا كلب.. يا حقير. أتضربني وأنا أم أولادك؟! صرت جدة. جدة يا كلب.. والله سأذبحك».

تغلق سعاد الباب على أم عارف وتعود إلى سامي وعليا.

رائحة النعنع البّري تملأ المنزل. تشعر عليا بالاختناق. صار النعنع البري يزعجها. لم تعد ترغب فيه.

حزنت عليا.. ولكنها لا تقدر أن توافق علياً بكل شيء.. يريدها أن تعود معه إلى القرية.. إنها لا تقدر. لا تقدر أن تنفصل عن شخصيتها الحالية. قالت له كثيراً: لنترك الماضي يا علي. لنبدأ من الحاضر. لا علاقة لنا بجذورنا الممتدة بين الحروب والسلام. لنرخ ستارة على الأقل على كل الحفر القديمة ولنبدأ. قال لها: أنت تقولين ذلك؟! وهل نحن أبناء اللحظة؟ حملت عليا النعنع البري الذي ملأ برائحته المنزل. تكاد تقع على الأرض. ملامحها بدأت تجمد.. شعرت أن أزهاره البنفسجية تتطاول وتلتف حول رقبتها.. هي بنت الماضي فعلاً ولكنها تعيش في الحاضر تنظر للمستقبل.

«أبعدي النعنع يا أم عارف» أم عارف لم ترد. نادت عليا مرة أخرى.

أبعد هذا النعنع عني يا عليّ.. نظر سامي حوله.. اعتذر وخرج «سأترك عليا ترتاح»

«افتحي النافذة يا سعاد أرجوك. سأرمي النعنع البري إلى الشارع.» ولكن عندما حاولت عليا النوم خيّل إليها أن النعنع يحلق في الغرفة كطائر. يشبه الخفاش. يدور في سماء الغرفة. يخرج. يدخل. عندما حدثت سامح بذلك صفعتها الحقيقة.

«أنت لا تحبين علي»

لم تقل شيئاً ولم تدافع عن نفسها.. هي لا تدري فعلاً بماذا تدافع.. لذلك غيرت موضوع الحوار وسألته عن سعاد. فوجئت بسامح يقول: إني أحبّ سعاد وأحترمها ولكن لا أستطيع الارتباط بها.. كانت متزوجة سابقاً.

قالت عليا بانفعال: ولكنها لم تكن زيجة متكافئة. ولم تستمر طويلاً. إن الميزات التي تحملها سعاد تغطّي عيباً صغيراً كهذا. أدهشها موقف سامح.. يعني لو أنها تزوجت من قبل.. كان موقف عليّ هكذا.. وربما نظرته ستكون أسوأ.. إذن ما معنى الوعي يا سامح؟! ها أنت تخرج للمرة الألف من قنباز آبائنا.

سامح يقول: نحن جزء من المجتمع ولا نستطيع الخروج من دائرته.

«نستطيع أن نحدث بعض الثقوب. الثقوب على مرّ الزمن سيتسرب منها الماء الذي سيكون بداية الطوفان» هكذا خُرّب سد مأرب.

«ولماذا عليك أن تتحملي أنت اللعنة. لعنة الطوفان»

«من أجل هدى.. من أجل سعاد.. من أجلي. ومن أجل حفيداتي القادمات.. عبد الله كان يرشقني بالماء ويكسر عصاه على رأسي. كنت أحصد القمح وكان يجلس في الظل يتفرج علي.. لم تختلط عليّ الصور يا سامح.. أي واحدة هي الصحيحة؟! ومع ذلك أنا الآن أرى بوضوح.

عندما تركني سامح رأيت أمامي الخرساء.. رأيتها تتخبط

والوحش يأكلها.. هي المسؤولة عن إغواء وحش.. رأيت السينما تتخبط بالدماء والثياب الممزقة والكراسي.. رأيت الدموع مختلطة بالدم.. علي يقول لي.. «هذا أبوك.. أبوك مات.. قبّله» إني بلا سند.. بلا أصدقاء.. وأهلي الذين كانوا أهلي يوم كنت صغيرة لم يعودوا أهلي. كل الذين يكبرون يفقدون أهاليهم إلى الأبد.. اتصلت بعليّ لم أجده. شعرت بالحاجة الماسّة إليه. قيل لي ذهب إلى القرية ومن هناك سيذهب إلى «نهر الشحادة» من أجل الصيد.

«لا. هو لم يذهب للصيد.. علي لا يجرؤ على قتل عصفور بريء.. لابد أنه ذهب لأمرٍ آخر!

ـ أنا ذاهب يا عليا من أجل خالتي.. قيل لي بأنهم شاهدوها، تظهر ثمّ تذوب في ماء النهر. وعندما يطول غيابها يقولون جرفها النهر.. لكنها لا تلبث أن تظهر من جديد..»

صحيح يا علي.؟!

ـ أجل يا عليا صحيح.

اختلطت عليّ الأمور بين الواقع والخيال. خاصة بعد أن قرأ عليّ آخر أعماله بعنوان نهر الشحادة»

ـ من أين جاء اسم نهر الشحادة يا علّوش؟ الأماكن لا تسمى بأسماء الفقراء. هي تسمى بأسماء الملوك. القادة. الشعراء. الزعماء.. وربات الجمال.

ـ الفقراء هم القاعدة التي ترتفع عليها الرموز حاملة كأس الانتصار. في المظاهرات الطلابية كنا نحمل حسن على أكتافنا.. كنا نلهث تحته نكاد نقع.. هو يعلو ويصرخ ونحن نلّقنه ما يجب أن يقول.. عندما تنتهي المظاهرة.. نغيب نحن وتبقى صورته في أذهان الناس وصوته في آذانهم وفي جلساتهم وهم يتسامرون يقولون «أما سمعت

ماذا قال ذاك الشاب الأسمر.. الــ..»

الفرد يأخذ دور الجماعة. يطفو على تعبها.

لم أجد طريقة أخرى للخلاص من وحدتي غير الاتصال بسامي..

«خذني إلى أمي يا سامي أرجوك»

أدور في منزلنا القديم.. أتفقد الأوتاد المغروسة في الجدران.. أتفقد صورة أبي القديمة. و«تنشلح» نظراتي على الزجاج القديم والخشب المدهون بالأخضر المتشقق.

«يجب أن تتركي هذا المنزل يا أمي»

«من يترك منزله تقلّ هيبته يا بنتي»

لولا المكوث في المنازل طويلاً ما خلقت الإلفة بين الإنسان وجدران منزله. ووسادته. هذا اليوم شعرت بأني قريبة من سامي.. خفت أن أتعوّده كما أتعود المكان. أو أني أنتهز خدماته... أ أنا كذلك؟! أحاول أن أبعد هذه الأسئلة المتعبة في يوم صيفي رائق أريد أن أتمتع به لأحضر نفسي غداً للدوام الطويل حيث تبدأ امتحانات الجامعة.

سامي في هذا اليوم لم يكن مجرد صديق يوصلني بسيارته. ولا تلميذاً لي عنده احترام خاص.

شعرت أني مع رجل حقيقي. لكني أنفر منه مجرد مقارنته بوالده الذي خلع جذوره وتحول من رجل دين إلى رجل سلطوي. انتهازي. لا تعنيه مشاعر الناس أبداً.

سامي «غير شكل» مؤدب. لا يتجاوز حدوده.. إنه يخصني بمودة خاصة مع أنه لم يقل شيئاً. يكتفي بأن يقدم لي زهرة.. أو أن يحمل لي قطفة حبق. وأحياناً يدعوني إلى البحر.

حدثته عن أبي فأصرّ على زيارة قبره.. آخر مرة ذهبت سعاد

معنا. هربنا من ضجيج المدينة. هربنا من الهواء الرمادي المشبعِ بالبترول. ومن زئير العجلات السوداء في الشارع. لم تتفاجأ سعاد برد سامح.. هزت رأسها ضاحكة.

«الذنب ذنبك.. أنا لم أعرض نفسي عليه.. وهذا لن يقلل من صداقتي له.. لأنني أعرفه. معظم رجالنا هكذا يا عليا. لهم أكثر من وجه. وأكثر من عقيدة. يظهرون الوجه المناسب في الوقت المناسب».

عندما يريدون امرأة يتحولون إلى مدافعين عن حرية المرأة وحرية الجسد. وحرية الفكر وحق المرأة في تقرير مصيرها بينما يكون المفتاح الذي يقفلون به على أخواتهم أو زوجاتهم معهم في جيوبهم السرّية. إنهم يخرجون من العصر الجاهلي بعباءة ولحية عندما يريدون.

«وحياتك يا عليا أنا لا أرغب فيه.. قلت لك لن أتزوج. إلا رجلاً غنياً»

«وأنا يا سعاد لا أريد أن تشعري بالحرج.. كنت أمزح مع سامح.. لم أعرضك عليه.. أنت لست سلعة. أتظنين بأنك هينة علي؟!»

«المبادئ لم تحقق لي شيئاً. لم تشتر لي منزلاً ولا سيارة. ولا.. عن أي شيء أدافع؟!»

«حتى أنت يا سعاد؟!»

«أتعرفين.. يخطر في بالي أن أضحك على هؤلاء الرجال.. أترين كيف.. سأرمم المرأة العذراء بي.. فأنا لم أنجب ولم أبق مع زوجي سوى شهور.. هكذا يصدقون بأني طاهرة. ما رأيك؟

ها هي الأمكنة تتخلخل بين يدي وتنهار. نهر قريتنا يفيض وتخرج من ضفافه طحالب كثيرة تنمو وتغطي أشجار الصفصاف والحور. الطحلب يمتد إلى منزلنا. يمد أوراقاً إبرية تشبه المخالب.. تمتص دم الحقيقة كلها.. من يحمي الحقيقة؟! أحتمي بأمي.. أمي ترفض المجيء

معي.. «من يترك بيته تقل قيمته» ناديت أبي. أبي.. أبعدتني أمي عنها غاضبة. ناديت أبي ألف مرة.. أخيراً خرج إليّ من جذع شجرة.. نظر إلي وبكى.

«أبي.. أنا بحاجة إلى أب.. أريد أباً.. بحاجة إليك»

يمسح دمعته.. ويشير إليّ أن أنظر إليه.. نظرت.. فوجدت قدميه مشلولتين. إنه لا يقوى على المسير. «ظلُّ رجل ولا ظلّ جدار» أنادي علي.. علي.. علي منهمك بالبحث عن خالته. يقول إنه وجد قبرها.. نبش القبر وحملها إلى القرية.. كانت فتاة جميلة.. عذراء.. رفع يدها في الهواء ملوحاً لأهل القرية المتجمهرين.. كانوا يبكون.. وكان يضحك ويقول: انظروا.

أريد أن أمشي وحدي.. أريد الذهاب إلى قرية علي.. عليَّ أن أسأل عنه. لن أخبر أحداً. عندما ودّعني آخر مرة كان حزيناً، مقهوراً. وأنا لا طاقة لي على رؤية القهر في عيني الآخرين خصوصاً إذا راودني الشك بأني السبب. أي ازدواجية هذه؟! نكافح من أجل الإنسان ونقهر أقرب الناس لنا؟!

هناك أشياء لا أفهمها. أقترب من علي. وأبتعد عنه.. كأني مسيّرة ولست مخيّرة عندما يبتعد عني أتمنى أن يقترب أكثر. لكنّي حين أقابله أشعر بعجزي عن معايشة أي رجل.

خذلاني أيام الجامعة لا أريد أن أكرره. أنا لست كاملة، لا أخطاء لي. ولا أعرف ماذا يوجد في أعماقي. كم امرأة. كم روح.. كم جسد لبست وسألبس. كم أب كان لي وكم بقي؟.

أشعر بدوار.. دوار شديد. الأرض كلها تدور حولي.. في كل يوم أحاول أن أدخل الغرفة السرية للرجل ذي اللحية الزرقاء. دخول الغرفة هذه أصابني بلعنة لا تزول.. أمي تنذر عني النذور.. وتأخذ قطعاً من ثيابي إلى الأولياء.. ولكن اللعنة باقية.

«لو أنك لم تذهبي إلى بلاد الغرب يا بنتي»

أمي تقول إن بلاد الفرنج تنزع أفكار المرأة.

أنا وسعاد سمّم الغرب أفكارنا. علي لم يسافر إلى الغرب إلا مرات قليلة.. من خرّب أفكاره؟ «الكتب. الكتب يا بنتي».

أين سأجد هذا الـ «علي». أتوقع أن يكون في الأرض. يزرع البقول أو الخضار.. هو قال يجب أن نعود إلى الأرض.. إلى النقاء. وربما أجده يكتب. يجب أن أكون أكثر رقة معه.. إنه شاعر.. أحاول أن آخذ ميثاقاً على نفسي بذلك.. أبناء القرى ينتشرون في الحقول.. هذا يعزق. وذاك يعشّب.. وآخر يروي بمياه نبع السن. نبع يسفح دمه على السهل الممتد. من سوكاس إلى سيانو.. إلى جبل كاسيوس حيث بعل ينتظر إلهة أخرى غير عشتار تنبجس من دماء النهر المذبوح والموزع أشلاء.

لأول مرة أزور قرية علي.. إنها مشابهة لقريتي. أود أن أفاجئه بقدومي. «أريد بيت الشاعر عليّ يا سيد».

«هناك في نهاية الطريق شجيرة زيزفون. بعد ذلك تجدين حاكورة تبغٍ. المنزل المحاذي لها هو منزل عليّ.

دخلت بيتاً واسعاً. ما تزال أرضه تراباً. كأنه يشير إلى التناقض القائم بينه وبين قصر حسن.. الأبيض اللّماع. «رأيت امرأة عجوزاً جميلة الوجه، أردت أن أقبّل يدها احتراماً لأنها ذكرتني بأمي. رفضت. سألت عن عليّ. فقالت بحزن علي غير موجود يا بنتي. هل أنت رفيقته في الجريدة؟!».

«أنا رفيقته؟!! الجريدة؟! لا لا لا رفاقيه ولاجريدة. هناك أشياء أخرى» أين أجده؟ إنه على نهر الشحادة.. يظن أنه سيجد خالته هدبا. وخالته ماتت يا ويلي عليها. لا نعرف كيف؟ قد تكون الوحوش البّرية

أكلتها. وقد يكون جرفها النهر.

بعض الجيران يقولون بأنها تحولت إلى طائر يسبح فوق الماء.. يخبط جناحيه في الماء ثم يرتفع عالياً في السماء.. ليعيد الكرّة مرة أخرى. نحن كل يوم يا بنتي نرى طيوراً فوق الماء.. أأنت زميلته؟!

«أجل يا خالتي..»

بالتأكيد أنت جائعة. ألست من المدينة؟! عندي مجدرة برغل، أم تحبين «الشنكليش!»

«لا. لست جائعة صدقيني.»

«ما بيصير يا بنتي. يجب أن تأكلي من خبزنا وملحنا.. هذه عاداتنا. مع أنها تغيرت كثيراً هذه العادات.»

كدت أن أقول لها: أجل. أعرف كل هذه التغيرات. لكني تركت للعجوز أن تتحدث بما في صدرها.

«حسن شاعر.. بس مش متل عليّ.. مع ذلك حسن عمَّر بيتاً جميلاً. واسعاً.. كأنه قصر. وعلي. ابني ما يزال كما تعلمين.»

«المال ليس كل شيء يا خالة»

«صدقتِ.. كأن العم صالح أستاذك والله..»

«أنت تعملين مع عليّ في الجريدة»

«تقريباً..»

«أترين كرم التين ذاك؟! وراءه تقع مقبرة القرية. كانت حديقة أرواحٍ.. الآن صارت حديقة زرع في وسطها ابن زعيم القرية السابق صنماً لأبيه.

ابن زعيم القرية السابق. كان ولداً عاقاً.. يتسكع من بلد إلى بلد. عاد هذه السنة.. عاد زعيماً على تقاليد أبيه.

يقولون إن القائمقام كلفه بذلك.. إيه.. لم أسألك يا بنتي. كيف حال شغل عليّ.؟! منذ مدة لم ينزل إلى المدينة. هل هو زعلان؟! قلت له يجب أن تتزوج يا بني. كل أخوته تزوجوا ورحلوا. وظلّ هو وحيداً. ولكن تزوج ليلى.. ماتت ليلى.. الحي أبقى من الميت أليس كذلك؟!

قلت له: الشعر لن يعمّر لك غير صنم يا علوش. ضحك وقال هذا تمثال يا أمي.

قلت له: وماذا يختلف التمثال عن الصنم.. والله مثل بعضهما.

«ما اسمك يا بنتي؟! لا بد أنك جوعانة»

«اسمي عليا.. لست جائعة. صدقيني»

«عليا.؟!»

«أو زينب. أو فاطمة.. كل هذه الأسماء المتشابهة»

«لا يهم الاسم يا عليا.. الأهم منها الروح.. الأرواح الطيبة تعمر الأرض.. يجب أن تشربي كأس لبن»

تنهض العجوز مستندة إلى عصا قديمة.. ألوانها باهتة. مشت بهدوء. باتجاه مطبخ خارجي. ثم عادت بكأس لبن نظيف. قدمت كأس اللبن وقالت:

«قال زعيم الضيعة.. روحه طاهرة. ابنه هكذا يقول.. لذلك يريد أن يصنع لوالده صنماً.. من أين جاءته الروح الطيبة؟! والله يا بنتي، «دافنينه سوى»

رشت أم علي الماء على التراب بشكل رذاذ، فتصاعدت رائحة التراب. الساموك ما يزال يتوسط المنزل.. عليه مسامير. صور الأجداد.. صور أولاد. وقنديل كاز معلق يبدو أنها ما تزال تستخدمه.

«متى يعود علي؟!»

«والله يا عليا. ليس له وقت محدد.. قد يعود مساءً. وقد لا يعود..

«أين كنت يا بني» أسأله بلهفة الأم. يقول: كنت في الصيد.. ماذا يصيد في الليالي ضفادع؟ أخاف أن يمشي في طريق خالية. ينتعل البراري. وتلبسه الأرواح الخفية. جدته ماتت وهي تقول لي: ابنك أهبل يا فطوم.. بكيت.. كلما نزلت إلى النهر وكلما جلست تحت شجرة وحدي. كنت أبكي. غيرت له اسمه. سميته إسماعيل. ما زلت أناديه إسماعيل أحياناً. الشيخ قال: الاسم يكون أحياناً لعنة. لذلك يجب اختيار الاسم الموافق. الاسم يسجن صاحبه وأحياناً يكون رحمة.

الشيخ قال لي: يا فطوم.. الطفل الذي لا يتوافق اسمه مع مولده يجب تغييره. قلت له: يا عم.. اقرأ لي طالع علّوش.. إنه يمرض كثيراً. قرأ الشيخ الفاتحة.. صمت. صلى على الرسول.. جمع وطرح. قرأ آيات أخرى. قال ابنك لا يناسبه اسم عليّ.

سمّيه إسماعيل يا فطوم. لكن والده رفض.. صرخ في وجهي وقال أتكسرين كلمتي يا امرأة؟! إنهم ينادونني «بأبي علوش» قبل أن أعرفك. أتريدين أن تسوقيني؟!!

«معاذ الله». حزنت كثيراً.. «لا رأي لمن لا يطاع» يا عليا. هكذا العم صالح كان يردد عبارة الإمام علي.. عندما علم الشيخ حزن ولم يقل شيئاً. وعندما همَّ بمغادرة المنزل همس في أذني «بخريه بالبخور والنعنع البري.. هذه الروائح تبعد الأرواح الشريرة التي تسكن الأجساد. حامد.. لا تعرفينه.. ألم يكلمك عنه علّوش؟!

«لا أبداً»

حامد صار يعوي قبل أن يموت. سكنته روح ضبع.. الكافر تسكنه الأرواح الشريرة وتسيّره. أخ يا بنتي..بكت العجوز وهي تحمل كأس اللبن الفارغة.. تعبنا كثيراً.. زرعنا. وسقينا.. وحفرنا الأرض. أكل التراب أعمارنا.. «لأ.. وشو؟!» قال بدّو ــ يعمّر ــ لأبوه صنم قدام عيوننا»

«ولك.. أنا وقفت ضد أبي.. لماذا لا يعترف المرء بالخطأ؟! كذلك الآباء يخطئون.»

«أبي لا يخطئ.. هكذا قال ابن الزعيم»

ــ من الذي لا يخطئ.. إنه الله وحده. يا عليا.. حالة علي لم تعجبني.. يقول بأنه سيبقى في القرية.. لم أعرف لماذا؟!!

ــ وأنا لا أعرف يا خالة.. عليَّ أن أذهب. قولي.. من فضلك.. للأستاذ علي: علياء جاءت تزورك»

حاولت العجوز أن أبقى عندها.. لكني رفضت ففي الصباح سأقوم بمراقبة المادة التي أدرّسها في الجامعة. مالت الشمس إلى الغروب بدأ الهواء الرطب يموّج حقول الحنطة اليابسة. شممت رائحة التراب المحروق بالوهج والندى. لاحت لي أمي في وجه أم علي.. شعرت بشوق جارف إلى رؤيتها.. تماوجت نباتات الذرة الصفراء التي تشكل سياجاً لحقول كثيرة مزروعة بالفول السوداني. مرّ بي رجل عجوز يحمل أفعى في حضنه ممسكاً برقبتها. شعرت بالخوف ابتعدت عنه فاقترب مني.

«اسمعي يا بنتي في منزلك أفعى»

«... »

«قلت لك في منزلك أفعى قديمة تعود إلى أزمنة سحيقة».

«لا يمكن.. منزلي في المدينة وهو بناء طابقي»

«ثقي بكلامي يا آنسة» أنا ــ جنيداتي ــ أشمُّ رائحة الأفعى في ثياب البشر.. أنا آمرها فتخرج إليَّ.

«لا تقولي لي العنوان. أعرف بيتك. سأمرّ عليك في يوم ما.. لكن تذكري كلامي بيتك يحوي أفعى عاشت في قصور كثيرة قديمة، وهي تنتقل من قصر إلى قصر».

ظل الرجل يحدق بي. شعره طويل. وله لحية بيضاء. نحيل الجسد. في ظهره حدبة. تجاوز الستين من عمره.

«من أنت؟»

لم يرد.. ظل يحدق بي فتركته ومشيت. «إنه الدرويش الذي حدثتني عنه جدتي أجل.. إنه هو.. يمر في كل زمان.. يطارد الثعابين ولا يعيش دونها لذلك لا يقتل أفعاه. يظل محتفظاً بواحدة على الأقل.

حين وصلت إلى المنزل شعرت بالخوف.. رفعت غطاء السرير. نظرت تحت الوسائد ووراء الخزانة.. وراء أشياء كثيرة. لم أجد شيئاً. أين ستختبئ الأفعى في منزل حديث..؟! سابقاً كانت تختبئ في الجدران الطينيّة للمنازل. أو في خشب السقف أو في الجدران الحجرية التي تسيّج الحواكير. في الأشجار.

«لا.. الأفعى تعيش في كل مكان»

ولكن يا سيدي لم أجد شيئاً في المنزل.. منذ أسابيع وأنا أبحث. دخل الدرويش من غرفة إلى غرفة بهدوء. قال «المرأة غير النظيفة عليها الخروج من المنزل.»

«هل أنت نظيفة يا أم عارف. طبعاً. اليوم استحممت»

«لا.. يقصد هل أنت في أيام الحيض.»

ابتسمت أم عارف وقال «من زمان يا بنتي.. انتهيت من زمان»

الدرويش يدور بهدوء. يرفع أصص الورد. يقرأ التعاويذ والآيات القرآنية. وأشياء أخرى لم أفهمها. هاهي.. يصرخ الدرويش «جنيداتي».. هاهي المباركة.. تعالي يا مباركة يقف شعر رأسي. أرتجف من الخوف.. أم عارف تتلعثم وتقول أشياء غير واضحة. الأفعى قصيرة، ضخمة ذات رأس عريض. وجلد أغبر مصفرّ.

«كم عمرك يا مباركة؟!! يقول الدرويش متحدثاً مع الأفعى يصمت قليلاً والأفعى ترفع رأسها كأنها تجلس على بطنها..

«عمرها أكثر من ألف عام. هكذا «تقول..»

الأفعى تدير رأسها يميناً ويساراً. تنظر إلى الذين حولها يطمئنها الدرويش أن أحداً لا يحمل سلاحاً. تكومت بشكل مطمئنة على البلاط البارد. لم أعد أقوى على الحركة. شعرت أني أتهاوى.. قال الدرويش لا تخافي.. إنها ترافقك منذ ألف عام.. هي ترمي ثوبها وأنت ترمين أجيالك.

«أتعرفين هذه المرأة يا مباركة؟»

«تحرك الأفعى رأسها.. تنفخ. أسقط على الأرض.»

يصرخ الدرويش.. «الله أكبر. الله أكبر» يرغي ويزبد.. يرتمي أمام الأفعى.. تمدّ رأسها نحوه. أم عارف تسقط على الأرض. الجيران يراقبون عن بعد بذهول. تتقدم إحدى الجارات. يصرخ الدرويش «لا تدخلي. لا تدخلي. أنت لست نظيفة. ابتعدي وإلا لسعتني هذه المباركة» هرولت المرأة خائفة. مسح الدرويش على ظهر الأفعى.. فتح لها صندوقاً زجاجياً.. انسابت على البلاط بهدوء ودخلت الصندوق. أغلق عليها الصندوق بمفتاح صغير. حمل الدرويش صندوقه ومضى. لم يقل شيئاً. لم يلتفت. صار يهمهم فقط. هبط الدرج وسط ذهول الناس وعندما صار عند الباب. رفع يديه مكبراً. يا الله. يا أبناء آدم أنتم مذنبون.

«سيأتي رجل يا أحفاد آدم من أقصى التعب وأقصى الجوع. سيتبعه القانتون. وسيأتي رجل أعور، يحرق الأخضر واليابس. ويصير القابض على الحق كالقابض على جمرة. يقتلكم واحداً واحداً إلا من عصمته رحمة الله. سيسبي النساء وينهب الأرزاق. يا الله. يا الله»

احترت.. هذا كلام درويش أم كلام شخص آخر.. لقد سمعت هذا

الكلام ولكن لا أعرف أين. تتشابه الأسماء. ولا تتشابه الأرواح. رددت كلمات أم علي.. الاسم قد لا يتوافق مع المسمى. الاسم يكون لعنة. أو يكون رحمة. رفضوني لأَن اسمي عليا.. ورفضوه لأَن اسمه خالد. إيه يا خالد. قد يكون لون البشرة أيضاً لعنة. واللغة لعنة. ولكن نحن لم نختر أسماءنا. ولا لوننا. ولا بيوتنا التي تختبئ فيها الأفاعي.. قال الدرويش: كانت الأفعى تحرسني. لكنها الآن صارت خطرة. خاف عليَّ.. ما الذي تخبئه الأيام القادمة يا عليا؟!

لو أنني الآن أقشّر اسمي عن جسدي ـ كما يُقشَّر ـ الجسد عن الروح. ثم أسير في أرض الله الواسعة. وعندما يسألني أحدهم عن اسمي. أقول: التراب.

إنه الاسم الأكمل. الاسم الحق. التعيين. الاسم الذي يحقق المساواة والعدالة. «مسكين يا علي» انتظرتني طويلاً اليوم ولم تجدني. أم عارف قالت: لقد ترك لك غصن «ميس». تأخرتِ يا بنتي.

«امتحانات يا أم عارف»

شعرت بالحزن. المنزل تكور على باقة أحزان لا تفارقني. المنزل الذي خبأ الأفعى يضيق الآن. أسمع صوت امرأة تنوح في أعماقي. امرأة لا أعرفها. ولم أسمع صوتها يوماً.

«اسمعي يا عليا.. أنا جدَّتك الأولى»

ـ يا إلهي جدتي.. آه.. «متعبة أنا يا جدتي»

ـ ستظلين يا بنتي تبحثين عنه، وسيظلّ يبحث عنك إلى أبد الآبدين. وكلما التقيتما، افترقتما، هكذا كما كتب عليّ. الركض وراء رجلي من «سرنديب» إلى عرفات. ومن السماء إلى الأرض. هكذا كما كُتب علي السعي.. يهرب صوت المرأة. ألتفت حولي لا أجد أحداً... يا جدتي».

«ملعونة أنت يا امرأة. الحيّة هي خصمك» يا جدتي فكّي عني لعنة البدايات. فأنا تراب. تراب.

نظرت حولي فإذا أم عارف قربي. ماذا يا أم عارف؟

سامح يا آنسة على الهاتف. يريد أن يتحدث إليك.

أنصت لوقع خطوات غريبة. أم عارف تستعجلني إلى الهاتف.

«ألو.. سامح. مرحباً»

«أين أنت؟!»

«أنا في المنزل..»

«لا.. اتصلت أكثر من مرة. ومنذ مدة لم أسمع صوتك»

«كنت أزور نهر الشحادة»

«ماذا تقولين؟!»

«صدقني. كما ذكرت لك. ذهبت لزيارة علي. لم أجده. قيل إنه ذهب إلى نهر الشحادة.. يا للخلود.. المجد لك.. نهر خصب. باسم الفقراء؟»

«وطبعاً. سأحدثك عنه عندما نلتقي أتصل بك لأني أردت أن أخبرك بأنني سأخطب.»

«صحيح..؟ من؟»

«سلمى النهري»

سلمى النهري. سلمى النهري؟! رددت الاسم عدة مرات. كدت أقول: سلمى مثل ابنتك. ولكن احتراماً لمشاعره سكتّ. استدركت الموقف؟ آ.. سلمى ما غيرها؟!

إنها جميلة. مبارك.

أتراني تغيرت كما يقول علي وصرت أجامل.. أي صرت أكذب. هذا هو الكذب الحضاري.

ـ أنتظر حضورك يا أستاذة لتناول الغداء.

ـ طبعاً يا سامح.. وهل هناك أغلى منك؟! هل دعوت علي؟!!

ـ أجل.. جاء لكني لم أنفرد به.. كنت مشغولاً جداً. ربما نلتقي غداً متى ينتهي دوامك؟.

ـ الواحدة ظهراً.

ـ طيب نتناول الغداء معاً.

ـ أحضر سلمى معك.

ـ سأحاول.

ـ إلى اللقاء.

ستظلين يا بنتي في بحث دائمٍ عنه.. هو يأتي.. أنت تغادرين. والعكس هو اليقين.. وستدور الأرض. وتدور. ولا ينتهي البحث.

الأفعى في السرير. الأفعى على الكنبة. أصرخ. ولا شيء أراه. الأفعى تحت البرّاد مكورة ولكن أمدّ يدي أريد أن ألمسها.. أكتشف سمها وأرتاح.

لا يوجد شيء.

هذه هواجس يا بنتي. أشعر بحاجة إلى علي.. لن أكون السبب في عذابه. عندما أراه سأقول له سنتزوج يا علي. أنا التي سأقرر. ولن أسمح له بالمناقشة. بعضهم يحتاج إلى قرار دكتاتوري.

ستخسرين يا عليا.. أبداً يا سعاد. علي إنسان رقيق. على الأقل

هو يعترف بوجود كائن إنساني اسمه المرأة. سعاد تقول: إن الأمور نسبية. لذلك ستتزوج من جنرال قريباً. أضحك وأقول لها: جنرال دفعة واحدة؟ مبروك إذاً. سعاد تقول: إذا مررت بمدينة العميان ضع يدك على عينيك. أليس كذلك يا عليا؟! انظري حولك. أي تاجر يسوق سيارة فاخرة ويضع عطراً فاخراً ويرتدي سلسالاً ذهبياً في رقبته يساوي ألف شهادة عالية ترتدي الثياب المرقعة.

ـ ولكن هذا ليس مبرراً يا سعاد. أنتحول إلى تجار؟ ونحول المدينة إلى سوق؟ من يبني؟! من يصنع السلع.. من؟! الأمم العظيمة تبنى بطريقة أخرى.

ـ أجل ولكن لماذا عليَّ تحمل تبعات مجتمع يستهلك أكثر مما ينتج. لماذا أتحمل أنا وأنت. وعلي. وسامح. وآخرون هذا العبء.

أنا؟! بالنسبة لي هذا ليس عبئاً. بالنسبة لي المسألة مسألة قناعات. مبادئ. رؤيا إلى الأمام. بعيداً في طريق زرقاء اليمامة.

وجه علي لا يتركني. لو أن علياً لم يتأثر بالعم صالح ربما كان حساساً هكذا.. إنه لا يقدر أن يتخلى عن أحلامه. وأنا كذلك. لكن المشكلة هزمت أحلامنا وعلينا ألا ننهزم.

ـ ناضلي وحدك يا عليا. ولكن لماذا وكيف؟!

شجرة الأكاسيا تتدلى في الساحة المقابلة لمكتبي في الجامعة. شابات وشبان ينتشرون هنا وهناك.

«اسكتي يا سعاد..»

عليها أن تسكت أمام حشد الشباب هذا. أشعر بالتفاؤل. صحيح أن الفارق بيني وبين هؤلاء الطلاب لم يكبر بعد لكني شعرت بحزن على مقعدي الجامعي. لا. ليس على المقعد بالضبط.. على جزء من العمر لم

نكن نحسب له حساباً إلى أن قتل أستاذنا.. لم يكن أستاذنا عادياً. كان رجلاً عالماً، باحثاً في ميادين كثيرة. قتلوه على باب الجامعة. كان دمه يسيل بشكل دوائر لصور مفزعة. دمه كان بداية الوجع. بداية الفزع وكنا نحن طلابه في أول الحزن الممتد إلى ما لا نهاية. صرنا نخفي هوياتنا. المرء يعتزّ بهويته. نحن صرنا نخاف من هوياتنا. عندما تطلب منا تحملها أيدينا وهي ترتعش. هذه الهوية لم نكن مسؤولين عنها أبداً. أسماؤنا مخفية. الأسماء فعلاً هي اللعنة صدقت أم علي.

في اليوم التالي قتل أستاذ آخر في جامعة حلب. جلسنا تحت شجرة الأكاسيا.

أخرجنا هوياتنا وأخذنا نتحسسها وننظر إليها. هويات عادية مشابهة لكل الهويات الأخرى.

اسم الأب.

اسم الأم.

تاريخ الولادة.

المكان.

يا للمكان المفزع. الطلاب أمامي يتهادون.. أشعر أني كبرت فجأة عشرات الأعوام. كأني ما كنت طالبة.. صرت أستاذة فجأة.

كأني لم أملأ المقاعد خربشة. والقاعة ضجة. مسحتُ وجهي.. كأني أمسح سنوات متراكمة كغبار. شجرة الأكاسيا تتحني أكثر. إنه الزمن الثقيل.

الوقت ما يزال مبكراً. الامتحان لم يبدأ بعد. هناك طالبان يجلسان تحت شجرة الأكاسيا مختبئين عن العيون مكتفين بالصمت. تذكرتُ خالد.. اضغط على رأسي. لا أريد أن تقرع هذه الذكرى أيامي. إني أهرب باستمرار من حلم بعيد حزين. أتنهد. أهمس «خالد».

محفظتي المدرسية مراقبة. ثيابي مراقبة. بشرة وجهي مراقبة.. أوراقي، خطّي. كل أشيائي تحت مجهر العائلة.

خالد.. تهزّ شجرة القهر أغصانها. الاسم هو المشكلة. أستاذ يطعن على باب الجامعة. وحلم يطعن. الاسم هو اللعنة.

عليا وخالد. ولعنة الزمن القديم.. هل نحن مسؤولون عن دماء هابيل وقابيل؟!

عندما كنا نكتب أسماءنا على جذوع التين كان دمه الأبيض يلتصق بأصابعنا، فتحمر وتلتهب.

«خالد + عليا = ...

لم يساوِ شيئاً إلا ذاكرة مثقّبة بالحنين والرفض.

كان يكفي أن يمرّ أمامي وأنا خارجة من المدرسة حيث الشارات على كتفي والقبّعة «سيدارة» على رأسي. لم نفكر بنهاية هذا الحب العاصف الذي كان يجمعنا. كنا أصغر من التفكير بالزواج. يكفي إرسال وردة في كتاب. ويكفيني أن ينظر إليَّ من بعيد وأنا أعبر طوابير طلاب الثانوية. أول مرة رأيته وقف على طريقي المؤدي إلى المنزل. وقف يتأملني. لم يقل شيئا. وحين اقتربت ابتعد إلى الجهة المعاكسة. ظلّ هكذا شهراً كاملاً. كلَ يوم عليه أن يتقصّد رؤيتي. وعليه أن يتركني على قارعة السؤال.

كدت أسأله. ماذا تريد؟! لكن حياء الأنثى غلبني. غاب فترة ثم عاد إلى أسلوب آخر. أخذ يقرأ صباحاً على الطريق المؤدي إلى منزلي حيث كان عليّ أن أجتاز طريقاً ترابياً يمتد بين أشجار الزيتون والتين. والشوك. عندما يغيب أنزعج. صرت أنتظر رؤيته صباحاً كي يقول لي صباح الخير ويمشي. في البداية لم أرد عليه.في اليوم الذي لا يقول

صباح الخير.. كنت أصل إلى المدرسة عصبية المزاج. متوترة. «ما بكِ؟! اسكتي يا سعاد» سعاد تعرف أني لم أرَ خالداً.. لم أكن أعرف اسمه في البداية. رحت أخمِّن ماذا يكون اسمه. لم تعجبني الأسماء. اخترت له أجمل الأسماء التي أحبها. كان طويل القامة. أسمر الوجه. نحيلاً قليلاً.

وقف أمامي فجأة. اعترض طريقي وقال: أريد أن أقول لك شيئاً لم أستمع. تابعت السير. كان المطر يزخ. وكنت أرتجف من الارتباك. ارتعش صوته وهو يهمس بصوت حزين. في اليوم الثاني جاء صباحاً وقال: صباح الخير. أريد... أن... تلعثم.. لا أعرف ما الذي حدث. وجدتني بطيئة. مترددة. لم أستطع تجاوزه. دبّ في جسدي الحريق.

نظر إليّ تجاهلته. اقترب مني ولم يستطع أن يقول لي حرفاً واحداً.

«المهم هكذا» ضحكت سعاد وهي تسخر من عواطفه. أعطاني وردة ومضى كانت يده ترتعش وهو يقدم قربان العذاب الذي جاء بعد تلك الوردة.

في اليوم الثاني لم أره. ولا في اليوم الثالث. شعرت أني أنتظره. أنتظره شيئاً أجهله. غاب طويلاً.. افتقدته وأخذت الوساوس تأكلني. ربما غيّر رأيه. ربما غيّر نظرته لي؟! أيرفضني؟! بدأ الجرح يغور عميقاً في داخلي. صرت أشرد وأضيع في بحيرة الذهول. أفيق من ذهول فأجدني حزينة. لا أعرف لماذا أنا حزينة ولكن سرعان ما أتنبّه إلى فقداني ذلك الشاب الطويل الحنطي ذا الشعر المجعد والنظرة الحادة.. لم يكن شكله رومانسياً أبداً. كان يبدو أكبر من عمره. لم أكن أعرف غير اسمه «خالد» وأنا في الثانوية.

حين رأيته بعد غياب طويل وهو يقف على طريقي تحت شجرة زيتون هرمة. رجفت.. شعرت بجفاف في حلقي. وانتابني سخونة

مفاجئة. أخذ العرق يتصبب مني كأني في قاعة الامتحان. ابتسم. مشى باتجاهي. تجاهلته. تفجّر الغضب في داخلي. مشيت ولم أتوقف حين تجاوزته. تبعني. «علياء».. صوته مضطرب.. صوته الذي لا أنساه أبداً يركض ورائي وأنا أخذت أستعيد أنفاسي وعنفواني. إنه المهزوم وأنا المنتصرة.

«قفي قليلاً أرجوك»

«لماذا.. ماذا تريد؟»

«ألا تحبين الورد. جلبت لك وردة»

«انظر حولك، الطريق مليء بالورود فأنا لست بحاجة إلى ورودك»

«لماذا أنت غاضبة؟ لقد كنت مريضاً»

«لا يهمني الأمر.»

«صحيح؟! يعني أعود ولا أقف ثانية في طريقك؟»

«كما تشاء»

«إذن لن أعود.»

«......»

اسمعي.. أنا.. أنا معجب بك. وجهك لا يفارقني. مدّ يده برسالة أخذتُ الرسالة وهربت. لم أودعه. ولم نتواعد. فتحت الرسالة. كانت قصيدة حب وعذاب.»

هاهو الصيف.

طلاب الجامعة يتمشون في الممرات الخضراء.. نباتات العفص

تشكل حواجز صغيرة. جميلة. نسمات رطبة تلفح وجهي. يقودني النسيم إلى القرية. أرى أمي عائدة من مسطح التين. أقف قربها. أحاول امتلاك الشجاعة لأسألها عن أسرة خالد ولأحدثها عنه.

«ماذا يعملون يا بنتي؟!»

«يعملون في التجارة»

«أتعرفين أحداً منهم. ابنتهم صديقتك؟»

«لا. أبداً. أستاذنا منهم»

فترة من الصمت اجتاحتني. أمي لم تعلّق على شيء لكن صمتـــها لم يعجبني. رأيتها تهز رأسها.

قالت وهي تنهض حاملة التين المجفف: «اسمعي يا عليا النعجـــة التي تخرج عن قطيعها تموت ولا يدري بها أحد»

أمي امرأة ذكية. تلمّح ولا تصرّحُ. وأنا لم يغب ذكاؤها عني. لقـد فهمت قصدها تماماً. حاولت فعلاً أن أنسى خالداً ولكني لم أقدر. وبـدأت الحجج الواهية تتراكم. مرة أقول: هو أخو زميلتي. ومـــرة لا أعرفـــه. وأخرى: اشتريت كتبه وعندما رأته أمي يقرأ على تخوم القرية أمسـكت بيدي وقالت وهي تهزها.. من هذا الشاب؟

«لا أعرف يا أمي!»

«ألا تعرفينه؟! أخاف أن يطرده أخوك إذا رآه. لماذا يأتي إلى هنـا كل المدينة لم تشبعه؟!»

«......»

«عليا.. هذا الولد ليس من ثوبنا.. أنت تسيرين في طريق الخطـــأ وهذا يكلفك حياتك»

عليَّ إذن أن أختار القطيع أو يذبحوني. أسمعه الآن يقول العبارات

نفسها لي.. خالد.. أسمع يا بني.. تكرر أمه الأقاويل والوصايا والأفعال ذاتها..

هذه المرة قررت أن أخرج عن الطاعة. خلعت قميص السنين القديم الآن.. أريد خالداً. والآن أيضاً أمامي الذبح أو الطاعة. فهل أظلّ على طاعتي؟ الموت كان الحاسم لقضايا كثيرة. «الزمن كفيل بحلّ كل شيء» هذا الزمن نفسه هو الذي عرقل كل شيء.

لم نعرف كيف نحل مشكلتنا أنا وخالد. بكى أمامي. مسحت دموعه.. وأنا بكيت في حضنه تحت شجرة التين.. عندما رفعت رأسي شعرت أن العالم كله يرانا. وأن أوراق التين تدل علينا. «ما الحل يا حبيبتي؟

الحل أن ندرس.. نطمر الجمر تحت الرماد. ننهي دراستنا. نسافر. نتزوج. أهله يعارضون ارتباطه بفتاة ريفية وأهلي يعارضون تزويجي لرجل ليس من ثوبي.. أجل، نتزوج بعيداً عن قيود الأسماء، والآباء والأمكنة.. و.. ولم نكمل. خذلني خالد. خذلني ووجدت له العذر. لقد راح يبحث عن حل فجاءه الحل سريعاً. كان في الجامعة. وكنت في الإعدادية. كبرنا فجأة.. وجاء الصيف.

كان صيفاً خارقاً..

وضع الحلول للحرائق الجاهلية التي نتوارثها.

«أنت تحبين خالداً؟!»

«أنت تحب ريفية تدعى عليا محروم من الميراث.. من. من الاسم»

الأسماء لعنة أحياناً يا بنتي.. تؤطرك الأسماء.. تحددك.. الاسم خط يدور حولك.. يمركزك في دائرة عليك ألا تخرجي منها.

وكان الصيف.

تطفر دمعة من عيني عليا.. كهذا الصيف كان الصيف.

ـ هل أكمل عنك يا سيدتي؟!!

ـ من أنت؟!

ـ أنا الراوي. أنا ظلك.. أنا ظلالك الأخرى.. أعرف أنك متعبة. الذاكرة تفيض الآن.. تطفو سنوات.. دعيني أختزْ وأساعدك.

لم تقل عليا شيئاً. ظلت تراقب الطلبة المنشغلين بالامتحان.

في ذلك الصيف. سافرت ياعليا إلى بيت أخيك في العاصمة.. كان عليك أن تذهبي محملة بالجبنة واللبنة والبيض لأن زوجته حامل.. وكان عليك أن تظلّي هناك فترة لابأس بها.. غريبة ولا تعرفين أحداً. أرسلت رسالة إلى خالد تخبرينه أنك في العاصمة. لم تحددي عنواناً. ولم تنتظري رسالة. أليس كذلك؟!

ظلت دموع عليا تنساب بهدوء وهي ترنو إلى الطلاب. ذاك الطالب يشبهه.. كان له قامة جميلة. وإطلالة جذّابة.

عندما عادت ليلى إلى القرية رأت المنازل تغوص تحت رايات الأسى. لم تستطع تحمل ما يروونه لها.. كانت الفترة في بداية السبعينات.. شعرت أن خطراً آخر ينتظرها.. «اسمعي يا عليا.. العدو الإسرائيلي ضرب منطقة «الرميلة» حيث تلتقي الأنهار القادمة من الأعالي مع الماء المالح وحيث توجد فصيلة فدائية فلسطينية تتدرب. جاءت الطائرات عند العصر.. قصفت الشطّ والمنازل القريبة. استشهد عدد من الفدائيين وعدد من الرجال والنساء والأطفال الذين كانوا يسبحون في الشطّ. وبعد أن انتهت الغارة. وراح الدخان الأسود يتلاشى.. خرج الناس إلى مكان الحادث الأليم لتفقد المنطقة.

وجاء الحل..

القنابل الموقوتة..

الصدور المكتظة بالغضب والقهر.. الشباب الذي راح يئن ويزأر من وطأة الغدر.. القنابل الموقوتة تملأ الحفر. الغاضبون يقتربون من مكان الحادث.. شباب من الريف ومن المدينة أخوة. وأولاد عمّ.. جيران وما أكثرهم الجيران الذين طمروا تحت انفجارات القنابل الموقوتة.. شظايا تطير.. تقتل البشر دون تمييز بين الأسماء.

جناح الفاجعة الأسود يخيم على القرية كلها.. أكثر البيوت منكوبة بولد.. أو بولدين.. بشابٍ أو أكثر.. أو بشبان لأسر متجاورة.. زرعت القرية كلها بالتعازي. ذكر اسم خالد.. أصدرت عليا صرخة مباغتة.. في المدينة كثير من الجرحى والقتلى أيضاً.. أيام على وصول عليا وهي ما تزال حائرة، من تسأل، وكيف؟ وما هي الطريقة؟ عليها أن تذهب إلى المدينة. ستذهب إلى حارة خالد. تنظر أوراق النعي إذا كان ميتاً. أو.. كيف تجد الحجة للنزول إلى المدينة في مهرجان الحزن هذا وقد كان لها أقرباء فيه؟.

«سأذهب إلى المدينة يا أمي»

«العمى.. ماذا تقولين مجنونة، أنت؟ ابن خالتك مقتول وابن عمك والعزاء لم ينته بعد.. ماذا ستفعلين!

«أجل.. ماذا ستفعلين يا عليا.؟! فوراً استدركت.. قالت لأمها.. والد زميلتي سعاد أصيب ويجب أن أطمئن عليها.

«طيب.. روحي ولا تتأخري»

الطريق هو الذي كان يركض وليست عليا.. الأشجار. العشب.. قلبها ينتفض «يا ربُ أرجوك أن يكون خالد بخير» دقت باب سعاد.. خرجت زميلتها تفتح الباب.. عندما تلاقت نظراتهما جمدت سعاد مكانها. قالت عليا بصوتٍ مفزوع «سعاد.. أين خالد؟»

«...» سعاد لا ترد..

«قولي.. يا سعاد.. ما به خالد..»

«خالد. خالد كان في الرميلة.. كان آخرهم أنقذ الكثيرين.. سحبهم من الحفر.. حملهم إلى سيارات الإسعاف. آخر جولة له كان يحمل رجلاً من قريتك.. «قولي غير ذلك يا سعاد.. مستحيل.. لا أصدق، قولي إنه في المشفى.. أو أنه سيأتي بعد قليل ليسألك عني.. قولي.. قولي..هزت كتفي صديقتها ثم سقطت على العتبة.

ـ أنت كاذبة يا سعاد. شجرة التين ما تزال. وشجرة الزيتون أيضاً.. قصائده.. المكان الذي نجلس فيه.. لا.. لا أصدق:

«هذه هي الحقيقة يا عليا».

تفتح عليا عينيها.. ترنو إلى السقف ـ ثم تغمضهما على جمرٍ.. كيف تطفئ هذا الحريق.. كيف تعود إلى القرية؟

كيف تنتقم له. الحقد يملأ مفاصلها.. الحسرة.. تعود إلى القرية منكسرة.. تخبئ حزناً موجعاً.. لا تقدر أن تبوح لأحدٍ به.. تخبئ ناراً في صدرها... من يساعدها على إطفاء النار؟» أمها تراها حزينة.. تنظر إليها بألم ولا تقول شيئاً. وهي لا تستطيع أن تبوح لأمها بشيء. ومرة سألتها أمها عن ذلك الشاب.. فقالت عليا «مات يا أمي بالحادثة» صمتت الأم وترقرقت دمعة من عينيها الذابلتين ثم قالت: «يا ضيعان شبابه».

لم تقل عليا شيئاً.. أطرقت نظرها إلى الأرض. شعرت أن قضباناً تنغرز في أصابعها.. حملت مواجعها وراحت تزور مقبرة القرية التي امتلأت بالشهداء. كانت تبكي خالداً فيهم.. تبكيه بحرقة. ضاقت القرية بها. وترمدت أحلامها. أصابها الذبول.. لم تعد ترغب بتناول الطعام. بدأت تتأخر في دراستها. وفي كل فرصة مناسبة تقول لسعاد: احكي لي كيف مات خالد..

وتبدأ سعاد بالكلام المتقطع. تختلط الأصوات. والأسماء. والده يقول: إلى هناك نذهب لملاقاة تلك الفتاة الملعونة؟!

«لا.. أبداً يا أبي أنا ذاهبٌ إلى السباحة»

كان خالد قد تشاجر مع والده صباحاً من أجل عليا. لقد قبض على رسالتها بين أوراقه.. ضاق صدر خالد.. بكى بحرقة.. مرّ على سعاد.. قال لها متى تأتي عليا.. رأته سعاد حزيناً يائساً.. وحين سألته عن أحواله قال أضيع وقتي في الماء المالح إلى أن تعود عليا، عندما خرج قال والده له: اذهب.. لعنة الله عليك. نظر إلى والده مقهوراً وهمس يائساً أرجو ألا أعود يا أبي. لقد ضاقت بي ظلمة الحياة».

ركب خالد دراجة عادية ومضى. ظلّ يمضي.. وهو إلى الآن يمضي. إنه لم يعد بعد. قيل: إنه أصيب في رأسه.. امتلأت عيناه الجميلتان بالرمل.. أخذوه إلى المشفى القريب.

«تأخر خالد» هكذا قلب الأم دليلها.. صرخ بها والده.. ليعد متى يشاء.. راحة منه.. ـ جارتهم قالت: الناس تذهب إلى المستشفى لتتعرف على القتلى. هرولت والدة خالد حافية. لم تضع على رأسها المنديل الأسود. دخلت تصرخ.. أريد أن أرى غرفة الجرحى.. نظرت إلى الوجوه المحزومة.. وإلى الأيدي المبتورة.. لم تجد خالداً.. انهارت على الأرض أين خالد؟»

«خالد.. من؟»

«خالد ابني.. ابني الذي يدرس اللغة»

«اذهبي يا خالة..»

«لا.. سأرى القتلى.. قلبي يؤلمني.»

رأته أمه؟!

أجل رأته مفجوج الرأس.. مغمض العينين.. نادته ولكن لم يرد.

تبكي عليا. «لم أقدر أن أرمي عليه وردة إلا في السرّ.. قال لي: عندما أموت يا عليا أريدك أن تزرعي عليّ حبقة لأنك تحبينه. إنه رائحتك.»

«ما أغلظك يا خالد. ما هذا الكلام؟»

كان يشرد وفي عينيه نظرة حزن.

لم تنتبه عليا لشرودها الطويل. وحوارها الحزين مع الراوي إلا عندما اقتربت منها إحدى الطالبات. وقالت: صباح الخير يا آنسة.. أنا قريبة الدكتور سامح «أهلاً بك»

«هل الأسئلة صعبة؟»

«لا.. أبداً»

كأنها اقتلعتني من جذوري. لقد حملتني بسرعة.. أخرجتني من الماضي الحميم إلى اللحظة. صوتها الجدار الذي ارتفع بيني الآن وبين الـ.. قبل.

«لا.. لا.. أقدر أن أنساه يا سعاد؟»

لا. لست متعبة. أزعجتني بعوضة لئيمة دخلت عيني. بسرعة أخرجت نظارتي وأخفيت بعض ملامحي. نظرت إلى الساعة وأنا أكاد أتشظى.. أرغب في هذه اللحظة ألا أدخل الامتحان. بل أن أجلس على عشب الحديقة وأطمر رأسي بمرفقي وأبكي. إنه الماضي. أو نافذة تنفتح على زمن سحيق.. نجول الطرق.. لا شيء نستطيعه إلا الصمت إزاء أشياء تبتعد وتقترب. تتلاشى. وتظهر وتلازمنا أبداً.

الجرس يرن.. الطلاب يدخلون قاعة الامتحان. أحاط بي الطلاب «هل الأسئلة صعبة؟» أنا لا أعرف إذا كانت الأسئلة صعبة. الحياة هي الصعبة. الجواب هو الأصعب.

«أتحبينني يا عليا؟»

«يا له من سؤال صعب يا عليا.. كيف أجيب لا أعرف؟»

هل نخون أنفسنا أم نخون الذين أحببناهم عندما نحب مرة أخرى؟ أم نخون الحاضر حين نقف عاجزين عن نزع الوجـــوه القديمـــة مـــن وجوهنا!.

لا أعرف.. لا أعرف.. لا أحـــد يســـألني.. أرجـــو أن تطمـــروا وجوهكم في أوراقكم.. الطلاب يبتسمون وأعصابهم مشدودة.. أنا ألـــتزم الممر الجنوبي للقاعة، وزميلي الدكتور رياض في الممر الشمالي. وعند الباب وفي الخلف يقف بعض المعيدين والمعيدات. هذا يلصق الأســـماء. وذاك يطبع الأوراق بختم الجامعة. وأنا عيني على فتاة لا تريح النفــس. تضع الكثير من الألوان على وجهها تلتفت إليّ وتخفض رأسها بسرعة. مشيت نحوها بهدوء كانت مرتبكة. قالت: آنسة. الأسئلة صعبة. لم أرد. ابتعدت عنها. عادت وقالت: آنسة الأسئلة صعبة جداً.

قلت لها أرجو أن تظلي بورقتك. لا تشوّشي على زملائك. ســكتت الفتاة.. ابتعدت أنا إلى آخر القاعة «أنت صعبة يا عليا.. حتى أنت يـــا علي تقول ذلك!» أحاول أن أتجاهل الطالبة. لكـــن حركاتـــها المريبـــة تجعلني أركّز عليها مع أنّ موجة حنين تنتابني وتحلّق فوقي.

مشيت بهدوء باتجاه الفتاة. نويت أن أساعدها قليلاً.. أجعلها تـــهدأ ربما هي الأخرى تعاني حزناً مثلي.. نحن النساء نختزن حـــزن أمنـــا الأولى والأخيرة. اقتربت بهدوء من الفتاة فوجئت بجرأتها. كانت تنظـــر إلى فخذيها المرسومين بـــالحبر الأزرق.. لا يمكـــن ظلّـــت تنورتـــها مرفوعة. لم ترتعش. ولم يهتز لها جفن. قلت لها: ألا تخجلين؟!

«كلهم هكذا يا آنسة. فلماذا تجرحينني بالكلام؟»

«عليك بنفسك.. أنت فتاة جامعية»؟

«ألم تجدي غيري..»

«فعلاً أنا لم أجد غيرك».

«لا.. أنت لا تريدين رؤية غيري.. بعضهم حصل على الأسئلة والآخر تأتيه محلولة بعد لحظات. أنت تريدين الانتقام مني.

«من أنت يا فتاة. هل بيننا ثارات ولا أعرف؟! هيا تفضلي بالخروج من القاعة! رفضت بشدة. ظللت متمسكة بالمقعد. لكن الدكتور رياض جذبها خارجاً. سادت حالة من الفوضى لدقائق. بعد ذلك تابعت القاعة امتحانها بهدوء. بينما كانت أعصابي مستنفرة جداً خاصة بعد سماع رأي زميلي رياض الذي تمنى أن أسكت وأن أجامل قليلاً بعض التلاميذ الذين هم أبناء رجال مهمين في المدينة. لم أجادله. تركته في زاويته وانسحبت.

شعرت أن التردي لم يصب الطلاب.. بل امتد إلينا نحن الذين نبني.. فكيف يصمد بنيان نبنيه؟: للأسف لم أستطع تحمل رياض الذي عاد وكرر الحديث ذاته «أنت آنسة. وأي كلمة تجرحك. فأرجو أن تفهمي موقفي يا عليا».

«يعني عليّ أن أتخلى عن أخلاقي لأني امرأة. أنا أقوم بعملي.»

«تقومين بعملك؟!». نظر إليّ ثم هزّ رأسه وغادرني.

عند عودتي إلى المنزل كان الدكتور سامح وخطيبته في انتظاري. رفضت أن نخرج إلى المقاهي العامة. أولاً لغلاء الأسعار، وثانياً لأني مرهقة.. أريد أن أصرخ بحريّة. لم أخبر سامح أي شيء. لا أريد أن أزعجه بتفاصيل يومية بعد أن صار لحياته تفاصيله الخاصة. أم عارف تعدّ الغداء. قمحية مع الدجاج البلدي «قمح مقشور» أنا أعدّ التبولة ومقبّلات أخرى.

هالني الحديث الذي يدور بين سامح وخطيبته. شعرت بالحزن

معقول: سامح يعايش امرأة بهذه البساطة؟! إنها مجرد امــــرأة. مجــرد جسد. سامح الذي عاش في أوروبة فترة طويلة. وخبرَ المـــرأة يختـــار امرأة لا تمت لوعيه بصلة.؟!

«يلتقيان في السرير معاً؟».

هكذا أظن. سيتزوجها. ثم يروضها. طبعاً الترويض غير الفكري. يعلمها أن تطبخ مجدرة العدس التي يحبها. ومحشـــي الكوســا بـــاللبن. وسيعلمها كيف ترتدي ثيابها لأنه يحب المرأة الأنيقة. ستنجب لـــه أولاد. بعد ذلك يترهل جسدها. وبعد سنوات سيكره الحوار معها في أي شيء. سيندم، ويقول: لقد أخطأت، مبرراً لنفسه الوقوع في علاقة جديدة. هكـذا هم.. الرجال هم الرجال.. «يصادقون المفتحة. ويتزوجون العميـــاء..» ويطلقونها عندما تنتهي مهمتها. قد لا يطلقها الرجل فعلاً ولكن يطلقـــها عاطفياً وجسدياً. تتحول إلى مجرد كيان في المنزل تقوم ببعض الأعمال أو بكل الأعمال، سيهرب من المنزل وسيعود إليه لمجرد الراحة فقــط.. أما الحبّ فلا يمارسانه إلا في الأوقات النادرة. ســـتبدأ هـــي باليقظـــة الأخيرة. وسيبدأ الهرم العاطفي. وسينتهيان إلى الصمت.. صمت الأسرة المتعلمة الراضخة لضوابط الأسرة ظاهرياً للحفاظ على نمـــو الأطفـــال فقط.

«لا يجمعني بها إلاّ الأولاد. كأني أسمع زميلي الدكتور رياض».

«من الذي أجبرك على ذلك؟»

لا أعرف كيف سألت سامح هذا السؤال وأنا شـــاردة. لـــم يكـــن الحوار معه يستدعي ذلك. التفت إليّ مستفســـراً. كنـــا ننظـــف باقـــات البقدونس من الحشائش الغريبة. استدركت فوراً وقلت: من أجبرك علـــى تنقية البقدونس أمام «سلمى» غداً ستطالبك بذلك.

أليس كذلك يا سلمى؟.

ابتسم سامح. ابتسمت سلمى ثم أردفت. لا أنا لن أطالبه بشيء.. لا أريده أن يساعدني. لا أحب الرجل الذي يدخل المطبخ سأخدمه أنا.

«هاهي إذن تطالب بدور الخادمة. وتصرّ عليه.. بالتأكيد علّمتها أمها الدرس جيداً»

بعد أن غادرا المنزل. رحت أفكر.. أمثال سلمى هذه لها الحظّ الأوفر في الزواج لأنها تطبق التعاليم المقدسة.. فتتحول هي إلى أمها. ويتحول سامح إلى والدها.. نسخة كربون. ستغسل له قدميه. وتحمل له منشفة الحمام على كتفها.. طاعة الزوج من طاعة الرحمن يا بنتي.

«والرجل الذي يضرب يا أمي ويخون..؟»

إنه الصمت مرة أخرى. هذا هو الفرق بين امرأة تعمل لتحقيق إنسانيتها، وامرأة جاهلة غايتها الكبرى تنحصر. بانضمامها إلى إسطبل الحريم. شعرت بالأسى لحال سلمى، وشعرت بخواء سامح.. لم أعرف الدافع وراء ارتباطه بسلمى.. إنه يدمّر نفسه ولكن لماذا؟!

وانتقاماً لمن؟!

«أشعر بحاجة إلى فنجان قهوة كبير يا أم عارف»

أخذت قهوتي وحاولت القراءة، غير أني غفوت ونسيت الاتصال بسعاد.

في الصباح وأنا أهمُّ بدخول قاعة الامتحان للمراقبة. جاء بواب العميد وطلب إليّ الحضور إلى مكتب العميد. لم يخطر في بالي أنّ هذا اليوم هو الأخير في الجامعة. ولم أظنّ أبداً أن المرء غير قادر على إثبات حقه إذا كان صاحب حق: ماذا يريد العميد منّي؟ ربما يريد الاطلاع على سلم العلامات. سلم التصحيح. أو أشياء أخرى. دخلت المكتب والابتسامة تعلو وجهي. لم يبادلني العميد بابتسامة.. ظهر لي متجهماً. مددت يدي أحييه.

«تفضلي»

لم يطلب القهوة فوراً كعادته. يبدو أن استدعائي جاء لأمر مـــهم.. بالتأكيد ليس من أجل الفتاة التي طردتها من قاعة الامتحان. هذا يحصل كل يوم تحت الظروف الموضوعية هي فتاة تزوّر وتريد الحصول على مقعد في السنة القادمة. هذا المقعد من حق طالب أكثر اجتهاداً.

نظر إليّ العميد وقد انتهى من ترتيب بعض الأوراق.

«وما الذي جرى يوم أمس؟».

إذن. خسرت الرهان. كذبت ظنوني عليّ. لقد استدعاني من أجــل الفتاة التي لم أعرف من هي بالضبط.

«لا شيء. سيادة العميد سوى الذي تعرفه. الطالبة كـــانت تـــزور وتغش وبكل جرأة.. يعني كانت تنقل؟

فقط؟!!

«وماذا تقصد بفقط.. أتريد جريمة أخرى مثلاً؟!»

«طبعاً. لقد شتمت والد الفتاة. وأسرتها الكريمة. أنت هنا مدرســة. أستاذة جامعية مسؤولة عن كل كلمة»

«لا تقعي على الأرض يا عليا.. لاتنزعي آخر أسمائك.. الـــروح ضعيفة والجسد واسع.. احبسي هذه الروح..»

«بهدوء قلت.. أنا لم أشتم.. ولا أعرف من والـــد الفتـــاة حتـــى أشتمه.. ولو كانت من أسرة كريمة كما تقول لما تصرفت بهذا الشـــكل. الأسر الكريمة لا تربي أولادها على الغش والكذب.»

«وهي لا تغش يا آنسة.. هذا امتحان. والطلاب عادة، وعبر كـــل العصور يفعلون هذه الأخطاء الصغيرة. هذا غير مـــبرر. ولكـــن قـــد يحدث. وهذا لا يدفع بك لشتم أسرة زعرور باشا. أظنك تعريفينها»

«هي ابنة زعرور باشا؟!»

«لا. هي حفيدته.. تسمعين بزعرور باشا»

طبعاً. كيف لا أسمع بزعرور باشا.. قائمقام المدينة في إحدى فتراتها المأساوية.. كان صديقاً للفرنسيين. يعني عميلاً بلغة أكثر إيضاحاً. يعني خائناً. لهذا كرموه. وسجلوا له الأفلام الوثائقية التي تدل على خدماته الجليلة.. كيف لا أعرفه.. نظرت إلى العميد وقلت: وزعرور باشا يعني الأسرة الكريمة يا سيادة العميد؟! كان من الحريّ أن يحرم هؤلاء العملاء من كل الحقوق المدنية.. من أين جاءتهم العراقة؟» من الكفاح الوطني ضد المستعمر..؟! من الكرم الحاتمي العظيم،.. من القداسة والطهارة التي تتسربل بها نساء قبيلته؟! أم من مساعدة الفقراء والضعفاء؟!

ــ اعتقد أن الزمن هذا لا يتسع لاستعادة ماضٍ بائسٍ يجب ألا تخرجه من التقييم المرحلي. الجميع تعارفوا على أن بيت الزعرور باشا «بيت كريم» الرجل يستطيع أن يفك المجرمين من حبل المشنقة. وهو الآن قادر على دخول أشدّ الأبواب انغلاقاً. وقادر أن يرسل ابنته إلى أمريكا نحن نسعى لاستقطاب أبنائنا وبث الثقة بجامعاتنا.

ــ أجل هو قادر يا دكتور.

ــ إذن لماذا لا نكسبه صديقاً؟!

ــ أقول هذا بيني وبينك. أنت عزيزة عليّ.. العين بصيرة واليد قصيرة.

ــ والمطلوب.

ــ أن تتنازلي عن قرار الفصل، تنجح الفتاة في مادتك.

ــ لتنجح أيضاً؟! وإذا رفضت.

ـ ليس لصالحك يا عليا.. أفهميني أرجوك كي لا تحالي إلى المحكمة بتهمة القدح والذم.

لم أقدر على مواصلة النهار. تركت قاعة الامتحان ومضيت إلى المنزل. شعرت برغبة جامحة لمشاهدة علي.. أين هو.. المرأة تريد الرجل الذي تحبه في الأوقات العصيبة. كرهته ليذهب إلى الجحيم أو إلى نهره المقدس.. آه.. الأرض ضيقة عليّ.. البحر. المدينة. زعرور باشا أسرة كريمة!. زعرور باشا الذي كان يغتصب النساء. رجل كريم؟!. ولأنه كريم وصل إلى البرلمان.. انتخبته الطبقة الفقيرة، المضطهدة، وقال له: دافع عن اضطهادنا نحن المقهورين. هؤلاء أيضاً خائنون. أشعر باختناق. تلوح لي ابتسامة خالد الحزينة.. أريد أن أصرخ باسمه لأملأ المدينة. أحتاجه الآن.. أحتاج من أسند رأسي على كتفيه.. أتذكر أخوتي.. كل واحد في بلد.. وكل واحد منهمك ومشغول بأولاده. بثروته التي يتشهى نموها، أخي الكبير سيعدد مواعيده واستثماراته ويقول لي نحن لم نفهم المرحلة. العالم عالم التجارة. لا عالم العلم والزراعة. هه.. زراعة ننتظر أقدارها عاماً بكامله. التجارة ربح سريع دون أن تعرق «ازرع يا علي إذن البصل والبقدونس وبذور الخيار. تجذر بالأرض» أسمعه الآن يقول لي: «كل الشعوب تتجذر الآن بالأرض».

شعوب الاتحاد السوفيتي. شعوب البوسنة والهرسك. أفريقيا.. أهزّ رأسي وأتنهد بقهر «ووادي عربة.. والملك.. وقبعة القزم. أين العمامة؟! من أحرقها؟!» أجل.. علي معه حق.. يجب أن نبدأ من الأرض.. لكن لماذا أرفض العودة مع علي إلى الأرض. هل أكره حرية التراب والحقول والشجر وأفضل عليها قيد الجدران؟ يبدو أننا نتعلم القيود ونحبها.

يا لهذه الخيالات المتعبة..قد نكون في أرضنا غير أحرار أيضاً؟! أتذكر حوار عميد الجامعة. «عائلة الزعرور الكريمة».

أضحك بصوتٍ عالٍ.. أعجبتني هذه الصفة المرفقـــة. العــائلات الكريمة يا صديقي الراوي.

أتسمعني؟!

العائلات الكريمة:

ـ ليست التي قدمت الشــهداء أو حــاربت.. أو قدمــت الطعــام للجوعى والمحرومين.. أو قدمت الشعراء والعلمـــاء.. وليســت التــي ترملت نساؤها في الحروب الأخيرة.

العائلات الكريمة هي التي اضطهدت أكبر عدد ممكن من البشـــر أو التي حظيت بأكبر نصيب من الزكاة التي يقدمها الفقراء.

«والشيخ الفقير يعطونه زكاة أقل من الغني يا أمي؟!»

«ما علاقتك أنت يا عليا.. اهتمي بدروسك»

«لا أستطيع يا أمي. أنا بحاجة إلى هذا المال الذي تعطينه للشــيخ ونّوس الذي يعلم أولاده في أوربا..»

«اخرسي وليه»

حاضر.. أخرس فعلاً.. والآن مطلوب منك أن تخرس للأبــد يــا حضرة الراوي.

يا علي أنت لست من عائلة كريمة. ألم يكن والدك فلاحــاً؟! ألــم يطارد جدك المُستَعْمِر..؟ ألست فقيراً لا تملك سيارة ولا شقة فــاخرة؟!! كل إجاباتك بنعم.. إذن أنت لست من أسرة كريمة.

حين وصلت إلى قرية علي رأيت تجمعاً كبيراً على تخوم القرية.. قصدت منزل علي فوراً.. رأيته مفترشاً الأرض في زاوية عاتمة. أمــه تطحن البرغل. حين لمحني صرخ «عليا» عانقني أمام والدته. دهشــت العجوز. لكنها ابتسمت وأشاحت بوجهها.

«كيف حالك يا علي؟»

«كيف حالك يا خالتي أم علي؟»

كلنا بخير..

علي ينظر إليّ.. كأنه يتفقدني.. هل سرقوا شيئاً مني؟!

«علياء..» ناداني بصوته العذب.. حين يحضر علي تغيب الأشياء كلها.. وتغيب الوجوه.. يبقى وحده معي. يظلّ نظــــره معلقــاً علـــيّ.. يشدّني من يدي. تعالي انظري. إنـــي أزرع الأرض.. عمــل الأرض مرهق وشــاق جداً والحياة في الريف ما زالت قاسية. لكن أحـــاول أن أنسى القسوة بالكتابة.

«صحيح يا علي؟»

«صحيح يا حبيبتي؟» الكلمة الأخيرة قالها بصوت خافت. يبدو أنه خجل من أمه. أنا مشتاق إليك.

«سعيدة يا علي لأنك تكتب» يقدم لي كرســياً. أمـــه تعـــود إلـــى طحنها.. أسأل علي عن سرّ التجمّع الكبير في القرية؟

التفتت العجوز إلى ابنها وقالت: لا بدّ أن عليا متعبة يا بني.

«أجل.. متعبة جداً» تذكرت الجامعة لكني خبّأت حزني لا أريد أن أرمي بين يدي علي أحزاناً أخرى.

أخذني علي من يدي إلى النافذة. وضــــع الكرســـي قبالـــة نـــافذة صغيرة. ارتاحي.. سأجلب لك القهوة.. أخذنا نرشف القهوة وننظر إلـــى الناس.. قال علي بحزن: لقد مات العم صالح.

ـ كيف؟! ألم تقل إنه مات من زمن؟!

ـ أجل.. وكل يوم يخرجونه من قبره. يطلقون عليه الرصـــــاص من جديد ثم يعيدونه مرة أخرى. إنه القتل اليومي. إنهم يتأكدون كل يوم

من موته كي ينام زعيم القرية الجديد بهدوء. ويستيقظ بهدوء. إنهم يخافون أن يعود إلى الحياة مرة أخرى. يقولون إن فارس قد عاد إلى الحياة.

«حقاً؟!»

«أجل. نبشوا قبره. لم يجدوا جثة. ولكن وجدوا في الليالي الممطرة رجلاً ملثماً يطوف القرية. ويدعى جابر. لا يظهر إلا في المطر والرعد. «اشربي القهوة يا عليا»

«إني أسمعك»

الزعيم صعد إلى قبر العم صالح. جاعلاً منه منصة ليقرأ خطاباً طويلاً يدعو فيه إلى تحسين القرية والتسليم بالفوارق بين بيت فلان وبيت فلان. وأن الله خلق في الأرض غنياً وفقيراً. لذلك يجب ترك الأحقاد وليعمّ السلام. وتابع في خطابه الكبير بأن ترحم على والده الزعيم السابق لكثرة تضحياته من أجل القرية. ثم أخذ يعدد خصاله الحميدة. «إنه رجل كريم. خاض غمار الصعوبات حتى استحق عن جدارة لقب زعيم القرية. حتى إن الملك الذي يوقع الآن معاهدات الصلح في الوادي الكريم. كان يراسله.. وكان له علاقة بكل الممالك المجاورة»

«وما هذه المعاهدة يا أستاذ؟»

«أرجو ألا يقاطعني أحد.. دعوني أعود إلى مسالة الرموز التي نشأنا عليها. وكبرنا على احترامها.. الشيخ شهاب حضّ عليها واحترمها. وهو خلال سفره وتجواله في العالم خلال الحقبة السوداء التي اجتاحت القرية أيام التناحر. لاحظ أن الشعوب المتحضرة كلها تحترم رموزها وتقدسها. لهذا السبب طلب إليه قائمقام المدينة الجديد أن يحتفل اليوم بوضع حجر الأساس لبناء ساحتين ونصبين لأعظم رجلين في القرية. الشيخ شهاب الزعيم الروحي للقرية. والزعيم المادي «أَي

والدي الكريم».

«أرجو أن تصفقوا»

طلب رجال الحاشية الموقرة من أهل القرية أن يصفقوا. أحد الشبان رفض أن يصفق. «صفق للزعيم ولاك». نظر إليهم بسخرية واشمئزاز: قيدوه ووضعوه في سيارة مغلقة. جماعة الأمر بالمعروف لم تفعل شيئاً كانت منهمكة بالتصفيق. بعض الرجال ذبح الخراف.. وآخر فجّ الناس ليكون قريباً من الزعيم.

«علي أريد أن أشرب زوفا.. هل عندكم زوفا؟» أردت أن أخرج عليّاً من دوامة القلق. يدٌ واحدة لا تصفق. أنا مقتنعة بأن الدماء فرّت من أصابعنا نحن الجيل الذي ما عاد يفرّق بين طعم العصا. وطعم التصفيق. خرجنا إلى الحياة باتجاه حلم كبير. آباؤنا دفعوا ثمن الحلم. والآن علينا أن نكرر دفع الثمن ثانية. لماذا؟

مات آباؤنا فلم تعد القرية تحوي تعويذاتهم وتمائمهم لذلك لا تشدنا هذه القرى وفي المدينة نحن منذ زمن بعيد لكن لم نجد آباءً لنا. سقط جدار برلين من يصدق ذلك.. انهار على كومة هائلة من الجثث والبيوت المهدومة.. وصلت حجارته متقطعة إلى هنا عبر البحر الذي يخبئ في داخله تنيناً كبيراً مخيفاً. علي يبتسم بهدوء وهو يضع الزوفا.

«عليا.. اشربي الزوفا.. أريد أن آخذك إلى نهر الشحادة»

«آه منك.. إنه الأوقيانوس. أليس كذلك.. خذني يا سيدي»

«لن أحدّثك عنه إلا بعد أن تنظري إليّ وتعترفي»

«بماذا أعترف. هل أنا مذنبة؟!»

«أجل.. تحبين غيري»

«من؟!.. لو كان الأمر كذلك ما جئت إلى هنا»

«ألا تستلطفين سامي؟!»

«ربما.. ولكن لا أحبه»

«ألم تحبّي مرة بعنف؟!»

«لماذا؟»

«لتدركي عذابي. ومدى حبّي لك»

هل أقول له أنا التي أحببت حتى لم أعد قادرة على الحبّ. هل أقصّ عليه حبي لخالد؟ الذي لم يكن ينتمي لبيئتي. خالد الذي قالوا عنه «غريب» أتحبين غريباً؟! وقال أهله له وهم يصرخون.. أتحب غريبة؟!

خالد الغريب مات مع الغرباء في أرضٍ واحدةٍ. أرض حياديةٍ. خالد الذي أحببته أصابته لعنة الأسماء. غضبَ والدهُ عليه لأنه أحب غريبة. أي أحب شيطانة ستذله وتسيء إلى كرامة العرق المقدس. خالد الذي ضاقت به المدينة.

واتسعت له طلقة.. هكذا.. تضيق بنا رحمة السماء والأرض وتتسع لنا غباوة جاهل عن أي شيء يدافع ويبعقُ لا يعرف.

أأقول لعلي.. خالد كان مشروع شاعر كبير؟ قد يظن أني أحب فيه خالد الذي مضى. ولكن هذه حقيقة.. وعلينا الآن إخفاء الحقائق..

هل أعترف له بأن خالد يحضر كثيراً ويصطحبني في مشاوير بعيدة.. وأنه هو الذي أخذني من يوم سهرة رأس السنة؟!

هل أعترف له؟!

جهزت نفسي. وضعت العطر.. وارتديت أجمل ثوب اشتريته. حملت حقيبة يدي وأردت الخروج إلى علي.. لكنّ يداً دفعتني برفق إلى الوراء. لم آبه لذلك. فتحت الباب. فوجدته أمامي. «خالد» ناديت بشوق.. يا إلهي. نظر إليّ بحزن. مسح شعري. قال: كيف حالك يا عليا..؟!

أنا بخير.. بخير يا خالد. أريد أن أخرج.

يا إلهي.. بكى.. قال: «أتتركيني وقد حضرت لأجلك؟»

ولكن أنا وعدت عليّ.. هو ينتظرني الآن.. خرجت فتبعني. ركبت السيارة وجئت جابا لا.. المدينة الساهرة، المسحورة. المكتظة بالبيوت الرمادية والشرفات المزدحمة بثياب الغسيل وبراميل الكاز.. لكن مدينة عليّ كانت هي مدينة خالد..رأيته يمشي إلى جواري دون أن يكلمني. ناديته لم يرد.. فرّت الفرحة من عيني. وطار عطري بعيداً. كان غاضباً. مشيت على غير هدى.. لم أستطع تجاوز خالد.. مشينا معاً باتجاه الرميلة.. البحر يلتقي الأنهار القادمة من الأعالي. خالد يتأوه. أخ.رأسي. خالد ما بك. ألتفت حولي فلا أراه. لقد غاب فجأة وغابت المدينة. وجدتني ملقاة على سجادة الأرض «ومنقل التمز» يشتعل. البرد شديد ورأس السنة يودعنا بالثلج الذي ينقر على النافذة».

تنهمر دمعة على خدّي أحاول أن أخفيها من علي الذي راح يرنو إليّ بشغف مستغرباً شرودي.

«في أعماقك جروح لا أعرفها.. أليس كذلك يا عليا؟»

«لا.. أبداً يا علي..»

«لماذا لا تخبريني كل شيء. هاأنا قد صرت ملكك بماضيّ وحاضري.. يحب الإنسان مرة أخرى.. عندما يلتقي الشخص الذي يزيح ماضيه ويأخذ مكانه.. يبدو أني لم أنجح بعد بإزاحة ماضيك.»

«أرجوك يا علي دعنا من الماضي. نحن أولاد اللحظة. تعال نذهب إلى أوقيانوسك العظيم»

«أتحبينني؟!»

«لا أعرف. لكني أحب صوتك، وقهوتك، وأشتاق إليك، ألا يكفي ذلك؟»

«هاأنت تحبين قهوة سامح. وتشتاقين إليه.»

«أجل.. لأنه صديق عزيز»

«يعني. أنا أيضاً صديق عزيز؟»

«أنت أكثر. أكثر.. لا تعذبني أرجوك»

«وهاأنت تعيدينني إلى زمن الحب الشفاف. كـأنك لا تقدريـن أن تعبري بوضوح»

«الحب كالأدب.. كالقصيدة. عندما تتضح تفقد دهشتها.»

«أجل.. الحب. مثل الأدب.. يقتله الوضوح»

إلى الشرق والشمال قليلاً من الرميلة نهر.. على ضفته المنحـدرة باتجاه الحصى البيضاء والصخور يمشي اثنان أيديهما متشابكة. يمشـيان قليلاً ويقفان قليلاً. يبتعدان. ثم يقتربان.. المرأة تقطف اليغنص. والرجل يقف مشيراً بيده إلى أشياء بعيدة.. يضحكان.. أو يصمتان فجأة. رائحـة النباتات المائية الغريبة تملأ الضفة. طيّون، يغنص، عيصلان.. قصـب بري.. زيتون بري.. الرجل يقول: كل هذه النباتات انحدرت إلى القـاع بعد أن بدأ النهر يجف.. ألم تقرئي أن الأنهار ستجفّ.. والناس تصـاب بالذعر والعطش.. تموت الأنهار كالإنسان الفتي ويبقى الدجلة والفـرات والسنّ والنيل؟!

هذه النباتات راحت تقترب من الماء. الرجل يضع يده على خصر المرأة بحنو.. يمشيان ببطء.. الشمس تنحـدر قليـلاً نحـو الغـرب.. النسمات ترقّ وتصير منعشة أكثر. يسأل الرجل:

«عليا.. كيف هو دوامك الآن. ألم تنتهي بعد؟!

«صمتت عليا قليلاً. كادت تقول له تشاجرت في الجامعة.. كـادت أن تضعف وتقصّ عليه أحزانها ولكنها آثرت الصمت.»

«قريباً سأنتهي من الجامعة»

«إذاً جهزي نفسك للصيد والمشي الطويل.. والبقاء.. البقاء معي»

نظرت عليا إلى الأفق.. رأت طائراً كبيراً يبتعد.. ظلت يد علي على كتفيها.. وظلت هي تنظر إلى البعيد الغامض.

قالت: هذا هو نهر الشحادة؟!

أجل.. ألا يعجبك؟!

«جداً»

«هنا في هذا النهر تسكن عشرات الأرواح. اسمعي كنا نجيء إلى النهر لنجمع الفطر الأبيض النابت بعد غضب الرعد والمطر.. نخرج حفاة إلى المروج التي لا تطالها المحاريث حيث يخرج الفطر فجأة. يا له من غذاء لذيذ.. الآن لم يعد على نهر الشحادة فطر.

«ولكن لماذا سمّي بنهر الشحادة يا علي..؟»

يقال.. في أيام السفر برلك، جرف هذا النهر امرأة تشحذ قمحاً لأولادها تركت أولادها في كوخ.. قالت لهم سيرجع أبوكم الآن.. كان زوجها في اليمن. وعليها أن تبحث عن الطعام لأولادها. هذا النهر يغضب فيصير كالمجنون.. ولكنه يهدأ بسرعة فيعود هادئاً، رفيقاً. تترك المرأة الأولاد وتجتاز النهر إلى الضفة المقابلة.. خفق قلبها بسرعة.. رأت غمامة سوداء تطير فوقها أينما مشت.. عادت إلى أطفالها بعد أن تجاوزتهم بمسافة.. شعرت بحنين موجع لأطفالها.. لكن الجوع الكافر لا يعترف بالحنين.. عليها أن تتجاوز نهر الشحادة باتجاه «بني علي» تذرف دموعها في الطرق متذكرة زوجها.. «متى يعود ويريحني من هذا الذل؟» تشمّر عن ساقين مرمريتين لتجتاز الدوّار. تغوص في الماء. تسمع هديراً يتدفق من بعيد. تسرع.. تغوص في الدوّار.. تنهض. تتعثر بصخرة.. يقتحم الهدير المسافة المتبقية. إن الفيضان..

يجرف المساحات الواسعة. تغوص المرأة في الماء. ترفع رأسها كفرس وتحاول السير مع التيار علها تجد شجيرة.. أو صخرة تمسك بها. تعاند الماء.. تجتاز النهر وتسير باتجاه القرى. تقرع أول الأبواب. تمدّ يدها طالبة الطعام لأولادها.

من يفتح بابه أيام السفر برلك؟ السماء والأرض ملتحمتان.. عادتا إلى سيرتهما الأولى.. الناس تغلق أبوابها في وجه الطارق. يخبئون الطعام.. أو يختبئون خوفاً من درك العثمانية التي تفاجئهم «أنا غريبة أبحث عن طعام، وما هو ذلك الطعام؟! إنه خبز ذرة ـ خبز شعير وكرسنة. عدس. جرجير.. أو خبيزة. أو ماء وحصى وانتظار الخليفة أن يمرّ. لكن الخلفاء لا يمرّون في الطرقات الموحلة.

قبل أن تغيب الشمس على المرأة أن تعود إلى أطفالها. وحده نهر الشحادة يخيفها.. هاهي تحمل الخبز وبقايا التين.. بعض أقراص خبز بالخبيزة. تنظر إلى الشمس وهي تحاول أن تسبقها. قدماها تغوصان في الوحل والماء. الغمامة تغطي الشمس. لكن الشمس تهرب من جهة أخرى.. تلوح مروج العيصلان واليغنص.. والديس الذي يرتفع كتلال صغيرة خضراء تخبئ الوحوش المفترسة. هاهو النهر. هاهي المرأة. إنهما يتصارعان على الحياة. تحمل المرأة عصا طويلة وتنهمر باتجاه الماء كأنها تقود قطيعاً من الموج تخرج كمهرة من النهر. من الطوفان. تركض باتجاه الكوخ.. العتمة طاغية ـ يبدو أني ضيعت الجهات.. لا دليل أمامي إلا السماء والماء.. يجول بصرها كلّ الجهات ـ «هناك كوخ أولادي» تسير باتجاه الهناك. تقترب من الهامات السوداء التي تظهر بعيداً. تقترب فإذا بها تلة ديس.. تسمع عواء ذئاب.. حشرجة ضباع. تهرب نحو قبة سوداء أخرى. أين ستهرب. لقد رحل الكوخ.. تصرخ بكل شراسة القهر. تنحرف إلى جهة أخرى حيث فروع الماء المنبثقة عن النهر الأم «هاهو الكوخ» لا.. إنه بقايا كوخ. تنحني على الأغصان والأعمدة الخشبية تتفقد أطفالها.. لا أحد.. يا إلهي.. الماء

يغمر كل شيء. إنه العماد الأول.. اتحاد الأجزاء بالكل.. يا إلهي. تصرخ المرأة: «قلت لهم انتظروني.. سأجلب الخبز.. سيأتي أبوكم.. لم يأت أبوهم.. يلعن أبو تركيا.. يلعن أبو الجوع». جرف الماء كل شيء والمرأة جرفها الحزن. كانت تصرخ بين النهدة والأخرى. ولكن لا صدى إلا هدير الماء الجبار وعواء الذئاب.. مزّقت المرأة ثيابها ورمتها في النهر.. قال النهر: تأخرت يا امرأة السفر برلك. طغى الجوع بأولادك.. فأخذتهم. أنا أرحم بهم من «العصمليّة» الذين سيذبحونهم.. أو سيطلقون الرصاص على نحورهم الصغيرة يا امرأة سفر برلك القادم. اسمعيني: أولادك خرجوا من الكوخ. نادوا «أمي» مشوا وراءك. يريدون السير في طريقك.. الطريق نفسه يفرقنا.. خفت عليهم من الجوع الكافر.. وصلوا النهر كما وصلت أنت.. وصلوا وغاصوا في جسدي.. لا تحزني.. سيتجذرون في أطرافي وستغمر أرواحهم يديك كلما شممت رائحة أعشابي.

ظلت المرأة طيلة حياتها تشحذ.. كل ما تجمعه نهاراً ترميه مساءً في النهر.. «خذ يا نهر. خذ هذا الطعام لأولادي» ابيضّ شعرها.. لم يعد زوجها ولم يعد الأولاد.. باحثة عن أطفالها.. هذه الصفصافة لا ترخي أغصانها إلا فوق الماء.. قال درويش القرية.. هذه الشجرة. هي الأم التي مات أولادها.

تذرف عليا دمعة حارقة وهي تتأمل النهر الجبار.. قالت لعلي: ظننت أن النهر سمّي لأسباب أكثر إنسانية..

شدّ علي على يديها وقال وهو يتابع السير: «ولكن هناك قصة أخرى لهذا النهر الأخرق.»

يقال.. نهر الشحادة. نهر امرأة مقهورة. نهر الأنثى الربة.. الصخرة. نهر «البقرة هيرا» نهر المرأة التي أحرقت عواطفها وجسدها.

يقال: هو نهر امرأة عشقت حتى ذابت في النهر في زمن كان القتل فيه أكثر براءة من العشق. «اسرق ولا تعشق».

«عليا تعارض علي.. والآن كذلك.. الأمر لم يتغير كثيرا على الرغم من مرور قرن تقريباً»

المرأة عشقته.. عشقت رجلاً من أعالي الجبال سراً. كان يغزو الأغنياء ليحمل الحبوب والخبز إلى قريته.. رآها.. صار يأتي لمشاهدتها.. لم يعد يهتم للجوع.

يختبئ في عيصلان نهر الشحادة.. يتوسل للمساء أن يأتي. يهبط المساء بكل غربته ووحشته على نهر يغوص تارة وينبسط تارة أخرى.. تأتي المرأة.. تلتقي الرجل الذي تحبه تحت غطاء المساء على فراش الحصى. يهرّبان جوعهما القديم.

إرثهما القديم. هو يرحل. وهي تحبو باتجاه القرية المجاورة، وذات صباح هطل المطر غزيراً في كانون.. رفعت نباتات السّعد رأسها عالياً شاكرة المولى زمجر جوبيتر.. انفجرت الأرض وخرج الفطر الرائع من العالم السفلي إلى العالم العلوي. انتشت الأرض بثمارها. انتشر الأطفال يبحثون عن الفطر.. اقترب المساء.. عاد الأطفال إلى أوكارهم حفاة، عراة، محملين بالفطر.. أشعلت قناديل الكاز. دخلت الحيوانات القليلة، الهزيلة إلى الزرائب، أقفل عليها خوفاً من قطّاع الطرق.. بعض القرويين ينام مع بقرته في بيت واحد. فضاء واحد. اشتعلت قرامي الحطب في حفرة وسط «سيباط المنزل» علا الدخان إلى الأسطحة الترابية المحمولة على خشب الزنزرخت.. مرّ الجنود الأتراك من هنا.. اغتصبوا زوجة المختار.. لم يجرؤ أن يرفع صوته. مرّ الفرنسيون واغتصبوا ابنة الزعيم. كوفئ الزعيم بالسلطة المطلقة. مرّوا جميعاً والنهر هو النهر. والمطر هو المطر. الذي يجعل النهر يثور. والمرأة هي المرأة. امرأة ما تلاقي رجلاً في بطن النهر

هرباً من القناديل والعسكر. تعانقا.. مدت المرأة جسدها فراشـــاً. ومــدّ الرجل جسده غطاءً. هطل المطر. نبت الفطر ارتفـــع فـوق الأرض.. شهق الماء. شهق الحصى. ضجت الضفاف بطميها. غضب الرعد مــن امرأة عنيدة ثار النهر. جرف الحصى. وجرف المرأة.. تشبثت بالرجل.

امرأة ما.. تتشبث برجل مـــا لأَن حبــهما أقــوى مــن نباتــات العيصلان.. جرهما النهر.. ساقهما إلى البحر. البحر يأخذ دائماً. والنهر يعطي دائماً.. الرجل تخلّص من المرأة. قذفها عنه بعيداً «ليس ضرورياً أن نموت معاً» لملم نشوته ومضى.. كان السيل يعوي.. وكانت المــرأة تطفو فوق الماء العكر.. أما ثوبها.. ثوب الشحادة الذي كانت تتنكر بــه لتخرج إلى حبيبها.. مزقته عيدان اليغنص وأغصان الأشجار المتهاويــة في الماء. تمزق ثوب الهوى وتعلّق في جذع شجرة زيتون تميل قريبـــاً من سطح الماء. بقي الثوب.. ذابت المرأة؟ وعند مصبّ النهر.. نبتــت شجرة شائكة. عليقة.. أوراقها تشبه مزق الثوب.. وألوانـــه مزركشــة بألوان الثوب ــ كل عام يجرف النهر هذه العليقة الغريبة. وكــل عــام تنبت في المكان نفسه.. يركض الأطفال حولها بــاحثين عــن الفطــر. يضحكون ويقولون.. هذا أوان الفطر.. لقد نبتت «الشحادة» وقد تكــون هذه «الشحادة، جدتنا، خالتنا.. وقد لا تكون.

«وقد لا تكون.. يا علي.. هذه نوافذ تنفتح في صدر الزمان لــنرى وجوهنا الأخرى أليس كذلك؟»

«أجل يا عليا.. انظري، الشمس تميل.. ضفادع النهر تنق.. علينــا الرجوع.. هل أوصلك أم تبقين الليلة في القرية لأكمل لك قصة النهر.»

«لا.. أبداً.. يجب أن توصلني.. لا أستطيع البقاء.. تعــرف أنـــي موظفة.. في الطريق ستكمل لي الحكاية.. أوصلني إلى مفرق الطريــق. آخذ سيارة وحدي. لا تتعب روحك.»

«حاضر.. كما تشائين ــ هيا إذن.. لا تقولي: آخ تعبت.»

«سمعاً وطاعة.»

«أتعرفين..؟!»

«ماذا؟!»

«أنا؟!»

«أنت ماذا ـ قل»

«أنا.. مشتاق إليك»

«أعرف..»

يضحكان.. ويتابع علي سرده

«ويقال: سمي نهر الشحادة لأن امرأة شحادة في الأربعين من عمرها.. الرجل من قريتنا. والمرأة غريبة» هذه المرأة كانت جميلة.. وكان زوجها عاجزاً وكبيراً في السنّ. دفنت المرأة أولادها في مرض الطاعون أيام الجوع وبقي لديها ولد وحيد، حملته بين كتفيها وهربت به عندما هاجم الأتراك ورجالهم القرية لتطهيرها من سكانها.. اختفت المرأة في غابات الجبال قاطعة الوديان والجبال ـ مجتازة آلاف القتلى باتجاه الجنوب.. إلى السهل البحري.. هدّها الجوع واليأس ـ لم تقدر على حمل نفسها.. لجأت إلى قناة رومانية في عمق الجبال مليئة بالديس. والأشواك الأخرى.. قبعت في هذه القناة خائرة القوى. لم يعد في ثديها حليب لتطعم طفلها.. مرت أفعى أمامها.. انتفضت من شدة الجوع.. إنها فرصتها الأخيرة للبقاء على قيد الحياة.. نهضت وأمسكت بعنق الأفعى.. خنقتها.. حتى الموت.. نزعت رأسها وجعلت سمّها ينقّط على الأرض.. عندما اطمأنت لذلك.. راحت تقضم الأفعى.. نظرت إلى طفلها الذي يغالب الموت.. سمعت صهيل خيل.. لابد أنهم.. الكلاب. وأزلامهم.. زحفت على بطنها.. خرجت من القناة بالاتجاه الآخر.. وتركت ابنها يموت على بوابة القناة وفرّت بين الغابات.. وبعد عذاب

طويل.. لجأت هذه المرأة إلى قريتنا.. ولكي تحتمي برجـــل. تزوجـــت رجلاً هرماً سرعان ما أصبح عاجزاً ويحتاج إلى الـــذي يعينـــه علـــى الحياة.

المرأة كما ذكرت كانت جميلة. فارعة الطول.. تلبـــس الصـــبر. وتدور على نساء القرية. تخبز مع أم سليم ــ وتطبخ مـــع أم أحمـــد.. وتسنبل مع أم صالح. كي تعود آخر النهار.. بالطعام لزوجها.

كان الرجل يغضب لغيابها الطويل.. «تعودين متأخرة يا امرأة»

«الشغل كثير.. والعطاء قليل. أحياناً أذهب إلى القرية الأخرى»

«ألا تخافين من التأخير ليلاً..؟!»

«لا تخف عليّ يا عثمان.. أنا أكلت رأس الأفعى»

«لقد هرمت يا امرأة ولا أملك إلا الخوف عليك»

«على ماذا تخاف.. إني بقايا امرأة.. نم. ولا تزعج نفسك ــ إيه.. يا عثمان.. اللقمة هي شاغلي الوحيد.. تتنهد المـــرأة بحرقـــة وتـــذرف دموعاً مقهورة.»

يتكور عثمان قرب الوجاق. وتتكور المرأة علـــى جلـــد خـــروف مهترئ.. وذات رعد.. وذات مطر ووكف. برد.. وطوفان.. وضعـــت زوجة عثمان على رأسها كيس قنّب.. صنعت منه معطفاً واتجهت إلـــى قرية بيت العروس.. ترصدها النهر واستقبلها بالحيوانات المرمية علـــى جسد الطوفان.. نظرت إلى الماء المتدفق بحزن.. لقد وعدت امرأة فـــي بيت العروس بأن تأتيها باكراً لتساعدها في العجين والخبز على التنـــور لتنال قوت يومها. نظرت حولها ربما تجد بعض الخبيزة أو الـــهندباء. ولكن لا شيء سوى المطر وحفر المـــاء. والنـــهر.. الـــبرودة تقـــصّ أصابعها. طال تأملها للماء. شعرت أنها بحاجة إلى البكاء. أخذت تبكي. لكنها انتفضت حين شعرت بيد تطوقها من الخلف. قفزت فزعة فإذا بـــها

أمام «رجل الفطر» إنه هو.. اقترب منها.. ركلته.. رماها على الأرض. وقفت مزمجرة مثل لبوة «سأصرخ». ابتسم: اصرخي.. نظرت حولها.. لا شيء لا أحد. إلا الماء. رجل الفطر هذا الذي يخلّص الأطفال فطرهم الذي يجمعونه. يضربهم ويختفي. كلهم تحدثوا عنه ولكن لا أحد يجرؤ على ذكر اسمه. قالت له: أيها الوغد. ماذا تريد؟!

قهقه وقال: ألا تعرفين؟! معك حق.. يبدو انك نسيت فزوجك عجوز مهترئ. قبضت على بعض الحصى.. إذا اقتربت سأشقّ رأسك.. أنا لا يقال لي ذلك زوجي بالرجال كلهم.. وظفره بشواربك.

«لا.. لا.. طولي بالك.. قبض على يديها.. جذبها إليه. فركلته بساقها»

ركض وراءها.. سقطت في الوحل.. قهقه النهر.. النهر أيضاً مع الأقوى.. نادى الرجل بأعلى صوته: ماذا يا سيدي.

ألم تستطع أن تفك حزام المرأة؟!

لم يقدر الرجل أن يفك حزام هذه المرأة الشرسة.. راحت تركض. تركض. تقع وتركض.. لم تجد أمامها إلا النهر. دخلت جوف الماء. السماء تمطر.. النهر يمشي ساخراً. توقعت أن يرأف بها الماء. لكنه جرفها.. تتمسك بالعيصلان، يتشلّع العيصلان.. يتبعها الرجل.. يغوص في الماء. النهر يمشي باتجاه البحر.. النهر لا يقف. ولا يعود. يلقي حمولته في جوف الأوقيانوس الأعظم.. الحمولة يأكلها السمك. والسمك يوزع على الزعماء.

في المساء لم تعد الشحادة.. وفي الصباح لم تعد.. عثمان يتكور عند الوجاق والعسكر العصملي يصل القرية ويبدأ حملة النهب والتفتيش والقتل.. عثمان يبكي زوجته ويأمل عودتها ذات مساء.. إنها شرسة.. إنها أكلت رأس الأفعى.. إنها. إنها لم تعد.

حزنت عليا.. غمغمت بصوت خفيض «لقد تذكرت حقبتي القديمة أيام السفر برلك»

«عليا.. أكاد لا أصدق أنك عشت كل هذه الأجيال؟!

«لماذا لا تصدق؟! عجائب الحياة كثيرة. هل اكتشفنا عجائبها كلها لنلقى عجائب جديدة؟!

«النهر يحمل تاريخ حقبة من العذاب الذي عشناه قديماً»

كنت امرأة أخرى. عشت حياة غير هذه. أنا متأكدة من ذلك؟ هذا النهر يخصني. قد أكون واحدة من هاتيك النسوة. أو قد أكون طفلة من الأطفال الذين كانوا يجمعون الفطر.. كل شيء ممكن.. من يقدر على تكذيب قدرة الله؟!

«الجسد لعنة يا خالتي. الجسد لعنة كالاسم. أليس كذلك. يا أم علي؟!

أتريدين أن أقول لك يا أم إسماعيل؟!

«علي ابنك كنت ستسمينه إسماعيل.. سأناديه بهذا الاسم. ربما تزول عنه كآبته. يجب أن تزول. هاأنا بدأت أكتمل.. نصف مؤنث ونصف مذكر.. منزل مشترك اثنان = واحد = فرد كامل.. لقد تجاوزت الثلاثين وعليّ أن أجمع انكساراتي لأصنع هرماً واحداً.

يجب أن أخرج إلى عالم جديد. جسد جديد.

كانت عليا راغبة في ذلك. أخذت تعدّ الخطط لتنفيذ مشاريعها. ستحاول أن تعيد «علياً» إلى المدينة ليبدأ كتابة جديدة. إنها موقنة بأنه شاعر كبير. وجوائزه التي نالها لم تكن مجرد لعبة أو تسلية. يبنيان بيتاً صغيراً له حديقة. له أشجار مثمرة ومساكب نعنع وبقدونس. ستأتي

«بالجنيداتي» لتخرج من المنزل الأفاعي التي تطاردهما.. ستربي الحمام وتزرع الورد. ويشتريان سيارة يزوران القرية باستمرار لزراعة الخضار.. «سيارة ومنزل معاً؟!» أخذت تضرب وتجمع وتطرح فلم تصل إلى حل..

لابدّ من مئة سنة عمل كي يتمكنا من شراء سيارة ومنزل معاً. تتذكر سامي، الذي ورث منزلاً وسيارة وبساتين مزهرة إنه ما يزال في بداية الثلاثين. ولم يعرف كيف تحكم الناس بهذه الأشياء ولا كيف تتعب للحصول عليها.

«إنها إرادة الله يا بنتي» تتنهد بحسرة.. علي يراسل بعض الصحف فقط إنه عالة على أمه العجوز «أم علي تقول.. آخر زمن والله.. نربي ونتعب حتى نرتاح ويريحونا.. ولكن نموت ونحن حاملين تعبهم» أهل القرية يتهامسون ويسخرون منه «هيه.. ماذا تزرع يا أستاذ؟! والله لو ما عذبت حالك بالدراسة كنت جنيت ثروة من الأرض».

«تصوري يا عليا.. الآن.. هذا الآن.. يتعب المرء ـ يدرس.. طبيب.. مهندس.. ليتحول إلى فلاح يزرع ويشقى كي يعيل نفسه.. طيب من الأول يا علي»

«هذا ليس حلاً أبداً.»

أحياناً يشعر علي بشراسة الفلاحين وبسخريتهم اللاذعة على الرغم من طيبتهم وعفويتهم. ولكن سرعان ما يغفر لهم.. إنها الطبيعة القاسية.. والشقاء.. كل هذه الأشياء تجعلهم أجلافاً قساة أحياناً. الجوع يحول الإنسان إلى ذئب وهم عاشوا قروناً من الجوع.

الهاتف يرن.. لا بد أنه سامي. صوته المجروح يحشرج عبر الأسلاك «ما بك يا سامي» تقول عليا ملهوفة.

يتلعثم.. لا بد أنه يخفي شيئاً. كنت أود رؤيتك..

«غدا نلتقي.. غداً.. تصبح على خير»

بدأت نسمات البحر تبرد.. إن هجير الصيف بدأ. الليل يلقي بحمولة الضوء في البحر.. تتذكر سعاد ـ لسعاد أراء حادة أحياناً لكنها صحيحة.. أتراها مخطئة؟! لا تعرف عليا.. لا تجزم بشيء.. ولكنها تحب سماع آرائها.. كل رأي صحيح يخرج من تجربة.

عندما استيقظت عليا صباحاً.. فوجئت أنها استيقظت بلا منبّه وبلا وخزات أم عارف مع أنها سهرت طويلاً. لاحت لها وجوه كثيرة وجوه تريد الهروب منها.. لكنها لم تقدر.. صورة نساء نهر الشحادة عالقة في رأسها.. صورة الفتاة الخرساء.. العم صالح. الذي صارت تعرفه جداً.. جدتها نعامة.. زعيم قريتها برهان الأدهم.. أخوتها الغرباء.

الساموك الذي ما يزال صامداً يحمل منزل أسرتها القديم وتسند أمها ظهرها عليه متوسطة المنزل. تحاول إبعاد هذه الصور.. تتعارك معها.. لا تقدر الانتصار.. سألت نفسها.. لماذا تشغلني الآن هذه الأفكار. أتكون أمي مريضة؟! هي تسكن وحدها. ماذا لو عدت إلى القرية.. أسكن مع أمي. ولكن لا.. لا.. لا أقدر.. الوحل والعتمة.

ومياه الآبار.. وانتظار السيارات.. والوقت المهدور على الطرقات.. لا. لا أستطيع العودة إلى الوراء.. الريف لم يتقدم إلا قليلاً لذلك السكنى فيه عودة إلى الوراء.

آه.. لو يصير الريف كالمدينة مثلاً. على الأقل يرشونه من البرغش.. على الأقل لا تغيب عنه الكهرباء أياماً.. على الأقل.. لا بد أن أمي متعبة.

رتبت عليا أوراقها بعد أن تناولت قهوتها كي تخرج إلى الجامعة. الشمس حارة هذا الصباح. أيقظت أم عارف. قرأت عليها خطة اليوم..

المطبخ.. التنظيف. سعاد التي تأتي فجأة. لا تتركيها تذهب حتى أحضر. أسمعت يا أم عارف؟!

«حاضر يا آنسة»

شعرت بالامتعاض لأن أم عارف قالت حاضر. لماذا تشعر أم عارف هذه بأن عليها تنفيذ الأمر.. أرادت أن تعود مرة وأم عارف لم تنفذ الأمر. أن ترفض مثلاً لأنها لا ترغب اليوم في العمل.. النساء لا يأخذن إجازة إلاّ إجازة إلى القبر. المرأة العاملة = عدة نساء. تذكرت صديقاتها المتزوجات. يعملن أربعاً وعشرين ساعة. لا يملكن الوقت للالتفات إلى أناقتهن ووجوههن. ولا الوقت للقراءة. لذلك ينغلقن على الكتب التي درسنها للأسف.

أسطورة نهر الشحادة تظلّ ماثلة في عيني وذاكرة عليا. تشعر بالشوق لسماع صوت علي. بدأت تتفتح الورود على خطواتهما. تهبط الدرج المؤدي إلى باب الجامعة. دخلت قاعة الامتحان. كانت أنيقة ومشرقة. ترتدي ثوباً أصفر وتترك شعرها الأسود يتموج على ظهرها.. عطرها الناعم ينفذ عبر طبقات الأثير.. ردهات القاعة طويلة، مشجرة بصوت علي. بالأوقيانوس العظيم.

معجبة جداً بأسلوب علي الشائق.. عند خروجها من الجامعة ربما تزوره.

مشت إلى آخر القاعة وفي الوقت الذي أرادت أن تسند جسدها إلى الجدار دخل بواب العميد.. أين الآنسة عليا؟»

تقدمت بخطواتها الرشيقة.. سلّمها البّواب كتاباً يدعوها إلى غرفة عميد الكلية. اتجهت مباشرة.. كانت خطواتها سريعة.. متوترة. وجهها اربد بألوان غاضبة. قرعت الباب ودخلت. «خير يا دكتور؟!»

«تفضلي. تفضلي.» قال الدكتور بهدوء محاولاً إسباغ الجو بالطمأنينة. دخلت إلى الكنبة التي تواجه العميد والتي تقبع فوقها ساعة

حائط كبيرة تدق كل نصف ساعة. طاولة العميد مرتبة.. عليها بعض التماثيل الصينية الصغيرة والهندية ورأس كليوباترة.. وقفت أمام الكنبة. قال لها العميد. تفضلي. لكنها ظلت واقفة.

نظر إليها العميد ثم أطرق في أوراقٍ أمامه وسأل «ماذا قررت في سوزان الزعرور؟».

«من سوزان الزعرور؟»

«الفتاة التي طردت من الامتحان؟»

«لم أقرر شيئاً»

«يعني.. ستنجح في مادتك.. أنا هكذا رأيي حسماً للخلافات والمشاحنات لن نقدر أن نصلح الكون عن طريق إصلاح الفرد»

« ولكن هذا ليس رأيي.. الإصلاح يبدأ من الفرد. وأنا لا أقول بأن مهمتي إصلاحية.. أتريدني أن أخون نفسي؟»

«نجاح طالبة خيانة؟»

«نعم. الفقراء يعيدون السنة. أو يرسبون لأنهم لا يملكون المال الكافي لاستئجار غرفة وبالتالي ينقطعون عن الدوام.. أما هؤلاء أمثال سوزان الزعرور والتي لا تعنيها شهادة الجامعة إلا للمفاخرة تكون خارج القانون. ومن الذي يتواطأ معها.. أنا؟! ضع أنت العلامة يا سيادة العميد.. قادر أنت على أن تفعل ما تشاء بالجامعة.

«سيقيمون عليك دعوى قدح وذم..»

«أنا..؟؟! المفروض يا دكتور أنك تعرفني. وأنك لا تقبل ضمن حرم الجامعة المقدس إلا ذوي الأخلاق الرفيعة.. عليك أن تدافع عني. لأنك بذلك تدافع عن مدرسيك وهيبة جامعتك. أتريدني أن أتراجع عن قراري أمام طلاب الجامعة؟! ستهتز صورتي وصورتك أمامهم وستفقد الجامعة احترامها وحصانتها.

«أعرف. أعرف. ولكن والدها «يده طايلة» ولا يقبل أن تهان ابنته»

لا.. هو يقبل أن تهين ابنته الآخرين. يرتعش صوت عليا من وطأة الظلم، نفخت.. كادت تتهاوى على المقعد.. جلست وهي تردد.. ما هذا الزمن.. يا إلهي.أنحن في غابة؟! ابنته حريتها مطلقة. تغش. تسرق. تشتم.. تدعي ما تشاء وعلينا الاحتفاظ بابتسامتنا الوقورة، لم تكمل عليا كلامها حتى فتح الباب دون استئذان.

دخلت الفتاة مع رجل لا بد أنه والدها. وعند الباب وقف عدة رجال بحالة استعداد.

أهلاً. أهلاً. نهض العميد.. أخلى كرسيه للسيد «الزعرور» طلب القهوة بسرعة وعرّف بالأستاذة عليا. ابتسم وراح يروي بعض «الفكاهات التي ترطب الجو المشحون..» طلب الأب الكلام. فقال العميد تفضل: تفضل يا باشا.. عندما سمعت عليا هذه الكلمات المتملقة امتقع لونها وصارت يدها ترتجف وهي تحمل فنجان القهوة. وضعته على الطاولة وراحت تتأمل الجو المليء بالذئاب.. خيّل إليها أنها المرأة التي هربت حاملة ابنها باتجاه نهر الشحادة.. الخيول تطاردها.. والغابة مليئة بالذئاب والوحوش البرية.. الأفعى التي أخذها الدرويش عادت إلى المنزل.. أخذ تنفسها يتسارع. نظرت إلى العميد. رأته يقصر كثوب مغسول نظر الزعرور إلى عليا من رأسها حتى أخمص قدميها.. «زانها.. وراز ملامحها».

«إيه يا آنسة.. أنا لم أدخل أبداً حرم الجامعة الوقور.. لا مشاكل لنا أبداً. ولا نقبل أبداً بإثارة المشاكل.. فالجامعة مكان للعلم، وليس للشتيمة.»

«طبعاً..»

علقت عليا بسخرية..

«وإذا كان الأمر كذلك.. فلماذا شتمت أسرتي. وأصلي.. وطـودت ابنتي، نظر إلى عليا.. لم ترد.. كان العرق يتفصد من أصابعها.. مـاذا يقول هذا الرجل.. إنها لا تقوى على الرد.. بماذا تقنعـه وقـد جعـل المشكلة ترتدي ثوباً آخر. من يقتنع أنها لم تشتم؟ كان الحوار استفزازياً. ومقرفاً.

وقفت. نظرت إليه وقالت: إذا كان الحوار سيكون بـهذا الشـكل فيجب أن ينتهي وأعتقد بأنك تعرف أني لا أسمح لنفسي بشتم طالبة أمام زملائها. أنا في الجامعة ولست في حقل قطن أسـتعبد النـاس وأفلـح عليهم؟!

احمر وجه الأب. بدأ العرق يتصبب منه. نظر إلى ابنته. مـاءت الفتاة كقطة.

«أجل ــ يا بابي ــ لقد هزأتني وأنا أمام زملائي، وشتمتني»

نظرت عليا إلى العميد متوجهة بالكلام إليه. بإمكـانك اسـتدعاء الدكتور رياض.

قال الأب: لا نريد أن نستدعي أحداً. نريد أن نسـوّي الخـلاف. تصححين ورقة الطالبة ونتنازل عن حقنا؟!

«آ.. يعني لكم حقوق عليّ..؟ آسفة يا سيد.»

«آسفة؟» قالها الزعرور بهدوء. آسـفة بعـد أن شـتمت ابنتـي ووالدها. وأهنتها؟! كان من المفترض أن «أجرجرك» إلى النيابة.

كانت السماء سوداء قاتمة في عيني عليا. لم تقو علـى الكـلام. نظرت إلى الساعة التي ترن برتابة خانقة. شعرت أن هذا الطنين كلـه يأتي من رأسها.. تظل محافظة على وضعها الـهادئ مـن الخـارج.. الجامعة لا تقدر أن تحميها؟! تمنت لو أنها الآن تستند إلى ساموك منزل أهلها القديم. وتبكي.. تريد أن تبكي. أن تصرخ.. لا.. بها رغبـة الآن لأن تكسر هذا الساموك.. يجب أن ينهار السقف. يجب أن تبحث عـن جدار تستند إليه.

العميد يطلب من البواب أن يأتيه بالدكتور رياض.

سلّم رياض بانحناءة خفيفة وعندما بدأ استجوابه.. صمت برهة وبعد أن نظر إلى عيني عليا الغاضبتين.. قال: باشا.. يبدو أن الأستاذة كانت متعبة. لذلك لا ضرورة لكل هذا التشنج.

ابنتي تقول إن الأستاذة شتمتها، وشتمت عائلتها.. وأنا أعرف ابنتي هي لا تكذب. لقد ربيتها على الصراحة والاحترام.. ألم تسمع شتيمتي يا دكتور؟!

قالت عليا ـ لماذا وكيف يكون الحوار حول الشتيمة ولا يكون حول غش ابنتك التي ربيتها على الصراحة.. لنقل ابنتك ماذا كانت تفعل؟!

تنحنح الدكتور رياض وظلّ صامتاً.

قل يا رياض. قل ما سمعت.. سأله العميد.

قال رياض: أنا كنت بعيداً. لم أسمع شيئاً. ولا أعرف لماذا رأيت الآنسة سوزان خارجة؟

نظرت عليا إلى رياض.. كادت أن تصرخ في وجهه: «ألم تسمع شيئاً؟!»

قال العميد: أين كنت إذن يا رياض. ألست مع الأستاذة عليا في القاعة؟! هاتوا المعيدة رجاء..

قولي يا رجاء. ماذا سمعت؟!

«لم أسمع شيئاً»

«هل سبَّتْ الآنسة عليا سوزان؟»

«لا أعرف.. ولكن سمعت الطلاب يقولون بأن عليا شتمت سوزان ورفعت يدها تريد أن تضربها»

قال الأب للدكتور رياض.. يا دكتور.. تذكر.. ألم تسمع شيئاً في القاعة.. ألم تلاحظ أن فتاة بريئة تخرج من الامتحان؟!

قال رياض.. نعم رأيت سوزان تخرج.

ـ معقول.. ألم تسأل لماذا تخرج هذه الطالبة؟! أليست سوزان طالبة مهذبة؟!

ـ نعم.. بالله.. إنها طالبة مهذبة. مجتهدة. ولكن كما ذكرت عليا كانت متعبة ثم مال على السيد الباشا وهمس له بكلمات غير مفهومة.

يرفع الباشا صوته. يعني أنك لا تتذكر شيئاً؟!

ـ لا أعرف يا باشا.. ربما شتمت.. فعليا زميلتنا محترمة ولكنها عصبية قليلاً. نظرت عليا إلى الوجوه.. لم تستطع عينا رجاء أن تلتقيا بعيني عليا.. انشغلت المعيدة بمراقبة اللوحات والستائر الجميلة وشهادات العميد المعلقة.. قال العميد بعد صمت:حلاً لهذا الخلاف. أجد أن الصلح أفضل. كل واحد يعتذر للآخر وتنتهي المشكلة. لا تهتم يا سيد زعرور.. الأستاذة قلبها طيب؟ لا بد أن تصحح ورقة ابنتك، يا أخي الواحد يتشاجر مع نفسه» لم ترد عليا.. ظلت ساهمة.. كأنها غير موجودة. وحين كرر الدكتور رجاءه.. قالت عليا: آسفة.

«أمي الفلاحة قالت لي لا تنحني أمام العصا؟!

«ماذا تقصدين؟! ألا يكفي شاهدان.. أتكذبينهما؟!»

«أبداً. يا دكتور. أنا لا أستطيع. وأنتم وأنا لا نقبل ـ أن يتكذب الشاهدان.. أنا فعلاً شتمت السيد.. وشتمت ابنته. الدكتور رياض يعرف ذلك. لكن لا أقدر أن أعتذر»

قالت عليا عباراتها بمنتهى الهدوء.. كانت منكسرة. وصوتها يكاد لا يخرج من شفتيها نظرت إلى رياض فرأت فيه الرجل الذئب الذي افترس الخرساء. رأته يتجه إليها يريد أن ينهش كتفيها.. خرجت من

غرفة العميد متجهة إلى خارج الجامعة.. كان حر الصيف يحرق الإسفلت. الواجهات تشعّ بالألوان. أمام هذه الواجهات امرأة مكفهرة تسير دون أن تلتفت إلى شيء. خائفة كأن البيوت تطاردها. وكان الأشجار تتقصف على رأسها.. الخواء الكبير يلفها. لا يمكن أن يفارقها وجه رياض وهو يتلعثم.. «أحياناً الاغتصاب لا يكون جسدياً» من المنعطف يخرج رياض.

رياض زميلها ولكن يديه مقطوعتان.. يركض وراءها.. تقع في الأرض لاهثة؟ يمسك بها رجل «ما بك يا أختي؟» نظرت إليه. قالت له: الوحش الوحش. لم يفهم الرجل شيئاً.. تركها ومشى.. نظرت حولها وتابعت السير بلا هدف «الرجل المقطوع اليدين يتبعني.. إنه رياض.. لا.. إنه بائع الكعك على باب المدرسة.. عتمة.. ما هذه العتمة»

لا عتمة.. لا ظلام.. إنه النهار المضيء، البحر الجميل.. النهار في بدايته يا عليا. لا.. أبداً. النهار في نهايته.. وعندما يتلاشى هذا النهار سيخرج وحش جديد قادم من وراء البحار يصطاد الرجال والنساء كما يصيدون السمك. يشير بيده ـ فقط يشير.. وكلنا ننفذ. تضحك عليا بصوت عالٍ.. تضحك على خيالاتها كأنها في غرفتها الخاصة. ينظر إليها رجل عجوز يعبرها «لا حول ولا قوة إلا بالله.. جيل آخر زمن»

ـ ماذا تقول يا عم؟!

ـ لا أقول شيئاً يا بنتي.

تقف أمام واجهة زجاجية. تظهر لها امرأة ترتدي ثوباً أصفر. ترفع المرأة يدها.. ترفع المرأة في الواجهة يدها.. تتأمل ما يجري وراء الواجهة. تستيقظ من غفلتها.

«هذه أنا»

أجل.. هذه أنا.. أنا مسجونة هنا.. وراء هـذا الزجـاج الـذي لا يحتاج إلا لطمة من يدي لتخرج المرأة. تذرف دموعها تحت نظارتـها الشمسية.. تشير لأول تاكسي عابرة.. تقذف المرأة التـي كـانت وراء الزجاج في جوف السيارة.

«افتحي يا أم عارف» تدق عليا الباب ولكن أم عارف لم تفتح مـع أن صوتها مسموع «ما بها؟!» أخرجت عليا المفتاح. فتحت المـنزل.؟ وجدت أم عارف متكورة أمام أفعى كبيرة.. تمشي أم عـارف. تتبعـها الأفعى. تقف. تقف الأفعى.. صرخت عليا بـأعلى صوتـها.. التفتـت ورائها فوجدت الرجل العجوز الذي كان في الشارع..ما بك يا بنتي؟ لـم تقدر عليا أن تتكلم.. صارت تتلعثم وترتعش.. كانت حروفها مبتـورة، مرتجفة. قال الرجل: لا تخافي.. لقد أخذت الأفعى إلى مكان بعيد فـي المرة السابقة فما الذي أعادها.؟

«أنت الجنيداتي الذي أخذها المرة الماضية؟!»

«أجل.. أنا هو.. لا أريد أن تدخل امرأة غير نظيفة»

اجتمع الجيران. أوقفتهم عليا بعيداً أم عارف تصير قطعة ثلـج.. تظن عليا بأنها ماتت جمدت كصخرة. انقطعت أنفاسها وفقدت لونـها.. الدرويش يقول لها لا تخافي. يتقدم إلى الأفعى يدق لها بعض الألحـان الموسيقية ويغني بصوت غريب الأفعى تسحب جسدها وتزحف باتجـاه الموسيقا.. يشير لها أن تطوق خصره.. تعمل حزاماً حوله.

.. «لا أحد يقترب.. هناك امرأة غـير نظيفـة» الأفعـى ترفـع رأسها.. تمد لسانها.. الدرويش يصرخ «المرأة غير النظيفة تخرج. مـن تخرج؟ من تقول هاأنا؟» يسخر بعضهم منه.. وماذا في ذلك يا شـيخ؟ الأفعى تلقي سمها في جسدي.. تؤذيني إذا اقتربت امرأة غير نظيفة.

يضحك رجل وزوجته.. يتهامسان.. هي مجرد لعبـة. لنجـرّب. عليا تنظر إلى أم عارف التي لم تنهض بعد. ولم تقل شيئاً. مـا تـزال

جامدة.. المرأة والرجل يتهامسان الدرويش يحاول أن يسيطر على الأفعى.. إنه لا يقدر.. ـ هي لعبة ـ تتقدم امرأة صوب الدرويش. يصرخ.. يتوسل. المرأة تريد أن ترى الأفعى.. عندما تجاوزت المرأة العتبة كان الدرويش قد سقط على الأرض. لقد لدغته الأفعى.. صرخ لقد قتلت.. قتلت. أم عارف استيقظت.. «ماذا يوجد؟! أم عارف تنهض مفزوعة.. الأفعى تدخل المنزل وتختفي فيه.. يبحثون عنها.. لا يمكن إيجادها الرجل على الأرض. السمّ القاتل يسري في جسده.. «يحاولون إسعافه»

«لا تحاولوا»

لا فائدة أبداً. الرجل مرمي على الأرض وأم عارف واقفة. والأفعى اختبأت في منزل عليا التي تقف بعيداً عن الجميع. تسند ظهرها كأنها ترنو إلى فيلم كرتون يختفي الجيران داخل دهاليزهم الرطبة. تظل عليا واقفة.. وعندما يأتي سامي تقول له وهو يصعد الدرج. أنا شتمت؟. شتمت والد التلميذة المهذبة؟! تذكرت قول العجوز التي رأتها «أنا جدتك الأولى.. سيأتي زمن يسود فيه الأعور الدجال.. وأصحاب الحق سيقتلون.. الأعور مختبئ الآن تحت تلال من الرماد.. غداً تهب الرياح الغبية.. يطير الرماد ويظهر الأعور الدجال سيعم الجوع. تسفك الدماء تجف الأنهار. وسيهرب الزعيم إلى بلاد «الواق ـ واق» حيث النساء الجميلات وحيث الماء يباع في زجاجات الويسكي.

يمسك سامي بعليا. يدخلها سريرها. ويطلب سيارة الإسعاف. تصرخ؟ لا.. لا أجرؤ أن أنام في السرير. ـ الأفعى ـ. تغادر المنزل وتهبط باتجاه الشطّ. تجلس على حافة البحر.. كم هي وحيدة الآن.. سامي يقف بعيداً بحيث لا تقع عينها عليه وعندما يقترب منها صياد محاولاً مغازلتها يظهر سامي وراءها. يبتعد الصياد.. ويرجع سامي إلى موقعه البعيد. حزيناً من أجل عليا. كيف يخفف عنها؟!

«عودي إلى المنزل يا حبيبتي.»

«اتركني هنا. أكاد أختنق. ما الذي يجري حولي؟!»

«استسلمت؟!»

«لا أعرف. لا أعرف ولكن من أنت؟»

«من أنا؟! ألم تعرفي صوتي..؟! ارفعي رأسك عالياً. انظري إلى الأفق. راقبي الموج والنوارس، يبدو أنك الأستاذة فقط.. أين عليا التي أعرفها؟!»

«تصرخ.. خالد.. خالد.. أين أنت.؟ آه. بحاجة إليك»

نهضت واقفة. تأملت الشطّ. كان ملح البحر كله يتجمع في حلقها. العطش فظيع.. تريد أن تشرب.. الموج الصاخب يقرع طبلتي أذنيها.. «تهمس.. خالد». تلتفت إلى الوراء ترى سامي واقفاً يتأملها. لا تعرف كيف أقترب.. وألقت برأسها على كفيه وأخذت تبكي.

«هيا يا آنسة عليا.. تعالي معي»

انسحبت بهدوء. ابتعدت عنه. مسحت دموعها. مشت بمحاذاة سامي صامتة. حاول أن يجد فرصة للحوار معها ولكنها لم تكن راغبة في الحديث أبداً. وحين وصلت إلى المنزل قالت لها أم عارف: لقد خرجت الأفعى. أنا رأيتها تخرج من الباب. تهبط الدرج. وتخرج إلى حديقة الجيران.. وعندما رآها ابنهم الشاب أطلق عليها الرصاص.

«هل مات الدرويش؟! لا.. لا.. لم يمت. قال سامي: لقد أسعفوه»

لم تتحدث مع سامي بعد ذلك.. طلبت شاياً ساخناً. شربت الشاي وهي هادئة. قالت أم عارف «سعاد انتظرتك طويلاً ثم ذهبت.. كذلك اتصل الدكتور سامح ورجل آخر قال اسمه رياض. إنه يعتذر ولكن لم أعرف لماذا.. قلت له الدكتورة غائبة. قال قولي لها: كنت مجبراً. وهي

ستفهم.» تهز رأسها وتردد.. مجبراً.. وجارتي كانت مجبرة للدخول على الدرويش.. نظرت إلى سامي.. «أرجوك يا سامي. إني متعبة.»

نهض سامي واقفاً. ودعها وانسحب. حاولت عليا الاستلقاء.. لم تقدر.. تذكرت صوت خالد.

«خالد غريب. من يحدد الهوية. هوية الغرباء.. وكيف؟!»

تدخل أم عارف وهي تعتذر.. آسفة يا بنتي.. لقد جاء رجل وسلّمني هذا المغلف فتحت عليا المغلف.

«إلى الأستاذة عليا.. سيكون قرار فصلك من الجامعة جاهزاً خلال أيام. أرجو الالتزام بالقرار وعدم زيارة الجامعة. عمادة الكلية. شكراً»

وجدوا لي مكاناً في دائرة حكومية، رئيسها يدعى عبد العظيم.

عبد العظيم هذا رجل طويل، يميل إلى البدانة وقد تجاوز العقد الخامس من عمره.

عندما وصلت الدائرة شعرت بغربة قاتلة. دخلت ممراً طويلاً، مظلماً كنفق. مليء بالأقذار والأوساخ. في آخر هذا النفق جهزوا لي غرفة فيها عدة طاولات. لدرجة أن الموظف يخشى على نفسه من أي حركة. وراء كل كرسي مربوط برجل الطاولة. سحبت كرسياً لأجلس عليه ولكن الكرسي ظلّ صامداً، معانداً يرفض الانقياد لي.. نظر إليّ زميل عرفت فيما بعد أن اسمه خليل. ابتسم. قلت له: الكرسي مثبت بالبلاط؟!

«لا.. الكرسي مربوط برجل الطاولة» جئت أنا إلى عند الكرسي. جلست عليه ورحت أتأمل خزائن الحديد الصدئة. والطاولات المشبعة بالقهوة والشاي.. كل الوجوه تتطلّع إليّ، بفضول. السؤال في عيونهم «من هذه؟» عازبة. مطلقة؟! شهادتها.. من المدينة أم من الريف؟!».

كم عمرها..؟! أين كانت موظفة»

وربما يتهامسون.. إنها ليست أنيقة. أو هي أنيقة متعجرفة. لطيفة. كل هذه الأسئلة تدور على شفاه الموظفين عندما تدخل موظفة جديـــدة.. تسمرت وراء مكتبي؟ جدران أربعة قذرة. جـــدران تســـمع كـــل يـــوم عشرات الحكايات.. هنا في هذه الغرفة المنزوية، المترهلة، يفتح كــــل موظف ملف همومه.. أسرته. أولاده. عجرفته. هنا تظـــــهر شـــخصية المرء الحقيقية. لم أرغب في الحديث مع أحد. ولا أحـــب أنـــا أعـــرف أحداً. عالمي ليس هنا في هذه المكاتب الذابلة..؟!عالمي أبعد من ذلـــك.. كانوا يتبادلون فناجين القهوة.. اثنان تشاجرا من أجل فنجان قهوة.. هـذه هي المشكلة ظاهرياً لكن في الحقيقة غير ذلك.. الحقيقة هو أن موظفـــاً يستغل زميله كل يوم فيشرب فنجان القهوة ولا يكلف نفسه جلب البـــنّ معه مرة واحدة في الشهر. لماذا عليّ أن أصنع لزميلي الرجل قـــهوة. تقول موظفة قديمة: معها حق.. هي امرأة في منزلـــها.. ولكنـــها هنـــا عاملة. مثلها مثل الرجل.. كنت واجمة طيلة الوقـــت أفكـــر بســـعاد.. ذكرتني بها إحدى الموظفات التي تدعى سعاد. «لماذا فعلت هكـــذا يـــا عزيزتي؟! هل كان من الضروري يا عليا أن تطردي ابنـــة الزعـــرور باشا؟! أنت لست مسؤولة عن كل هذا الخراب»

وحدي الآن أحاكم نفسي.. هل أخطأت؟! فأنا لا أقدر وحـــدي أن أصحح كل شيء ثم إن الأمور الصحيحة نسبية.. الصح عندي خطأ عند غيري.. لا. لا. أنا لم أخطئ.. الرسول الكريم يقول: «من رأى منكـــم منكراً فليغيره..» المجتمع لا يبنى إلا بقول الحقيقة. ولكن لا أرى أحـــداً متحمساً في هذه المرحلة لشيء.. كان الملك وقزم العمامة وسيد النجمـــة السداسية يحتفلون.. وكانت صور الاحتفال توزع على الناس. على أسر القتلى. والشهداء والمساجين.. والأرامل.. لم يصرخ أحـــد. لـــم تبعـــق امرأة.

لم يبك صبي؟؟ أوه. يا إلهي.. ما هذا؟! هذه التراكمات عبر أجيال.. وأجيال. تحتاج إلى زمن طويل كي تتزحزح. كان بإمكاني مسامحة سوزان. وبالتالي أنال مكافأة وحظوة. وعند ذلك سيقولون إنها أستاذة ناجحة.. وقد يرصد والدها سيارة لخدمتي.. سيقولون عني عالمة..

سامح قال.. القوة تنبع من محو المسافة بينك وبين الكرسي.. أي كرسي؟! وربما صرت صديقة الأسر العريقة. ولكن لا.. لا.. عبد الكريم ابن خالتي تزوج من ابنة أخ زعيم القرية.. مع ذلك ورغم زواجه منها منذ سنوات طويلة. يشعرونه بأنه دخيل على الأسرة ولا يعبرونه.. تملق كثيراً لهذه الأسرة.. حاول مجاراتها في المأكل والملبس.. نال أعلى الشهادات.. ولكن.. لا شيء.. إنه الفقير الذي تزوج ابنة عريقة لا يستحقها.. «جزاته.. والله.»

«هكذا قال علي عندما رآه»

كانت الكرسي «المخفوس» تهبط وكنت أغور إلى بطن الأرض. أو قل إلى أنفاق ساحقة مظلمة.. أواجه مملكتي القديمة. أسمائي.. تحولاتي. أسلم على الذين أعرفهم، لا يرد عليَّ أحد. «أنا ابنتكم» يتركونني.. أقسم بآلهتنا المقدسة.. بأوغاريت العظيمة أسمع أمي تسترحم أبي. يقول لها: اتركيني يا امرأة.. ابنتك لم تترك ساعة للفرح. المراكب تنتظرني.. سفن الفرعون واقفة.. سأرحل «إلى طيبة» لماذا يغضب علي أبي يا أماه؟ تشيح الأم بوجهها.. أسمع طبولاً تدق. العبيد يهزجون.

«عاش الملك نقمد العظيم» أسقط على قدمي أمي هلعاً. الملك يبحث عن العذراوات فقط.

«أنا عذراء يا أمي»

كيف اهرب من قضائي وقدري؟ أمي لا ترد. أختبئ في جرّة كبيرة كانت للزيت أيام الخصب.. الآن يعم القحط.. والجرار فارغة. يدخل الجنود.. يفتشون المنزل.

يبحثون عن النساء. لا يجدون غير أمي المرأة العجوز.. يا امرأة.. نحن نعرف أن لديك فتاة جميلة. إنها البتولة «عنت» يضربون أمي فتدعو اله العواصف «تشوب» وإله البحار «يم» أن يجرفهم ويخفس الأرض بهم.

قولي أين ابنتك؟!

«خرجت مع الرعاة»

«كاذبة. كاذبة. زوجك لم يقل هكذا.»

أكثر من مرة كدت أصرخ وأقول: هأنذي كي أخلص أمي.. لكن الآلهة كبست على فمي وقالت: اقسمي ببعل ألا تقولي شيئاً.. حملت أمي صينية قش وغطت بها فم الجرّة. شعرت أني في ظلمة أبدية.. وشعرت أني إلهة الظلمة الخالدة. لا أفنى. وأني سأغور إلى قاع «يم» حيث الأمواج تلطمني إلى أن أذوب في ذرات الملح أو أتحول إلى ضوء.. أخرج من الجرّة عبر ثقوب صينية القش.. ينتبه العبيد والجنود إلى حزمة ضوء.. خارجة من الجرّة باتجاه كوّة في أعلى الجدار. يركلون أمي «ابتعدي يا امرأة» تسقط أمي على الأرض كي تمنعهم من الوصول إلى الجرّة.. لكنهم يسرعون إلى ركل الجرّة بأقدامهم.. فيسيل منها الزيت ويملأ باحة المنزل.. تندهش أمي. الجرة كانت فارغة.. وعنت = أنا كنت في الجرّة؟

قال كبير الجنود: هذا الضوء لا يخرج إلا من جسد أنثى بتول.. لها جسد الربّة عشتار. لم تستطع أمي الحراك. ولم تقدر على الكلام. رفرف الضوء بعيداً وغاب.. حزنت أمي. سمعت «يم» يقول: لا تخرجي من ملوحتي وشطآني.. ليكن ترحالك من شطٍ إلى شطٍ. من فقرٍ

إلى غنىً ومن غنىً إلى فقرِ.. تذوقين أبد الدهر عظمة البناء ولوعة الهدم. من قرطاج إلى أوغاريت.. مروراً بالرؤوس والخلجان. سيظلّ الحارس الأكبر يطاردك إلى الأبد. ولكن لن يقدروا الإمساك بك.. ستظلين عصية على الزمن. لكن عندما تخرجين إلى البراري راغبة في العيش كامرأة فإنك ستذوقين مرارة عيش البشر وحفرهم التراب ليأكلوا خبزهم.

«لكني اشتقت لأمي.. لأخوتي. لبيتنا. لسهول المملكة. إلى غناء الرعاة والصلاة أمام الآلهة..»

«قولي لأمك أن تأتي..»

ناديتها يا سيدي ولم تسمعني. هذا زمن الضجيج.. تجمع الآلهة. وصلواتهم أفسدا كل شيء.

«إذن.. ستظلين يا عنت في بحث دائم..»

«جدتي قالت: ستظلين في شقاء أبدي لأن الملك لم يفضّ عذريتك.. فضّه الموج. والموج عقيم»

مرت شعوب وأقوام كثيرة في هذا البحر.. سفن تجاوزت الشطآن. غاصت مع القراصنة. مرة أكون أميرة. مرة أخلق بثوب غانية.. وأحياناً بثوب ساقية الحان سيدوري. والرجال هم الرجال. لا يعرفون الفرق بين أميرة وساقية ــ بين عشتار وبين امرأة عبدة.. كلهن متساويات عندما يخلعن أثوابهن. مرة أحبني أحد القراصنة، أخرجني إلى الشطّ فتحولت إلى امرأة عادية.. خرجت من دار البقاء إلى دار الشقاء، أنهل منها، وأمرّ على أزمنتها بصور شتى. تزوجت مرات. وأنجبت آلاف الأبناء. لكن لم أستطع محو لعنة «يم» كل أبنائي جرّبوا أن يأكلوني لكن ما زلت أقاوم. وهاأنا يا بعل العظيم. أقاوم.. أعدني إلى رحمتك لأصير الربة من جديد.. الأم والأخت والزوجة والعشيقة. أتوسل إليك.. أعدني لقد عاد أبي من طيبة. حاملاً معه الماء المقدس

الذي تقدم له الضحايا والقرابين.. أبي يريدني أن أغتسل بالماء المقدس كي أتطهر من لعنة «يم» الأوقيانوس المالح لأعود كما كنت.. خالتي الجليلة في مملكة سيانو.. وابنها صار رجلاً تعاهدنا على الحبّ.. جمع لي خمور الكروم.. وزيت أوغاريت.. وربى القطعان والخيول ليصنع من صوفها ووبرها الأغطية. يا بعل.. يا سيدي.. كلما أحببت رجلاً أخذوه مني. ماذا عن علي الذي أحبه. أيكون هداد أخر. هل روحك تحوم فوقه؟ هل أتزوجه؟ ينقطع الصوت.. تغيم الدنيا.. يهطل المطر.. الرعد يزمجر.. وعنت خرجت من ثوبها.. غابت..»

«المدير يطلبك يا آنسة»

«......»

«المدير يا آنسة يطلبك.. ألا تسمعين؟»

تنهدت بعمق.. يا إلهي.. ما هذه الأساطير التي تلفني. ولكن ماذا يريد المدير.. ما زلت جديدة.. لا مشاكل لي ولا طلبات. أمسح عيني كأني أمسح ممالك أوغاريت وسيانو. أسحب الكرسي المربوط إلى العداد. أهرع إلى غرفة المدير. إنها غرفة أنيقة. مليئة بأصص الورد. أقدم تقريراً عن حياتي ومواليدي. وتخصصي.

«خذي قسم الحسابات يا آنسة.»

ينظر إليّ من الأعلى إلى الأسفل. ثم من الأسفل إلى الأعلى مروراً بصدري. ونحري. ثم يقذف نظرة إلى كعب الحذاء ليقيس طولي.

«ولكن تخصصي لا يسمح لي بالعمل في هذا القسم.»

«لاشاغر لدينا في أقسام أخرى.. كل هذا الشغل تسلّية بتسلّية»

«ماشي الحال ــ ولكن أريد كرسياً وطاولة»

«الحقيقة لا يوجد عندنا احتياطي.. لكن في القريب العاجل سنؤمن

لك كرسياً وطاولة. هل اطلب منه كرسياً من كراسيه الكثيرة التي تملأ قاعته الفاخرة؟! ماذا لو نقص مكتبه كرسياً.. وبدل عشرين ضيفاً.. ليكونوا تسعة عشر.. لكن سرعان ما لجمت صوتي.. تذكرت الجامعة. سأحاول تعلم الصمت.

«لماذا يا عليا.. ألا يعرف الحق غير القاضي؟»

«علي... أرجوك. أنا لا اقدر أن أواجه العالم. الحق لا يعرفه غير القاضي. حتى القاضي بصراحة لا يعرفه»

«أيتها الجبانة»

«قل ما تشاء.. نزلت دموعي.. تذكرت سعاد.. إني لست قديسة أخرى أدفع حياتي ثمناً لتطهير المدينة. عندما هدأت شعرت بأنامل تعبث بشعري وتمسح على جبيني. كنا نجلس تحت شجرة الصفصاف الكبيرة التي تتاخم نهر الشحادة.

لا أدري لماذا تمنيته أن يقبلني. لكنه لم يفعل.. نظرت إلى عينيه. كانتا صامتتين وصافيتين كليل صيفي. نظر إليّ بحنو وحنان يشبه حنان الآلهة عندما لا تكون غاضبة من عبادها.. قال: لا أستطيع أن أراك مثل أَي امرأة عادية. لا أقدر. أظنك حزمة نور مقدسة. أخاف أن ألمسك فأكتشف هذه الحقيقة. لا أريد أن أحولك إلى جسد.. اعذريني. أتفهمين علي؟! أستطيع هذا مع نساء غيرك ـ لكن أنت؟! لا. لا. اغرورقت عيناه بالدموع. «أشتهيك يا عليا. أتعذب. أحترق كل يوم وأصير رماداً.. أنشر رماد روحي على أوراقي وأتفرج عليه. ولكن.. يجب أن نتزوج.. يجب «أيكون حدسي صحيحاً؟» تذكرت أسطورة أوغاريت.. ما المانع أن أكون عنت = البتول – ويكون علي = بعل.. ما المانع.. الكون لغز. والإنسان لغز. والتقمصات موجودة. لا أعرف.. هذه أسئلة متعبة. قد أكون النور الذي لا يمتد إلا مع نفسه لذلك لا أعرف الاكتمال أبداً. وقد أكون ابنة امرأة من أوغاريت. جئت إلى

الحياة ليكون لي زوج وأولاد. أي أملأ الأرض بثمار الخلود ابتعدت قليلاً عن علي قلت: أفهمك. أفهمك. لكن رغبات الجسد الفاني تطفو أحياناً.

اطمئن أعرف كيف أسيطر عليها. عدني بألا تخونني.

«أعدك يا حبيبتي»

«روحانا تتحدان.. وهذا يكفي..»

«يا للرومانسية الشفيفة»

«أوه.. لقد حيرتني»

كان علي حزيناً لأني تركت الجامعة بهذه الطريقة المزعجة. بل كان مقهوراً. إنه يحاول أن يخفف عني. سامح قال له: عليا تعاني كوابيس شديدة الوطأة. كن إلى جانبها.

لست حزينة يا علي. صدقني. أنا خائبة فقط. ضيّعت عمري في أشياء اكتشفت أنها ليست ذات قيمة في المجتمع. كان عليَّ أن أكون أكثر قدرة على التلاؤم مع المتغيرات الحالية. أعرف كم أسبب لك وللأصدقاء من تعب وضيق. بصراحة أنا مشتاقة لأسهر مع الشلّة. تعال نسهر معهم.

«حاضر يا عزيزتي.. لنذهب»

«إسماعيل» أناديه بفرح.

يكفهر وجه علي ويسألني من قال لك بأن اسمي إسماعيل؟

«أمك.. قالت بأنها أرادت أن تسميك إسماعيل ولكن والدك رفض.. لذلك روحك مقسمة إلى أرواح. واسمك إلى أسماء.. وزمنك إلى أزمنة.

«أنت روحانية زيادة عن اللزوم.. غيبية.»

«يا سيدي.. أفضل من الواقعية. أكثر راحة؟.»

في السهرة بدت سعاد حزينة لم تنشر ابتسامتها العذبة على المكان كعادتها. الكؤوس حزينة. وغطاء الطاولة. كل شيء يبدو حزيناً. ابتسم سامح وقال: في صحة حبيبة المليونير. رفعنا الكؤوس.

لم تضحك سعاد. ظلت واجمة. قلت لها: «ما بك يا سنسن»

«لا شيء يا عليا. إني متعبة. لولا الشوق إليك ما جئت. أكاد أختنق. لا أطيق البقاء أكثر من ذلك في هذه الأجواء المقنعة».

«والحل؟ ما هو الحل يا عزيزتي؟!»

«السفر. سأسافر يا عليا.. هذه المدينة لا تحتمل امرأة مثلي. وأنا لا أحتمل اللف والدوران مثلها. أزقتها مظلمة. بيوتها مظلمة. عاداتها مظلمة. لم أعد قادرة أن أكون أكثر من سعاد. في بيتي سعاد رقم واحد. وفي الشارع سعاد رقم اثنين. وفي العمل سعاد رقم ثلاثة. كم سعاد يجب عليَّ أن أكون حتى أتلاءم مع الحياة؟ لن أجرح نفسي كي يشفى الآخرون.

«ابتسمت.. قلت لها: كيف الرحيل وأنت ستتزوجين رجل أعمال جديد من رجال الاستثمارات الجدد؟!

أنا لا أجد البديل للشرق في الغرب. كلنا يعرف ذلك.. وكلنا يدرك معاناة الغربة والبحث عن وطن جديد. باريس ليست بديلة البحر المترع بالحضارات والأزمنة.

«أعرف ذلك يا عليا. لكن هنا أعيش حالة حصار فكري وجسدي. كل من يراك تبتسمين يتوقع أن تشربي معه القهوة. أو تذهبين معه فوراً إلى الفراش»

«ليتوقع ما يشاء. أنت تعرفين نفسك» يقول علي؟

تردد سعاد بانفعال: لا. هناك أمر آخر. أمر المرأة التي تصل إلى الثلاثين بلا زواج. ينظرون إليها على أنها «ستوك» لم تعد صالحة للزواج. ولا لبناء منزل أو أسرة. لذلك يشفقون عليها ويهيلون عليها عروض الزنى. عروض أن تكون خليلة سرّية للرجل الزعيم.. فهي لا تستحق الحبّ ولا الطهارة. إنها في نظرهم تسعى لإشباع رغبات الجسد.. يعني يريدونها جارية.. أتصدق أني لم أقابل رجلاً تقريباً إلا وعرض عليَّ نفسه.. بعد ذلك يتوضأ ويذهب إلى الجامع وعندما يذكر اسمي.. يهز رأسه.. إنه الأطهر.. وفي منزله يبث تعاليمه الأبوية المقدسة. لقد تعبت. لم أعد أطيق هذه الحالة ـ يا حرام لم تتزوجي حتى الآن؟»

كأن المرأة التي لا تتزوج ليست إنسانة.. مهما كانت مثقفة، يسخرون منها أو يرسمون حولها الدوائر عندما تدير ظهرها.

«وصديقك رجل الأعمال الموعود..؟»

«يا سيدي.. السيد متزوج. وهو غير متفاهم مع زوجته. ويريد الزواج بي بشرط ألا أقول لأحد. سيشتري لي منزلاً وسيارة. وسأكون الزوجة السرّية. قد أكون الثانية أو الثالثة أو الرابعة. وربما طلق واحدة ليحافظ على الرقم المقدس.. أربعة. وإذا لم يعجبني هذا الوضع فإنه يرضى بالصداقة. هه. الصداقة هنا في جابالا؟!. يا للسخرية. ما رأيكم؟.»

«ماذا قلت له يا سعاد؟»

يسأل سامح بمودة.

«أنت تسأل يا سامح؟ أردت أن أصفعه. يظن أنه يقدر أن يشتري نساء المدينة. نظر إليَّ بعد أن رفضته ثم هزّ رجله وقال: أنا لم ترفضني امرأة أبداً. قلت له أنا أرفضك. إنه جاهل.. أحدهم قال لي: تزوجيه وانجبي طفلاً لهذه الحياة.. هكذا.. المرأة رحم. مجرد رحم.

يحضن بذرة الخلود.. لتفنى هي. أنا أكره هذه النظريات.

«أرجوك يا سعاد.. كوني عاقلة.. لا تهربي.. أنت واقعية. أليس كذلك؟!

أنا لا أهرب يا عليا.. ولكن بما أنني لا أقدر أن أؤسس فإني أبحث عن البديل.

يرفع سامح كأسه ويقول: في صحة أروع امرأتين في العالم.

ثم يتابع: الحق عليكن. الأمر يتعلق بالمرأة، لماذا ترضى أن تكون على هامش الرجل؟. لماذا ترضى أن تكون المرأة المخبوءة بالعتمة؟.

نعم.. أوافقك المرأة تتحمل جزءاً كبيراً من هذا الوزر ولكن ليس كله. لماذا تقبل المرأة برجل لديه ثلاث زوجات أحياناً؟!

ـ لماذا؟!. لأن مجتمعنا، مجتمع ذكوري. لا يقبل المرأة كفرد. إنها لا تشغل نصف المجتمع إلا عندما ترتبط برجل. المرأة الجاهلة لا تشعر بهذه المعاناة. ولكن الفصام والتشيؤ. والانكسار يصيب المرأة المثقفة فقط. أي المرأة الواعية لما يدور حولها. هذا الوعي يجبرها أن ترفض الواقع.

«وتصير غيبية»

«ربما.. هذا هروب آخر. أو حقيقة أخرى. هذا الماوراء صعبٌ البتّ به»

يقول علي آمراً: اسمعوا.. انتهينا من هذه الأحاديث. دعونا نقرأ قصيدة حسن التي قالها أمام زعيم القرية. إنها تثير الضحك.

أخذ علي ورقة من محفظته وراح يقرأ قصيدة طويلة مادحاً، متملقاً، يثني على الزعيم هنا ويتوسل هناك.

ينفخ سامح من الغيظ. يلتفت إلى عليا: «تصوري هذا الزعيم وأسرته قتلوا جدّ حسن في الحقل لأنه رفض أن يضع ابنته خادمة في

منزل هذه العائلة.»

بعد ذلك انحازت القصيدة للقرية واصفة الريف وجمال الطبيعة، الخير، النقاء. ثم تنعطف القصيدة في نهايتها حول وجوب الانضمام إلى الزعيم.. احمر وجه علي وأخذ يسعل. حشرج صوته وهو يقول: أعطاني القصيدة رجل من القرية البارحة. كانت تباع «النسخة بعشوين ليرة..» بعد ذلك جلس علي صامتاً، كئيباً. كأنه فقد نقوده في مدينة غريبة ولا يعرف أين يمضي.

لم يضحك.. أين الضحكة يا علي؟! لكنه ظل قابعاً في صمته يسمع ضجيج الصحون والملاعق والكؤوس.

«العقل لايصدّق سرعة الانقلاب من زمن إلى زمن. هذه السرعة. صنعت شرخاً في الذاكرة. وشرخاً في الجسد.. هناك هوَّة كبيرة بين طفلين على مقعد واحد. الأول والداه وأخوته يسكنان في غرفة والثاني مخصص له قصر قبل ولادته.»

«أجل يا سعاد.. هناك هوّة بين أشجار الصفصاف المتدلية تحت وطأة الأرواح الحزينة المقهورة وبين شجرة عيد الميلاد الرابضة في زاوية القصر مزدانة بشتى أنواع البهارج والفنون..»

«المطر يا أعزائي غير الوكف.. في الصين أيام الحكم الإمبراطوري كانت الأسرة الإمبراطورية تصنع بيوتاً مسقوفة بالصفيح، مشابهة تماماً لبيوت الفلاحين الصينيين، هذه البيوت كانت في أطراف القصر. الغاية منها سماع صوت المطر. كان هذا الصوت عند الفقراء يعني البرد والجوع، والوحل.. وكان عند الأسرة الإمبراطورية نوعاً من الفلوكلور الذي يجب الحفاظ عليه والذي يجب ألا ينقرض.»

«المطر غير رذاذ النافورة. قالت سعاد.»

وثلج جبل كاسيوس الذي ينشر اليباس في أصابعنا غير ثلج التزلج الذي لا يكون الإنسان محترماً إلا إذا كان من فئة المتزلجين.

«يتنهد علي.. إنه الوحل.. الوحل بدأ يدخل قلوبنا.»

سامح يرفع كأسه.. ما هذا؟! ما بكم؟ لماذا تأتون كعجائز، جئن من ممالك منقرضة؟ الحياة ما تزال جميلة. أحياناً أتمنى أن أتحول إلى طائر.. أطير فوق كل حاجز. لا تحدني سياسة ولا طائفة ولا بلاد.. وأحياناً أقول.. لا. لماذا نهرب.. الحياة تحتاج المواجهة.. إن ذلك يحتاج فقط إلى إرادة القبّرة التي رآها الفلاح في حقله. تستلقي على الأرض وترفع أرجلها في الهواء.

ناداها الفلاح.. ما بك يا قبّرة؟»

قالت: ألم تسمع؟!

ماذا؟!

قالت: السماء: ستقع.

قال لها: السماء ستقع.. وأنت لماذا تنامين هكذا؟!

قالت: أنا لا أنام من الخوف.. أنا أرفع ساقي لأسند السماء حين تقع. ابتسمت سعاد.. ضحك الكل.. هيا: إلى نزهة في ليل المدينة.. ليقولوا ما يشاؤون. امرأتان ورجلان وفضاء شاسع كالليل، يحتويهم الهواء الرطب، ويتسكعون على الثرثرة..

ـ ليقولوا ما يشاؤون.. نحن لا نؤذي أحداً..

ـ أحياناً مجرد النظر إلى الآخر يظن أنك تؤذيه.. لذلك يقول لك: «ما عَجَبَكْ ولاه»؟

كانت المدينة غافية. تلعب الريح الليلية بنوافذها. البحر يئن تحت وطأة الموج المتشظي على الصخور الأبدية. صيادون في آخر المدى البحري المظلم. يشعلون فوانيسهم الغازية.. رذاذ البحر المالح.. ورائحة اليود تعبق بالشاطئ وتغوص في أزقة المدينة.. السوق المسقوفة.

وجامع السلطان.. والحارات.. كلها هاجعة. ساكنة. قهوة الرصيف ما تزال بعض أراكيلها سهرانة في فم زبائن ينامون النهار ويسهرون الليل.. كأنهم يهربون من الكائنات النهارية.. أشعر بالتعب. أقول لهم لا يستجيبون لرغبتي.

«ولكن عندي دوام صباحي»

«اعتذري»

«المدير لا يقبل عذر أحد.. أنا مسؤولة حسابات»

«يا ستي.. هو أفضل من التدريس وبحّة الصوت، تشربين قهوة متى تشائين.»

«هيا.. نَعُدْ.. أمي تنتظرنا.. تقول سعاد وهي تمسك بيد عليا. ولكن علي يقول: أريد أن أشرب قهوة آخر الليل معكم هنا على الشط؟»

«لا يمكن يا علي.. معنا نساء.. يقول سامح»

«ليكن.. ما المشكلة؟»

«المشكلة في الآخرين.. مع ذلك هيا..»

خضعنا جميعاً لرغبة علي. ولكن ليتنا لم نخضع. لم نكن نعرف أن ذلك سيحدث.. وأن أربعة رجال سيتحرشون بنا.. سامح يحاول التجاهل.. وعلي يندفع لضربهم. قالوا كلاماً بذيئاً. وراحوا يتصايحون: «إيه.. ولاه.. أيهما لك؟»

«الطويلة؟! هي ممتعة أكثر. آ..»

«غلطان يا صديقي.. القصيرة..»

راحت الكلمات تجرح آذاننا وحياءنا.. حملنا قهوتنا وابتعدنا عن القهوة لكنهم تبعونا فانبرى علي متجهاً صوبهم. دلق القهوة في وجوههم.. التفوا حوله. صرنا نولول. فجأة تذكرنا أحذيتنا.. أحذية

النساء لها دور آخر. مع ذلك لم نتجرأ أن نرفعها في وجوههم، كـــانوا مسلحين بالسكاكين. بعض الرجال القاعدين في القهوة التفت إلينا لكنـــهم لم يحركوا ساكناً. سال الدم من أصابع علي.. وسامح نزف من أنفـــه.. لملمنا أنفسنا وغادرنا.. وعندما قدّم سامح بلاغاً ضدّهـــم.. قـــالوا «يـــا سيدي: لقد شتموا النبي. وحياتك شتموه.. ونحن لا نقبل..» قال المحقق: «وأنتم من نصّبكم حرّاساً ومدافعين عن النبـــــي؟! ســـيعاقبهم الله يـــوم الحساب.»

ـ ولكن يا سيدي لم يكتفوا بذلك.. الله الكريـــم مســـامح.. ولكـــن سمعناهم يقولون الزعيم أَصم.. زعيمنا أصم يا أســـتاذ.. ولا يســـمع إذا ناديناه؟!

ينظر المحقق إلى علي.. معقول يا أستاذ. يا حضرة الشاعر.. أنت تقول هكذا كلام؟..

ظلّوا يتكلمون «معقول».. «مو معقول» وظلّ علي صامتاً.. ولكن لا يعرف علي كيف دخل حسن.. الشاعر.. ظهر أمامه فجأة.. قال وهو يبتسم. ما به شاعرنا الكبير يا حضرة المحقق؟.

قال المحقق: تصور يا أستاذ.. شاعرنا يشتم زعيم المدينة!.

نظر حسن إلى علي الذي يعرف أنه يحتقره.. ثم ابتسم وقال:

يا حضرة المحقق.. علي صديقي. وأرجو أن تسامحه.. ثم وشوش في أذن المحقق بحيث تقصّد أن يسمعه علي: «إنه مخبول».

فتح المحقق عينيه مذهولاً: «ولكنه شاعر كبير!.» مع ذلك هو كما ذكرت لك، نصف الشعراء مجانين.. يضحك المحقق ويقـــول لحســـن: وأنت من أَي نصف؟!

التفت المحقق إلى علي وقال: سنسامح شاعرنا هذه المرة كرمـــى لصديقي الشاعر الكبير حسن. نهض المحقق.. مدّ يده لعلي وســـامح..

ظلّ واقفاً ماداً يده.. لم يستجب علي ليد المحقق.. خرج وتبعه سامح.. يقول حسن: أما قلت لك يا سيادة المحقق؟!

عند الباب التفت علي إلى حسن وقال له: «ضيعان حليب أمك». ثم خرج.. ليلتان لم أنم فيهما.. حاولت ولم أستطع.. لذلك ظهر عليّ الإجهاد والتوتر في العمل.. لم أقل صباح الخير.. بحثت عن كرسي أجلس عليه فلم أجد.. كان الزملاء حاضرين كلهم.. لم يكن هناك شاغر.. وقفت أتأمل الباب، نهض خليل وقدم لي كرسيه. شكرته ورفضت. ابتسمت إحدى الموظفات وغمزت بعينها.. كان خليل طويل القامة.. أبيض البشرة.. يميل إلى الصمت والهدوء.. لا يأخذ قهوته من البواب. بل يصنع قهوته بنفسه. شعرت بأني أعرفه منذ زمن. وشعرت أني قادرة على الحوار معه أكثر من الزميل الآخر الذي يقابله ويدعى كنعان.. مع ذلك لم يحاول خليل أن يدير أيّ حوار.. ولا أن يلقي أي سؤال.. قال: سأستعير كرسياً من المكتب المجاور.

أخذت الكرسي وجلست عليه.. مكثت طيلة الدوام. لم يُقدَّم لي ورقة.. ولا قلم.. وظللت على هذه الحالة عدة شهور.. بلا كرسي. بلا طاولة. لدرجة أني صرت أسمعهم يقولون: لا تهتم لشيء ولا تسعى لأخذ مكانها المناسب.

«هل أنا لا أهتم لشيء؟»

من قال ذلك؟.

«هم يقولون.»

ولكن ما تعريف «لا أهتم لشيء» يعني مصدوم؟! انهيار؟! ربما.. الإنسان الذي لا يبدع ينهار لأنه لا شيء. على الإنسان أن يقدم شيئاً لهذه الكرة الأرضية الملوثة.. أن يزرع شجرة.. أن يبعد كيس نايلون.. أن ينجب طفلاً. قصيدة.. الأم تبدع في حب أطفالها.. فهي شيء.. العامل يبدع في تنظيف آلة ما.. فهو يبدع.. أنا لا شيء. لا أنتج أَي

شيء.. أذهب صباحاً إلى العمل. أجلس على كرسي خليل. أحياناً يجلس على «الطربيزة..» أشرب قهوة ثم أصمت إلى آخر الدوام.. أعود إلى المنزل. أم عارف تحضّر الغداء وأنا أرنو إلى البحر من النافذة المرتفعة. أعود صباحاً فأكرر العمل نفسه. والبؤس نفسه. والحزن نفسه. أكرر السؤال نفسه.. لا شيء جديد لأعطي جديداً ربما لهذا السبب يكرر علي نفسه في بعض قصائده!..

فكرت أن أغيب أحياناً كي أساعد أم عارف في تنظيف المنزل. أو كي أذهب إلى أمي العجوز. أو أن أبقى لمطالعة بعض الكتب، ولكن المدير استدعاني. قال: العمل. عمل يا آنسه. ألا تعرفين ذلك؟!

ــ أجل يا أستاذ ولكن أنا من شهور لم يطلب مني القيام بأي عمل. الوظيفة ليست مكاتب وكراسي فقط.. الوظيفة إنتاج. عطاء. ثم أخذٌ. أنا لا أعطي شيئاً.. إني أستمع إلى وقع الأحذية في «الكوريدور» من الصباح حتى الثانية بعد الظهر.. أشعل ضوء المكتب.. أتي بسيارة الإدارة. أكلف الدولّة بعض الماء الذي أصرفه هذا الوقت المهدور يقتلني.. لم أتكلم عن اللاشيء» دائماً أنا في صراع مع الزمن. الإنسان يصارع الزمن بالعمل.. الكاتب يبدع عدة كتب.. يوقف الزمن والعامل.. و.. وأنا كيف أوقف الزمن؟

«جيد.. الحقيقة لم أكن أعرف مستوى تفكيرك يا آنسة.. أنا مسرور بهذه الأفكار.. ولكن اسمعي ــ الدوام. دوام.. أتقدرين أن تقولي للوزير لا أداوم لأني لا أعمل شيئاً؟!.

«أنا أقول.. ولكن هل تقول أنت بأنك لا تنجز شيئاً في الإدارة.. وأن هذه الإدارة لم تنتج تقدماً بسبب كثرة العمال..؟! هذه بطالة مقنعة يا أستاذ. ثم أنت تعرفها.

«ولكن ماذا وراءك.؟ هنا تتسلين. أعرف أنك عازبة»

«.. تسلية؟! المشكلة هنا تكمن.. أعتقد أنه من الأفضل زراعة وردة على هذه التسلية.. لنكن أكثر صراحة مع أنفسنا. زميلتنا «أم

إيهاب» لو أنها تذهب إلى أطفالها أليس هذا أفضل من تململها على الكرسي ساعات طويلة دون أن تعمل شيئاً؟!

«والله يا آنسة هذه هي القوانين.. أنا لا أستطيع تغييرها.. هاتي استثناء بعدم الدوام.. وأنا سأنفذ رغباتك»

أخرج.. كأني لم أقل شيئاً.. لماذا نضطر للكلام ونحن نعرف أنَّ كلمتنا لن تغير شيئاً؟!

القوانين هي القوانين يا آنسة؟ هذه القوانين الخانقة.. القاتلة متى تنزع عنها القدسية ونراها بعين العصر الجديد؟ متى نراها بعيون الحقيقة قل يا علي.. قل..

«لي.. أنا تقولين ذلك؟! لمن أقول إذن.. لمن؟ غيرك من يسمعني والمشكلة كل واحد يقول أنا الصح.. كل واحد منا»

هو الذي على صواب وغيره مخطئ.. أين تكمن جمرة الحقيقة. أين؟!

يقول المدير: هاتي استثناء.

استثناء مرة واحدة؟! كم يكلف الاستثناء يا علي؟ أفكر بالانتقال إلى القرية.. هناك أمي. سأحاول أن أستعيد الأستاذة في داخلي.

وأستعيد التلميذة التي لا وقت لديها تضيعه بغير حفظ الدروس..

«وهاأنت تعودين إلى فكرتي.. الريف يجب العودة إليه. إنه الرحم الأولى. يجب العودة إلى الأرض نطمر فيها همومنا فتنبت ورودا وأشجاراً وبرتقالاً. وهكذا ننتهي من الإيجارات المكلفة. ومن تحكم الآخر.. عند ذلك نكون نداً لأعظم الرجال.. لأننا لن نمد أيدينا لأحد. ولا نضطر لمجاملة أحد على حساب قناعاتنا.»

«ألهذا ينظرون إلى الفلاح على أنه جلف؟!»

«ربما.. ولكن لا تنسي النظرة المادية»

أتذكر صاحب منزلي. كل فترة عليه أن يتفقد النوافذ والأبواب. ويرى دهان الجدران.. ويلقي نظرة على البلاط.

ضحك علي.. وقال: أنا كذلك.. أخذ يدي بين يديه ونحن نمشي.

«كل ما يسعدني يسعدك، ربما قريباً يكون لنا قرارنا الآخر.. أنا بحاجة إليك. بحاجة لأن تكون قربي. إني أجهز ديوانا جديداً. سأهديه لك.. ماذا أسمّيه.»

«لا أعرف..»

«أسميه النعنع البري؟! إنه يذكرني بك. بأشياء كثيرة. ولكن.. لا.. لن أسميه هكذا.. سيعيدني إلى لحظات حرجة محزنة حيث حملت لك النعنع البري لا.. لا أريد أن أستعيد تلك الفترة. أريد أن أظل في الحاضر.. الآن.

هاأنا بدأت أنسى.. وبدأت أرمم الجلد المحروق في جسد حروفي. هاأنا بدأت أكتب يا حبيبتي.. مجلات كثيرة أرسلت إليّ كي أكتب فيها.

ولكن المشكلة تكمن في خلفية هذه المجلات.

«ماذا بها؟»

أخاف أن تكون مشبوهة التمويل.. المال لم يعد يعني شيئاً.. لقد ضاع العمر في النضال انهدر كل شيء كرمى لحفنة دولارات أو ريالات أو دنانير؟» بعض المجلات تشترط نوعية الكتابة. الموضوع. الأسلوب. تصوري.

ـ يعني الترويج المبطّن لفكرة ما. لهدف ما..

ـ نعم.. لكني سأروّج للمرأة.. لاحترام المرأة. أتعرفين لماذا؟! ـ تهز عليا رأسها بنعم.. يضحك علي: لأني أحبك.

«حقاً أنا حبيبتك؟!» أجل.. حبيبتي وروحي. بل أنت كل شيء في هذه الحياة.» تريحني كلمات علي.. إنه يعوضني أشياء كثيرة لم أحققها.. لم أعد أحزن كثيراً على تلك الأستاذة الجامعية التي تبدد جنوءاً من عمرها في مطارات الغربة. ولا على الكرسي المربوط برجل طاولة حديدية صدئة. هكذا قلت له وهو يعانقني بشغف.

لا أدري إذا كانت هذه الكلمات تخرج من دائرة الوعي.. لكنني وأنا أسير في المدينة رأيت سوبر ماركت كبيراً جداً. يحتوي كل ما تشتهيه النفس سيارات. ثياب. أدوات كهربائية. أطعمة. مفروشات.

كان المحل مضاء بمصابيح ملونة. وقد كتب بالألوان الفوسفورية محلات الرفعة التجارية.. لا أعرف لماذا تخيلت هذا «السوبر ماركت» لرافع الذي حدثني عنه علي.. شعرت أني أغرق في شبر ماء.. قلت لنفسي.. ما بك يا عليا. ألم نتفق على الصمت؟! لماذا وجع الدماغ؟! ربما كان هذا لشخص آخر. لكني أريد أن أؤكد أن هذه المحلات هي لرافع نفسه.. رافع الذي تحول من مقاتل من مناضل إلى تاجر.. لم أخبر علي بالأمر.

بل انهمكت لمدة أسبوع بنقل كتبي وبعض المفروشات الخاصة بي إلى القرية.. استقبلتني أمي العجوز بفرح.. شعرت أني عدت إليها.. ولكن كانت تخفي غصة ماذا تقول للجيران..؟! كانت تفاخر وتقول: أرسلت الجامعة ابنتي إلى باريز.. ابنتي أستاذة في الجامعة..

«ماذا يعني أستاذة الجامعة»

«يعني تعلمّ الكبار يا أم كامل.. الكبار مثل ابنك..» كان ابن أم كامل فوق الثلاثين من عمره.

أجل.. عدت يا أمي. ولكن لم تعد تلك الفتاة التي تشدّ أصابع أمها المتعبة. وتطبخ لها الشوربا التي تحب. ولم تعد عليا التي كانت تنزل إلى الأرض تعزق نباتات البندورة. لم أستطع التواصل مع القرية.

الجيران الذين يتجمعون أمام بيوتهم.. يتحدثون بالأسعار والخضار والحيوانات. ويتطرقون إلى المدارس والجامعات.. لقد اختلفوا كثيراً، هؤلاء الجيران أحبهم ولكن أميل إلى العزلة. أمي تحدثني كثيراً عن الماضي. تقصّ عليّ سيرة أخوالي وأبي وأنا لا أرد. وتحدثني عن أمها التي جاءت تودعها قبل أن تموت.

نامت جدتي في بيتنا تلك الليلة.. في الصباح قالت لها: سأرحل يا ابنتي. ودعت أخوتي. ونظرت إلى منزلنا. سألتها عن مؤونة الزيت والبرغل.. عن حاجاتها.. أمي استغربت أسئلة جدتي. سارت بهدوء بمحاذاة الماء.. وقفت أمي ترنو إليها وهي تمشي ببطء.. جدتي تلتفت إلى الوراء كل عدة خطوات.. وأمي تقف مودعة.. تبتعد جدتي فتعود أمي أدراجها ولكن قبل أن تصل إلى المنزل تلتفت أمي فإذا بجدتي تناديها: تعالي يا ابنتي.

أسرعت أمي خائفة. وعندما وصلت طوقتها جدتي بذراعيها والدموع على خديها.. «ما بك يا أمي؟!» ردت جدتي بصوتها الحنون، الهادئ يا بنتي أنا لن أراك بعد الآن.

«ماذا تقولين يا أمي؟!»

لم تكن جدتي كبيرة في السن.. كانت امرأة شقراء الشعر طويلة القامة.. بيضاء كالثلج. حزنت أمي. لا تقولي هذا الكلام.. الأعمار بيد الله.. هل أنت مريضة؟!

لا أبداً.. لم تكن جدتي مريضة. ولكن في اليوم الثاني جاء خالي ظهراً وهو يبكي.. قال لأمي: جهزي نفسك للذهاب يا أختي لقد ماتت أمنا.. أمي تقول لم أكن قد ولدت بعد.. فأنا لم أتذوق حنان الجدة ولم أشمّ رائحة عطرها الخفي. مع ذلك بكيت يوم حدثتني أمي. الإنصات لأمي كان تجاوباً مريحاً معها..

إنها تبحث عن آخر ينصت لها.. إذا لم أستمع إليها فإنها تتحدث

مع نفسها. أحياناً تقول لماذا لا تحدثيني يا عليا؟.

عن أي شيء أحدث يا أمي؟! مدنٌ كثيرة بيننا ـ زعماء كثر.. محطات. جامعات. وبطاقات مترو.. نلتقي معاً في الجذر.. في الانحدار من الجدة الأولى. من الفجيعة الأولى.. منذ أن رحل ذلك الفارس المقتول بفرس واتجه في جهات غائبة.. بعضهم يقول طار.. وبعضهم. انشقت الأرض وابتلعته. والآخر يقول: صعد إلى السماء.. تفرقت نساؤه.. قتل أحفاده.. وانزرعوا في الأمصار.. تطاردهم الذئاب والأفاعي والغربة.

ماذا أحدثك يا أمي..؟! أتعرفين باريس.. «أتعرفين..؟! آه.. تجمعنا سرنديب الأولى يوم سقطت أمنا الكبرى على الأرض وراحت تبحث عن أبي.. تخطو الخطوة الواحدة فتجتاز بلاداً.. وتستمر الرحلة.. ومن زمن إلى زمن.. إلى أن تصل إلى بيتنا الترابي المحدد بساموك. ونافذة وبابين ومطبخ بلا نوافذ.

صوت الدجاج المبكر في القرية يزعجني. وصياح الديكة في الليل يقلقني. لا أعرف لماذا لا تنام القرية حتى تشرق الشمس.. الجميع يستيقظ قبل أن يظهر الخيط الأبيض من الخيط الأسود. ثم يأخذون بمناداة بعضهم لتناول المتة.. أو الزوفا. أو القهوة.. فمن لم يستيقظ وحده. لابد أن توقظه جلبتهم.. إنهم لا يتوقعون أن يسهر المرء بعد صلاة العشاء.

لماذا أتحدث عن القرية؟! كأنها ليست مكاني الأول. والأمكنة الأولى لها رسوخها في الذاكرة.. هذه الأمكنة قد لا نعيش فيها إلا سنوات الطفولة القليلة. خمس سنوات. عشر سنوات.. لكن يظل الحنين إليها حتى سن الشيخوخة. رأيت كاتباً عربياً يعيش في باريس منذ خمسين عاماً ولكن لم يكتب صفحة عن باريس، بل كتبه الكثيرة كلها ما زال يغرفها من قريته، وبلدته. من أصدقائه الأوائل.

هذه عادات القرية يا عليا.. تقول أمي بعتب.

هي تعرف بأني أفهم هذه العادات.. وأفهم أن يأتي الريفي إلى عند جاره دون موعد.

يسهر معه. أو يتعشى معه.. شيء عادي.. أنا لم أعد قادرة أن أوفق بين هذه العادات وبين الحياة العصرية الجديدة. «عليّ أن أسهر وحدي لأقرأ»..

«تغيرت كثيراً يا عليا..»

أجل تغيرت من عليا تلك.. إلى عليا هذه.. بين تلك وهذه لم تتغير الظروف المعيشية كثيراً.. ولا تغيرت الظروف الحياتية.. التفكير يسبق هذه الظروف.. أنا لم أقدر أن أغير شيئاً في بيتنا.. الواقع هزم الجامعة. هزم النظرية. أن تكون في الريف يجب أن ترتدي جزمة بلاستيكية وأن يكون كعباك مشققين من التراب.. وأن تكون ملفوحاً بالشمس هل أعود إلى المدينة؟!

لن أعود يا أمي. هي الأخرى تسجنني في قفص الغربة.. في الآونة الأخيرة لم تفارقني الكوابيس.

كنت أرى نفسي مجزأة الجسد «رأسي مفصول عن جسدي وعندما كنت أستيقظ كنت أخاف.. في الآونة الأخيرة قلت لأم عارف تعالي نامي في غرفتي.. أردت أن تفزع الكوابيس من أم عارف. ولكنها هي الكابوس.. إذ تبدأ أسطوانة الشخير عندها من أول الليل إلى الصباح.

«يا أم عارف نامي على الجنب الآخر، يا أم عارف.. ارفعي رأسك..» أهلكتني أم عارف.

هنا في القرية. لم أستطع إقامة صداقة مع النساء. هن يشاهدن المسلسل مساء وينمن باكراً كالدجاجات.. يبكين مع المسلسل.. ويغضبن مع البطل. وقد يستغربن أن يحصل ذلك.. أشعر بالملل أحياناً. أصدقائي

بعيدون. لم يعودوا في متناول اليد.

لا أعرف أخبار سامح بعد أن تزوج فتاته. شهور مرّت ولم نلتـق. يبدو أن الإنسان العازب له عالمه المختلف.. سامح صار اثنين.. وعلـيّ أن أرتاح لهذين الشـــخصين معاً. ولكن لا أقدر. فزوجة سامح مجـــرد امرأة ولكن لا أقدر أن أجرح ســـامح.. يجـــب الاهتمـــام بـــهما معـــاً. والترحيب بهما معاً. سأحاول الاتصال غداً.

يجب أن أزورهما.. سأخبر سعاد وعلي بذلك في الصباح عندمـــا أصل إلى الدائرة التي أعمل بها.

حين دخلت صباحاً وجدت خليل بانتظـــاري. كـــان وحيـــداً فـــي المكتب.

قلت له «صباح الخير يا أستاذ خليل، آه.. الموظفون غائبون لذلك سأختار طاولة مريحة.

«لن يأتوا اليوم. إنهم في زيارة المدير العام. قلت وما هي المناسبة لهذه الزيارة الجماعية ولتعطيل العمل الهائل الذي يقومون به.. ابتســـم خليل وقال: زوجته كانت حاملاً.. فذهبوا لشراء الهدايا.

لم أعلّق.. يا سلام يا عليا.. هاأنت هادئة. تشربين ألف كأس ماء.. ألا تستطيعين شرب كلمة؟!

الماء غير الزور يا ست؟! ضحكت عليّ.. خليل يصنـــع القـــهوة كعادته.

قدم لي فنجان قهوة. شكرته وقلت: كل يوم تعذب نفسك يا أستاذ.

«أبداً. أنا سعيد بهذا العذاب. تلعثم. ثم راح يشرب قهوته بصمت.

بعد قليل قام وأغلق الباب. وعند عودته قال هل أستطيع أن أسألك شيئاً يا آنسة؟»

«طبعاً»

«لماذا لم تتزوجي حتى الآن؟»

«أنت ترى أني كبيرة جداً؟!

«لا. أبداً. ولكن الفتاة في مجتمعنا تتزوج وهي مراهقة»

«هذا كان أيام زمان. الآن لا يمكن التوفيق بين هذه العادات وبين دراسة الفتاة وحصولها على الشهادات العالية.»

«لكن المرأة الجميلة مهما كانت متفوقة تتزوج مبكراً وتكمل أحياناً دراستها. وأنت جميلة ورائعة. أنا أعرف أنك كنت أستاذة في الجامعة. متأسف على هذا التدخل.. بصراحة أنا.. هل تسمحين أن أقول بأني معجب بك؟»

«شكراً لك»

«أريد زيارتك.. هل أستطيع؟»

«لا.. إني آسفة!!»

صمت خليل.. تكور في كرسيه إلى أن انتهى الدوام. حاولت إيجاد كلمة أقولها له فلم أستطع. حاولت مجاملته أيضاً لم أستطع.. حزنت لأجله. إني أدرك تماماً ما يدور في خاطره. ولكن ما الفائدة؟!

قبل نهاية الدوام اتصلت بعلي. لم أجده. اتصلت بسعاد فردت عليّ بلهفة. «تعالي فوراً يا عليا.. أين أنت؟»

انقبض قلبي للهفة سعاد.. لابد أن عندها كلام كثير ستقوله لي.. كلام خاص بي. أعرفها عندما تريد أن تقول شيئاً تتلهف هكذا.

«افتحي يا سنسن.. أنا عليا»

أخذتني فوراً إلى المطبخ.. لست جائعة. بل جائعة يا عليا.. أمي جهزت كبّة مشوية تعالي نأكل ونثرثر. تحدثنا عن الأصدقاء. الوظيفة. وبعض الأخبار التي تشيع في المدينة. مجازر في غزة.. زلازل..

حرامية.. وعندما جلسنا نتناول الشاي على الشرفة لاحظت أن وجه سعاد قد غام وهربت منه إشراقته. تدحرجت دمعة من زاوية عينيها. قالت بصوت منخفض: عليا سأغادر قريباً.

صرخت: ماذا؟! ماذا تقولين؟ لقد صعقتني بكلماتها.

«كما أقول لك.. أخذت تأشيرة الخروج.»

«سعاد.. ماذا تقولين؟! لا أصدق. أين حماسك؟ سعاد الواقعية أين ذهبت؟!»

«لا أعرف. لأعترف بأني هزمت. على الأقل هذه الفترة. شيء فظيع أن تضيق المدينة. تضيق لدرجة أنك لا تملك فيها مكان كرسيٍ تجلس عليه إلا إذا دفعت.. وماذا تدفع أكثر من عمرك؟ ضاقت بي المدينة وأنا ضقت بها.. تعرفين أن الدكتوراه التي أحملها هي في الرياضيات والجامعة ليست مسؤولة عني لأني لم أوفد على ملاكها.»

فماذا أفعل بالرياضيات هنا..؟! أعيش على هامش الساعات؟!

أجهشت سعاد بالبكاء. لأول مرة منذ الطفولة أرى سعاد تبكي. هزّني بكاؤها. وزاد من شعوري بالوحدة. كانت أمها صامتة. حائرة أمام دموع ابنتها.

هذه هي المدينة الفاضلة التي بحثنا عنها يا عليا؟! لم أرد. لا أقدر أن أقول شيئاً. سامح انفصل عن الشلة بزواجه.. وأنا عدت إلى القرية. علي ترك الجريدة. وسعاد تسافر؟! كل الأغصان المورقة في قلبي تتكسر. حين عدت إلى القرية رأيت أمي نائمة في الفراش. عاتبتني لأني تأخرت. لم أقدر يا أمي كنت عند سعاد.

أشعر أن أمي متعبة جداً. عيناها غائرتان.. يداها ترتجفان. ووجها الجميل شاحب «سآخذك إلى الطبيب يا أمي» لكنها رفضت «لم يعد لي طبيب إلا الله» بكيت.

ماذا أفعل؟ لا أعرف. اجتمع أخوتي حولها. نادتنا بأسمائنا وراحت ترنو إلينا. لم أقو على نظرات الوداع في عينيها. قالت: أريد أن أجلس على المصطبة.. كانت الشمس محمرة. وكان الخريف يحبو باتجاه شجرة التوت الكبيرة. شعرت أن أمي تنساب كضوء من بين الجموع. صرخت: أمي.. ناديتها.. اجتمع أخوتي حولها.. فتحت عينيها ولم تغمضهما. حاولت رفع يدها فلم تقدر. حملنا يديها «أمي.. لم ترد.. أبعدني أخي الكبير. أغمضوا عينيها على وجوهنا. ضاق صدري وارتعشت أصابعي. شفتاي ترتعشان.. دوار.. لم أعد أرى.. فجأة أمي تنام تحت التراب. يهطل المطر عليها.. يهطل البرد.. تجري مياه العالم السفلي.. تزلزل الأرض. تقوم الحروب وأمي راقدة تحت التراب. مرت أيام لم أستطع أن أتكلم. كنت أواجه الصمت الذي حولي بالصمت.

«أجل.. ماتت أمي.»

في الصباح. أحمل الماء لأسقي الورود التي اخضرت فوق القبر. أجلس قربها. أشعر بتفاهة الحياة.

لا تستحق الحياة كل هذا الشجار العنيف. لا تستحق كل هذا الركض المجنون. أقبض على حبيبات التراب.. أعجنها بأصابعي وأرميها. أسمع صوت أمي حزيناً لأنها ماتت قبل أن تراني في بيتي كما تقول.

المرأة لا بيت لها إلا بيت زوجها.

وبيتنا الذي نشأت به.. وزرعت عمري على ترابه.. هذا ليس بيتك. أحس بروحها تدخل المنزل. تحرك الستارة. تزيح الكرسي. تغطيني وترحل. أنا لا أستطيع أن أنام. أراها كل يوم تأتي. نملأ جرّة الماء. أناديها.. لا ترد.. يضيق المنزل بي مع أن الجيران كل يوم يأتون لمواساتي. السؤال الذي بدأ يحيرني. أين علي؟!

لم يأتِ لزيارتي. سعاد رحلت. وسامح طلّق زوجته. هكذا أخبرني

عندما جاء يعزّيني. وحده خليل يزورني كل فترة.

خليل قال لي يجب أن تذهبي إلى العمل.. اشغلي نفسك بالدوام يا أستاذة.. بماذا أشغل نفسي؟! في الدوام نتأمل وجوهنا.. ونحكي مذاكراتنا اليومية. ماذا نطبخ. ماذا نشرب. متى نمنا البارحة؟

في داخلي سرب حمام مقتول.. بركان كان ثائراً وخمد.. خمدت الحياة حولي. الزمن ينوس أمامي.. ضوء خافت يتسرب خائفاً.. أين الضوء المبهر؟! الزمن خذلني يا أستاذ خليل. يقدم خليل الورد إليّ ويمضي. زعلانة من علي.. معقول ألاّ يسأل عني؟!

هل رأيت عليّ يا سامح.. لم أره. أين هو؟! بدأت أشعر بالقلق. خليل أصرّ أن أذهب إلى دوامي «المدير يسأل عنك» أجل.. يجب أن أملأ فراغات دفتر الدوام بتوقيعي. هذا وحده إنجاز عظيم. التوقيع الذي يؤكد بأني ما زلت على قيد الحياة.

بعد شهور فقط من وفاة أمي، قال أخوتي.. وقّعي هنا.. لماذا أوقّع.. وقّعي يا عليا.. يجب أن تتركي المنزل. إنه مسجل باسم أخيك الصغير. صمتّ. أبقى معه.. لم أستطع التعايش معه ومع زوجته. زوجة أخي.. من حقها أن تعيش في منزلها هي وزوجها.

فقط.. فقط لا غير.. أين أذهب أنا؟! كيف أترك ذاكرتي وأمضي. لم أعترض على رغبة زوجة أخي. حقها طبعاً. لم يعترض أخوتي على مغادرة المنزل. كان لا بد أن أترك هذا المنزل فأنا أنثى. ويكفي أني ورثت الاسم عن أسرتي. لقد أعطوني اسماً. أجل.

ويكون الاسم لعنة.

رأيت خالد في نومي يسألني: أتأتين معي..؟ أين؟! هذه الأمنية كيف تتحقق. قبل أن أغادر القرية سقيت حبق قبر أمي. مشيت بهدوء على الطريق الصاعد من المقبرة إلى المنزل. الطريق مرصوف

بالحجارة النهرية البيضاء. أشجار الزنزرخت على جـانبي الطريـق. زوجة أخي بدأت تغير معالم المنزل.. هذا الساموك ليس له لزوم:أخـي لم يعترض.. الساموك يحمل صورة أبي. أزاحتها.. نفضـت الغبـار. علّقت مكان الصورة أصيص ورد يتدلى. الساموك هكذا أجمل يا عليـا. أليس كذاك؟!

لا أعرف.. سمعت أمي تشهق عندما سقطت صورة أبي من يـد زوجة أخي. تحطم زجاجها.. غطيت وجهي.. لا أريد لأحـد أن يـرى دموعي.. نظرت زوجة أخي من بعيد.. قالت: ما رأيك يا زوجي الغالي أن نزيح هذا الساموك؟!

يصير المنزل أكثر اتساعاً. ــ ولكن هذا الساموك يحمل المـنزل الكبير..» ندعمه بأعمدة عند الزوايا.. أسمع صوت سيارة سـامي ــ لقد جاء. هذا الرجل دائماً أراه فـي الملمـات.. يحملنـي بسـيارته ويمضي.. شعرت أني منبوذة مثل كلب جربان.. لا مكان لي.. سـامي قال بأنه استأجر لي شقة صغيرة.. شكراً يا سامي. لكن رائحة حبق أمي ما تزال تشدني إلى صدر التراب المرشوش بالماء. أنا الأنثى التي ترث اسم الأهل فقط لا غير.. ثم تتخلى عن اسمها نهائياً مـن أبٍ إلـى أبٍ آخر.

أنا الأنثى التي لم تكن أبداً كما تمنت. ولا كما يريدون. حين أتذكر علياً أشعر بالأسى والأسف كيف لا أجده عند منعطف حزني الكبير. إنه خسارة من خسارات الزمن. بكيت. كأني أودع راحلاً آخـر. لا أدري لماذا تنتابني الوساوس والشكوك. علي تخلّى عنـي.. لا أبـداً وحبّـه الجارف.. كل شيء ينتهي بسرعة. لم لا؟! الإنسان الجبار: القـوي ــ الطاغي ــ الرحيم.. ينتهي بلمح البصر. ما الفرق؟!رحلت أمي.. يبست وصايا.. ودب الخلاف بين أخوتي.. أمي كانت المنزل الذي يضمنا.

«لم يعد لنا أخوة يا سامح.. يكون لنا أخوة فقط عندما نكون صغاراً نمرح تحت معطف الأبوين. يبدو أن كل المفاهيم تبدلت مع تبدل العلاقات الاقتصادية. والعلاقات العقائدية.. حتى الروابط الدموية والعشائرية تبدلت. ألا ترى ذلك يا دكتور؟ ولكن من الذي أخطأ. نحن؟! أم أننا ننساق في أخطاء الآخرين. لم يعد لنا هنا قوام خاص بنا إننا كالماء في الأواني المستطرقة. الغربي لا يتخلى عن شوكته وسكينه في بلادنا..

نحن نتخلى له عن كل شيء. نجاريه ونقلده وهو على موائدنا. لماذا؟! الغربي الذي كان متوحشاً نخجل أمامه من قوامنا الأصلي القديم. لماذا؟!

«ولكن هناك فئة تخالفك الرأي.. فئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.. الفئة التي نالت الثروة التي بشر بها الرسول أمته.. ثروة ليست من الذهب والفضة» إنه الذهب الأسود. أليس كذلك؟!

«هذه الفئة تعيش الواقع الغربي بكل معطياته.. لباس. حكام. أدوات منزلية. ولكن تفكر بعقلية الجاهلين المتخلفين. أي هناك فصام.. انشطار..»

«كلنا نعيش هذا الانشطار.. وهذا سبب زواجي من امرأة أميّة.»

«... لا أريد أن أعلق على هذا الموضوع كي لا ينساق سامح بالتبرير لما فعل.»

«أهلنا خذلونا.. يقول سامحِ.» يصمت حزيناً ثم يتابع.. لم يقولوا لنا إن الزمن يخذل المتفوق أيضاً.. الزمن لا يخذل المال.. ولكنه يخذل العلم.. دفعونا إلى الأمام.. العلم.. التفوق.. الجامعة.. ماذا بعد ذلك وأنت أستاذة في الجامعة.. ماذا يريدون أكثر؟ومع ذلك علينا أن نتحول إلى فلاحين مثقفين، نزرع.. ونفلح حتى تكفينا رواتبنا.. لو كنا نعلم.. كنا تحولنا فوراً إلى فلاحين.. وكنا ما أضعنا العمر في مطارات العالم»

أشعر يا سامح بالشوق إلى علي.

«حقاً؟!»

أجل. أنا بحاجة إليه. ليس ليكون أسرتي. صدقني. ولا لكي يكون بديل الماضي الذي فقدته. بل ليكون هو الأمام الذي أسير إليه وأصنعه كما أرغب «أين هذا الأمام» لا أعرف. لكن يجب البحث عنه. يجب إيجاده أتظن بأن صديقتنا سعاد أخطأت بالرحيل؟!

قد يكون جزّ الجذور أحياناً أكثر شفاء للجذور المريضة.. رأيت والدي مرة يعالج شجرة مريضة. رش لها الأدوية. ووضع لها الأسمدة ولكن دون جدوى.. قلّمها.. أيضاً ظلت الشجرة تعاني الاصفرار. عند ذلك سمعت والدي يقول. لا بدّ من القطع.. سأقطع الشجرة وأطعّم جذعها بنوعٍ آخر أو سلالة أخرى.. ولكن الجذور كانت متعفنة، وكان النسغ ضعيفاً.. إذن لا بد من القلع التام.. المرض في الجذور يا دكتور.. زميلي خليل يقدم لي وردة كل يوم. ثم يصمت.. أنا لا أرفض وردته.. آخذ الوردة إلى المنزل الذي استأجرته لكني لا أجد الوردة في الصباح.

البارحة مررت بالشارع المطلّ على البحر.. رأيت «سوبر ماركت» باسم «الرافع» هاأنا أرى للمرة الثانية هذا الاسم. أيكون هذا لأبطال الحروب؟!

«لماذا تقولين ذلك؟!»

«لأن علي أخبرني قصة مناضل يدعى رافع، لذلك أتخيل كل واحد بهذا الاسم هو مناضل حرب.. مناضل = تاجر في الوقت الحاضر.»

«كل شيء ممكن.. لكن ما يزال هناك مناضلون.. وما يزال لدينا أشياء يجب أن نناضل لأجلها..»

«بالتأكيد.. مثل منع المناضلين أن يتحولوا إلى تجار»

«انظر المدينة.. طوابقها الأرضية تحولت كلها إلى سوبر ماركت.. إلى كراجات. إلى بيع المرطبات.. مع ذلك لم أفقد الأمل بعد»

«هذه يا سامح مرحلة انتقالية بين النضال والتجارة. الكل يريد أن يتحول إلى تاجر. من يزرع الأرض؟! من يعمل في مراكز البحث العلمي..؟! لا بديل للعلم.. إنها مرحلة انقلاب الموازين المخيف»

عندما بدأت الرياح الخريفية تعبث بالستائر، عرفت أن الأوراق التي كانت في الربيع خضراء ستسقط الآن على الأرض.. وستلفعني تلك النسمة الباردة التي تشعل في أعماقي أحطاب الذكريات والكآبة اللذيذة.

هذا المطر الخريفي ينشر رائحة التراب المبلول بالماء والتعب.. إنها رائحة بداية مجهولة.. ونهاية صيف وذكريات كثيرة.. هذا الخريف الذي يضعنا على حافة بداية ونهاية.. آه.. انظر الآن من نافذة تشرين إلى الغرب وإلى الشرق.. أجد أني على جبل عالٍ تحيط به الوديان السحيقة. كل حركة محسوبة عليّ.. كل خطوة يجب أن أدرسها وإلا سقطت في القاع.. المهم أن أحافظ على بقائي في هذه القمة لا تزلزلني الرياح ولا الصبر الطويل.. لا بدّ أن أسمو مرة أخرى.

من زمن إلى زمن. أنا أتبخر. وأصعد مع هذه السموات إلى الأعلى.. أتعلق في خيوط غيمة.. أهبط.. أسقط مطراً ثم أنبت في زهرة، في شجرة، في ثمرة.. تأكلني امرأة صالحة. أصير جنيناً.. أعود إلى سيرتي الأولى.. أبدأ ولا أنتهي. أنتهي ولا أصل إلى أمي الأولى.. يا.. سرنديب البداية.. بعل البداية..؟ جرة الماء. وجرة العسل.. جرة الزيت وحبوب الحنطة.. الجب.. الرحم. الظلام.. الموت = حرية.. حرية = الموت.. وأنا أساوي ألف طيف وطيف يحزمني. كل زمن ويخلق بي اسماً جديداً..أكون شاهدة على زخارف العصور.. وعلى

زيف الملوك.. أكون شاهدة على التراب الذي يملأ الفـــم.. ولا شـــيء غيره.

من الذي يدقّ بابي في هذا الليل الخريفي؟ المطر يهطل.. المطـــر يذيب الأرواح الصاعدة إلى السماء. المطر يعيد حيوات أرواح ذابت في التراب: هذا المطر الخريفي الجميل أنتظره كل عام.

من الذي يدقّ باب بيتي؟ لا أخوة.. لا أهل. عندما يكـــبر المـــرء يصير وحيداً بلا أهل بلا أسرة. إنه لا يكون إلا نفسه. البــــاب يـــدقّ.. أشعر بالخوف.. لا. شيء آخر غير الخوف.. هذا النقر علــــى البـــاب أيقظني على حقيقة هي أني وحيدة. «افتحي. أنا سامح».

أعرف.. ليس غيرك يا سامح يأتيني الآن.. إنـــك تعـــاني كآبـــة مثلي.. لقد أدركت خطأك متأخراً. إنك يا سامح تحتاج امرأة تدفعك إلـــى الأمام لا إلى امرأة تتعلق برقبتك وتعيقك عن الحركة.

المطر يهطل. وسامح ما يزال على الباب. أفتح البـــاب, أندهـــش لمنظر سامح. وجهه مغضن.. وعيناه غائرتان. ظهر شـــعره الأبيـــض لأول مرة. «عفواً» قال بصوتٍ منكسرٍ واتجه إلى الكرسي القريب مـــن الطاولة. مرت دقائق صمتٍ، شعرت بها طويلة جداً. تساءلت بيني وبين نفسي «من الذي دفعنا إلى هذا الإخفاق..» لماذا لم تعد الحياة مدهشـــة؟ هل علينا أن نزور أضرحة الزعماء الذين ماتوا منذ زمن بعيـــد؟ هـــل علينا أن نجدد الولاء لزعيم آخر، لمبادئ أخرى، لنرى الحياة مدهشـــة وتستحق منا كل هذا الإخفاق؟ هل رفضنا للوكف يعني إخفاقاً؟ لاأعـــرف يبدو أننا ما نزال في طور النقاهة لمرض لا نعرف كيف نشفى منه.

أنظر إلى سامح.. أشعر بالإشفاق على هذا الرجل الشفيف الـــذي أعرفه منذ سنوات بعيدة. إنه القادر على إعادة ثقتي بالناس باســـتمرار. سامح يسند رأسه بكفه وينظر إلى بلاط الغرفة. لن أخرجه من صمتـــه.. لابد أنه بحاجة إلى هذا الصمت. سأتركه إلى أن يرغب في الكلام. لـــن

أجرّه إلى حالة لا يريدها. دخلت المطبخ أصنع له القهوة بنفسي. وعندما عدت إلى الصالون وجدته ما يزال مطرقاً. سكبت القهوة في فنجـانين. قدمت له فنجانه بصمت. رفع رأسه بتثاقل. كنت لم أره منـذ أسـبوع. وجهه يوحي بأنه لم ينم منذ أسبوع. لا أحب أن أرى سـامح يتـهاوى أمامي.. ما الذي بعثره هكذا.. لم أكن أعرف أنه كان يخبئ كـل هـذا الصخب في داخله.

لن أسأل سامح عن أي شيء... قال لي مرة: الإنسان عندما يفيض ما بداخله.. لا يقدر أن يتحمله.. عند ذلك سيتحدث تلقائياً. سأترك سامح يتحدث وحده. نحن الذين كنا نشكو إليه.. وهو الذي كـان يسـتوعبنا. ويحلل كلماتنا.. خطر لي موت علي.. أكبر كارثة يمكن أن تهزني هـي موت علي.. ارتجفت خوفاً وأنا أرنو إلى سامح.. لا أقوى على قبـول هذا الأمر.. استعدت كلمات غائرة في الزمـن السـحيق.. «سـتظلين تبحثين.. لن تكتملي.. لن تلتقي ظلك أبداً».

هل أصرخ وأقول: «مات علي؟»

رشف سامح من فنجانه رشفة. وضع الفنجان ولم ينظـر إلـيّ.. أيكون سامي الذي مات... يا إلهي. سامي الرقيق الـذي أجـده دائمـاً بانتظاري عندما أكون في زقاق ضيّق من زقاقـات الحيـاة المفاجئـة. يقترب مني بهدوء. مرة يؤكد لي بأنه تلميذي المخلص.. ومرة يشـعرني بأنه صديقي الطيب المحب.. ومرة لا أعرف كيف أفسّـر كـل هـذا الهدوء الذي يحمله. علي يكرهه.. يقول: صديقك سامي امتـداد لأبيـه الحرامي. وسامي هذا يذكره دائماً بزميلٍ له كان معه أيـام المدرسـة. وعندما يراه علي يدير له ظهره، أو يتجاهل حديثه.. قلت له مرة: أكـره احتقار الناس مهما كانوا. ضحك علي عند ذلك وقال: هذا النوع يحتـاج إلى احتقار دائماً ليفتح عينيه جيداً ويرى نفسه.. وإلا ظن نفسه نصـف إله. لو تسمعين حديثه الذي يروج فيه لعطاءاته للوطن. ولبنائـه لـهذا الوطن لصرخت بأعلى صوتك «هذا الوطن لا ينتمي إلا للفقراء، هـذا

الوطن ينتمي للذي يعمل بصمت، ويبني بصمت مثل عمال أوغاريت الذين رفعوا الأعمدة. وبنوا القناطر.. مثل العبيد الذين بنوا أفاميا.. كل صخرة تحتاج مئات الرجال لدحرجتها.. مع ذلك بقي الاسم للإمبراطور. ولزوجته أفاميا.. بقي اسم القائد وذابت أيدي وظهور وعيون الذين ماتوا تعباً. هل نعرف اسم عاملٍ من عمال «سيانو؟» هل تعرفين اسم عامل من عمال تدمر العظيمة.

«يعني الوطن ليس لهم» الوطن لهم.. ثقي تماماً.. عند نشرك مقولات هذه الطبقة الطفيلية في حواراتنا وهمومنا.. يعني نحن نعترف بأنهم فاعلون في مسيرة الوطن. وهذا غير صحيح «كفى أرجوك يا علي» عندما طلبت إلى علي أن يسكت غضب وقال: أأنت تحبينه؟! اعترفي.

بماذا اعترف.. سامح سألني السؤال نفسه. وخليل سألني مرة «أتحبين رجلاً ما» بماذا أعترف؟ المطر يهدأ قليلاً. برق متقطع ينفلش في الغرفة. ينهي سامح قهوته. يلتفت إليّ ويهمس بصوته الحزين. أعتذر يا عليا. أكاد أختنق. لم أجد غيرك ألقي بحزني بين يديه.

«ماذا تقول يا سامح؟! أنت تأتي في أي وقت وتقول ما شئت..! أنت.. أنت سامح وهذا يكفي»

«هل لي أن أطلب إليك شيئاً؟! أكاد أختنق يا عزيزتي.. أريد أن أخرج إلى الشارع.. أن أمشي تحت المطر. أترافقينني؟» تعالي نغتسل بماء السماء.. نتطهر.. أشم رائحة المدينة المغسولة والشجر المغسول بعد غبار كثيف متراكم. كنت أنصت إلى سامح يرش كلامه.. سررت أنه بدأ أخيراً يتكلم «عليا أود أن أمشي في العتمة كي أفتح صدري وأخرج ما فيه من مدن متهدمة. وأحلام يابسة.. لا أريد أن يرى الضوء أشيائي كي لا يبتهج بأحزاني أرجوك لا تقولي لا.. أعرف الإحراج الذي قد أسببه لك.

لم أعترض. ولن أعترض.. كنت مستعدة لأي شـــيء مقـــابل أن أرى سامح يعود إلى حالته. لقد جاء دوري لأقف إلى جانبـــه بعـــد أن وقف طويلاً معي. قد يرجمونني غداً في ساحة المدينة. ويقولون هـــذه امرأة فاسدة.. تتحدى قيمنا ومشاعرنا. وتسير مـــع رجـــل فـــي الليـــل الممطر.. إنها تمارس الفضيحة علناً. وهي يا سيدي القـــاضي تشـــكل خطراً على نسائنا وبناتنا.. ولكن يا سيدي القاضي ـ هكذا ســـأقول ـ أرى عدداً كبيراً منهن يتعرين أمام الضوء في الفنادق الفخمـــة. وفـــي المنازل المفروشة.. هناك لا أحد يراهن إلا الجدران. لكن ثق يا ســـيدي بأن هذه الجدران ستتكلم ذات يوم. سيصير لها شفاه وستقول كل شيء..

سيغضب القاضي وسيقول: «إذا ابتليتم بالمعاصي فاستتروا» وأنـــا لم أستتر. تذكرت مدير دائرتي عندما حضرت إليه فجأة لأن السـكرتيرة لم تكن موجودة. رأيته يقضم تفاحة. لم يلفت انتباهي أيّ شـــيء. كـــان الوقت أحد صباحات رمضان.. عندما رآني المديـــر. نـــزع التفاحـــة بسرعة. وقام بحركة مسرحية «لا حول ولا قوة إلا بالله.. تصوري يـــا آنسة. نسيت أني صائم.. أستغفر الله» ابتســـمت وقلـــت: «يـــا أســـتاذ معليش.. لن يؤاخذك الله على النسيان.» أعتقد أنه فهم علي تماماً. وأنـــا فهمت عليه.لا بد أنه يصلي مع جماعة النهي عن...» ثم...

لكن لماذا كل هذه الأقنعة المكدسة منذ العصور الأولى.؟! أيخـــاف بعضهم بعضاً أكثر مما يخافون الله.؟! قناع مناسب لكل زمنٍ يا أســـتاذ.. قناع محترم لكل جماعة يا امرأة.. قناع وأقنعة. و.. الحريـــةً = حـــرق الأقنعة. الحرية = وجه بلا قناع = حيوان لطيف بلا مخالب. أعرف أن الخروج مع سامح لا يهدف لشيء إلا للسير في فضاء المطر. هكذا كنـــا نفعل في باريس.. لم نكن نخاف العيون ولا نخاف الفضيحة. كنـــا بـــلا أقنعة إلا أمام الزملاء العرب. عندما كنا معاً. كان علينا أن يحمل كـــل منا قناعه المحترم. ولأني حاولت مراراً تجنب هذه الأقنعة. أو خلعـــها حين أضيق بها.. وقعت في أخطاء جسيمة. قناع التستر هذا لـــم أكـــن

أومن به.. السر = العلن عندي. حتى الآن هذه هي نظريتي الموقـــرة. هيا يا دكتور. لبست معطفاً مطرياً ووضعت على رأسي شال صـــوف، وخرجت مع سامح باتجاه حديقة البحــر.. اجتزنـــا الســاحة المحاطـــة بالأشجار المتهدلة تحت ثقل حبات المطر.. رذاذ ناعم يلفـــح وجـــهينا. نسير بصمت كأننا لا نريد أن نخرّب صوت الطبيعة. ســـيارات قليلـــة تمسح الإسفلت بضوئها، وامرأة عجوز نحيلة، تربط رأســـها، ترتـــدي جزمة بلاستيكية وقفازات بلاستيكية. تدير ظهرها للضوء وهي تنبـــش أكياس القمامة. تذروها على الرصيف مختارة منها الأحذية البلاستيكية. وكراتين البيض وأشياء هي تقدر قيمتها. تنهدت بحسرة.. «المفـــروض أن تكون هذه المرأة جدة.. لها أحفاد يعتنون بـــها..» تذكـــرت أمـــي. انسابت دمعة حذرة على خدي. سامح ما يزال في صمته. نظرت إليـــه «سعاد أرسلت لي رسالة.. إنها تسلم عليك. وتسأل عن أخبارك. لم يرد سامح. ظل على خطواته.مخبئاً يديه في جيوب سترته. كنا نتجـــه إلـــى البحر. مستعذبين هطول المطر. وتساقط أوراق الشجر الخريفي.. كنـت أحترم صمته. وسرّه. ولكن يجب أن أسمعه. تابعتُ «سعاد تقـــول فـــي رسالتها إنها حزينة جداً.. هذه المرة تشعر بالغربة أكثر مـــن الســابق. وهي عندما كانت تدرس كانت دائماً تؤمل نفسها بالعودة إلى الوطـــن.. وبأنها ستعود منتصرة بنيلها شهادة عالية وتستلم بذلك وظيفة محترمـــة تليق باغترابها وتخصصها.. كانت تقول بأن مرحلة الشوق والانتظـــار هذه ليست دائمة. ستنتهي قريباً. ولكن بعد أن خبرت الوطن مجـــدداً.. ورأت بأم عينها هبوط قيمة الشهادات العالية. شـــعرت أنـــها لا شـــيء تنتظره سوى الغربة. هذه المرة قطعت جذورها.. حمّلوها جواز سـفرها وقالوا لها: لا ترجعي. غطّي عينيك. انسي أشجار المدينة ومطر المدينة ورائحتها.. إنها تحاول استحضار البحر. والأصدقاء والأهل.. لا شـــيء أمامها إلا ذلك. تسير كل يوم في باريس على غير هدى. باحثـــة عـــن وجوه تشبه وجوهنا..وعن أم تشبه أمها.

.. وعن شجر توت يشبه شجرة المصطبة. مـــرة رأت عجــوزاً تجلس في الحديقة ــ إنها تشبه أمي ــ جاءت وجلست قربها على مقعـد الحديقة.. قدّمت لها الفستق.. وعندما نهضت العجوز نـــهضت ســعاد معها.. مشت وراءها إلى أن دخلت المرأة بيتاً وأغلقت الباب وراءهـا.. انتبهت سعاد إلى أنها وحدها في مدينة غريبة. وأن هذه المــرأة ليســت أمها.. لم تصدق.. أرادت أن تتأكد.. وقفت علـــى البـاب وصرخـت «أمي.. أمي» لم يرد عليها أحد. تركت الباب وتابعت سيرها باحثة عـن أم أخرى..

يبدو أني تحدثت كثيراً عن سعاد. لذلك وقف سامح وقال لماذا لــم تسأليني عن حالي يا عليا؟!

ارتبكت. وشعرت بالحرج. ظننت أني تركت ســامح على راحتـه وهذا هو الأفضل. هو الذي كان يتركنا نتحدث إلى أن نتعب ــ يقـــول هذا جزء من العلاج ــ بعد ذلك نرشف القهوة تاركين له أحزاننا بعد أن زرع الأمل في أعماقنا. المطر ما يزال يتسرب بهدوء في شعري.. قلت له آسفة يا سامح. الواقع لا أقدر أن أسأل طبيبي النفسي عن أحزانـــه. توقّعت أن تحدّثني وحدك أو لن تفعل؟ ربما كانت أحزاناً خاصة لا تريد أن تشرك بها أحداً.

«أبداً يا عليا».. أخذ يدي.. شدّ على أصابعي بحنوّ.. أنت تجاهلت أحزاني.. وتجاهلت أسئلتي. لم تسأليني لماذا تزوجت بســرعة. لمــاذا طلقت بسرعة؟!

«هذه أمور شخصية.. لا أستطيع أن أفرض آرائي على الآخرين. مسألة الحب والزواج مسألة شخصية جداً. والتقويمات فيها نسبية. كنــا نقترب من الحديقة. وكانت أشجار الفلفل الكاذب الجاثمة فيـــها كبــيرة، قديمة. وكان صوت البحر عالياً. ورائحته خاصة تتسرب إلـــى أنفينــا. المطر المتقطع يهطل مع هبات الرياح الغربية. مطر دافئ لا يلســـع..

بدأت أتشبع بهواء البحر وأنا سعيدة. خجلت من سعادتي وأنا مع سامح التعيس جداً. اخترت مقعداً خشبياً تحت السماء مباشرة. جلست وظل سامح واقفاً. نظر إليّ «لقد بللتك. أليس كذلك؟!

«ماشي الحال. إني معك»

«ظل ينظر إليّ ثم التفت بسرعة. لم أعهد ذلك منه. كان حزيناً لدرجة القهر.

«تعالي نجلس هناك تحت تلك الشجرة»

قمت وأخذت المكان الذي اختاره تحت شجرة كبيرة. الحديقة صامتة.. ممراتها تمرر هواء البحر ورائحة الورق المتساقط، منذ أيام هذه الرائحة تعيدني إلى عليا القديمة.. إلى وحوش الطرقات.. إلى المدينة التي خبأت طفولتي فيها بين أنياب ذئاب كثيرة وأزهار كثيره.. كلما رأيت تلك المدينة تتشابك الأشياء المحزنة والمفرحة معاً.

الرغبة والعقل. الطفولة والنضج. الجوع والشبع. أشياء لا أستطيع أن أحدّها. أتذكر عليّ الذي غاب.. كأنه تبخر سألت عنه مراراً وعندما فشلت في إيجاده صمت.. البحر أمامي.. يلاطم موجه الصخور. تخرج سفن قديمة. ونساء قديمات من بين الصخور.. أرى بشراً أعرفهم.. وقراصنة يشبهون بشراً محترمين في المدينة. الإنسان لا يتغير كثيراً.. هو نفسه الذي كان يجرّ الناقة.. ويعقرها.. هو نفسه الذي يسوق الدبابة ويدهس فيها العشب والتراب والبشر.. صوت البحر يتهدم في أعماقي فيخرج العصور المختبئة في مياهه الزرقاء. ويهدم الجدران الفاصلة بين رجل ورجل. بين امرأة وأخرى بين جسد هو ثوبي الخارجي. وبين روح لا تظهر إلا في هذا الثوب. أي حقيقتي الظاهرة.

«هل أنت بردانة؟»

«أبداً يا سامح.. إني أستمتع بهواء الخريف وبهذا البحر الممتد إلى

ما لا نهاية إنه كالروح لا يحدُّ..يحزنني التماهي البعيد. أحياناً أريد أن أقبض الأشياء والأسماء بيدي.

«عليا.. أريد أن أسألك وبصراحة؟!

«دائماً أنا صريحة معك.»

«هل تحبين علي..»

مرت دقائق صمت.. دقائق واخزة. لا أعرف كيف أجيب خاصة الآن وأنا مخذولة من علي.. ثم لماذا هذا السؤال؟! أيكون عليّ في ضيق؟!

لقد سألتك أكثر من مرة السؤال ذاته ومع ذلك لم أعرف منك الجواب الحقيقي. أنا لا أفهمك أحياناً يا عزيزتي. من أنت حقاً؟ حبيبة خالد الذي حدثتني عنه كثيراً.. حبيبته وكفى؟ أم حبيبة عليّ. أم أنت فعلاً لست امرأة من لحم ودم وأنك كما تقولين «تغيبين وتحضرين من زمن إلى زمن. تنتقلين من ثوب إلى أثواب.. من حالة إلى حالة. من أنت يا عليا؟!

«لا أعرف يا سامح. أعرف أني امرأة جئت من صوب البحر. أتذكر أنه كان لي منزل في مدينة غير هذه المدينة. وأتذكر أني حبيبة رجل آخر غير هؤلاء.. انتقلت من البحر إلى اليابسة.. باعوني.. تحولت إلى سلعة. هربت. دخلت البحر في بطن تنين كبير. عدت.. عشت بين أسرة فقيرة. ثم انتقلت إلى عالم آخر. عشت في مصرَ.. كنت أميرة.. وكنت جنية.. حورية وجارية.. لا أعرف من أي الأثواب الزمنية خرجت. إني أمتدّ إلى حوّاء إلى العذراء. من فاطمة وزينب. من أدم إلى إبراهيم. من الضحّاك صاحب أفعى الأكتاف زعيم قريتنا الأبدية. إلى.. وإلى. إليك وإلى عليّ.. إلى زمن سيأتي. وقالت لي جدّتي.. قالت. سيأتي الطوفان يمسح «جادوم» الأرض.. ثم تأتي قبائل همجية. لكن سيظل القمح على الأرض ينبت. والنعنع البري على

الضفاف.. لن تموت الأرواح الطاهرة.. فهي أبدية لا تفنى.

ستدخل أجساداً.. أو أزهاراً. أو أنهاراً. ستبدأ بنضال آخر. بطريق مفروضة علينا.. مرات أسأل نفسي. من أنا؟! من أنت يا سامح..؟! جدّتي قالت: الملك يخلق في زمان آخر شحّاذاً. والشحّاذ قد يخلق سلطاناً. يجرّب قمصان الروح.. والخالق يختبر في الأرواح.. يطهرها.. أو يمسخها.

أحياناً أعاتب نفسي يا سامح.. أقول إنّه عليّ التأقلم مع حالتي الحالية.. ظهوري الآن بهذا الثوب الفاني.. ثوب الشقاء الذي أعيشه سأتركه وسأخرج إلى ثوب أميرة.. أليس كذلك يا سامح؟.

ـ لا أعرف يا عليا.. سأعترف لك.. أنت سبب طلاقي.. لا تقولي «أنا؟» باندهاش.. دعيني أكمل.

ـ لا. لن أدعك تكمل. معقول يا سامح؟!

نهض سامح واقفاً. أخذ يدي بين يديه.. وقبل أن يقول شيئاً. رفع يدي إلى شفتيه حاولت سحب يدي لكن دمعة حارة انسابت بين أصابعي.

عليا! اسمعيني.. ألا يحق لي أن تسمعيني.؟! عشر سنوات وأنا أسمعك.

ابتعدت عن سامح. غمرت وجهي بيدي. ألأنا سبب كل هذا الحزن؟!.. أريد أن أرحل. أرحل من هذا العالم كله... الرحيل وحده الاحتجاج المسموح الآن. أريد أن أصرخ. أن أبكي.

أنا أحبك يا عليا.. وسأظل أحبك. أتذكر لقاءنا الأول في حفلة الجامعة في باريس.. كنت أرافق الصحفي المصري «جهاد» الذي هرب من مصر خوفاً من القتل.. جهاد كان يحبك. وكان في كل لقاء يحدثني عنك.. كان يسميك قرنفلة أوغاريت..

«سامح.. عليا قرنفلة. تعيدني إلى قرنفل أمي. إلى حبّ الهيل. والقهوة. تعيدني هذه المرأة إلى حضن مصر الذي حرمني منها أحد المشايخ.. مشايخ النهي عن المنكر.؟ جهاد كان هائماً بك.. وكنت أظنّه يبالغ في وصفك.. وأقول هذا كلام عشاق. كان يلحّ عليّ بأن أعرفه بك «سامح أريدك أن تجمعني بالآنسة علياء.» لا أدري لماذا لم أتحمّس لمعرفتك به. كنت أشفق عليه. وأضحك منه وهو يصف لي حبّه الجارف لك ولا يقدر أن يصارحك به «هي امرأة حقيقية يا سامح» الآن أدرك لماذا كان يقول: هي امرأة حقيقية.. إنه يؤكد قدرته على احتواء ذراتك وخيالاتك.. روحك وجسدك.. وفي حفلة التعارف السنوية لمحتك من بعيد ترتدين الجينز مع بلوزة برتقالية.. وشعرك منثور على ظهرك شدني جهاد من يدي وقال لي: إنها هي.. إنها هنا. علياء. وعندما مددت يدي لأصافحك لا أعرف ما الذي احترق في يدي.. تذكرت أخيراً بأنني أضمُّ يدك. خجلت. وأخفضت نظراتي التي غابت في وجهك. وعندما سمعت صوتك لم أعد قادراً على إخفاء دهشتي. ابتعدت قليلاً. سألني جهاد. ما رأيك؟! أليست رائعة؟!

لم أرد. وبعد تكراره للسؤال.. قلت له: إنها عادية. اغتاظ مني وقال أنت غبي. لا تعرف المرأة الحقيقية.

كنت مرحة وأنيقة. دخلت ذاكرتي من يومها ولم تخرجي. لم أعلن مشاعري. كيف أعلنها وجهاد يحبك. قررت أن أطوي مشاعري. أخبئها. أهرب منها. لكن في كل مرة أراك كنت أرى المدن التي أحبها. والشجر الذي تفيّأت بظله.. كنت.. آه.. عليا.. أتفهمينني؟! قلت لنفسي. هذه مشاعر الحنين لأنك من القرية يا سامح.. عليا بالنسبة لك هي حقول الساحل.. وهي زرقة البحر: هي الممالك الساحلية القديمة. ورائحة الزيزفون. غداً عندما تعود إلى الوطن ستنسى هذه الآلام. لم أكن قادراً على شرح كل هذه الأشياء لك. وعندما عرفت بأنني من الساحل السوري. رحبت بي ودعوتني مراراً وكنت أهرب. لا أريد أن

أجرر نفسي أكثر. تركتك لجهاد. الذي لم يجرؤ هو الآخر أن يفـــاتحك بحبه لأنه لم يكن يملك مكاناً يأوي حبه الكبير.

كان يقول لي: غداً سأعترف لها يا سامح. لكنه يعود في كل مـــرة مخذولاً هي امرأة مختلفة يا سامح.. كأن كلماته تكويني. وكنت أقـــاوم هذا الحريق ولأعترف لك بأنانيتي. كنت أدعو الله أن يظل جهاد علـــى خوفه لتظلّي لي. فأنت المستقبل الذي كنت أسعى إليه. المستقبل الـــذي يرشّ التاريخ القادم بفتوحات جديدة كنت امرأة مختلفـــة. أجـــل.. فـــي عينيها القهر العربي والفرح العربي والاضطهاد العربـــي. تعرفيـــن أن جهاد لم يطل بقاؤه في باريس. فقد ذهب سرّاً إلى مصر لحضور دفـــن أمّه. بعد الجنازة بأيام وأثناء تجواله في القاهرة ليلاً ترصّدته جماعة من الأصوليين وقتلته. أجل.. أتذكر الحادثة الآن.. وأتذكر وجهه الأســـمر الجميل. وقامته الطويلة النحيلة. أتذكره بضحكته المدوّية. عندما علمـــتِ أنتِ بالخبرِ صرختِ.. أخذت تبكين.. لا يعقل يا ســـامحِ. لا يعقـــل أن يموت جهاد. أتذكرين.. هكذا قلت لي وأنت تعانين حزناً؟ حـــاداًّ. هنـــا بدأت المخاوف تتسرب إلى نفسي. خمّنتُ أن جهاد اعترف لك بحبّـــه.. وإلا لماذا كل هذا الحزن الطاغي الذي جعلك تتكفئين في الجامعـــة ولا تخرجين.. قالت سعاد: إن عليا تعاني إحباطاً شديداً هي تشعر أن العقـــل العربي المتنور يُغتال.. لهذا هي حزينة.. أنا لم أعلق على الكلام.. كنت أظن بما وراء هذا الكلام.

ربما يخطر في بالك.. لماذا لم أعترف لك بحبي بعد ذلك.؟!

لم أستطع اعتبرت ذلك خيانة. خيانة لأعزّ صديق.. هل اعـــترف لك جهاد؟!

«دعني من الماضي يا سامح أرجوك»

لم أستطع مقاومة دموعي بدأت أبكي.. اعتـــذر ســـامح.. أراد أن يمسح دمعتي.. ابتعدت عنه. وقف جامداً. لـــم يقـــل شـــيئاً.. مشـــينا.. خطوات. وخطوات. الصمت تدحرج بين أرجلنا..

«سامح»

التفت إليّ.. هل تشمّ رائحة التراب؟! رائحة العشب المبلول؟!

«عليا.. هانحن الآن وحدنا. يجب أن تسمعيني حتى النهاية. أنا لم آتي لأقول فقط هذا الكلام.. هناك أشياء أخرى.»

«أسمعك يا سامح.. إني معك بكل كلمة..»

عندما عدت إلى أرض الوطن كنت أنت ما تزالين تحضرين «الدكتوراه» ولشدة حبي لك رحت أنتظرك. أتحدث عنك.. أخبرت صديقي عليّ الكثير عنك.. لكن لم أُذكر مرة أني بحت بشيء أبداً. وعندما عدتِ إلى الوطن. التقينا. كنا نلتقي. وكان جهاد بيننا. وفي كل لقاء أسأل نفسي.. هل باح لها جهاد بحبّه؟ «كيف تسألها يا سامح.. هذه مشاعرها الخاصة. حياتها الخاصة.» حرصت على إسعادك.. على أن أكون قربك. هيأت علي لأخبره بما في داخلي.. كي يساعدني إنه صديق طفولتي. وكنت أنتظر أن يراك حتى أخبره بكل ما في أعماقي يا للدهشة يا عليا.. لقد أخذك عليّ مني.. عندما رآك. قال لي قبل أن يسلم.. هذه هي المرأة التي أبحث عنها يا سامح.. «جمدت كقالب ثلج» قال ما بك؟ أتحبها؟.

«لا.. هي صديقتي.. زميلتي.. هكذا تقريباً» وقفت عند هذا الحد من البوح.. وراح علي يتمادى.. طغت مشاعري مرات.. هربت مرات. وفي كل مرة تتكدس في داخلي جدران مهدّمة، أنهار جافّة تلمّ حصاها. أنا أحبّ علي.. أحبه فعلاً. وأعرف بأنه شاعر كبير. حساس ويحتاج إلى امرأة مثلك. أقنعت نفسي بالتضحية.

«يجب أن تضحّي يا سامح لإسعادها وإسعاد علي.. إنهما أعزّ كائنين إلى روحك».

«لهذا كنتَ تسألني أتحبّين عليّ؟»

«أحياناً كنت أشعر بالسعادة تغمرني عندما لم تؤكدي حبك له..

ولكن كنت أحتقر نفسي بعد ذلك وأتساءل هل أنـــا أنـــاني إلـــى هـــذه الدرجة؟!

هذا كان يدفعني لأن أبتعد.. أبتعد أسابيع وشهوراً. لا أتصل حتـــى تتصلي أنتِ وتسألي عني.. ومع كل عودة. مع كل لقاء.. كان كل شيء يعود. الحرائق، والبرد، والفراغ. ودمعة أخفيها في زاوية القلب.

فكرت بالحل:

هذا هو الحل يا سامح.. كدت أصرخ.. أصرخ ألماً. إنه الحـــل.. أتدرين ماذا كان الحل؟! الحل.. سعاد.. فكرت بها.. رائعة. وجميلـــة.. هي تذكرني بك.. هنا تكمن الخطورة. سعاد ستبقيك داخلي أكثر.. لذلـك هربت إلى امرأة «اسمها سلمى» سلمى المراهقة البسيطة التي ظلمتـــها أنا.. قررت أن يكون لي زوجة وأولاد. وأشياء أخرى أغمر فيها حياتي الباقية. قلت لك سأخطب يا عليا.. وقلتِ لي مبـــارك.. بـــبرود.. هـــذا البرود قتلني. أكد لي أن لا وجود لي أبداً.. هذا الحياد جعلنـــي أســـرع بالزواج من امرأة لم أتلهف مرة لأن أقبلها.. كنت أضمها بحنان أختلقـــه حفاظاً على مشاعرها. فهي لا ذنب لها. كنت أتعمد تعذيب نفسي وأنـــتِ كنت تتجاهلين.. ألم ترِ تمزّقي وكآبتي؟! لم أعد أهتـــمّ بمظـــهري. ولا بأناقتي مع أني أعرفك تفضلين أناقة الرجل. لماذا لم تسألي مرة ما بـــك يا سامح. لماذا تغيّرت؟!

«بصراحة لم أشأ التدخّل.. كنت أحسب الأمور بطريقة أخـــرى.. خشيت أن أجرحك».

«كم مرة تحدّثنا عن المرأة الناضجة، الواعية. وأخـــذت أســـتفزّك وأقول لك لا أريد امرأة مثل سعاد. أريد امرأة للمنزل. لـــم تصرخـــي بوجهي وتقولي ما به سامح؟ حزنت لأنك لم تفـــهمي مقصـــدي. كنـــت أظنك أكثر إحاطة بعالمي.»

«أبداً يا سامح.. كنت مجروحة أنا أيضاً»

«أعرف.. أعرف. لذلك الرجل الذي يحب فعلاً لا يؤذي.. وهو مستعد للتضحية. وأنا يا عليا.. غير مستعد للكذب على نفسي أكثر.»

لا أقول ذلك استعطافاً.

ولا من أجل الإساءة إلى علي. سأكون سعيداً لحبكما.. ولن أكون عائقاً أبداً. أرجوك أن تفهمي ذلك.. وتقدري صدق مشاعري تجاه علي.. ولكن هذا لا يمنع من البوح.. أريد أن أزيح هذه الصخرة عن صدري.. حاولت إقناع نفسي بسلمى. وعندما تمّ الزفاف،وانزويت بها في منزلي الأنيق.. نظرت إليها وهي في ثوب العرس.. لم أجدها.. وجدتك أنت.. أجل أنت. حاولت جاهداً أن أفتح الباب لتخرجي. لا أريد خيانة علي.. لم تخرجي.. بقيت في ثوب الزفاف ـ اندهشت سلمى لماذا لم أرفع غطاء وجهها.. لم أطلب إليها أن تخلع ثيابها.. لا.. لا أريد أن أعرّيك وأنت بين يدي علي لا أريد.. مشاعر مجنونة كانت تلعب بي تدفعني بقوة لاحتضانك وتقبيلك ولكن لم أجرؤ.. لا يحق لي ذلك.. لا يحق لي أن أقبّل امرأة لا تحبني. لذلك فتحت الباب وخرجت.. تركت سلمى دون أن تعلم شيئاً. رحت أمشي.. أمشي إلى أن تعبت. اختبأت تحت شجرة في بستان خارج المدينة وانطويت على حزني.. أدركت أني هربت إلى خطأ أكبر.. لم أعد حتى الصباح.. فتحت الباب فوجدت سلمى ما تزال بطرحتها وثوبها الأبيض.. عاتبت نفسي.. وبكيت.. وعندما سألتني ما بك.. صرخت بها وصفعتها..

أنا أصفع امرأة؟! كم كنت جباناً وتافهاً. لا أحمّلك المسؤولية هنا.. المسؤولية تخصّني.. لم أستطع تحمّل هزيمتي. نزعت الطرحة عن رأس سلمى.. هذه هي سلمى.. وجهها غير وجهك. ورائحة شعرها غير رائحة شعرك.. لم أشعر بالأنثى الحارقة أمامي. اقتربت مني. قلت لها: هيا نشرب قهوة.. ابتعدت وقالت: كما تشاء. صنعت القهوة. وكانت نصف عارية. لم أرَ فيها إلا امرأة تستحم بالبحر.. أنثى أَي أنثى. لم تحرّك بي الرجل الذي يتشهى جسد حبيبته.. بصراحة كنت أتشهّاك أنت

يا عليا. صوتك وحده كان كافياً لأن أحلّق في فضاءات بعيــــدة. قبلــت ســـلمى إرضاء لها.. كانت دافئة وكنت بارداً.

شعرت أني أخونك.. قررت ألا أخونك. لا.. لم أقرر. بل أنا لـــم أقدر. تمنيت أن أخونك لأتخلص منك. لأقتلك. مرّ شهر على ذلك. بدأت سلمى تميل إلى الكآبة. وبدأ جسدها يميل إلى النحول.. شعرت بالشــفقة عليها. ستظل شقية معي. لا أقدر على إسعادها. بكت وقالت.. لن أقــول لأحد بأنك لست رجلاً طبيعياً.

«لا تبكي يا سلمى أرجوك»

«أنا أحبك يا سامح.. أحبك»

«أعرف.. أعرف يا سلمى»

عليا.. فعلاً أنا لا أقدر أن أكون طبيعياً مع امرأة أخرى لــم أجــد حلاً إلا الطّلاق. أجل. طلقتها.. أعطيتها كل شيء. كل شيء. ســـمعت أنها خطبت. وستتزوج قريباً من رجل أرجو أن يسعدها.. مع ذلك.. لـم تسألي مرة لماذا تركت سلمى؟! كأن الأمر لا يتعلق بصديق شربت معه القهوة. وسهرت معه. ومشيت معه؟!

«افهمني أرجوك يا سامح.. لا يحق لي..» لا تكملي أرجوك. لــو كنت مهماً حتى كصديق كنت سألت. أنا أسأل هنا فقـــط عــن مكانـــة الصداقة. ألا أستحق المواساة؟

حشرج صوت سامح. لابد أنه يقاوم غصّة حارقة.. كم أكره نفسي الآن.. إني سبب كل هذه الآلام.. سامح الذي يظل ينال إعجـــابي أبــداً يخبئ كل هذه المجامر في أعماقه؟!

سامح الذي يعجبني عطره وشعره وقمصانه يخفي كل ذلك..

ماذا أفعل لرجلٍ كان ملاذي. أشكو إليه صديقه وحياتي المعذبـــة.. رجل طالما أحببت تفكيره وأسلوبه في الحياة. هل أقدر أن أمدّ يدي له..

تناولت منديلاً. مسحت على جبينه. ظل مطرقاً رأسه إلى الأرض. المطر يتوقف قليلاً ويزخ قليلاً مع هبّات رياح بحرية وغيوم مسافرة.. شجرة الفلفل تحرك أغصانها مع هبوب الريح. المدينة خاشعة تحت العتمة. ضوء شاحب ينطلق من النوافذ المطلّة. برقٌ خفيفٌ يغمرنا أخذت يد سامح بهدوء..

«سامح.. سامح.. أرجوك أن تتفهّم موقفي. لم أقصد أبداً إهانتك. لم أشعر بكل هذا الصراخ في أعماقك..

ــ كان يمكن أن تكون الأيام أجمل لو أنك اعترفت لي يوم عدت.. سامح.. لم أستطع أن أكمل بدون بكاء.. سامح كان أمنية بالنسبة لي.. هل أقول له ذلك؟! هل أحمله المسؤولية؟! لقد ظلم نفسه وظلمني.

سامح.. أنا لم أحب جهاد.. كنت أرتاح له. أحترمه. وهو لم يعترف لي بحبه أبداً.

«صحيح يا عليا..؟! صحيح..؟! يا إلهي.. يا إلهي..»

أجل. لكني أصبت بالحزن الشديد على فقدانه.. كان مهذباً ومثقفاً. إنه خسارة كبيرة فعلاً. حزنت على العقل المغلق كيف يفكر.. حزنت على العقول النيرة المضطهدة.. جهاد كان بالنسبة لي العقل الواعي الذي يدفع الأجيال إلى الأمام لا إلى الوراء.

سامح.. أيضاً دعني أعترف.. لقد رأيتك بقلبي منذ النظرة الأولى.. فسرت الأمر على أنه مجرد ارتياح لأنك من بلدتي. لكن انتظرت أن تقول لي شيئاً لأني لاحظت اهتمامك.. فأنا لا تسمح لي شرقيتي بالبوح.

مرات كثيرة كانت سعاد تقول لي: أنت تحبينه يا علياء.. كنت أنفي ذلك.. أنت هربت.. لم أكن أعرف لماذا؟! وأنا هربت.. الآن جئت تقول كل هذا؟!

لماذا.. لماذا.. ليتك ظللت على صمتك كان ذلك أخفّ وطأة. الآن جئت.. يا ...

أخذت عليا تنتحب.

وعندما استيقظت على دموعها.. استنكرت ضعفها.. كانت مشتتة. متعبة. دائماً كان لسامح ذلك الوهج الداخلي في أعماقها. وكانت تظنّ أنه لا يشعر به.. وأن هذا الرجل له أمنياته الخاصة به. لم تكن تعرف أنها هي أمنيته . ولم يكن يعرف أنه هو.. هو أمنيتها.؟ وسامح الهادئ.. كاد ان يسقط على الأرض عندما اعترفت له علياء بمكانته في أعماقها.. لكنها لحظة.. لحظة واحدة قادرة على تغيير مسار الحياة كله.. لحظة تسير بنا من الجنوب إلى الشمال.. أو العكس.. لحظة. يبدأ كل شيء.. أو ينتهي كل شيء.. هذه اللحظة لم يستطع أَي منهما أن يمسك بها.. لم تستطع عليا.. ولا استطاع سامح فهل يستمر العذاب؟!.

«أريد أن أعود إلى المنزل يا سامح»

سارا معاً..

اثنان يخاصمان الزمن. اثنان انكمشت الأحقاب أمامهما.. سارا على وهجٍ قديم. وعندما وقفا أمام الباب. سألها سامح «هل أدخل؟!»

نظرت إليه ففاضت نظراتها بالعتب والشوق البعيد.. لاح لها ذلك الشاب الذي كان في باريس. يأتيها إلى مدرّج المحاضرات يدعوها إلى حفلات التعارف. وحفلات المناسبات الوطنية.. وأحياناً تلتقي به في الميترو.. أو.. كادت تقول له لماذا لم تقل من ذلك الوقت.. كنت اختصرت الكثير من شقوق الروح.. لكن ما جدوى الكلام.. إنها مياه العمر التي اندلقت على تراب كثير.. كيف نعيد هذا الماء إلى الكأس.

«تفضل يا سامح..»

«زعلانة مني..؟!»

«لا أبداً. لا يمكن أن أزعل منك أبداً. ستظل سامح الذي...»

«عليا.. أرجوك.. لم أكمل ما أردت قوله. أريد أن أخبرك شيئاً مهماً»

«طيب.. لنصنع شاياً. ونشعل المدفأة الكهربائية ألا تشعر بالبرد.؟!»

أسلاك كهربائية تتوهج في أرض صالون واسع. امرأة تشخر في غرفة مغلقة لا بد أنها أَم عارف التي ترفض أن تفارق عليا.. وبخار شاي ساخن يتصاعد على منضدة حولها اثنان يصفيان حسابهما مع تحوّلات الأسماء.

«أترين علي يا عزيزتي؟!»

«أبداً.»

«سمعت أنه أصدر ديواناً جديداً. وأهدى نسخ الديوان إلى جدّه شهاب الذي أعادت له القرية اعتباره.»

«لا يمكن.. مستحيل.. علي لا يفعل ذلك.. لو أنه مهيأ ليفعل هذا كان دمّر الكثير من العذاب والفقر»

«كل شيء ممكن يا عليا.. هذا الزمن زمن الممكن. لا تقولي لا يجوز بعد الآن. ما أدراك.. ربما غير رأيه واقتنع بأن طريقه الذي يسلكه انتهى وهجه.. ثم إن الأدباء مزاجيون.. يغيرون أفكارهم أحياناً بسرعة مدهشة»

«أبداً.. لا أصدّق، علي لا يفعل هذا.»

«أرجوك لا تظني بي سوءاً. ربما تعتقدين أنني أقول ذلك كراهية بعلي. علي صدمني بموقفه.. إني لا أعرف كيف أعبّر لك عن مدى خيبتي.. وهذه الخيبة هي السبب وراء مجيئي اليوم. واعترافي. هي التي دفعتني لقول الحقيقة قبل أن تتشوه. أنا رأيت الديوان بأم عيني.

لم أصدق في البداية.

ولكن هي الحقيقة.

«أفهم من هذا أن علي كان مسافراً يطبع ديوانه؟! ألهذا غاب ولم أعد أراه..؟

لم تستطع عليا سماع المزيد. شعرت بأنها تختنق. برودة تتسلل إلى أطرافها برودة قاتلة. أطرافها جامدة. ورأسها يُضرَبُ بالجدار كما كان عبد الله يفعل سابقاً.

تريد الاحتجاج ولكن على ماذا تحتجّ..؟! يأخذ سامح يدها.. لا تشعر بيده. يظلان صامتين.

«ماذا بعد هذا البوح يا عليا.. علي يفعل ذلك؟!» هي العبارة التي أخذت عليا ترددها..

ربما كان بحاجة إلى المال..؟! ولكن دائماً كان بحاجة إلى المال.. دائماً كان قنوعاً.. هذه ليست جديدة عليه.. كان يدخن السجائر العربية لأنه غير قادر على شراء التبغ المصنّع.. وهذا الأمر لا يبرر له أن يبيع اسمه وعمره ونضاله. وآمال فئات كبيرة من الشباب. لا يحق له أن يصير جمرة متوهجة في أيدي الآخرين.. تحرقهم بصدق نارها.. ثم فجأة يكتشفون أن هذه الجمرة.. هي قطعة ثلج.. لاذعة ببرودتها..

أيهدم قلعته بيديه.. لماذا؟! ومن أجل من يهدي كتابه إلى زعيم كاذب من أجل من جاع.. وناضل.. أيعقل أن تسقط بلحظة واحدة كل الجدارن التي يتمترس وراءها المناضلون؟!

« عليا.. سامحيني أرجوك.. كان عليّ أن أقول لك.. أن أشكو إليك. علي شاعر يخصّنا معاً. ويخصّ غيرنا. يخصّ أمّه العجوز التي حرمت من كل ثروة. ورفضت كل زيف.. أرجوك ألا تزعلي من إبلاغي لك هذا الأمر.؟!

ـ سامح.. لست زعلانة منك. أنا زعلانة من الزمن. سامح أرجوك ساعدني لأكتشف الحقيقة. هل أنا مغفلة إلى هذه الدرجة؟! بهذه السرعة يرمي علي النعنع البري.. يدوس على قبر العم صالح.. يكسر ساموك المنزل..»

نظر سامح إلى عليا بحزن. تمنى لو أنه لم يخبرها.. كان عليه أن يوفر عليها العذاب يبدو أنها تحبّ علي.. أخذ يلوم نفسه. المطر يهطل بغزارة. بينما عليا تهذي وتؤنب روحها.

«أأكون جاهلة إلى هذا الحدّ في استقراء الأشخاص الذين أختارهم؟ هل خدعني هذا الشاعر. لقد نجح في خداعنا جميعاً. ولكن يجب ألا تأخذني القشور يجب أن أعرف الحقيقة؟»

«هذه هي الحقيقة.. يا عليا. لا.. لا أصدّق.. غير معقول.. قريباً كنا سنختار خواتم الفرح.. قريباً كنا سنلتقي.. مع ذلك غاب. غاب تماماً.. لم يقف معي في محنتي.. إنه المعادل لزعرور باشا.. لابنته، سامح كلهم خذلوني.. كلهم..»

تغرق عليا في موجة حزن.. يقدم لها سامح الشاي. «اشربي أرجوك» تنظر إليه والشكوك تأكلها.. لماذا يفعل سامح هكذا الآن.. ربما كان الأمر خدعة.. يجب أن أشكك بكل شيء «زمن الشك» ـ هو الآخر لا أفهمه ـ أيحمل كل هذا البوح على مدى سنوات ثم يفجّره دفعة واحدة؟! هل جاء يشمت بي؟

أَم هو صادق في كل حرف؟

لماذا يحملني وزرِ طلاقه. لم أقل شيئاً في أَي يوم من أيام تعارفنا. لم أعده بنظرة. هو..

أبداً.. سامح رجل نظيف.. نظيف.

«وعلي.؟! من هو؟! أين هو؟!»

ليل.. وصمت.. وعليا لا تسمع شيئاً الآن سوى خضاضة اللبن الفخارية في أرض المنزل «تاك.. توك..» ووالدتها تغني.. على دلعونة بصوت حزين.. تندب زمناً وتنعى الأحبّة الذين فارقوها.. اللبن يصدم الجدار متفجراً عن حبيبات الزبدة. عليا لا تقدر أن تركز على حفظ القصيدة.

إنها مأخوذة بصوت أمّها الحزين. الحزين.

«إلى شهاب.. جدي الكبير.. زعيم القرية.. زعيم الوطنية والثورية.. زعيم الأرض»

هكذا يهدي علي كتابه الأخير.

حين انكسر كأس الشاي وتدحرجت نثراته على البلاط استيقظت أَم عارف. ركضت مسرعة. «لا شيء يا أم عارف»

«أين كنت يا بنتي. انتظرتك طويلاً»

«خرجت مع الدكتور سامح لمشاهدة أحد الأصدقاء.»

هاأنا أكذب. لماذا لا أقول الحقيقة.. وهل على المرء أن يقولها؟! لا أحد يبحث عن الحقيقة. المهم يمشي الحال.. كيف؟! لا أعرف. الآن أنا مضطرة أن أكذب على أم عارف. لتقول للجيران الذين رأوني أخرج مع رجل بمفردي.. إنها في زيارة مع طبيب. ما زلت أخاف مواجهة المجتمع.. مازلت جبانة.. كلنا هكذا.. كيف إذاً نحقق الوجه الواحد.. أنظر إلى سامح الذي عبث المطر بشعره. «نريد قهوة يا أم عارف»

«أريد أن أمشي يا عليا.»

«أبداً. لن تذهب تحت المطر ثم إن الصباح يدق الباب.. انظر.»

أزيح الستارة قليلاً. تظهر الفضية الداكنة. بعض نجوم هاربة من قبعة الغيوم.. صوت رياح قوية.. صوت البحر يتدفق كصوت زمن غاضب.. ليل صاخب.. أوراق أشجار تتطاير عالياً ثم تسقط خانعة لأوامر الريح والطبيعة.. هكذا كل شيء مقرر ومحسوب.. كل إلى أجلٍ مسمّى.. سنسهر حتى الصباح يا دكتور.

نظر سامح إليّ بحزن. كنت أشعر بالخلجان تتكسر في يديه. وأحس بالبحر يتلاطم في داخله.. كنت أُشفق عليه. وكنت لأول مرة أريد أن أصرخ غاضبة لأنه دفعني بقوّة لأن أضيّعه.. الآن أتذكر رجل الآثار الذي كان يأتي إلى والدي يفرش ما جمعه من الفلاحين العاملين في حقول سيانو وأوغاريت ورأس شمرا.. كان يقول لأبي. انظر. هذا خاتم عليه نحلة.. وذلك عليه دبّور. وهذه القلادة عليها صورة بعل.. وكان هذا الرجل يضحك على الفلاحين ويحتال عليهم فيأخذ أفضل القطع الأثرية بأسعار زهيدة.. بسعر دجاجة مثلاً أو بسعر حذاء.. ينزل رجل الآثار إلى المدينة فيحتال عليه الخواجة بولس ويأخذ منه القطع الأثرية بأسعار زهيدة ليبيعها الخواجة بعشرات الأضعاف. وتصل بعض القطع إلى سعر خيالي.. قد يمر الفلاح صدفة إلى عند الخواجة الذي يصلّح الحلي الذهبية. وإذا ما رأى الفلاح قطعته الأثرية يسأل الخواجة.. بكم هذه القطعة يا خواجة.. يقول له: هذه تساوي الآلاف المؤلفة.. عند ذلك يخرج الفلاح مكسوراً.. مقهوراً.. إنه الآن.. فقط الآن أدرك قيمة لقياه الأثرية.. ولكن ما الفائدة.. لقد باع.. وانتهى الأمر ما الفائدة. لقد انتهى الأمر.. سامح. تلك القطعة الأثرية المدهشة.. ضيعها بالرماد.. ودفعني لأن أتجاهلها موحياً لي بأنها غير ذات قيمة. الآن جاء يقول لي ماذا تساوي؟ الآن جاء يقول: لنمسك بتلك اللحظة التي هربت منذ سنوات.

الزمن يدور. يلتف. لا يرجع إلى الوراء بشكل خطّيّ.. الزمن واضح على جبين سامح. نهض معلناً الرحيل.

«سامح. أرجوك.. ابق.. سامح»

لم يرد.. لمَّ وشاح قهره.. لفَّ وجهه ومضى.. ناديته «سامح» التفت. كدت أتعلّق بيديه.. أتهاوى على صدره. هذا العذاب الذي في عينيه لا أطيق تحمّله.. تراجعت في الوقت المناسب. علّق نظراته على وجهي.. وأزحت عيني عن وجهه.. فتح الباب وهبط السلّم.

«الجيران يثرثرون يا عليا.. سيقولون بأنك تخرجين في الليل مع رجل.. و..»

«لا تشغلي بالك يا أم عارف. لماذا؟! هذه المرأة تعد نفسها أُماً. نعم كنت جافة كما هي الحياة معي. بدأت أقنع نفسي بموت علي نهائياً. خالد. جهاد. علي.. ماتوا جميعاً. بل يجب أن يموت. ويجب أن أترك هذه المدينة التي تعرف وجهي وأحذيتي. يجب أن أقطع جذوري وأرحل إلى مدينة أخرى لا أحتاج فيها إلى أقنعة ولا إلى حنين.

ولكن «الناس هم الناس» أينما نذهب.

لم أشعر بالصباح الذي نهض يملأ المدينة إلا عندما ازدادت الضجّة وملأت الشارع. تحرك باعة الأرصفة.. والمحلات التجارية المزروعة تحت كل بناء أخذت ترفع أبوابها المعدنية. صيحات أطفال الجيران على درجات السلم.. كنت ما أزال أشرب بقايا الشاي والقهر وأستقرئ القادم من بعيد. أعيد تلاوة الماضي جملة جملة. ربما أستخلص الأنا.. الأنا من الـ هو.

ألو عليا.. كيف حالك.

بخير يا سامح. لا تقلق. ما زلت على قيد الحياة.

بعد ذلك اتصل خليل. صباح الخير.

ـ صباح النور.

قال أنا خليل. عرفتك يا أستاذ.. كان يستحثني للسؤال عنه. عن أحواله. وبما أني لم أسأل ذكرني هو بوجوده. هو الآخر ما يزال على قيد الحياة رغم حروب البوسنة ومجازر الصهاينة في الجنوب اللبناني. ما نزال أحياء رغم كل الحروب القبلية والهمجية بالسكاكين. وبالنابالم والأسلحة النووية. وما زلنا نجوع.. نجوع. رغم الصحراء الممتدة على بحار من الذهب الأسود الذي ورثه أجدادنا الكرماء.. ما زلنا نجوع. مازلنا نعيش.. ما زلنا نحتاج إلى حمارة نجعلها سيارة توصلنا إلى منازلنا رغم ازدياد السيارات ورغم قوانين الاستثمارات الهائلة.. وما زلنا وحيدين.. وحيدين حتى الكآبة رغم الضجة والزحمة وزيادة عدد السكان. وزيادة عدد المدن.

قال خليل:

ـ أحضرت وردتك.. ألا تأتين اليوم.

رائع هذا الخليل.. ولكن لم يعد في أعماقي مكان للورد.. في أعماقي صحراء.. صحراء يا خليل.. ممتدة إلى اللانهاية. في أعماقي بحر خائف ممتد من الاسم اللعنة. من خالد.. إلى جهاد.. إلى علي.. إلى.. آه.. كلما كبرنا ازدادت وحدتنا.

ـ لن آتي اليوم يا أستاذ. الحقيقة أنا متعبة. شكراً للوردة سلفاً. أرجوك لا تعذّب نفسك مرة أخرى. فكرت بإغلاق السماعة قبل أن أسمع جوابه كم أنا حمقاء. فكرت أن أعتذر عن متابعة الكلام. لكني تراجعت.. قد أزعجه أكثر.. إنه سعيد بوردة يحملها بين أوراقه كل يوم.. من سمح لي أن أحرمه هذه السعادة. أو لماذا.. لماذا أحرمه هذه السعادة. قد تكون هي الوحيدة بالنسبة له.

جاءني صوت خليل مكسوراً. لن أقطف الورود إذا لم تكن لك.. وحدك في أعماقي.. ألا تدركين ذلك يا عليا..؟!

بعد ساعة كان خليل على باب بيتي حاملاً باقة ورد وبيده ديوان علي.. تناولت الورد بابتسامة. لم أجرؤ أن أنظر إلى الديوان.

السؤال الذي جابهت به صمتي هو لماذا يحمل خليل ديوان علي. من أخبره. قصتي مع هذا الشاعر المشهور؟!

سقطت من الديوان صفحة من مجلة مشهورة. الصفحة تحمل صورة علي وقصيدة قديمة له. غالبت شهقة قهر راحت تدور في شراييني.

التقط خليل الورقة وقال بنبرة هادئة كعادته. جلبت لك ديوان الشاعر المعروف علي.. أعرف أنك تقرئين له. لكن هذا الديوان أقل مستوى بكثير من باقي دواوينه.

ــ شكراً. فعلاً أنا أحب الشعر.

ــ في هذا الديوان أشياء لم أفهمها يعتريها التناقض. أقرئي الديوان وسترين.

شرب خليل القهوة. تحدثنا في أشياء كثيرة. لم نتحدث عن الورود. تجاهلت دور الورد في حياة الشعوب المتحضرة.. هذا الورد تقليد.. أو تقليعة من تقليعات الغرب.. هي عادة جميلة لا بأس بإدخالها. ولكن هناك عادات أخذنا قشورها. نحن لا نحتاج إلى الورد.. نحتاج إلى الكلمة. إلى تمزيق الأقنعة. نحتاج إلى الرغيف وإلى كفتي ميزان متعادلتين..

«ونحتاج إلى يدٍ قويةٍ تمزق ستار الظلام الذي نتلفع به. نحن نرى من ثقوب صغيرة فقط العالم. هذه الثقوب. تسدّها حشرة.

شكراً لزيارتك يا خليل.

نظر إليّ بابتهاج وقال أنا أَشكرك على القهوة والحوار. على... على كل شيء.

ترك وروده ومضى.

انساب فعلاً كصديق.. أشعر بوجوده المريـــح. شـــعرت برغبـــة عارمة لأكتب إلى سعاد. أزحت الورد عـــن الطاولـــة قليـــلاً فســـمعت صوتاً.. اتجهت إلى الباب أفتحه فلم أجد أحداً. أحضرت القلـم والأوراق وجلست إلى الطاولة. الصوت عاد من جديد. صوت يشبه صوت علي.. صوت رجل. أتسمعين الصوت يا أم عارف؟!

«لا يا بنتي. لا أسمع صوتاً»

غير معقول.. الصوت الذي كان يضحك تحول إلى بكـــاء. إنـــي أسمع بكاءً..

«إنه علي يا أم عارف.»

«افتحي الباب. وإذا كان هو قولي له إني لست هنا»

كأني أؤكد لنفسي أن علي لم ينسني. وأني أعيش فـــي ذاكرتـــه.. كيف سيعرف المنزل وقد غيّرت المنزل القديم؟! كنت أقنع نفسي بأنه لا بدّ سأل وتقصّى.. وعرف أني أسكن هنا.. ورقم هاتفي كذا..؟!

لماذا يتقصّى.؟! المفروض أن يأتي مسرعاً. متلهفاً. لا.. علـــيّ لا يغير مبادئه.. ليس لأن هذا ثبات على موقف ولكن لأنه لا يخون نفســه. لايقبل. لا.. هو لا يعرف مكاني.

وأنا غيرّته.. تركت القرية. قطعوا جذوري بفأس الأخوة. خـــالفوا الشرائع السماوية. مخالفة الإرث ليست مخالفة لكن العشق مخالفة. سير امرأة مع رجل مخالفة. المرأة لعنة. جسدها لعنة يا بنتي.

أعرف ذلك يا جدتي.. ولكن كيف لي أن أحتمل هذه اللعنة الأبدية.

«المرأة ابنة الحيلة»

«يعني على المرأة أن تكون ذكية. تشيل لعنتـــها وتغدقـــها علـــى الرجل»

«الموضوع غير ذلك.. هذا يحتاج إلى اعتراف القانون بحقوقها اعترافاً صريحاً..»

لقد خسرت كل شيء يا جدتي. إني شجرة مقطوعة تعبث بها رياح الزمن أينما شاءت. عندما خسر أبي أرضه.. قال لنا وهو يضمنا تحت جناحيه.. أنا لم أخسر شيئاً. لا تحزنوا.. أنتم ثروتي الكبرى.

غداً تعوضوني عن كل شيء. سأعلمكم.. وسأباهي بكم القرية.. العلم يفتح الأبواب. العلم مجدٌ آخر. سيطهركم من الشقاء. وينزع من جلودكم البرد القديم. وسيجفف أصابعكم من الصقيع. وعقولكم من الظلام المفزع. المستقبل قادم. الإيمان يجب أن يكون بالمستقبل القادم. غفا على دموعه.. حالماً بالغد نام وأفاق.. عاش ومات. والغد لم يأت بعد. وأنا ما زلت يا جدتي الأولى العظيمة. أبحث عن هذا الغد.. يجب أن يأتي. إني أنتظره.. يجب أن أراه.. زميلي «مدحت» سخر كثيراً من آرائي. قال لي يا بنتي. نحن دول العالم الثالث. الغد هو البارحة.. ما يصحّ في باريس لا يصحّ في مملكتك أوغاريت.

«أوغاريت هي الأعظم يا سيد.. يا محترم»

«كانت.. وهذا يعني فعل ماضٍ.. أريد.. سيكون..» معقول أن يكون أبي على خطأ؟!

الآباء لا يخطئون.. يجب ألا يخطئوا

تقرع جدتي الأولى عصاها في أرض حمورابي وتقول «كلما ازدهرت الأرض بزخرفها عادت سيرة العرجون الأول.. سيأتي الزلزال يا أحفادي.. زلزال هز الأرض ليذكرها بالعبر القديمة.. بالقوة الإلهية الأبدية الأقوى.. الإنسان فانٍ.. يخلع قميصاً. يدخل في الآخر. يخرج منه كأنه يخرج من باب إلى باب.

المطهرون يصيرون نوراً يملؤون السماء العليا.. تسحبها الآلهة.

ستملتئ السماء بالنجوم. وستتهاوى النجوم.. سيكون الطوفان. ويظهر أوتنا باشتيم مرة أخرى.. امرأة تطحن الحنطة ورجل يستلقي وبيده نبتة الخلود.. يمر الطوفان ويغسل كل شيء.

أَم علي تقول: الاسم لعنة يا بنتي.

«أأكون لعنة على كل رجل أحبّه؟ لا هم يعرفون كيف يحبونك يابنتي. أنت الأم. والأخت. القديسة والعاهرة. الزوجة والعشيقة، أنت الماء والتراب.. و.. تعبت يا أيتها المرأة التي انبثقت من نسغي.»

لو أن أمي أطلقت عليّ اسماً آخر.. ربما لم أُصب بكل هذه الخيبات. ولكن الاسم ليس أكثر من قناع متعارف عليه بين الناس. والجسد ليس أكثر من قناع متعارف عليه بين الأرواح.

أشعر أني أسير خاوية إلى اللاهدف. إلى اللانقطة. فقدت أطيافي وقراءتي كلها التي تسمّيني. الصوت يأتي خافتاً.. لا أريد رؤية أحد. لا أريد. لا أريد. حتى سامح أعزّ صديق.. فقدته هو الآخر. يبدو أن العمر مجموعة خسارات.

هل أسافر يا سعاد؟! أترك كل شيء وأسافر؟!

لكن.. أنسافر كلنا. لمن نترك شجرة الدلب. ورد الأحبة. شجر الصفصاف هل نترك هذا الفيض الجارف يطغى بمائهِ حتى يدمر أسماءنا التي حفرناها على جذوع الأشجار. وجدران المدارس. والمدن التي أحببناها.

لن نترك هذه الصباحات المستيقظة على طرقاتنا القادمة من الشرق. أشياء كثيرة تتجاذبني يا سعاد. كيف حالك في بلاد الغربة؟

أنا أيضاً في بلاد الغربة. البلاد التي لا أحبة فيها.. لا أهل. ولا مكانَ لقبرك. هي بلاد غربة.

سعاد.. تصوري. لم أرَ عليّ منذ شهرين أسمع أخباره عن طريق

ديوان شعر وزع في المدينة وهو مهدى إلى الزعيم الذي مات وعــاش من جديد لا.. ليس إلى رافع. بل إلى جدّه شهاب ــ وأنت تعرفيــن أن شهاب = زعرور = برهان الأدهم. كلهم متساوون.. الكتاب عنـدي، لا أصدق ما تراه عيني. أتتذكرين؟! قال إنه سيهديني الكتــاب. المشـكلة ليست هنا.؟ المشكلة في الانتماء. المشكلة في الأقنعــة التــي تسـاوي الأسماء = إسماعيل = علي. رافع = فارس = خيبة + علوش = فاي = Φ.

لم أعد أخرج من المنزل. ماتت أمي. ماتت القرية.. لا.. هي فـي دمي.. أنا متّ. هم.. قالوا لي موتي. يعني تلاشيت من القرية. أهــل؟!! أي أهل يا سعاد. أي أخوة، أقارب. أولاد أخوة.. لا.. أي كــان يقـول المثل المعروف «معك ليرة فأنت تساوي ليرة» لم يقل المثل شــهادة = إنسان.. الليرة تساوي إنســان = قرابــة = أولاد أخ = كــل شــيء = مصلحة = إنها قشور المدينة.. مع ذلك لم أفقد إيماني بالمستقبل أبـــداً. لهذا كنت أريد أن أتزوج وأنجب طفلاً. أحمّله المستقبل. يجب أن يكـون المستقبل أكثر إضاءة لأن هذا الحاضر المظلم هو مقدمة لنهار سـيطلع. دعي جدتي في صومعة نبوءاتها.. لن أترك لعصاها السحرية أن تعبـث بي.

منذ فترة يا صديقتي أرى نفسي في حلم يتكرر.. أرى أني أركـب سفينة أو أبحر. أبحر دون توقف. تغيب عليّ الشمس. تشرق. وأنا مـا أزال في البحر. المهم أني أبحر. كأني أقصد أرضاً لا أعرفها. وحوتــاً سيبتلعني ويأخذني إلى عالم آخر. أنتظر أوقيانوس جديد. في آخر المـاء أجد قمة ثلجية. يقولون لي هذا هو موطن الإله كاسيوس.. يا إلهي.. هذا موجود في مملكتي.. ما الذي أتي به؟! أرى على قمته وحشــاً. يظـلّ محدقاً بي. لا أجرؤ على الاقتراب. ما زلت أحمل العدوانيــة القاسـية للوحوش.. حتى في المنام؟!. بعد ذلك تميل السفينة. أهبط قاعاً مظلمــاً. أخرج منه إلى بحيرة عذبة الماء. أرى خالد وسامح وعليّ وهدى ابنتي

لم تمت.. أرى عدة نساء لا أعرفهن.. سمراء. وشـــقراء. وحنطيـــة. وحمراء أنظر إليهن. من هؤلاء النسوة؟! يأتيني صوت غريب.. إنـــهن أنت. هن = أنت. أحدّق بالجميع. لا أكلم أحداً. يغضبــون. عنــد ذلــك يركضون ورائي حتى يمسكوا بي. يصعد سامح منبراً. أَضحك.. متـــى كان هذا الرجل خطيباً.. يقول أيها السادة: سنطفئ في عينيها تحـــولات الأزمنة. سنمسح عن ذاكرتها كل التعاريج لتكون نقية. طاهرة. يتحلقون حولي يفتحون جمجمتي. يصرخون مندهشين.. يا بعـــل العظيـــم.. مـــا هذا؟!! يمررون أيديهم فوق تعاريج كثيرة.. هذا.. وهذه. وتلـــك.. مـــا اسمك يا امرأة؟! لا أرد. قولي اسمي زينـــب. أقـــول: اســـمي زينـــب. يمسحون مرة أخرى.. ما اسمك يا امرأة. قولي اســـمي فاطمـــة.. أردد الاسم.. ولكن ينظر بعضهم في عيون بعضهم.. يسكبون سائلاً حارقـــاً.. أتأوّه.. أغيب ولم أعد أرى شيئاً.. بعـــد وقـــت لا أعرفـــه.. ســـنوات، قرون.. لا أعرف. يقولون. ما اسمك؟ أسكت.. قولي اسمي. ســـكينة.. اردد. اسمي سكينة. يعودون للحالة ذاتها. يعيدون رأســـي كمـــا كـــان. يفتحون فمي. ثم يبصقون في فمي كلهم.. يضحكون بفـــرح. آه.. لقـــد نسيت كل شيء. الآن هي بُردية جاهزة تلقي حبركم المقدس.. بعد ذلك. أراهم يرفعون السكاكين كأنهم يرفعون السكاكين كأنهم يرفعون الكؤوس والأنخاب.. هيا.. يبدؤون بقطع جسدي. يأكلونه أمام عيني. وأنـــا؟! لا أبكي. لا أًصرخ. لا أتهم أحداً. تقترب امرأة عجوز وتقول لي: انـــهضي يا مريم. أظل في مكاني. انهضي يا مريم.. أسألها. أنا مريم؟! أجـــل.. هيا. أنهض. تأخذ يدي ونسير معاً عبر غابات نخيل وشـــلالات مـــاء. تزغرد الطبيعة. تمشي بي إلى صخرة. تقول العجوز امكثي هنا. هنـــا عند الصخرة حتى أعود إليك بالفاكهة. أنتظر حتـــى تغيـــب الشـــمس. ويرخي الليل عتمته.. أرى السماء تتلألأ بالنجوم. أعدّ النجوم. أنتظـــر وأنا لا أجرؤ على الحراك من مكاني. أنا مريم.. التي قالت لها العجـــوز لا تتحركي من مكانك. لكن العجوز لم تأتِ. أسمع غناء عذباً من بعيـــد. غناء إنسان. أصغي وأنا أتكور خائفة فرحة. أسمع تكســـير أغصـــان،

وقضقضة أوراق تداس. ينبثق شابٌ من بين الأغصان يضيء وجهه المكان. يبتسم لي ويمدّ يده كي أمسكها، «أبحث عنك يا بلقيس.»

ترتجف يدي بين يديه. أنا لست بلقيس يا سيدي. أنا مريم. هكذا قالت العجوز. العجوز التي تشبه أمي = أنا = هنّ. أخذ الشاب يغني ويعزف على آلة غريبة. صوته الشجي جعل الأغصان تتراقص.. نهضت ورحت أرقص. الأوراق اليابسة تطير وتتحول إلى عصافير. يحيط الشاب خصري ويسير بي على رؤوس الأصابع.

أشعر أني أملك العالم. أنا أميرة.. ملكة.. يهمس «أنت ملكة سبأ»

أنت بلقيس الجميلة.

يا إلهي. من بلقيس هذه؟! يضع يده في فمي «هس» يظلّ يغني ويحلق في الهواء وأظل أرقص. أسأله «من أنت يا سيدي»؟ لا يرد.. يبتسم فقط.. من أنت يا سيدي؟!

قال لي: إذا عدت إلى السؤال ثانية لن تريني أبداً. رقصت أياماً ولم أشعر بالتعب ولا بالجوع. كنت روحاً تطير من جسد إلى جسد.. أنظر إلى وجه الشاب فأقول «أعرف هذا الوجه» مرّة أقول: هو.. إنه خالد.. إنه أبي. إنه علي. إن فيه عطر خاص. أشياء كثيرة ضعت في غياهبها. أعرف أنه الذي علم الناس العزف والغناء على الجماجم.. لا..لا.. إنه الإله الذي عزف لحبيبته كي تحس بوجوده فتتبعه.. أسئلة كثيرة أخافها كي لا أفقد هذا الشاب الوسيم. وكي لا أخرج من هذا العالم الساحر في كل مرة يقبلني الشاب ويقول لي.. أحبك يا بلقيس. آلاف السنين وأنا أبحث عنك. أخيراً وجدتك. سآخذك معي. كي لا يراني حراسك وجنودك. يطير بي الشاب. أصل القصر في لحظة. قصرٌ كبير. واسع. أشعر بالخوف يطلب إليّ الدخول إلى القصر. لا أجرؤ. إني أراه مظلماً. وممتداً إلى ما لا نهاية. على جدرانه الخارجية ترتسم صور وحوش وحيتان مجنحة. فيلة. وآلهة. وبشرٌ عبيد. مقطوعة أيديهم

وهم يحملون الأحجار الضخمة ورؤوسهم تنزف. الدم الأحمـــر يلـــون القصر.

«ادخلي يا حبيبتي»

لن ادخل.. إنه يأمرني.. أشعر بالخوف الشديد. كيـــف أدخــل؟! نظرت إلى الأرض.. رأيت آلاف الأيدي البشرية تنبجس مـــن تحـت أساس القصر.. أيد تحمل القصر وهي تتأوه وتنزف. أرفع بصري إلـى أعلى.. أرى القصر بشكل هيكل، على زاوية منه علقت جمـــاجم أبـي وعلي.. وسامح.. وفي زاوية أخرى رأيت خالد.. رأسه.هو.. إنـــه لـم يمت بعد.. رأيته ينزف. هذا رأس رجل اسمه خالد.. أعرفه. نظـــرت إليه بكيت.

«ادخلي!»

«لن أدخل. أعدني إلى الغابة. إني أنتظر جدتي. يقهقـــه بصـوت عالٍ أجده رجلاً آخر.. يحرك يده فتتحول الآلة الموسيقية إلى ســيف.. يمده بسرعة ثم يقطع يدي.

أتشبث بعمود رخامي.. يأمر حراسه «خذوها وألقوها في اليـــمّ» يدي تنزف. يجرونني. أجرف الحصى بجسدي. الشاب يتفـــرج علـيّ ويقهقه.. أعيدوني إلى الغابة.. أبكي وأتكوم على جراحـــي النازفــة. لا أحد يردّ عليّ «لا رأي لمن لا يطاع» وصلت إلى بحرٍ يشبه بحرنـــا.. وشاطئ يشبه شاطئنا. قالوا: ارموها.

هاأنا أغرق يا سيدي.. ولا أحد يرّد.. لوحت بيدي تلويحة غريـق. انقلبوا على ظهورهم.. أحاطت الأسماك بي. أخـــذت تنـهش جســدي المتعب.

تجزأ جسدي في آلاف الأسماك. صرت أبكي أجزائي المبعـثرة.. أجزائي التي ذابت في بدايات ونــهايات كثـيرة.. أريــد أن أكتمــل..

أَصرخ.. لا أعرف كيف أصرخ.. تردد الأجزاء كلها.. في كل مكـــان. أريد أن أكتمل. أريد أن أستعيد امرأة كانت هنا.. لا. هناك.. بل لم تكـن هنا ولاهناك.. أريد أن أكتمل.. أدخل دائرة الخلود.. أصير في محـــور المجرات. ولكن صوت المرأة العجوز يأتيني من القاع. ســـتظلين فـــي بحثك الدائم. ستظلين في الركض الأبدي ولن تصلي أبداً.. أنتحبُ عليّ. أنا التي أتوزع في بحار تعيد تشكيلي من مياهها كأنها الأزمة.. تخـــرج إليّ المرأة.. تبكي. أنا جدّتك.. أتوسل إليها أن تلمّني وتعيدني إلى مريم. إلى فاطمة. إلى سكينة. أو أَي امرأة أخرى. تهز يدها بأســـي.. تمســـح دمعتها وتقول لا فائدة.

أسترحمها ثانية. لكنها تدير ظهرها وتتركني.

أظل أبكي أشلائي. تمرّ عليّ أزمنة وملوك ومدن.. أنتقل من عهدٍ إلى عهدٍ.. أدخل في مورثاتهم وذاكرتهم. هذا يقتلنـــي. وذاك يعشـــقني. وثالث يطردني، ورابع يجعل مني مقبرة لنزواته. وآخر سيفاً لثاراتــــه. وقد يجعلني جذعاً لفروعه. لكني أظل بين مـــدّ وجـــزر. بيـــن أمـــيرة وجارية. لا قرار لي. يقررون عني. يتحدثون عني. يحـــاربون عنـــي. يقايضون بي أنا الأم والأخت والزوجة والقديسة والعاهرة والرجل منـــي وأنا منه. يتاجرون بأشلائي.. وأنا أظل أبحث عن أشلائي في كل جيـل. أبحث عن اسمي في كل اسم. أرنو إلى البحر فأشعر بشوقٍ عارم إلـــى مائه. إلى قاعه. إلى السفر فيه. أنظر إلى اليابسة. تمر أمامي أشـــلائي في بشر لا أعرفهم وأرى وحوشاً تتصارع. ودماء تجـــرف الحجـــارة. وأرى قصوراً تبنى من جسدي حجارتها. أرى كل هذا ولا أعرف مـــن أكون بلقيس أم عنتُ.. أم فاطمة. لكني أظلّ في حلم قـــاتل بالمســـتقبل الذي أهزّ فيه نخيل الخلود فأكون عصية على الطوفان.

لماذا أقول لسعاد إنَّ هذا مجرد حلم؟!

أهو حلم فعلاً؟! ام هو حقيقة؟! ما الذي ينتابني كـــل مســـاء. أرى

ترابي يتجزأ.. وأشجاري نائمة. أرى ولا أرى. أصدّق ولا أصدّق.

هو حلم..

أجل يا سعاد. إنه مجرد حلم. نحتاج إلى أحلام غيبية نعوض فيها برودة الجليد والإسمنت.. فظاظة الكومبيوتر.. والشظايا القاتلة.. البارحة يا سعاد وبعد أن استيقظت من هذا الحلم المرعب.. زارني أحد أخوتي.

شرب القهوة بصمت.. لا شيء نتحدث فيه.. كنا غرباء تماماً. لم أسأله عن القرية ولم يسألني عن عملي.. الأشياء التي تجمعنا باتت قليلة جداً. أجل قليلة. بضع سنوات من طفولة مشتركة. ورحم عاد إلى التراب.. نظر إليّ ثم قال بصوت أجش.. أنت أسأت إلى أسرتكِ..

أنا..؟! هل لي أسرة؟!

صرت ناضجة يا علياء بما فيه الكفاية.. المفروض أن يكون لك أولاد في المدارس.. مع ذلك لا تراعين أسماءنا وسمعتنا.. فأنت تخرجين مع أي زميل. أو أي صديق. مساء. وصباحاً. وتستقبلين الغرباء في منزلك؟.

ـ عندما لا يكون بجانبي أحد.. رجل ما.. فإني سأبحث عن هذا الرجل. يبدو أني يا صديقتي الغالية أخرّب سمعة العائلة. وأسيء إلى أخلاق القرية التي نشأت بها. كيفا أصون الاسم الكبير للعائلة؟! يا عزيزتي.. اسمعي أقترح أخي أن يبني لي غرفة ـ أنا أدفع التكاليف ـ في القرية قرب منزله طالما أرفض الزواج.. وهو سيساعدني بأن أستخدم الحمام والمطبخ. وبذلك أبتعد فيها عن المدينة التي تخرّب كل شيء. بعد ذلك قال جازماً.. إذا لم أمتثل لقراره ولقرارات الأسرة فإن لهم تصرفاً آخر.

الحقيقة لا أدري ما هو يا سعاد. لكن بإمكانك التخمين طالما

تحملين مثلي الإرث الكريم للعائلة.. أما قلت لك؟! في أجسادنا ـ نحن النساء ـ الجنّة والنار؟!

سامح يتصل بي. أنا أعتذر باستمرار عن لقائه. لا أعرف لماذا. سمعت أن زوجته تزوجت من رجل عجوز. يملأ ذراعيها بالذهب. أما علي فلا أعرف حتى الآن السبب الحقيقي وراء غيابه.

لا أصدق حتى الآن أن علي يخذلني.. هل تصدقين أنت؟!

أخاف أن يكون الأمر في غاية السوء..

الأخبار الأخرى تصلك. مثلاً الاتفاقات الاستسلامية كلها وقعت تقريباً. رقص قزم العمامة.. ودبك الملك.. ذقنه البيضاء ارتجفت عندما قبله سيد الهيكل.. ملوك كثر باركوا هذا الاستسلام الموقر. التراب الذي رقصوا فوقه تحول إلى ساحة حمراء.

رأيت الشاعر حسن.. فكرت أن أسأله عن علي ولكني تراجعت. لقد ضيعت أشياء كثيرة. ليكن عليّ واحداً من أثمن الأشياء التي ضاعت. أحياناً يحتاج المرء لأن يردم. لا أن ينبش. هزمت؟! ممكن جداً. قلنا هكذا. ولكن يجب ألا نعترف بالهزيمة. يجب ألا نؤكدها. أليس كذلك. يجب الخروج من طوق الاختناق هذا. كيف. ربما عن طريق بثنا في أجساد جديدة. أجيال جديدة تحقق عالم نحققه. ربما لهذا يحتاج المرء إلى الولد. ما يحدث الآن ليس نهاية المطاف. هناك خسارات قادمة.. لكن أيضاً لا بد أن تلوح في الأفق انتصارات قادمة.. الدول تشيخ. الحضارات تشيخ. المدن. الإنسان.. لكن هذه الشيخوخة تدفع إلى بدء جديد. إلى تجذير آخر. وآخر. أحياناً لا بد من الطوفان. لم أعد أزور القرية. هي ليست لي. ولو أني أرغب في العودة إليها. أيضاً المدينة ليست لي. أفكر بالرحيل. إني غريبة أجرّ أسمائي وأمشي. يتجاهلونني. وأنا لا أريد أن أعرّف بنفسي. إني غير آسفة على شيء.. وأظن المدينة غير آسفة علينا، يكفي أنها تحتوي سيدات المخمل مثل رندة. وغيرها. إنها تنوب عن كل سيدات المدينة.

رندة قالت: ومن عليا هذه؟!

ألم ترَ رجلاً حتى الآن يتزوجها ويريحها من وحدتها.. معذورات يا سعاد.. أنا. أشفق على رندة ومثيلاتها.. فهكذا تحول يحتاج إلى هكذا أجوبة. أبي كان يردد «أوقية من الذهب تحتاج إلى قنطار عقل»

خليل ما يزال يقطف لي الورود ويراهن على أني سأحبه. أنا لا أدري. أظن أني فقدت القدرة على الحب. وهذه كارثة.. ما رأيك يا سعاد. هل أجد رجلاً يتزوجني ليقبلني المجتمع في قطيعة وبذلك أصون اسم العائلة وأعيد إلى أخوتي كرامتهم.. هم يتمنون أن أتزوج جنرالاً. أو زعيماً بذلك أعيد مجداً مفقوداً وأصير سيدة راقية. بصراحة. أفكر بالذهاب إليك يا سعاد. إني متعبة.

سوف نعيد سيرة تسكعنا الأول على نهر الراين حاملين النعنع البري ونهر السن. والبحر. سنعيد وجوهنا المحملة بشمس أوغاريت ورأس شمرا. وسيانو. وقلعة صلاح الدين.

«من أي بلد أنتما؟»

«من بلد الشمس. من بلد الأبجدية. من رائحة أزهار الليمون.. من شوفان الأسطحة الترابية المخضرة. من مدينة تغفو على البحر وتفيق على شباك الصيد.. آه يا سعاد. بشوق إليك لقد أطلت جداً. أعرف. أني ثرثارة جداً هذه الأيام.. لا أجد من أثرثر معه.. ربما سيكون هذا الأمر سبباً مقنعاً للزواج. على الأقل تتحدثين إلى رجل بدل أن تتحدثي إلى جدار. مرة طرحت الفكرة على علي.. قال إذن عندما ينتهي كلامنا سينتهي حبنا.؟!

أجل.. يا سعاد... في المقهى البحري ستلاحظين فوراً.. العشاق يثرثرون في كل شيء.. وكل شيء له قيمة مهما كان تافهاً. لكن بعد الزواج يقعد الزوجان صامتين. يرمقان البحر من وراء زجاج نظيف.

عندما أغلقت الرسالة شعرت بالندم. لماذا أخبر سعاد عن كل هذه الأشياء.. لها همومها. ولها أحزانها. يجب أن أجد طريقة لتوصيل ما

أفكر فيه. ربما التحول إلى الكتابة أمر مهم.. الكتّاب ينتهون عندما ينتهي كلامهم على الورق..

الرسالة التي خطتها عليا.. كانت آخر أثر تركته بخطّ يدها. سعاد قالت وصلتني الرسالة بعد كتابتها بشهر. لا أعرف عن عليا شيئاً غير ذلك. أما سامح فقد انزوى في عيادته. لم يخرج إلا قليلاً. يتجه إلى البحر. يمشي وحده متأملاً.. وعندما يتعب يجلس على صخرة معينة. يمرّ بعض الأصدقاء.. يسلمون عليه.. يرفع لهم يده ويعبّر عن رغبته في الانفراد بنفسه.

«الدكتور تعبان»

يتركونه ليظل غارقاً في تأملاته. في طريق يمرّ على منزل عليا. يقف أمام نافذتها. ما يزال أصيص الحبق. الستائر مسدلة. والمنزل يعبر عن حزنٍ دفين.. في المساء لا تشتعل أنواره. يظل قابعاً في العتمة. لا ضوء ولا حركة. قد يطول وقوف سامح لدرجة ملفتةٍ للنظر.

ماذا تفعل هنا يا سيد؟!

يترك سامح الشخص الذي يسأله ويمضي. حتى الوقوف في أماكن محددة ممنوع. كل أسبوع يأتي.يدقّ الباب ولا أحد يجيب. يسأل الجيران. هل جاءت صاحبة المنزل.

كل الأسئلة تواجهه بالنفي. يترك منزلها ويمضي إلى السوق يسير على غير هدىً. يقف أمام الواجهات. يدخل الكافتيريا التي كان يجلس فيها مع الشلّة.

البارحة رأى امرأة تمشي أمامه. ترتدي ثوباً يشبه ثوب عليا، وتترك شعرها على كتفيها. تمشي مشية علياء. هي.. هي. يخفق قلبه. يقفز أمامه أراد أن يصرخ. عليا.. ولكن خجل من المارة. مشى

وراءها.. ظلّ يمشي وهو يمشي.. حاول اللحاق بها فلم يستطع. انعطفت إلى الغرب. انعطف وراءها. لا يزيح نظره عنها. نزلت في الشارع البحري.. إنها لا تلوي على شيء. تقف عند بوابة الحديقة تلامس السور. تدخل.. تتجه إلى شجرة الفلفل الكاذب التي جلسا تحتها آخر مرة. نظرت إليها. كاد أن يلحق بها. ناداها.. لم ترد. اقترب منها.. إنها هي. هي. رائحة عطرها. حركتها.. سارت باتجاه باب الحديقة.. ظلّ يتبعها.. اتجهت إلى الحارة التي تسكنها.. دخلت زقاق منزلها. سار وراءها.. سبقته إلى الزاوية الموازية للباب.. غابت عنه في الانحناءة التي تؤدي إلى المدخل الرئيسي. كان يسير مسرعاً. يلهث.. دخلت المنزل.. هكذا قرر.. لا بد أنها دخلت منزلها، لم يرَ ضوءاً ولم يسمع حركة. ولكن أين اختفت؟! قرع الباب. لم يرد أحد.. ظل يدق. يدقّ إلى أن سمعه الجيران.. « يا أستاذ لا يوجد أحد..« جارتها قالت: هذا هو دكتورها..»

أجل.. أنا دكتورها.

«والله لم نجدها منذ مدة.. هي مسافرة! انسحب من الجموع.. كأنه ينسحب من الحياة تاركاً كل شيء مكانه. شحب لونه وكاد يسقط قبل أن يصل إلى منزله.

اليوم رآها أيضاً.

تبعها.. سارت إلى شجرة الفلفل. جلست تحتها.. هذا هو ظهرها.. ناداها.. لم ترد.. اقترب منها.. نهضت ومضت إلى الشاطئ.. وقفت على صخرة.. مشى بحذر.. لماذا تفعل به هكذا.. همس كي لا يفزعها «عليا؟!» اقترب أكثر. رائحة عطرها تملأ ذاكرته.. هي.. عليا.. لم ترد.. ربت على كتفها.. التفتت المرأة نظرت إليه مندهشة. نظر إليها..

«آسف.. لقد ظننتك...»

تركها ومضى إلى شجرته. جلس على المقعد الخالي.. يريـــد أن يبكي. لماذا تظهر له هذه المرأة. ولكن هذه ليست عليا.. بالتأكيد.. آخـر مرة جلسنا هنا.. أفضى إليها بحرائقه.. أتراها هاجرت؟! تبخـــرت..؟! تحولت.. غرقت في البحر؟! أم عارف تزوره بين الفـــترة والأخـرى. تسأله عنها وهي تبكي. قالت له: آخر يوم سهرت مطولاً. كتبت رســالة إلى صديقتها. قالت لي.. ضعي الرسالة يا أم عارف في الــبريد. بعـد ذلك رأيتها تفتح خزانتها. وترتب بعض أوراقها ورسائلها. أنـــا نمـت وتركتها. استيقظت أكثر من مرة.. نامي. نامي يا بنتي. الصباح ربـاح» لم تردّ عليّ. أنا نمت.. والنوم سلطان.. استيقظت ليلاً فلم أرها. لكنـــها عادت في الصباح.. ظلت ساهمة. لم ترد على الهاتف. ولم تقل كلمة.

مديرها في العمل قال: جاءتني صباحاً كانت أنيقة.. سعيدة. طلبت إجازة بلا راتب. وافقت فوراً لأني أعرف أنـــها ليســت فـــي المكـــان المناسب. أقدّر ضيقها. فهي أستاذة جامعية. مع ذلك شاءت الظروف أن تعمل في قسم المحاسبة. لم تستكمل الأوراق.. تركتها في عهدة زميـــل لها.. نحن لم نسألها عن الأسباب، الإدارة لا تتدخل فـــي خصوصيـــات الموظفين. خاصة إذا كان الموظف مثل الآنسة عليا.. لا تجـــامل.. ولا تقبل المساومة.. للحق هي مثقفة وأنا أتحاشى الحوار معها.

خليل الذي لم يره أحد يسأل عنها.. يحضر وردته كل صبـــــاح.. وبعد انتظار مضنٍ يضع وردته في كأس ماء على طاولة عليـــا حتـــى نهاية الدوام فيفرط وريقاتها ويمضي. لكن إذا ما سأله أحد عنها. تحمـــرّ عيناه ويغادر المكان دون كلمة.

آخر شيء فكّر فيه سامح هو السؤال عنها عن طريق سامي.. لــم يجده. قيل له سافر من زمن طويل ترك المدينة وسافر خـــارج القطـــر ليعمل في التجارة. افتتح فروعاً في عدة دول. واستلم وكالة قطع غيـــار للسيارات التي تملأ البلد.

في نهاية كل أسبوع يقضي سامح عطلته في استجواب الأصدقاء. والأماكن والجدران.. منزلها.. الحديقة.. شارعها. حبقتها التي جفّت ويبست على النافذة. أم عارف التي تدخل المنزل. تفتحه للتهوية. تنظفه. ثم تغلق ستائره وتمضي. إحداهن قالت: ربما هربت مع رجل إلى مدينة أخرى.

سامح يعرف أنها لا تهرب.. قرارها لا يحتاج إلى كل هذه الثورية. إنها امرأة تعرف أن تقرر. وهذه ميزتها.

أخرى قالت: قد تكون في شقة مفروشة.

أخوها قال: طالما هي لم تمت فعدم معرفة أخبارها أفضل. تنهد سامح وقال: بعد الأم والأب.. الأهل لا يساوون حتى الجيران. غادر القرية ومضى إلى نهر الشحادة.. هنا سارت عليا.. هنا نزلت في الماء.. هنا. و.. مشى في كل الأمكنة والطرقات التي مشتها. أم عارف قالت: كانت تصمت كثيراً في الآونة الأخيرة. وكانت تشرد.. أحكي لها الحديث أكثر من مرة. ومرة أخذت لها رسالة موقعة باسم بلقيس. وضعتها في البريد. وعندما سألتها. قالت هذا اسم مستعار خوفاً من الذين يفتحون الرسائل. المدينة صغيرة وأسرار الناس تنتشر بسرعة.

المدينة تسهر على سيرة أستاذة جامعية غرقت في البحر. يقولون إنهم رأوا ثياباً بيضاء تطفو. ويد تلوّح. ذهب أحد الصيادين باتجاه الثياب. إنها امرأة.. سمراء. طويلة لكن الموج العالي غمره بحيث غابت المرأة عنه نهائياً. سبح حول النقطة التي ظنها تخفي المرأة. سبح في كل الجهات ولكن لم يجد لها أثراً بعد ذلك.

حين عاد الصياد إلى الشطّ أكد لنفسه أنه لم يرَ شيئاً. لكن حذاء المرأة كان ملقىً على حافة الشطّ. إذاً هي امرأة؟! كان الحذاء جديداً وكانت نمرته ما بين «٣٨ أو ٣٩» لم يكن الحذاء مغموراً بماء الملح. صاحبته خلعته على الشطّ.

آخرون قالوا.. ستعود. هذه المرأة لا بدّ أن تعود. ربما غـــادرت القطر سراً عن طريق بيروت.. أو في باخرة صيد عن طريق قبرص.. السؤال الذي حيّر سامح.. لماذا تلجأ إلى مثل هذه الأساليب. إنها غــير ممنوعة من السفر. فلماذا تفعل ذلك؟! لا.. قد تكون في دمشق.. أو فــي حلب عند أصدقاء لا نعرفهم. تريد أن ترتـــاح بعيــداً عــن هزائمــها وانكساراتها.. أم عارف قالت إنها اشترت عدة نسخ من ديــوان علــي. كانت تحرق ثلاث نسخ أو أربعاً كل يوم وكانت تقول كلاماً لا أفهمـــه. كانت تمزق الديوان ورقة. ورقة ثم تشعل النار فيه.. سامح لا يقتنـــع. قلبه لا يصدق أنه لن يرى علياء أبداً.

لن يناديها «علياء... علياء..» لن يتصادم معها حول آراء كثيرة.. حول الغيب، والواقع.. حول الآلهة المتمترسين في الأعالي.. أيعقـل ألا يراها مرة أخرى.. كانت أقرب مخلوق إلى قلبه.. ولكن عندما اعــترف لها شعر أنه فقدها.. كل يوم تتصل بسعاد إلى بـــاريس. يســألها عــن علياء. ويناقشها في غيابها.. يتهم نفسه «أنا السبب.. أنا يا ســعاد» ثــم يبكي..

«كان من المفروض أن أتركها تكتشف وحدها خفايـــا شــاعرها المفضل» لكني كنت مقهوراً يا سعاد.. صدقيني. هو صديق طفولتـــي.. لقد خذلني أنا أيضاً.لماذا لا يكون علي وراء غياب عليا.؟!

وقف سامح تاركاً من يده مريضة. فتح الباب وخرج. الممرضـــة نادته.. يا دكتور هل أغلق العيادة!! لم يرد.. كــان مــأخوذاً بفكرتــه.. أجل. علي وراء غياب عليا.. إنه احتمال حقيقي.. ربما وهو في نوبـــة من نوبات عصابه وفصامه قتل عليا ليتخلص من آخر نبرة في ضمــيره الحي.. عليا كانت ضميره الذي يذكره في كل لحظة بأنه انــزاح إلــى الحضيض. عليا هي صوت أمه.. والعم صالح. هــي صــوت فــارس صوت الوكف. اخضرار الأرض. النهر.. الوحوش.. هي.. هــي كــل هؤلاء.. تذكره بأشياء لا يمكن أن تترك أماكنها وتهرب..

مستحيل أن تهرب عليا.. سامح يؤكد لنفسه ذلك. عليا لا تعـــرف هذه الأبجدية. كانت دائماً مصرّة على ولادة المستقبل الجميـــل. كـــانت وهي في أوج ضيقها تؤمن بالخلاص. وتردد مقولة الأجــداد.. ســيأتي رجل من الأعالي.. سيخضرّ الحطب اليابس في يديه وستأتي امرأة مــن زبد الموج.. يلتقيان. ينجبان ذرية تملأ الأرض بالعمران والأشجار بعـد قحط وفيضان.

يقف سامح على رأس شارع يطل على البحر.. لا.. لا أظــن أن عليّ يقتل حبيبته. علي مظلوم.. هكذا أظن. لا أقـــدر أن أصــدّق أنـــه ارتكب كل هذه الحماقة تنهد سامح.. دمعة حارقة اختبأت تحت جفنيـــه. سار قاصداً البحر.

ـ هـ ـ

مرت شهور على غياب امرأة كانت تملأ المدينة، حضوراً وحياة، وجمالاً.. شهور راح السؤال يشيخ بعد ذلك.. والعنكبوت نسج خيوطـــه على اسمها الذي لم يعد يتردد إلا قليلاً بين سامح وأم عارف. وخليـــل أحياناً. سامح حاول النسيان.. بل هو يوهم نفسه بذلك.. هو الذي أحبـــها أكثر من أي امرأة في العالم. هو الذي تمنّاها من بين كل النساء.. إنـــها قريته. وشاطئه.. هي مدينته. والغربة.. وسهرات الأرصفة في بـــاريس. هي الماء الرقراق الذي كانوا يشربونه في أعالي الجبال.. كل خطوة لــه فيها ذكرى.. كل نسمة من نسمات أيامه فيه عطرها.. نزقها. حنانها.

كان الشتاء في آخره. وكانت الأيام رتيبة.. ســامح يســتمع إلـــى موسيقا عبد الوهاب.. تذكرها.. أجل. هي تحب هذه الأغنيـــة.. «كـــان

أجمل يوم، يوم ما شكالي..» الصوت يكسر صقيع النسيان.. يمزق خيوط العنكبوت والغبار.. امتدت الأغنية كَيَدٍ.. مسحت كل شيء عن صورة عليا.. عادت تبتسم.. شعر سامح أنه يعتصر قلبه.. وأن دمه يسيل.. لماذا تكافئنا الحياة بهذه الطريقة..؟! تركنا لهم كل شيء. لهم... حسن.. وسلوى.. وأمثالهم.. تركنا لهم أن يسرقوا كل شيء مع ذلك لم يقتنعوا.. لقد مدّوا أيديهم إلى قلوبنا. يريدون خفقات القلب. يمسك سامح بفنجان الزوفا الذي أمامه.. يكسره على البلاط.. يسيل شاي الزوفا.. يا لرتابة الأيام.. يقول سامح لنفسه.. انتهت أغنية عبد الوهاب. الصمت.. الصمت.. هاتف يرن.. يظل سامح صامتاً، جامداً في كرسيه.. الهاتف يرن.. يرفع السماعة ويغلقها.. وعندما عاد الخط ثانية خلع الجهاز من الجدار.

«علي لا يقتل عليا.. ربما سامي قتلها.. أو أخذها معه.. ولكن عليا عاقلة.. يا أخي لا يوجد واحد عاقل.. كلنا مجانين» ينتبه سامح إلى خبط على الباب.. ينصت.. الدقات على الباب تصمت.. بعد قليل يعود الدق على الباب.. ينهض سامح متثاقلاً ومن الذي يأتيه الآن.؟! بابه لا يعرف أحداً.. غاب الذين يعرفهم.. سمع سقوط شيء على الباب.. خبطة قوية.. أشعل الضوء الخارجي.. نظر من العين السحرية إنه شبح رجل.. رجل يتكور على الباب.. فكر سامح بأن يتركه.. لعله فقير يبحث عن مكان للنوم .. أو سكّير.. اشتعلت وساوسه.. دهش عندما فتح الباب.. لا يمكن.. أنت؟! لا أصدّق.. أنا لا أصدّق الذي أراه.. رجلاً نحيلاً.. شعره طويل. وذقنه طويلة غزاها الشيب. ثيابه رثّة.. يا إلهي..

«علي..!»

انفرط عقد الأسى. بكى سامح وهو يعانق علي.. إنهما مشتركان في الإثم.. مشتركان في التراب.. في العذاب.. إنهما يحبان امرأة واحدة.. سامح يشم رائحة عليا في عليّ.. ألم يعانقها في منزله.؟! يتوجع سامح لمنظر صديقه.. يريد أن يجهش بصوت عالٍ.. ينتحب.

يريد أن يبثه كل همومه..

دخلا.. أغلقا الباب.. كل منهما يحدّق بالآخر. «رموني هنا» لم يستطع عليّ أن يكمل.. أخذ يبكي مثل طفل. ازداد علي نحولاً. كأنه كبر عشرين عاماً. «أريد ماء» بعد أن شرب عاد إلى إغماضته. كان هادئاً.. ساكناً. لكنه فجأة كانت هزّة تنتابه. يصرخ «آخ.. أولاد الكلب» يمسح سامح بيده على جبينه.. حرارته مرتفعة. يقرفص قربه ويبكي.. كل هذا القهر الذي بداخله سيلقيه على جسده النحيل.. سيبكي لأنه غير قادر على الصراخ..

«يا سيدي.. لا أريد طباعة الديوان.. يا حسن الكلب» كان علي يهذي ويجيب على أسئلة كثيرة. يصمت.. يغمض عينيه. ثم فجأة يصرخ.. خذوني إلى بيت سامح» يبكي.. يحمل سامح الماء والحبوب المهدئة.. «أرجوك أشرب» ينظر إلى سامح بعينيه الجميلتين. كأنه يقول أنت وحدك الملاذ.. قبل أن ينصاع لرغبة سامح ويشرب الحبوب سأله: أين هي.؟!

نم الآن.. حاول أن ترتاح يا أخي..

هذه الكلمة كادت أن تخدش روح سامح.. يا أخي وهو الذي لا أخ له لأول مرة يشعر بالحاجة إلى الأخوة.. إنها أخوة المصير الواحد.

مرت أيام على خلوة سامح بعليّ.

مَن يداوي مَن؟! لا أحد يعرف. مَن يعاتب الآخر. لا أحد يعرف.

«أجل.. لا يمكن.. إذا ماتت نصير بلا مأوى.. بلا حديقة نزرعها بالحبق. بلا طريق يحملنا إلى البحر. نصير بلا. بلا ذاكرة»

«أتحبها يا سامح؟!»

ينكِّسُ سامح رأسه ويظل صامتاً ينظر إلى البلاط الملوّن بالأسود والأخضر والأحمر. يتنهّد علي ولا يقول شيئاً وبعد قليل سأل سامح

السؤال نفسه لعليّ.

«أتحبّها يا عليّ؟!»

دقائق تمرّ بطيئة قبل أن يقول علي «وخليل كان يحبها.»

معاً كانوا..

جميعهم كانوا. سامح. وخليل. علي وسامي. أم عارف. وزعرور باشا.. كلهم كانوا يقفون ليشاهدوا شعلة نار متأججة في الأفق.. طيور ذهبية اللون تحلّق فوق رؤوسهم ثم تغادرهم عالياً. عندما انطفأ اللهب وجدوا على الشاطئ كومة كبيرة من الكتب وقد صارت رماداً.. أحد الصيادين قال: هذه الكتب هي دواوين شعرٍ لشاعرٍ يدعى عليّ.. وكانت في حوزة امرأة تأتي وتروح عند الغروب على الشطّ إلى أن يخلو من المارة. عند ذلك تضرم النار بعدة كتب وتمشي باتجاه الماء ثم تغيب.

تذكر سامح بأن عليا قالت له مرة: بأن اسمها تراب. والتراب عندما يشمّ رائحة الماء يخضرّ ويصير جسداً يلبس هيئة امرأة هي علياء.

ردد سامح هذه المقولة عدة مرات.. دهش الجميع.. ماذا يقول هذا الرجل؟! عليّ لم يعلّق على الكلام.. كان خائر القوى.. تقدّم باتجاه صخرة عالية طالما وقف عليها مع عليا.. نادى بأعلى صوته:

«عليا! عليا!»

صرخ حتى غاب صوته. انحنى على جسده وأحلامه، وتكوّر على الملح الذي يملأ فراغات الصخرة، فصعد سامح، وكرّر الصرخة مثل علي، وما إن نزل حتى صعد زعرور باشا، ونادى: عليا!

بهتَ الجميع، وأخذتهم الدهشة: هو الآخر «أي زعرور باشا، يرى

فيها أشياء تخصّه، وتؤكد طغيانه.»

كانت المدينة كلها تتسكّع بتثاقل على الشطّ عندما فجّــت الحشــد امرأة عجوز تتوكأ على عصاها، شعرها أبيض وثيابها خضراء، وبيدها سبّحة طويلة ترتجف مع ارتجاف يدها التي تحمل النعنع البري. نظــر إليها سامح.. صرخ: أمي! لكنه ابتعد عنها متمتماً:

«إنها ليست أمي»

ظلّت المرأة تسير باتجاه الصخرة، تلكز هذا، وتنقر بأصابعها على كتف ذاك. اقتربت من الصخرة، نادت: علي! عليّ يا بني!

ظلّ الشاعر متكوراً على نفسه، وحين وصلت إليه نقرته بعصاهــا على ظهره: «قم يا عليّ»

«أنا لست عليّاً»

«لا فرق.. كلّكم منّي»

«ماذا تريدين؟»

مرّرت على وجهه قطفات النعنع البري. أفاق قليلاً ونظــر إليــها متسائلاً؟

«يجب أن تعود يا بني. ثمّة علياء أخرى تنتظرك»

«إلى أين يا امرأة؟»

نظرت إليه بعينين باكيتين: أنا أمك يا بني، أمسكت بيــده وســارا معاً باتجاه القرية. مشى سامح وراءهما.. وعندما تعب، جلــس علــى التراب يراقبهما إلى أن غابا وراء شجرة ميس كبيرة.

* * *

للكاتبة أيضاً

حين تنــــزع الأقنعة................... قصص

مشكاة الكلام ....شـــعر

حريق في سنابل الذاكرة .... قصص

غسق الأكاسيا .... قصص

قميص الأسئلة .... شـــعر

تفاصيل أخرى للعشق .... قصص

باب الحيرة .... رواية

من إصدارات الدار

اسم الكتاب	تأليف
جسر بنات يعقوب (رواية)	حسن حميد
المنطق الصوري في المنظور التجريبي	د . إنصاف حمد
الأطماع الخارجية في المياه العربية	أيمن البهلول
أصحاب الجلالة (الأهرامات)	ف . زاماروفسكي
أمي مرآتي (بحث الابنة عن هوية)	نانسي فرايدي
الأدب العبري	حسن حميد
العولمة اقتصادياً	يونس كامل ديب
النظام الشرق أوسطي	بشار إبراهيم
تحول العلاقات الأمريكية الإسرائيلية	عماد هر ملاني
العولمة ثقافياً	بشار إبراهيم
قلق الكيان الصهيوني	أيمن البهلول
الوناس عطية (رواية)	حسن حميد
الاتجاه الآخر (قصص)	د . عفاف بطاينة
من تاريخ القصيدة	حنا عبود
الكرة الثقيلة(دراسة عن عملية السلام)	أحمد صوان
مفاهيم حقوق الإنسان والدولةفي الإسلام	شمس الدين الكيلاني
المثقف العربي و التحول إلىالديمقراطية	شمس الدين الكيلاني
الطريق إلى المقبرة (قصص)	توماس مان
لحظة سعادة (قصص)	توماس مان
العرب و ايران	مازن يوسف صباغ
خطيئة الآخرين (رواية)	هنري هاردل
قصر الدموع (رواية)	أليف كروتييه
الصبر في الشعر العربي	فيصل الجرف
سوريا و إسبانيا	مازن يوسف صباغ
تصميم المنشآت الهندسيةعلى أحمال الزلزال وفق الطرق التقليدية وبرنامج STAAD - III	م . شاهر نصر
بيتي في فسطين	عبد المعين الملوحي
كلمات من ذهب (قصص)	كتّاب روس
من القصائد الأخيرة	رسول حمزاتوف

النَّعنعُ البرِّي

أي وجد هذا الذي يعجن الكتابة و الأزمنة ، فتندغم المصائر و المكابدات ، و يتذرر النعنع البري ، ثم يموت وينبعث لافعاً الكون برواية ؟!

علينا أن نسأل أنيسة عبود ، لعل حورية تتقمص لغة ، و اللغة تطوي و تنشر أسراراً ، و الأسرار تبدع رواية ، فتنغسل حياتنا من العنت و الفساد ، ويكون لأرواحنا و أجسادنا بهاء الكون و ألقه .

جمال الغيطاني

• • •

بلقيس هي أم عناة أم ليلى أم ماري ؟ عليا هي أم عشتار ؟ كي نتلمس جواباً تقترح هذه الرواية قراءة جديدة مثلما تقترح كتابة جديدة . و كالعهد بها في شعرها و قصصها ، تصيغ أنيسة عبود في هذه الرواية عالماً معلوماً جداً و مجهولاً جداً ، تتعانق فيه الأساطير و الحقائق ، يتفجر الواقع و الخيال ، فإذا بامرأة تتخلق جيلاً فجيلاً كما ينصعق الجبل برجل . و إذ يمضي رجل و امرأة على درب الجلجلة يتشكل من قرأ و من قرأت من طور إلى طور، وتغدو الجلجلة شخصية جداً و عميمة جداً ، و نحن نرمح بين جامعة أو معتقل أو حب أو جذاذات من عزم و انتظار ، و في الصميم منا تقوم رواية النعنع البري .

نبيل سليمان



دار السوسن
سورية - دمشق - المزة
www.daralsawsan.com